المجلس الأعلى للثقافة

الروائع من الأدب العربي

الجزء السابع

القرن السادس الهجرى



إشراف : أ. د. صلاح فضل

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة

القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

الروائع من الأدب العربى

الجزء السابع

القرن السادس الهجرى

إشراف : أ. د. صلاح فضل



٢٠٠٢

فهرس الموضوعات

(تابع) فهرس الموضوعات

تقديم

كانت غاية لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة من وراء إصدار هذه السلسلة من « الروائع » أن تتقدم إلى قراء العربية - خاصة الشبيبة منهم - وإلى جمهرة المثقفين بصفة عامة ، بمنظومة متسقة ومتصلة من النصوص التى تمثل أجمل وأقوى ما أبدعه الأدباء العرب من الشعر والنثر صافية خالصة من بطون الصحف القديمة وأشكال الكتابة المحيطة بها ، حتى تنمى لديهم ذائقة الحس اللغوى والجمالى وتعمق فيهم الوعى المباشر بالتراث الأدبى العربى وتصلهم بصفحاته البيضاء القابلة للتجدد والقارّة فى وجدان الأجيال . ولابد لنا من الإشارة إلى أن هدف « الروائع » لا يتمثل فى تقديم تاريخ واف للأدب ولا موسوعة مستوعبة لأحداثه وتقلباته وشخوصه ، ولكنها تنتقى من كل ذلك ما يمثل أهم اتجاهاتها وأبرز نصوصه ، ولعلها قد حققت قدرا مما تبتغيه فى الأجزاء الماضية .

وها نحن نقدم اليوم الجزء السابع ، الذى يتضمن إبداع القرن السادس الهجرى ، على اعتبار أن فترة الإسلام ، مما أطلق عليه مصطلح « الشعر الجاهلى » قد استوعبت الجزء الأول، مع امتداد القرن إلى ما يربو على العقدين فيما يليه ، لاستكمال وإنتاج كتابه طيلة حياتهم التى تقع فيه ، على اعتبار أننا نأخذ سنة الوفاة معيارًا للترتيب بين أصحاب النصوص المختلفة ، ومعنى هذا أن هذا الجزء يمتد إلى عام ٦٢٥ هـ تقريبا ، بنفس النظام المتبع فى الأجزاء السالفة . وتظل المعايير التى وضعتها اللجنة منذ بداية المشروع ضوابط مستمرة فى اختيارهم أهم النصوص وأكثرها تمثيلا لكتابها وعصرها ، والتمهيد لها بترجمة موجزة تكشف عن المعلومات الأساسية المتوفرة عنهم ، مع الاقتصار على شرح ما لا يمكن لقارىء اليوم أن يستجليه من مفرداتها . وقد اشتمل هذا الجزء على طائفة من الكتاب والشعراء من بلدان شتى ، فمن أهل الأندلس ابن خفاجة وابن الزقاق وأمية بن أبى الصلت وابن بقى وأبو جعفر ابن سعيد وابن غالب الرصافى وابن أبى الخصال وابن بسام والبلبلى وأبو حامد الغرناطى وابن طفيل وابن رشد وابن جبير ، ومن أهل مصر ظافر الحداد وطلائع بن رزّيك والمهذب بن الزبير وابن الكيزانى وابن قلاقس وتاج الدين بورى وابن سناء الملك وابن النبيه وابن الصيرفى وابن ممّاتى وعلى ابن ظافر ، ومن أهل الشام ابن مُنيّر الطرابلسى وعرقلة الكلبى ومن أهل فارس العماد الأصفهانى والزمخشرى والوطواط ومن أهل العراق سبط ابن التعاويذى وابن الجوزى ، ومن أهل الجزيرة العربية عمارة اليمنى وغيرهم .

ومن البدهيّ أن هؤلاء المبدعين إنما هم قليل من كثير غصّت بهم البيئات العربية الإسلامية المختلفة فى ذلك القرن السادس بعد أن تعددت مراكز الإبداع وتنوعت الأقاليم المنتجة له وامتدت التجارب الشعرية فيها لتشمل ما درجت عليه من موضوعات مثل الغزل والوصف والمدح والهجاء والفخر والعتاب والاستعطاف والتهنئة إلى تجارب جديدة تنبثق من طبيعة الحياة بتحولاتها المختلفة مما يصلح موضوعا للتأمل والدرس النقدى المستقل .

كما أن الأشكال الشعرية قد تطورت من القصيد إلى الأرجاز والموشحات والمقطعات وغيرها من الأنماط ، واتسع النثر بدوره ليشمل مستويات مختلفة من القول فى القص والرحلات والتاريخ والمقامات والرسائل الديوانية والإخوانية والحكم والزهد والنقد وسائر ما وصل إلينا من أنماط الكتابة فى مختلف الفنون .

ومن الواجب علينا أن نقدر الجهد الذى بذله كل من أسهم فى إعداد هذا الجزء ، خاصة الزميل الكريم الأستاذ محمد يونس عبد العال الذى كان له فضل المراجعة النهائية له والأستاذة عائشة عبد الرحمن أمينة اللجنة وقت متابعة إعداده وتنفيذه .

وعلى الله قصد السبيل .

دكتور / صلاح فضل

أعضاء لجنة الدراسات الأدبية واللغوية التى أعدت هذا الجزء :

مقرر اللجنة :

أ . د محمد صلاح الدين فضل .

أعضاء لأشخاصهم وهم السادة الأساتذة الدكاترة :

- إبراهيم عبد الرحمن
- أحمد كمال زكى
- حسين نصار
- الطاهر مكى
- عبد اللطيف عبد الحليم
- ألفت الروبى
- محمد حمدى إبراهيم
- محمد زغلول سلام
- محمد عونى عبد الرؤوف
- محمود على مكى
- مصطفى مندور
- محمود فهمى حجازى

أولا

الشـــعـر

ابن الزَّقاق

(ت ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م)

عليّ بن عطيّة بن مطرف بن سلمة اللخميّ، أو علي بن إبراهيم بن عطيّة، كنيته أبو الحسن، وشهرته ابن الزقاق، ومن المرجح أن أباه أو جدّه لقب « زقّاقا » لانتفاخ جسده وسمنه الزائد، خلافا لما زعمه بعض مَن ترجموا له مِن أن أباه احترف بيع الزِّقاق .

ينسب إلى بلنسية لأنه ولد فيها، على الرغم من أن أصوله تعود إلى إشبيلية، ويقال إن أسرته تمتّ بصلات قويّة إلى المعتمد بن عبّاد أمير إشبيلية في عصر ملوك الطوائف، فلمّا خلع المعتمد من إمارته هاجر الأب إلى بلنسية وعمل بها مؤذّنا في مسجدها الجامع .

ولد في أواخر العقد التاسع من القرن الخامس، والأخبار عن صباه قليلة، ومن المرجّح أنه تتلمذ - على نحو ما - على خاله ابن خفاجة الشاعر وأنه اختلف في مرحلة باكرة من عمره إلى دروسا بن السيِّد البطليوسي، وكان عالمًا في اللغة والأدب، حسن التعليم، ثقة حافظا ضابطاً، تنقّل في عواصم الأندلس الكبرى، وانتهت به رحلته في بلنسية .

ومن تلاميذ ابن الزقاق : الكتندي أبو بكر بن عبد الرحمن، وهو من نبهاء الشعراء وبلغاء الكتاب وكان يسكن غرناطة، وأبو بكر بن رزق الله الحافظ ولا يُعرف له ترجمة، وأبو زكريا يحيى بن محمد الأركشي راوية ابن خفاجة، وكان شاعرا وكاتبا .

ومما وصفه به معاصروه قولهم إنه من « الذين اشتهر ذكرهم، فلشعره تعشق بالقلوب وتعلّق بالسمع، أعانه على ذلك مع الطبع القابل كونه استمدّ من خاله أبي إسحاق ابن خفاجة ونزع منزعه »، ومدحوه بأنه « يظهر الخَلِق في حلية جديدة » أي أنه يعرض الصور والأخيلة التي سبقه إليها الشعراء حتى صارت كالأثواب الخلقة البالية، فيضيف إليها ويخلع عليها من ابتكاراته ما يجعلها جديدة زاهية معجبة، ولذا ظهر غنيا في استعاراته مجدّدا في تشكيلاتها .

ويمثل ابن الزقاق قمّة من قمم الشعر الغنائي في شرقي الأندلس، وقد سار على خطا ابن خفاجة دون محاكاة تستغرقه أو تقليد يمحو تفرّده، ولكن في إبداع قد يبدو أقلّ اتّساعًا ولمعانًا . وقد توفي، ولم يبلغ الأربعين من عمره .

* * *

قال ابن الزقاق يصف بَلَنْسِيَة :

بَلَنْسِيَةٌ إذا فَكَّرْتُ فيها — وفى آياتِها أَسْنى البلادِ
وأعظمُ شاهدى منها عليها — وأنَّ جَمالَها للعين بادى
كساها ربُّها ديباجَ حُسْنٍ — له عَلَمان من بَحْرٍ ووادى (١)

* * *

وقال :

كتبتُ لو أنَّنى أَسْتَطيع — لإِجْلال قَدْرِك دونَ البَشَرْ
قَدَدْتُ اليَراعَة عن أَنْمُلى — وكان المِدادَ سوادُ البَصَر (٢)

* * *

وقال فى حبّ الولد :

خليلىَّ ما حبُّ البنين ببدعةٍ
فهلْ أنتما فيهِ مقيمانِ من عُذرى
تقسّمَ قلبى بين طفلين : شطرُهُ
لهذا ، وهذا قد تعلَّقَ بالشَّطْرِ
صَغيريْن لم تَصْغُر حياتى عليهما
ولا كانَ حَظّى باليسيرِ ولا النَّزْرِ

---

(١) الوادى هنا النهر .
(٢) اليراعة : القلم .

فمـــن قـــائلٍ آثــرتَ ســـرًّا محمـــدًا
وآخــر : إبــراهيــمَ تُــؤْثِــرُ فــى الســرّ
فقلـــتُ : همـــا غُصنـــانِ أَعْـــدِلُ فيهمـــا
إذا جـــار ذو النَّجلين ، عَـــدْلَ نـدى القطـــر
ومـــا استـــويـــا سنًّـــا ولكـــن تَســـاوَيَـــا
وَلوعًـــا وحُبًّـــا فـــى الجـــوانـــح والصـــدر
مَحلُّهمـــا فـــى منـــزلِ القلـــبِ واحـــدٌ
فحيـــث أبـــو بكـــرٍ فثـــمَّ أبـــو عمـــرو
أحـــبُّ صـلاحَ الـــدهـــرِ فـــى جـانبيهمـــا
ولـــولاهمـــا مـــا كنـــتُ أَحفـــلُ بـــالـــدهـــر
فمـــن كـــان يَبْغـــى العمـــر مستمتعًـــا بـــه
فلـــم أبـــغِ إلّا فـــى صـــلاحهمـــا عمـــرى

* * *

وقـال :

ومُـــرْتَجَّـــةِ الأطـــرافِ أمّـــا قَـــوامُهـــا فَلَـــدْنٌ وأمّـــا رِدْفهـــا فـــرَادحُ
فبـــتُّ وقـــد زارتْ بـــأَنْعَـــم ليلـــةٍ يعـــانقُنـــى حتّـــى الصَّبـــاح صُبـــاح
على عـاتقـى مـن سـاعـديْهـا حمـائلٌ وفـى خَصْرهـا مـن سـاعِدىّ وِشـاح

وقال :

أَرَقَّ نسيمَ الصَّبا عَرْفُهُ
وراقَ قضيبَ النَّقا عِطْفُهُ

ومرَّ بنا يتهادى وقد
نَضَا سيفَ أجفانِهِ طَرْفُهُ

ومدَّ لمبْسَمِهِ راحةً
فخلتُ الأقاحى دنا قطفُهُ [٣]

أشار لتقبيلها بالسلام
فقال فمى : ليتنى كَفُّهُ

* * *

وقال :

وليلٍ قطعتُ دياجيرَهُ
بعذراءَ حمراءَ كالعندمِ

أُديرتْ كواكبُ أقداحها
علىَّ فأغرَبْتُها فى فمى

تجلّى الظلامُ سريعًا بها
كسرعةِ عَبْلِ الشّوى أدهم [٤]

(٣) العرف : الرائحة الطيبة – النقا – : كثبان الرمل – العطف : الجانب من لدن الرأس إلى الورك – نضا السيفَ : أخرجه – الأقاص : جمع الأقحوان ، وهو نبت زهره أصفر أو أبيض ، وكثر فى الأدب العربى تشبيه الأسنان بالأبيض المؤلل منه .

(٤) الدياجير : جمع الديجور وهو الظلمة – العذراء يريد بها الخمر – العندم : صبغ أحمر – عبل الشوى : أى الحصان ذو القوائم الضخمة – أدهم : أسود .

فقـــال ، وقـــد طـــارَ مـــن خيفـــةٍ
وإصبـــاحُـــه واضـــحُ المبســـمِ
رأيتُـــكَ تَشـــربُ زَهْـــرَ النجـــوم
فـــولَّيْـــتُ خـــوفًـــا علـــى أَنْجُمـــى

* * *

وقال :

وأغْيـــدَ طـــاف بـــالكـــؤوس ضُحًـــى
فحثَّهـــا والصبـــاحُ قـــد وضَحَـــا
والـــروض يُبـــدى لنـــا شقـــائقَـــهُ
وآسُـــه العنبـــرىّ قـــد نفحـــا
قلنـــا : وأيـــن الأُقـــاحُ ، قـــال لنـــا :
أودعتُـــه ثغـــرَ مَـــن سقـــى القـــدحـــا
فظـــل ســـاقـــى المـــدام يجحـــدُ مـــا
قـــال ، فلمّـــا تبسّـــم افتضحـــا (٥)

* * *

وقال :

وســـاقٍ يحـــثُّ الكـــأسَ وهـــى كـــأنمَـــا
تـــلألأَ منهـــا مثـــلُ ضـــوءِ جبينـــه

---

(٥) الأغيد : المتمايل المتثنّى فى نعومة ولين - وَضَح : ظهـر - الشقائق : نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سود ، وهو شقائق النعمان ، سميت بذلك لحمرتها على التشبيـه بشقيقة البرق - الآس : شجـر عطرى دائم الخضرة أبيض الزهر أو ورديّه - يجحده : ينكره مع علمه به .

سقـــانـــى بهـــا صِـــرفَ الحمَيَّـــا عشيَّـــةً
وثنّـــى بـــأُخـــرى مـــن رحيـــق جفـــونـــه
هضيـــمُ الحشـــا ، ذووَجْنـــةٍ عَنْـــدَميَّـــةٍ
تُـــريـــكَ قِطـــافَ الـــوردِ فـــى غيـــر حينـــه
فـــأشـــربُ مـــن يمنـــاه مـــا فـــوق خـــدِّهِ
وألْثُـــمُ مِـــنْ خَـــدَّيـــه مـــا فـــى يمينـــه (٦)

* * *

وقـال :

يـــا رُبَّ يـــومٍ واضـــحٍ نضّـــرتـــهُ
بِمُهَفْهَـــفٍ طـــاوى الحشـــا وَضّـــاحِ
أومـــى إلـــىّ بـــراحـــةٍ قـــامـــتْ لنـــا
فيهـــا ثنـــايـــاهُ مَقـــامَ الـــرّاحِ
يـــومٌ رَشَفـــتُ بـــه الحُمَيَّـــا واللّمـــى
فشـــربـــتُ خمـــرَ زُجـــاجـــةٍ وأقـــاح
ولَثَمـــتُ مِـــن خَـــدَّىْ أغـــرَّ مهفهـــفٍ
شَفَقَيْـــنِ حُـــفَّ سَنـــاهمـــا بصبـــاح
حتـــى إذا مـــا السكـــرُ مـــالَ بعطفِـــهِ
ميـــلَ القضيـــب بمـــدرج الأدواح (٧)
وسّـــدْتـــه عَضُـــدى فظَلْـــتُ كـــأنَّمـــا
أَطْلَعْـــتُ فـــى عَضُـــدى سَنـــا الإصبـــاح

(٦) صرف الحُمَيّا : الخمر الخالصة لم تشب بماء - هضيم الحشـا : ضامر الخصر لطيفه - عندميّة : أى فى لون العندم وهو صبغ أحمر.

(٧) مهفهف : ضامـر البطن دقيق الخصر - الطاوى : الضامـر - وضاح : بسام حسن الوجه - اللمـى : سمرة فى الشفة تستحسن - القضيب : الغصن - الأدواح : الأشجار العظيمة .

وأورد له الصَّفدى فى « توشيح التوشيح » هذه الموشحة :

خُذ حديثَ الشوقِ عن نفسى وعن الدمعِ الذى هَمَعَا

ما ترى شوقى قد اتّقدَا
وهَمَى بالدمع واطَّردا
واغتدى قلبى عليك سُدى (٨)

آه من ماءٍ ومن قَبَسِ بين طرفى والحشا جُمِعَا

بأبى ريمٌ إذا سَفَرا
أَطْلَعَتْ أزرادهُ قَمَرا
فاحذروه كلما نَظَرا (٩)

فبألحاظِ الجفونِ قِسِى أنا منها بعضُ مَنْ صَرَعَا

أرتضيه جارَ أو عَدَلا
قد خلعتُ العَذْل والعَذَلا
إنما شوقى إليه فَلا (١٠)

كم وكم أشكو إلى اللَّعَس ظمئى لو أنه نَفَعَا

صلَّ عبدُ الله بالحَوَرِ
وبطرفٍ فاترِ النظرِ
حُكْمُه فى أنفس البشر (١١)

---

(٨) هعتْ العين : دَمَعَتْ ، وهَمَتْ : صبت دموعها ، وهمى الدمع : سال .
(٩) القبس : النار أو الشعلة منه - الديم : الظبى الخالص البياض .
(١٠) القسى : جمع القوس الذى ترمى به السهام - العذل - بسكون الذال وفتحها : اللوم .
(١١) اللعس : سواد مستحسن فى باطن الشفة - الحور : شدة البياض فى بياض العين مع شدة السواد فى سوادها .

مثـــلُ حكْـــم الصّبــح فـــى الغَلَـــسِ   إن تجلّـــى نـــورُه صَـــدَعــــا
شبَّهتـه بـــالـرشـــا الأُمــمُ (١٢)
فلعمــــرى إنهـــم ظَلَمـــوا
فتغَنَّـــى مـــن بـــه السَّقَـــمُ
أيـــن ظبـــىُ القَفْـــر والكُنُـــسِ   مـــن غـــزالٍ فـــى الحَشَـــا رَتَعـــا (١٣)

* * *

(١٢) الغلس : ظلمة آخـر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح - صـدع : شقّ - الرشأ : ولد الظبيـة إذا قوى وتحرّك مع أمـه .

(١٣) القفر : الخلاء من الأرض - الـكُنُس : جمع الكناس وهو مـولج فى الشجر يأوى إليه الظبى ليستتر - رتع : رعى كيف شاء فى خصب وسعة .

ظافر الحداد

(ت : ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م)

هو أبو منصور ظافر بن القاسم الجروى الجذامى ، ولد فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى بالإسكندرية ، فى أثناء حكم الفاطميين ، وينتمى فى أصوله الأولى إلى قبيلة جذام اليمنية ، وقد عمل أبوه بالحدادة ، فكان فى شبابه يعاونه فى حرفته .

وكان طلعة محبًا للأدب ، فجالس العلماء والشعراء بالثغر ، ورغّبتهم شمائلُه فى دعوته إلى حلقاتهم والاستماع إلى أحاديثه وشعره ، ومن المشهورين الذين داوم على حضور مجالسهم : العلامة المحدث أبو طاهر السلفىّ ، وكانت هذه المجالس ملتقى من يفد إلى الإسكندرية من المغرب ، وفيها تعرّف ظافر على جماعة من الأندلسيين والمغاربة ، منهم الأديب الشاعر أمية بن أبى الصلت ، وقد دامت الصداقة بينهما زمنًا .

برع فى الشعر شابا ، وافتتن بالطبيعة ، فوصف فى شعره البحر والرمل والبساتين والحقول والسواقى وخليج الإسكندرية وقصورها البيضاء ، وتحدث عن ذكرياته فى بعض أحيائها وعرض لبعض معالمها كالكنيسة المرقسية ، وعامود السوارى ، وحىّ اليونان أو - كما أطلق عليه - « هرقة » ومن عجائب أوصافه قوله فى الهرمين وأبى الهول :

تـأمَّـلْ بِنْيَـةَ الهـرمَيْـن وانظـرْ	وبينهمـا أبـو الهـولِ العجيـبُ
كعَمَّـارِيَّتَيْـنِ علـى رحيـلٍ	لمحبـوبيْـن بينهمـا رقيـب
ومـاءُ النِّيـل تحتهمـا دمـوعٌ	وصـوتُ الـريـح عنـدهمـا نَحِيـب

وانتقل إلى الفسطاط والقاهرة ، بصحبة صديقه أمية بن أبى الصلت ، فامتدح الخليفة ووزيره الأفضل بن بدر الجمالى ، فحظى منه بمكانة وشهرة وسعادة ، على عكس ما صادفه أميّة من الحبس ، وتوفّى الأفضل سنة ٥١٥ هـ ، فلم تطب الحياة لظافر ، وفضل العودة إلى الإسكندرية فأقام فيها إلى أن توفى ، بعد أن حصّل من المال ما ضمن له حياة طيّبة .

وله ديوان شعرى ، من أبرز موضوعاته : الوصف والحنين إلى الوطن ومديح الكبار من رجال الدولة والعلماء ، وقد نظم الموشحات على الطريقة الأندلسية ، ولعل ذلك بتأثير من

أميّة بـن أبى الصلت ، ومن لقيهـم من الأندلسيين والمغـاربة ، وله مقـامة طريفة تخـرج عن الإطار المعروف لمقامات الهمذانى والحريرى .

وقد وصفه العماد الأصبهانى ، فقال : « ظافر ، بحظـه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعـره بوجه الرقّـة والسلاسة سافـر ... حداد لو أنصف لشعـره أجمعه عليها - أيضا - الدارسون المحدثون ، فتراكيبه غاية فى السـلاسة والغروية ، وهى ظاهرة عامة تلاحظ دائما فى معظم أشعار المصريين ، مع البعد عن التعقيد والتكلف .

* * *

قال ظافر الحداد يتذكر الإسكندرية :

يا ساحلَ الثَّغرِ: كم لى فيكَ من أربِ ... ومن سرورٍ، ومن عَهْدٍ، ومن طَرَبِ
ومن حبيبٍ أرانِى فيكَ مَنظرُه ... رَوْضا من الْحُسْنِ فى روضٍ من الأدبِ
ومن أصيلٍ كأنّ الماءَ فيكَ به ... ذَوْبُ اللُّجَين علاهُ ذائبُ الذهبِ
ومن حديثٍ يَسُرُّ النفسَ مَوْقعُه ... كأنما اشْتُقَّ من صِرْفِ ابْنِة الهِنَبِ
قد كان فى رَدِّ ماضِى العيشِ فيك لنا ... بعضُ الرجاءِ لوَ أنّى كنتُ لم أَشِبِ (١)
ولو أعادتْ لىَ الأيامُ ما أَخذتْ ... مع المشيبِ الذى أبقَتْه لم يَطِبِ
فالشيبُ أولُ موتِ المرءِ منه إذا ... بَدا به كدَبيبِ النارِ فى الْحَطَبِ
يا ثغرَ لَهْوِى وثَغرًا كنتُ أَرشفُه ... بُكاىَ من كلِّ ثَغرٍ ظلَّ يلعبُ بى
بَعذْتما، ودَنا منى، فهلْ سببٌ ... يُدْنيكما، وهْو منى غيرُ مُقْترِب ؟
قد كنتُ أعجِزُ عن حَمْلِى طَليعتَه ... فكيف حالى بَحْملِ الْجَحْفلِ اللَّجِب ؟ (٢)

* * *

وقال أيضا بذكر الإسكندرية :

يا ساحلَ الثَّغْرِ كم أَنْأَى وأغْترِبُ ... أما إليكَ مَدى الأيامِ مُنقَلَبُ ؟
ويا أوائلَ أيامِ الشبابِ به ... هل لى إليكنّ فيه ساعةً سَبَبُ
واللهِ، ما اخترتُ مِصْرا عنكَ عن مِقَةٍ ... وإنْ غَدا العيشُ لِى فيها كما يَجِبِ (٣)
ولو جَرى نيلُها لى فضةً وغَدا ... سفحُ المُقطَّم منها وهو لى ذهبَ

(١) اللُّجَيْن : الفضّة - لم أشب : لم يبيضّ شعرى .
(٢) الجحفل اللجب : الجيش العروم الكثير، ويريد به الشَّعْب .
(٣) مِقَة : الحبّ .

ما اخْترتُها عِوَضا ممن نشأتُ بها ... ولا شفَى لىَ منها غُلَّةً أَرَبُ (٤)
جار الزمانُ على شَمْلى ولا عجبٌ ... من ذل الْجَوْرِ بل إنْصافه عَجَب
لكنْ إذا أكَّدَ المِقدارُ عُقْدتَه ... فكلُّ حلٍّ إذا حاولتَه تعب
لا تَفْرَحنَّ إذا أعطاكَ من عُرُضٍ ... فإن بعض عَطاياهُ له سَبَب
سَلِّمْ إذا كان ما لابُدَّ منه فما ... يُنجيك من كونه حِرْصٌ ولا هَرَب

* * *

وقال يمدح الأفضل ، ويهنّئه بشهر رجب :

الحبُّ مُذْ كام معنًى يَصْحَبُ الأَدَبا ... فإنْ تغزلتَ فى مدحٍ فلا عَجَبا
وأحسنُ الشعرِ ما أَضْحَى تَغَزُّلُه ... إلى المَدائحِ فى إنشادِهِ سبَبَا
والفهم كالنارِ والتَّشبيبُ إنْ خَمَدتْ ... يَشُبُّها بلَطِيفَىْ فكرةٍ وصَبَا (٥)
كم فكرةٍ أَنْتَجَتْ معنًى لمُلتهِب ... بالشوق لو رامَه فى غيرِه عَزَبا (٦)
وحكمُةُ العَربِ الماضِين كامِنَةٌ ... فى الشعرِ فلْيَقْفُ من يُعْنَى به العربا (٧)
فهل تَعاطاهُ فَحْلٌ فى فَصاحتِهِ ... إلا بكى سَكَنا أو ناح أو نَدَبا
والشعرُ تَلْقينُ شيطانِ الغَرام فلا ... يُمْلِى غَرائبَه إلا لمن نَسَبا (٨)
إلا المَدائحَ شاهِنْشاهَ لا بَرِحتْ ... تُشرِّف اللفظَ والمعنى إذا اصطحبا (٩)
جَلَّت مَحاسِنُها عما تُضافُ له ... مُستغنِيات عن المُثْنِى وإنْ دَرِبا (١٠)
لو لم تجد شاعرا فى الأرض يَنْظِمها ... عجزا لأَنْشَد فيها الحقُّ واخْتَطبا (١١)

---

(٤) الغُلّة : شدّة العطش .
(٥) يشبّها : يُوقدها .
(٦) عَزَب : بَعُد وخفى .
(٧) يقفو : يتبع .
(٨) نَسَب : تغزّل وعرّض بحب المرأة .
(٩) شاهنشاه : ملك الملوك أو الملك الأعظم .
(١٠) المُثنى : المادح والواصف الآخرين بالخير - درب : مَرَن وحَذَق .
(١١) يقال خطب الخطيب على المنبر، واختطب أيضا .

حَكَــتْ لنـا العيـشَ فــى أيـامِ دولتِـه		لِطيبِــه كلمــا كَــرَّرْتَــه عَــذُبــا
تَصَــرَّفَــتْ فــى لُهـاهُ الْخَلْــقُ جـائلــةً		فـى الأرض تمـلأُ قُطْـرَيهْـا بمـا رَحُبـا (١٢)
كـم قَـدْرُمـا قيـل فيهـا وهْـى فـى شـرفٍ		وكثــرةٍ وارتفــاعٍ فـــاقَــتِ الشُّهُبــا
فنَفْسُــه حيــثُ حَلَّــتْ فــى تَفـرُّدِهــا		يَحْـوِى بهــا كـلُّ قطْـرٍ عَسْكـرَ الْجِبـا
وكـلُّ شــىءٍ نَفيـسٍ مــن مَـواهبِــه		والأرضُ والْخَلْـقُ طرًّا بعضُ ما كَسَبـا (١٣)
أعْطَــى المَـدائنَ والْجَــمَّ الهَجـائنَ والـــ		ـجُرْدَ الصَّواهـلَ لمـا استَنْفَـدَ الذَّهبـا (١٤)
فليــس يتــرِكُ صـوتُ المُسْتَميــحِ لــه		مـالًا على عُظْـمِ مـا يَحْـوِى ولا نَشَبـا (١٥)
صِـفْ عنه مـا شئـتَ مـن مدحٍ ومـن كـرمَ		وهيبــةٍ وافتخــارٍ تَــأمَــنِ الكــذبــا
ذو همــةٍ لــو يُلَقَّـى بعـضَ مـا حَمَلـت		طَـوْدٌ مـن الشمِّ أَدْنَـى سـاعـةٍ نَكِبـا (١٦)
ذو همــةٍ لــو تَـلاهــا البــرقُ وانيــةً		لاستعجـزَتْـه ، علـى إسراعِـه ، وكبـا (١٧)
مـادتْ بنا الأرضُ لا أدرى هـل اضطربَـت		مـن عَـدْلِـه طَـرَبـا أو خَـوْفِـه رَهَبـا (١٨)
ســارتْ لــه سيــرةٌ أَدْنَــى مَنـاقِبهــا		قــد عَطَّــرَ الأرضَ والأفــواهَ والكُتُبـا
تَضَمَّنــتْ غَــزواتٍ كلمــا ضحــك		الإسـلامُ عنهـنّ نـاحَ الكفـرُ وانْتَحَبـا
أرضَــى المَسـاجـدَ والـزُّهَّـادَ عنـه ، ألا		للهِ مــا أَسْخــطَ الــرُّهبــانَ والصُّلُبــا
ولـــلأذانِ ســـرورٌ فــى مَـــواطِنِــه		تُبـدِى النَّواقيْسُ منه الـوَيْـلَ والْحَرَبـا (١٩)

(١٢) اللُّها : جمع اللُّهْوة وهى أفضل العطايا وأجزلها ، واللُّهوة من المال : الحَفْنة .
(١٣) طرًّا : جميعا .
(١٤) الهجائن : جمع الهجين وهو ضرب من النوق خفيف الجسم سريع السير - الصواهل الجرد : الأفراس الكريمة السباقة القصيرة الشعر .
(١٥) المستميح : الذى يطلب العطاء - النشب : المال أو العقار .
(١٦) الطود : الجبل العظيم - الشمّ : المرتفعة العالية .
(١٧) وانية : مبطئة - أعجزه : وجده عاجزًا ضعيفا - كبا : زلّ وعثر .
(١٨) مادتْ : دارت كأنها اضطربت .
(١٩) الحَرَب : الويل والهلاك .

ضَمِّرْ خيولَك للنصرِ التى وُعِدتْ
وَثَقِّفِ السُّمْرَ حَزْما وارْهَفِ القُضُبا (٢٠)

أبشِرْ فعاداتُ وفدِ النصرِ قادمةٌ
كالهِيمِ من بعدِ خَمْسٍ وافتِ القَرَبا (٢١)

واسْفِكْ دما فى طُلى الأَعداءِ منتظِرا
فلو أشارتْ له أَسيافُك انْسَكبا (٢٢)

يا أَفضلَ الناسِ أَفْعالا وتسميةً
وأعدلَ الْخَلْقِ نفسا حُرّة وأَبا

لم يَعْدَم الملكُ نَصْرا من سيوفكما
فيما نأَى من قديم الدهرِ أو قَرُبا

أما أبوك الذى ردَّت عَزائمُه
للملك فيما مضى الحقَّ الذى اغتُصِبا

وأَمَّن الأرضَ بالخوفِ الذى نَهَبتْ
أَدْنَى سَراياهُ فيها أَمْنَ مَنْ نَهَبا (٢٣)

وبعدَها لو نَهَيْتَ الحُوتَ فى لُجَجٍ
عن شُرْبِه داعم ظَمْآنا ولو شَرِبا (٢٤)

والريحَ فى الجولا تجرِى ولو عَصَفتْ
إلا بما تبتغِيه شَمْألا وصَبَا (٢٥)

والليثَ فى البِيدِ يُغْضِى عن فَريسته
خوفا ولو نازَعَتْه قوة اجتَنَبا (٢٦)

لولاك ما غَمّضتْ عينُ امرىءٍ فَرَقا
ولا لَقِى هُدُبٌ من جَفْنِها هُدُبا (٢٧)

لا قَلَّصَ الله ظِلّا أنتَ باسطُه
ولا سحابَ نَوالٍ منك مُنسحِبا

فالناسُ فى بركاتٍ أنتَ مَوْرِدُها
كادت لها كلُّ نفسٍ تَأْمنُ السُّحُبا

دليلُ يُمْنِكَ أنّ النيلَ فى نَسَقٍ
وافٍ به مُذْ كَفانا سَعْدُكَ النُّوَبا

(٢٠) تضمير الخيول : تذليلها وإعدادها للسباق ونحوه - السُّمْر : الرماح ، وتثقيفها : تسويتها وتقويمها - القُضُب : السيوف اللطيفة القطّاعة ، ورهافتها وإرهافها أى سنّها وترقيقها .

(٢١) الهيم : الإبل العشى عطشا شديدا - القَرَب : البئر .

(٢٢) طلى : جمع طلية وهى العنق أو أصلها .

(٢٣) سرايا : جمع سريّة وهى القطعة من الخيش .

(٢٤) اللجج : معظم البحر وتردّد أمواجه ، واحدها : لجّة .

(٢٥) الشمأل : ريح تهب من الشمال - الصبا : ريح مهبّها من مشرق الشمس إذا ستوى الليل والنهار .

(٢٦) البيد : الغلوات والأرض الواسعة المقفرة .

(٢٧) الفَرَق الجزع والخوف - الهُدُب : الشعر النابت على شُفْر العين .

مــا دولـــةٌ سَلَفـــتْ إلاوكـــان بهـــا نقـصٌ مـن النيـلِ يُفنـى أهلَهـا سَغَبـا (٢٨)
حتـــى وَليـتَ فمـا فـــى الأرضِ مـرتفــعٌ حتـى ارْتَـوَى وهْوفـى الطُّـوفـانِ ما شَـرِبـا
وهـــذه فـــى مَعـانٍ قـد سبقـتِ لهـا مـن كـان قبلَـك أوفـاسْتَخْبِـرِ الحِقَبـا (٢٩)
كـم رام قبلَـكَ فـى المـاضيـن مـن ملـك هـــذا فلـم تَقْـضِ منـه نفسُـه أَرَبـا
تَهَـــنَّ ذاك وهـــذا الشهــــرَ مبتـــدِئا فمـــا يخـــصُّ هَنـائى وحـــدَه رَجَبـا
مـا ثَلْـثَ نِيَلـك نَيْـلا ثـم شهـرَك ذا فضـلا ، وكــلٌّ يُـوافِـى خـائرا تَعبـا (٣٠)
لكــل شهـرٍ ونهـرٍ بعـضُ منـزلـةٍ ممـا حـويـتَ مـن الفَضْلَيْـن إنْ نُسِبـا
يـا أَوْحـدَ الفضـلِ قـد كَثَّـرتَ منفـرِدا ويـا غَـريـبَ العُلَـى عَـرَّفْـتَ مغتـرِبـا
وهبتَنـى فـوهبـتُ النـاسَ عـن سعـةٍ يـا واهبـا يَهَـب المـوهـوبَ أن يَهَبـا
كـم قَـدْرُشكـرِى وإن سـارت مَـواكبُـه حتـى يُخفِّـفَ عنـى بعـضَ مـا يجبـا
فلـو أعـانَ لسـانـى كـلُّ ذى كَلِـمٍ فـى شُكْـرِ أَيْسَـرِ مـا أَوْليتَنـى غُلِبـا
لكنَّنـى سـوفَ أُبـدى جهـدَ مقـدرتـى إنْ لـم تَطِـر بجـوادٍ أَربــعٌ وكَبـا
يـا مـانـعَ النـاس لمـا جُـدْتَ عـن كـرمٍ صَعَّبـتَ مـاهـانَ إذ هَـوَّنـتَ مـاصَعُبـا
لقـد تَطـوَّلـتَ حتـى طُلْـتَ عـن شَبَـهٍ مَهْـلا فجـودُك مُعْـطٍ مثـلَ مـا سلبـا
لازال عُمْـرُك كـالأفـلاكِ دائرةً يكـررُ الـدهـرُ منـه كـلَّ مـا ذهبـا

* * *

(٢٨) السَّغَب : الجوع ، ويشير إلى المجاعات الكثيرة التى نكبت بها مصر وخاصة فى عهد المستنصر فى سنوات ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤٥٥ ، ٤٦٠ - ٤٦٥

(٢٩) الحقب : جمع الحِقبة وهى المدة لاوقت لها أو السنة .

(٣٠) الخائر : الضعيف المنكسر .

وقال يمدح ، ويهنّى بشهر رجب ، ذاكرًا حال النيل فى إحدى السنين :

يــا خَليلــيَّ الهــوى بَــرَّحَ بــى ... فــاغْنمــا الفــرصــةَ فــى مُكتِئِــبِ
فــإذا ثــوَّبَ حــاديهِــمْ غــدًا ... عَــرِّضــا بــاسمى لــذاك الرَّبْــربِ [٣١]
واقْصِــدا منــه غــزالا بــاسمــا ... عــن شَتيــتٍ كــالأقــاحِــى شَنِــبِ [٣٢]
وهــلالا فــى قَضيــبٍ نــاعــم ... يَتثنَّــى فــى نَقًــا مضطــرِب [٣٣]
يُخجِلُ الشمسَ أضاءَتْ فى الضُّحَى ... ذاك مــا زال ، وذِى لــم تَغِــب
فَعَســى وَحْــيُ ســلامٍ خلْســةً ... ببَنــانٍ مــن دمــى مُختضِــب
آهِ مــن لــوعــةِ وجــدٍ دائم ... يَتلظَّــى فــى حَشَــى ملتهــب
هــى أَسْيــافٌ وتُــدْعَــى حَــدَقــا ... يــا لقَــومــى مــن عيــونِ العَــرب
فــاتــقِ الأَضْعــفَ منهــا فلقــد ... نَقَضــت عــاداتِهــا فــى الحَسَــب
واحْــذَر الأضعــف مــن أَجْفــانهــا ... فــالمَنــايــا بيــن تلــك الهُــدُب
أيــنَ مــا كنــا تنــاجَيْنــا بــه ... وغَــرابيــبُ النَّــوَى لــم تَنْعــب [٣٤]
مــن حــديــثٍ عَــذُبــتْ ألفــاظُــه ... كضَــريــبٍ كــامــنٍ فــى ضَــرَب [٣٥]
رقَّ حتــى لــو سَــرَى فــى يَــذْبُــلِ ... رقصــتْ أكنــافــه مــن طــرب [٣٦]
وتَــرشَّفــتُ رُضــابًــا كُلّمــا عَلّنِــى ... عُــدتُ كــأنْ لــم أشــربِ [٣٧]

---

(٣١) ثوَّب : رجع - حاديهم : سائقهم الذى يسوق الإبل ويحثها على السير بالحُداء - الربرب : القطيع من بقر الوحش أو الظباء أو الإنسى ، ولا واحد له .
(٣٢) الشتيت : متفرّق الأسنان متباعدهـا قليلا ، وهو أمر محبوب عند العرب - شنِب : ذو مـاء ورقّة وعذوبة فى الأسنان .
(٣٣) النقا : كثبان الرمل .
(٣٤) غرابيب : جمع غربيب أى حالك السواد ، يصف الغربان التى يؤذن صيامها بالفراق .
(٣٥) الضريب : النصيب أو الثلج أو اللبن - الضَرَب : العسل الأبيض .
(٣٦) يذبل : جبل - أكنافه : جوانبه .
(٣٧) الرضاب : الريق المرشوف - علّنى : سقانى مرّة بعد مرّة .

خمرة لكنّها بنتُ اللَّمَى … حَسَدتْها بنتُ ماءِ العِنَب (٣٨)
هى من كأسٍ عَلاها حَبَبٌ … وأُحاشِى مثلَه عن حَبَبِ (٣٩)
عَجَبى منه وإنْ أكْثَرتُ فى … كلِّ ما أبصرتُ منه عَجَبى
لؤلؤٌ أَصْغرُه أَفْخَرُه … جلَّ فى السِّلكِ وإنْ لم يُثْقَب
ليتَ شِعْرى والأمانى راحةٌ … للمحبِّ النّازح المُغْتَرِب
هل تُغنِّينا حَماماتُ الحِمَى … فى ظِلال الأَيْكِ بين الكُثُب (٤٠)
بغناءٍ أعجميٍّ لفظُه … يُفْهِم السَّمْعَ وإنْ لم يُعْرِب
يُطرِب السامعَ حتى أنه … يَقْتدى فيه بمُلْد القُضُب (٤١)
وكأنَّ الروضَ فيه غادةٌ … تَتهادَى فى الثياب القُشُب (٤٢)
والأقاحِى كَلآلٍ نُظِمت … فى حَواشِى كوكبٍ من ذَهب
وبَهارٌ باهرٌ هيئته … مثل جِرْمِ الشمس عند المغرب
كالدنانير ، بَدَتْ ألوانه … تُعدِم الإعدامَ كفَّ التَّرِب
وشقيقٌ شُقِّقت أطْمارُه … كدموعِ العارضِ المُنتحِب (٤٣)
أَسْودٌ فى أحمرٍ تَحسَبُه … فَحَما فى جَمْرِها الملتهِب
أو كخالٍ لاح فى وَجْنة ذى … خجلٍ فَرَّط أو ذى غضب

---

(٣٨) اللّمى : سمرة فى الشفة ، ولعله أراد ببنت اللمى : الريق البارد .
(٣٩) الحبب : الفقاقيع على وجه الماء – أُحاشى : أستثنى .
(٤٠) الأيْك : الشجر الكثير الملتف – الكثُب : الرمل المستطيل المحدوب .
(٤١) مُلْد : جمع أمْلد ، وهو الليّن الناعم .
(٤٢) القشب : الجديد .
(٤٣) البهار : زهر طيّب الريح ، وهو العرار – الترِب : الفقير المعدم – الأطمار : جمع طمر وهو الكساء البالى – العارض : السحاب المعترض .

وتخـــال السَّـــوْسَـــن الغَـــضَّ علـــى   عَـــذبـات الـرَّمـلِ بِيـض العَـذَب (٤٤)
ونسيـــمَ الــــريــحِ يسعـــى ظــالعـــا   واهـــىَ الْخَطْـــوِ كَليـــلَ المَنْكِـــب
فـــإذا صــافـــحَ أَرْدانَ الـــرُّبـــا   أَرِجـــتْ مـــن ذيلــه المُنسحِـــب (٤٥)
وكـــأنّ الجـــدولَ الجـــارى بهـــا   صـــارمٌ فـــى راحتَــــىْ مضطــــرِب
حيــــــــــــث لاواشٍ ولالاحٍ ولا   خِفـــةٌ مـــن كشـــحٍ مُـــرْتَقِـــب (٤٦)

* * *

وقال :

خلـــوتُ بليلـــى ذاتَ يـــومٍ وبيننـــا   حديثٌ كمـا انْهَلَّ الفَريدُ مـن السِّمطِ (٤٧)
وقــد أُولعَـتْ بـالمسكِ تُلقِـى مُـذابَـهُ   علـى مثلـه مـن عـارضٍ حـالـكٍ سَبْـط
وثَنَّــه بــالتَّسْـريــح حتــى تَعلَّقــتْ   لهـا شَعْـرةٌ بيضـاءُ فـى سِنَّـة المشـط (٤٨)
فـــلاحَ بهـــا منهـــا علـــىَّ تَغيُّــرٌ   إذا ضبطتْـهُ جَـلَّ قَـدْرا عـن الضبـط
ودام لهـــا فـــى الحـــال فَـرْطُ تَنهُّــدٍ   وتكــرارُ أنفــاسٍ أحــرَّ مــن النِّفْــط
فقـالـت : أشيبٌ ؟ قلـت : خَـطٌّ صحيفـةٍ   تَبـدَّى ومـا زان الصحـائفَ كـالخـط
فقـالـت : لَعَمْـرِى ، قـد صدقـتَ بـأنهـا   حــروفٌ بــلا شــكٍّ ، ولكنهـــا خَطـى

* * *

(٤٤) السوسـن : نبت له زهـور جذّابـة ، بعضها عطرى - عـذبات الرمـل جمـع عذبـة وهى طرف كـل شـىء - العَذَب : ما تُسبله للعمامة من خلف .
(٤٥) أردان : جمع ردن وهو الكُمّ - أرجتْ : انتشر فيها الطِّيب .
(٤٦) اللاحى : اللائم - الكاشح : المعادِى .
(٤٧) الفريد : الشذر يفصل بين اللؤلؤ والذهب ، والجوهر النفيس ، والدرّ المنظوم - السِّمط : القلادة .
(٤٨) السَّبط بمعنى الشَّعر المسترسل غير الجعد - التسريح : ترجيل الشّعر وتخليص بعضه من بعض بالمشط .

وقال :

إيـهِ علـى تـذكـارِ مـا سَلَفـا ... فـالـدمـعُ منـك أقـلُّ وَكَفـا
يـا عيـن ، أنـت جلبـتِ نـاظـرةً ... لفـؤادِيَ الأشـواقَ والشَّغَفـا [49]
كـم قـد كَففتُـك خـائفـا حَـذِرا ... عـن نـاظـرٍ يقْـوَى إذا ضَعُفـا
فعَجبتُ كيـف رَمَيْـتِ يـومئـذٍ ... سهمـا فعـادَ لـوقتِـه هـدفـا
ذاك التبسُّـمُ كـان غـايتَـه ... هـذا البكـاء لأجلـه سَـرَفـا
أَسـرتْـك وانصـرفَـتْ ومـا وَجَـدت ... عَـزَمـاتُ قلبِـك بعـدُ مُنْصَـرَفـا
واللهِ ، ربِّ مِنًـى ، ومـا جَمعـتْ ... وكفـى بـذاك لمُقْسِـمٍ حَلَفـا
إنـى إذا مـا الـوصـلُ أَمْكَننـى ... نَـزَّهتُـه عـن ريبـةٍ أَنَفـا
وأَبيـت أَقنَـع بـالحـديـثِ ولـو ... كـان الحـديـثُ إشـارةً لكَفَـى
وبمـا يبَلِّغـه الـرسـولُ ولـو ... كـان النسيـمُ رسـولَهـا لشَفَـى
وبطيفهـا وبـأنهـا علمـتْ ... أنـى أَبيـت بحبهـا كلِفـا
وبلفـظِ مَبْسِمِهـا ومَقْصِـدُه ... أخـرى فيُبْهِجُنـى ومـا عَـرَفـا
وبـرَشْـفِ مـاءِ النيـل قـد وَردَتْ ... أولَاه ثـم وردتُـه طَـرَفـا
ولـو استطعـتُ منعـتُ إذوَ ردَتْ ... مـنْ عَـبَّ مـن شَطَّيْـه أورَشَفـا
غَيْـران مـن علمـى بـأنّ بـه ... مـن سُـؤْرِ شُهْـدِ رُضـابِهـا نُطَفـا [50]
وأَغـارُ مـن مـرِّ النسيـم بهـا ... دونـى يُبـاشِـر ذلـك التَّـرفـا
مـالـى وللعُـذال لا سَعِـدوا ... فلقـد لقيـتُ بعَـذْلهـم جَنَفـا [51]

---

(٤٩) وكف الدمع يكف : سال - الشغف : الحب والوله .
(٥٠) السُّؤر : بقية الشيء - الشُّهد : عسل النحل .
(٥١) الجنف : الميل والجور .

عَــذَلــوا ومـــا عَشِقــوا ولــو عشقــوا ... قَبِلــوا هنــالــك عُـــذْرَمــن شُغِفــا

يـــا وَيْحهَـــم لـــو أبصــروا رَشَـــأً ... يهتـــزُّ مـــن ليـــنِ الصِّبـــا هَيَفـــا

بـــدرٌ علـــى غصـــنٍ علـــى نَقَـــوَىْ ... رمـــلٍ أَضـــاءَ ومـــاسَ وارْتَـــدَفـــا (٥٢)

بفتـــرعـــن نَـــوْرالأقـــاحِ إذا ... وافَـــى نَـــدًى سَحَـــرا بـــه فصفـــا

كـــالـــدُّرِّلكـــنْ صـــاغ نـــاظمُـــه ... بـــالمسكِ مـــن لَعَـــسٍ بـــه صَـــدَفـــا (٥٣)

* * *

وقال :

ألاَيــا نســمَ الــريحِ إنْ كنــتَ عــابِــرا ... على الثغر فــاقْــرِى الســاحلَيْــن ســلامــى

فبــالــرمــلِ مــن شــرقيِّــه مَــنْ بحُبِّــه ... سَــرائرُتَشْــرى فــى أدق عظــامــى

عــزيــزٌعلــى قلبــى ولا سمَّــا إذا ... أطــانــتْ عليــه العــاذلات مَــلامــى

مــريــض جُفــونِ الطَّــرْفِ مــن غيــرِعلــةٍ ... فهـــنّ سقيمـــاتٌ بغيـــرسَقـــام

بفيـــهِ لآلٍ فـــى عقيـــقٍ كـــأنهـــا ... أقــاحــىُّ رمــلٍ فــى سُــلاف مُــدام

وفـــى هَـــدِّه نـــارٌومـــاء تَـــألَّفـــا ... ومــن عَجــبٍ مــاءٌ خِــلال ضِــرام (٥٤)

كــأن غصــون البــانِ فــى كُثُــب النّقــا ... جُــذِبْــنَ علــى رِدْفٍ لــه وقَـــوام

وكــم ليلـــةٍ بِتْنـــا وبينـــى وبينـــه ... عَفـــافٌ يُنـــاجِـــى فـــى العنـــاق غـــرامـــى

وقــد ضَمَّنــا شــوقٌ كمــا ضــم ســاهِــرا ... ثَـــوَى لكَـــرَى جَفْنَيْـــه عنـــد مَنـــام

وقــائمُ سيفِـــى فـــى يَمينـــى ، وجِيـــدُه ... بيُسْـــراى فـــى عِقْـــدٍ بغيـــرنظـــام (٥٥)

---

(٥٢) الهَيَف : دقة الخصر وضمور البطن – ماس : تبختر واختال .

(٥٣) اللعس : سواد مستحسن فى باطن الشفة .

(٥٤) السلاف : أفضل الخمر وأخلصها – المدام : الخمر – الضِّرام : اشتعال النار .

(٥٥) الجيد : العنق .

حِـذارا علينـا مـن غيـور مُبـادِرِ ... يُسابِقنـى بـالضـرب قبـل قيـامـى

فـواهًـا علـى الإسكنـدريـة كلمـا ... تَنكَّـد عيشـى دونهَـا بـدَوام

ديـارٌ أحبـابُ قلبـى ومَنْشَئِـى ... وقـومـىَ مـن فتيـانِ آل جُـذام

فلـى مـن جُـذام عصبـةٌ جَـرَوِيّـةٌ ... صَفَـتْ كـزُلالٍ مـن مُتـونِ غَمـام

هـى الـذهبُ الإبـريـزُ صَفَّـتْ نضـارةً ... يـدُ السَّبْـكِ مـن عيـبٍ يَشـوب وذام(٥٦)

إذا اليمـنُ اعتـدّتْ بـأوفَـى فضيلـةٍ ... وَجـدْتهـمُ فيهـا أمـامَ أمـام

أسـودُ وَغًـى لاتـرتضِـى نيـلَ مكسـب ... وإنْ جَـلَّ إلاامِـن قنًـا وحُسـام

يَبيتـون خُمْصـا والمَطـاعـمُ جَمـةٌ ... إذا شِيـلَ أدنـى ذلـةٍ بطعـام(٥٧)

ومـا المـوت إلاالـذلُّ فـى العيـش عندهـم ... ومـا العيـشُ إلاعـزةٌ بحِمـام(٥٨)

طِـوالٌ حَكَـوا خَطِّيـةً بـأكُفِّهـم ... ثِقـاتٌ لـدى الهَيْجـا بفَـرْطِ ذِمـام(٥٩)

إذا شئـتَ أصـلَ المجـدِ والفخـرِ فـابْغِـه ... وحَسْبُـك مـن شيـخٍ لهـم وغُـلام

أخَـفُّ إلـى الهَيْجـاءِ وَفْـدِ عـاصـفٍ ... وأثبَـتُ حِلْمـا مـن هِضـاب ضَمـام(٦٠)

حَيِيُّـون أنْـدَى أوجُهـا وأنـامـلا ... مـن الغيـثِ والـى وَدْقَـه بسِجـام(٦١)

يَصـونـون مـا تحـوِى المـآزرُ مـن تُقًـى ... وفضـلٍ ، ومـا فـى بُـرْقـعٍ ولثـام(٦٢)

إذا قيلـتِ العَـوْراء غَضُّـو أو غـودِرت ... بـأسمـاعِهـم منهـا أحـرُّ كَـلام

---

(٥٦) الذهب الإبريز : الخالص - الذام : العيب .

(٥٧) خمص : جائعون ، يقال خمصه الجوع أى أضعفه وأدخل بطنه فى جوفه .

(٥٨) الحمام : قضاء الموت وقدره .

(٥٩) الخطيّة : الرماح المنسوبة إلى الخط وهو موضع ببلاد البحرين الهيجا : الحرب - الذمام : العهد والأمان والحرمة.

(٦٠) ضَمام : اسم جبل .

(٦١) الوَدْق : المطر - السجام : سيلان المطر.

(٦٢) المآزر: جمع مئزر وهو الثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن - اللثام : النقاب يوضع على الفم أو الشفة.

أَلَا هَــلْ إلــى الإسكنــدريــةِ أَوْبَــةٌ تُبــرِّد أشــواقــى وحَــرَّ أُوامــى [63]
كــأنّى علــى إفــراطِ شيــبٍ أصابنــى عليهــا رضيــعٌ فــى حَــديــث فِطــام
وإنــى وإنْ بــاشــرتُ أرفــعَ رتبــةٍ بمــدحِ ملــوكٍ أُعجبتْ بكــلامــى
لكالطيــرِ تُــذْنَى فى القصورِ لصوتِها فتبكــى علــى أوكــارِهــا بمَــوام [64]
ومــا الشــوقُ لــلأوطــانِ مــن أجــل طِيبِها ولا شــرفٍ فيهــا وفضــلِ مُقــام
ولكنــه فــى النفــسِ طبــعٌ لأجلــه تُجــادل فــى تفضيلهــا وتُحــامى
كــذا الطفل يبغى الأُمَّ مــعْ سوء شخصِها ويَشْنَــا سِــواهــا وهْــى ذاتُ وَســام [65]
ومــن غــربــةٍ يبكــى الجنيــنُ إذا بــدا وقــد كــان فــى ضيــقٍ وفــرطِ ظــلام
ويُعــذَر مــن يشتــاق أســوأَ مــوطــنٍ فكيــف مُقــامــا طيبــا كمقــامــى ؟
يُحــب الفتــى أوطــانــه وبهــا العِــدا فكيــف بــأحبــابٍ علــىَّ كِــرام ؟
سكنــتُ بهــا الــدنيا ، فلمــا تــركتُهــا سكنــتُ دَفينــا فــى بُطــونِ رِجــام [66]
عَلَــى أننــى فيمــا كَــرِهــتُ مُحَسَّــد وأَحْسَــدُ مــن يبغيــه كــلُّ هُمــام
يــرى الأَرْىَ مــا أعتــدُّ شُــرْبــا ، ويستقِــى بمــا أَتــوقَّــى مــن وشيــكِ سِمــام [67]
وبعــدُ فمــا أوطــانُنــا إنْ تَحققــتْ ســوى حُفَــرٍ فــى جَنْــدَلٍ ورَغــام
فمــا منــزل الإنســانِ فيهــا مَقــرُّه وإن كــان ذا خَيْــمٍ بهــا وخِيــام
ولكنــه رَهْــنُ المنــايــا لمــدةٍ محــرَّرةٍ معلــومــةٍ بــإمــان
غــريــبٌ وإنْ لــمَ ينْتــزِح عــن بــلادِه فقيــدٌ علــى عــز وبُعْــد مَــرام

---

(٦٣) العوراء : الكلمة القبيحة الأوام : حرارة العطش .
(٦٤) الموامى : جمع الموماة أو الموماءة ، وهى المفازة الواسعة الملساء .
(٦٥) يشنأ : يبغض ويتجنب - وَسام : جمال ووضاءة وحسن ثابت .
(٦٦) دفين : مدفون مُوارَى - الرِّجام : الحجارة التى توضع على القبر .
(٦٧) الأرْى : العسل - الجندل : الحجارة - الرغام : التراب - خيم : إقامة .

تغرَّب فى الأحشاء عن ظهر والدٍ وغَرَّبه الميلاد بعد زحام
وفى غربةِ الدنيا له أىُّ حصرةٍ ومن بعدِها لا شكَّ غربةُ سام
وغربته عند الحساب أشدُّها فأىُّ أمورٍ لا تُطاق جِسام ؟
وما قَصْدُه من بعدِ هذا وهَمُّه سِوى مكسبٍ يَحْظَى به ويُسامى
وما حَظُّه من كسْبه غيرُ قُوتِه ويَجمع للمُوَرّثِ كلَّ حَرام
ومن سَعْدِه ألا يكونَ، فإنْ يكن يَمُتْ وهو فى الأحشاء ليس بِنامى
فما هو للآفات إلا دَرِيئةٌ لوَخزِ رماحٍ أو لرَشْقِ سِهام (٦٨)
وغايتُه حالان : إما لجنةٍ لها من جوارِ اللهِ خيرُ مُقام
وإما إلى نارٍ فيا لك غربةٌ وطولُ عذاب دائمٍ ولِزام

* * *

وقال :

تَوافقَ الناسُ فى النسيان واختلفوا فكلُّ ناسٍ له جنسٌ وأشباهُ
إلا أبا عامرٍ لم يَخْوِ خاطرُه مذْ كان لفظا ولا معنى فينساه
إذا تَصعَّد لفظٌ من ضمائرِه ينساه من قبلِ أنْ يُجْرَى به فاه
يَصدُّ كلَّ حديثٍ فى مَسامعِه عن قلبه فكأنّ اللفظَ يَشْناه
ما مَرَّ قطُّ به خيرٌ فأَضْحَكَه ولا ألَمَّ به شرٌّ فأبكاه
لا فرطُ حلمَ، بلى سهوٌ يُزيلُهما من قبلِ يَبْسِم أو تَنهلُّ عيناه
كأنه جاحد مُذْ قَطُّ وهو على حقٍّ ولكنْ بسرٍّ لاح معناه
إذا تَشهَّد أَبْدَى « لا إله » ولا يتمُّها ثم ينسى بعدُ « إلا هو »

* * *

---

(٦٨) الدريئة : حلقة أو دائرة يتعلّم عليها الطعن أو ما يستتر به الصائد ليختل الصيد - الوخز : الطعن طعناً غير نافذ .

وقال أيضا موشّحة :

ثغـــــرٌ لاحْ يَسْتــــأسِــــرُ الأرواحْ لمـا فـاحْ مـا الخمـرُ؟ مـا التفـاحْ ؟

أَلْجـــــانِـــــى ذا التــــائهُ الجــانِـــى
أَنْســـانـــى نظــــــــ رةَ إنســــــانــــــى
أفنــــانـــى طـــــــــ ـــــرٌ بـــأفْنـــانـــى (٦٩)
أحيـــــانـــــى فـــــى بعـــــض أحيـــانـــى

لمـــا صـــاحْ مـــا خِلْتُـــه يـــا صـــاحْ لـــــلأرواحْ ذا نشـــــوةٍ مـــــن راحْ

قلبـــــــى مـــــالْ فيـــه إلـــى الآمـــالْ
مـــالـــى حـــالْ يـــا قـــوم لمـــا حـــالْ
لـــــولا الخـــالْ مـــا كنـــتُ إلاخـــالْ
لمـــــا غـــــالْ قلبـــى فصـــازلـــى غـــالْ

ذا المــــزّاحْ عــــاتبتُـــــه مـــــا زاح والإصــــلاحْ أن أتــــركَ الإصــــلاحْ

أَعْلَـــــــى لـــــــى مـــوتـــى بـــأعـــلالـــى
أوصــــــى لــــــى نيــــرانَ أوصــــالـــــى
بـــــل بـــــالـــــى أوْلَـــى ببَلبـــالـــى (٧٠)
يـــــا حـــــالِ انظــرْ إلـــى حـــالـــى

---

(٦٩) إنسان العين : ناظرها – أفناني الأولى بمعنى أهلكني ولم يبقني ، والثانية جمع الفنن ، وهو الغصن .
(٧٠) البلبال : الوسواس وشدّة الهمّ .

مـا قــد ســاح مــن مُقلتــى سَحّــاح ذو إفصــاح بـــالســرّ بـــالإفصــاح

بـــــــدرٌ بـــــــانْ فــى مثــل خُــوطِ البــانْ

وجــــــــــــهٌ زانْ قَــــدّا كعـــــودٍ زان

فـــــــالإخـــــــوانْ فــى اللــومِ لــى خُــوّان

والعينــــــــــــانْ لمــــا جَفــا عينــــان

جســمٌ راح يُــذميــه لَمْــسُ الــراحْ لمـــا لاح لــم أحتفـــل بـــالـــلاح

يـــــا فَتّـــــاكْ بـــالقتــلِ مـــن أفتــاكْ

مـــــا أســـــراك ليـــلا إلـــى أَسْــراك

مـــــا أَخـــــلاك سبحـــانَ مـــن أَخْــلاك

مـــــا أسنــــاك وجهـــا ، ومـــا أسنـــاك

كـــالمصبـــاحْ نـــورا ، بـــلِ الإصبـــاحْ كـــم أرتـــاحْ للقـــرب لـــونـــرتـــاحْ

أميّة بن أبى الصلت

(٤٦٠ - ٥٢٩ هـ / ١٠٦٨ - ١١٣٥ م)

هو أبو الصلت أمية بـن عبد العزيز بن أبى الصلت ولد بدانية فـى الأندلس ، وذكر بعض من ترجموا له أنه مـن أهل إشبيليّة ، رحل وهو فى العقد الثالث من عمـره إلى المهدية بجوار القيـروان ، ومدح أميـرها تميـم بن المعـزّ الصنهاجـى (ت ٥٠١) الذى أرسلـه إلى مصـر - وكانـت الصلة بين تميـم وحكامها سيئـة - فأقـام فيها ثلاث سنـوات ، وقيل عشريـن سنة ، سجن خـلالها ، ودارت بينه وبين علـى بن منجب الصيرفـى رئيس ديوان الإنشاء مـراسلات وأشعار، ولمـا أطلق سراحـه رجع إلى المهديّـة فى أثناء خـلافة يحيى بـن تميم (ت ٥٠٩) وعلا شأنه فى عهـده وفى عهد ابنه على بن يحيى (ت ٥١٥) ثم الحسـن بن على آخر ملوك الصنهاجيين . وتوفى فى ولايته .

كان بن أبى الصلت شـاعرا ومتفلسفا وموسيقيا وطبيبا ، له مؤلفـات فى الأدب والتاريخ والعروض والألحـان والهندسة والطب والتنجيـم ، منها « كتاب الحـديقة » ترجم فيـه لشعراء عصره على نسق يتيمة الدهر للثعالبى ، « الأدوية المفردة » فى الطب ، و« تقويم الذهن » فى المنطق ، و« الوجيز فى علم الهيئة » و« الملح العصـرية فى شعـراء الأنـدلس » ، ولـه أيضـا « الـرسالـة المصـرية » وصـف فيهـا ما رآه مـن طبيعة مصـر وآثـارها وأعـلامهـا من الأطبـاء والمنجّمين والشعراء وعرض لذكر من مدحوا الأفضل الجمالية أو هجوه .

أما ديوانه الشعرى فقد احتفظ العماد الأصبهانى فى الخريدة بمختارات كثيرة منه رتبها بترتيـب الحروف الهجائية وبلغـت حوالى ثمانيـن صفحة ، فى موضـوعات شتى كالمـديح والهجاء والرثـاء والغزل ووصف الخيول والقصور ، وشعـره كما وصفه الواصفـون « كله منقّح مستملـح صحيـح السبـك محـكم الحـوْل نظيم السلـك » ويقـول ابن سعيد فى المغرب : « عنه أخذ أهل إفريقية (تونس) الألحان التى هى الآن بأيديهم » .

* * *

قال أميّة بن أبى الصلت يصف هرمىْ مصر :

بعَيْشِك هل أبصرتَ أعجبَ منظرًا   على الطولِ ما أبصرتَ من هَرَمَىْ مصرْ
أنافَا بأعنانِ السماء وأشْرفا   على الجوِّ إشرافَ السِّماكِ أو النَّسْرْ
وقد وافيا نَشْرًا من الأرضِ عاليًا   كأنَّهما ثَدْيان قاما على صَدْر(١)

* * *

وقال يصف فرسًا سمّى هلالاً لغرّة هلاليّة الشكل فى جبهته :

شهدتُ لقد فات الجيادَ وبَذَّها   جوادُك هذا من وِراد ومن شُقّر (٢)
جواد تَبدَّت بين عينى غُرة   تُريك هلالَ الفطر فى غُرة الشهر
وما أعتنَّ إلا قلتُ أسأَل صاحبى   بعَيشك من أهدى الهلالَ إلى البدر
كأَنَّ الصباحَ الطلقَ قبَّل وجهَهُ   وسالتْ على باقِيه صافيةُ الخمر
كأَنَّك من إذ جذبتَ عِنانَه   على مَنكب الجوزاء أو مَفْرِق النَّسر
كأَنك إذ أرسلتَه فوق لُجَّة   تُدَفِّقها أيدى الريَاح إلى العَبْر(٣)
تدَّفقتُما بحرين : جُودًا وجَودة   ومن أعجبِ الأَشياء بَحرعلى بَحر

* * *

وقال يصف بعض المبانى السلطانية :

قم يا غلامُ ودَعْ مُخالسة الكَرى   لمُهجِّرٍ يصف النَّوى ومُغلِّسِ(٤)
أو ما رأيت النُّور يَشرق بالنَّدى   والفجر يَنْصُل من خضاب الحِنْدس(٥)

---

(١) أناف : ارتفع وأشرف - السماك : نجم نيِّر - النشر : المرتفع من الأرض .
(٢) بذّا : غلبها وسبقها - اعتنّ : اعترض وعرض .
(٣) العبر، بالكسر وبالفتح : الشاطىء والناحية .
(٤) المهجّر : الذى يسير فى الهاجرة وهى نصف النهار عند اشتداد الحرّ - المغلّس : الذى يسير فى الغلغس ، وهو ظلام آخر الليل ، وقيل : هو أول الصبح حين ينتشر فى الآفاق .
(٥) يَشرق : يغصّ - ينصل : يخرج من لونه - الحندس : الظلمة ، وقيل : الظلمة الشديدة .

والتُّـرب فـى خَلـل الحـديقـة مُـزْتَـق والغصـن مـن حُلَـل الشَّبيبـة مُكتسـى (٦)

والـرَّوض يَبْـرزُ فـى قـلائد لُـؤلـؤ والأَرض تـرفـلُ فـى غـلائل سُنـدس (٧)

لاتَعـدم الألحـاظ كيـف تصـرَّفـت وجنـاتِ وَرْد أو لـواحـظَ نَـرْجـس

* * *

وروى ابن الأبار أنه قال فيها أيضا :

وضَّاحـة حلَّـت الأنـوارُ سـاحتهَـا فـأزمعـتْ رحلـةً عـن أُفقـا السُّـدُفُ

كـأَنَّ رأد الضُّحـى ممـا يُغـازلهـا عـن الغَـزالـة هيمـانٌ بهـا كَلِـف

تجمّعـت وهـى أشتـاتٌ محـاسنُهـا هـذا الغَـديـر وهـذِى الـرَّوضـة الأُنـف

يُضاحـك النُّور فيهـا النَّور مـن كَثبٍ مهمـا بكـت للغَـوانـى أعيـنٌ ذُرُف

خضـر خمـائلهـا زُرق جـداولهـا فـالحُسـن مُـؤتلـف فيهـا ومُختلـف

دَوْح وظِـلٌّ يَلـذُّ العيـشُ بينهمـا هـذا يَـرِفّ كمـا تَهْـوَى وذا يَـرِف

يَجـرى النسيـمُ علـى أرجـائهـا دَنِفـاً ومِلـؤه أَرَجٌ يُشفَـى بـه الـدَّنِـف (٨)

حـاك الـربيعُ لهـا ممـن صـوبـه حبرًا كـأنـا الحُلـل الأَفـواف والصُّحـف (٩)

غَـريـرة مـن بنـات الـرَّوض نـاعمـة يَثنـى معـاطفَها فـى السُّنـدس التَّـرَف (١٠)

تَنـدى أصـائلُهـا صُفـرًا غـلائلهـا كـأنَّ مـاءَ نُضـار فـوقهـا يَكِـف

* * *

(٦) مرتق : ملصق لازق ، يريد أن الترب ندىّ ، وأن الأرض ممطورة .

(٧) الغلائل : جمع غلالة ، وهو القميص أو الثوب يلبس تحت الثياب .

(٨) ورف يرف أى برق وتلألأ ، يصف إشراق النبت ونضرته ، وورف يرف أى طال وامتدّ ، ومنه : ظلّ وارف - الدنف : العليل الذى قد أشرف على الموت .

(٩) الصوب : المطر - والحِبَر : جمع حبرة : ضرب من البرد اليمانية منمرة - وأفواف : ثياب رقاق من ثياب اليمن موشاة .

(١٠) الغريرة : الشابة الحديثة السن التى لم تجرب الأمور - والترف : النعمة والرغد .

وله فى المَصنع المعروف بأبى فِهر : (١١)

نَمت صُعُدًا فى جِدَّة غُرفاتُه — على عَمَد مما أستجاد لها الجدَّ
تَخيَّلن قامت وهُنَّ عَقائِلٌ — سوى أنها لا ناطقاتٌ ولا مُلْد (١٢)
قدود كساها ضافِىَ الحُسن عُرْيُها — وأمعن فى تَنعيمها النَّعت والقَدُّ
تُذَكِّر جنَّاتِ الخُلود حدائقٌ — زَواهرُ لا الزَّهراءُ منها ولا الْخَلد (١٣)
فأَسحارُها تُهدى لها الطيبَ مَنْبج — وآصالُها تُهدى الصَّبا نحوها نَجد (١٤)
أَناف على شخمّ القُصور فلم تَزل — تَنَهَّدُ وجدًا للقصور وتَنْدُّ (١٥)
رَحيب المَعانِى لَايضيق بوَفْده — ولو أنَّ أهْلَ الأرض كُلّهمُ وَفد
تلاقَى لديه النَّور والنُّور فانجلت — تفاريقَ عن ساحاتِه الظُّلم الرُّبد (١٦)

* * *

ولما سُجن بمصر ، قال فى ذلك : (١٧)

عَذيرىَ من دَهرٍ كأنِّى وَترتُه — بباهرِ فَضلى فاستقاد به منى (١٨)
تعجَّلنى بالشَّيب قبل أوانه — فجرَّعنى الدُّردىّ من أوّل الدَّنِّ
وما مَرَّبى كالسجن فيه مُلمَّةٌ — وشرٌّ من السجن المُصاحبُ فى السجن
أظُن الليالى مُبْقِياتى لحالةٍ — تُبدِّل فيها حالتى هذه عَنِّى

---

(١١) المصانع : القصور والأبنية ، وكذلك الأحباس تتخذ للماء ؛ الواحد : مصنعة ومصنع .
(١٢) تخيلن : تشبهن وتصورن وتبين – والعقائل : جمع عقيلة ، وهى الكريمة من كل شيء .
(١٣) الزهراء : من ضواحى قرطبة ، بناها الناصر عبد الرحمن – والخلد : قصر المنصور ببغداد .
(١٤) منبج : مدينة بالشام بينها وبين حلب عشرة فراسخ .
(١٥) القصور هنا : بمعنى العجز والتخلف .
(١٦) تفاريق : قطعاً صغيرة – والربد : المعتمة المغبرة .
(١٧) يشير إلى اعتقال الأفضل شاهنشاه له بمصر .
(١٨) عذيرى من كذا أى من يعذرنى فى أمره إذا جازيته على صنعه ، ولا يلومنى على ما أفعله – استقاد : طلب القود والقصاص منى .

وإلَّا فما كــانــت لتَبقــى حُشــاشتــى على طُول ما أَلقى من الضَّيم والغَبن
وقالوا : حديث السِّن يَسْمو إلى العُلا كأَنَّ العُلا وَقفٌ على كِبَر السن
وما ضَرَّنى سنُّ الحَداثة والصِّبا إذا لم يُضَفْ خُلْقى إلى النَّقص والأَفْن
فعلْمٌ بلا دَعوى ورأىٌ بلا هوى ووعدٌ بلا خلْف وَمنٌّ بلا مَنٍّ (١٩)
متى صَفَتِ الدُّنيا لحُرٍّ فأَبتغى بها طِيبَ عَيشى أو خُلوِّى من الحُزن
وهل هى إلا دارُ كُلِّ مُلِمَّةٍ أَمضُّ لأَحشاءِ اللَّبيب من الطَّعن

* * *

وقال فى الحكمة :

تَجرى الأُمور على حُكم ما القَضاء وفِى طىِّ الحوادِث مَحبوب ومكروهُ
فربما سَرَّنى ما بِتُّ أَحذره وربما ساءنى ما بِتُّ أَرجوه

* * *

وقال :

وقائلة : « ما بالُ مثلكَ خاملًا ؟ أأنتَ ضعيف الرأى أم أنتَ عاجز ؟ »
فقلتُ لها : « ذنبى إلى القوم أنَّنى لِما لم يجوزه من المجد حائز
وما فاتنى شىء « سوى الحظِّ وحده وأمّا المعالى فهى عندى غرائز »

* * *

---

(١٩) مَنّ بلا منّ : أى إعطاء من غير تقريع وتعيير .

وقال :

جَـــــدَّ بقلبـــــى وعبَـــــثْ ثــم مضـــى ومـــا اكتــرث
واحَرَبَـــا مــــن شــــادنٍ فـــى عُقَـــد الصبـــر نَفَـــث[20]
يقتـــلُ مـــن شـــاء بعيـــــــنيه ، ومـــن شـــاء بَعَـــث
فـــأَىَّ ودٍّ لـــم يَخُـــنْ ؟ وأَىَّ عهـــدٍ مـــا نكـــث ؟

* * *

وقال :

إذا كـان أصلـى مِـن تُـراب فكلُّهـا بـلادى ، وكـلُّ العـالميـن أقـاربـى

* * *

وقال عندما أشرف على الموت ، وهو آخر ما سمع منه :

سكنتُـكِ يـا دارَ الفنـاءِ مُصَـدِّقًـا بـأَنِّـى إلـى دارِ البقـاء أَصِيـرُ
وأعظـمُ مـا فـى الأمـرِ أنِّـى صـائر إلـى عـادلٍ فـى الحكـم ليس يجـور
فيـاليـتَ شِعرى ، كيف ألقاه عنـدهـا وزادى قليـل ، والـذنـوبُ كثيـر
فـإنْ أكـنْ مَجْـزِيًّا بـذنْبـى فـإنّنـى بشَـرِّ عِقـابِ المـذنبيـن جَـديـر
وإنْ يَـكُ عفـوٌ منـه عنّـى ورحمـة فثَـمَّ نعيـمٌ دائمٌ وسـرور

* * *

(٢٠) يقال : « واحَـرَباه » عند إظهار الحزن والتأسّف ، ورواية البيت فى بعض المصادر : « واحـزنى مـن شـادن ... » .

وقال :

لئــن عَــرَضَــتْ نَــوًى وعَــدَتْ عَــوادِ ... أدالَــتْ مِــن دُنُــوِّك بِــالبعــادِ[21]

فمــا بَعُــدَتْ عــن اللقيــا جُسُــومٌ ... تــدانَــتْ بــالمحَبَّــة والــوِداد

ولكــن قُــرْبُ دارِكِ كــان أنْــدى ... علــى كبِــدى وأحْلــى فــى فــؤادى

* * *

---

(٢١) النوى : البعد – عوادى الدهر : نوائبه .

ابن خفاجة

(٤٥٠ - ٥٣٣ هـ / ١٠٥٨ - ١١٣٨ م)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسى ، ولد فى جزيرة شُقْر من أعمال بلنسية ، ونشأ نشأة مكّنته من أن يُقبل على الدرس ويتزوّد بالآداب فظهرت موهبته الشعرية وهو فى مقتبل العمر ، متأثرا ببعض شعراء المشرق ، مثل : عبد المحسن الصورى والشريف الرضى ومهيار الديلمى والمتنبى ، وقد تحدث ابن خفاجة فى مقدمة ديوانه عن تأثره فى شبابه بهؤلاء الشعراء وتمثله لمحاسنهم الرائعة الرائقة وألفاظهم الشفافة الشائقة ومعانيهم المتنوعة فى الغزل وما يتصل به من الحماسة ووصف الطبيعة والإشارة إلى الطيف والخيال والظعائن ونسيم الصَّبا ... إلخ .

عاش فى عهد ملوك الطوائف منصرفًا إلى متع الحياة ، مبتعدًا عن استجداء الممدوحين ، وفى ديوانه مدائح فى أمراء المرابطين وأعيانهم ، فاختصّ أولًا بمديح إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين أول ولاة المرابطين على شرق الأندلس ، ثم مدح أخاه تميمًا والى غرناطة وزوجته السيدة الحرّة مريم ، كما مدح على بن يوسف سلطان المرابطين ... ، ولكنه لم يكن يمدح طلبا للعطاء والنوال ، وإنما كان كما يقول : « مصطنعًا لا منتجعًا ، ومستميلا لا مستنيلًا ، اكتفاءً بما فى يده من عطايا مَنّان ، وعوارف جواد وهّاب » .

ومن يقرأ ديوانه يلحظ أن أهم موضوع استنفد أكثر شعره هو وصف الطبيعة ، ذلك أنه عكف عليها ، ممعنًا فى تأمّلها ، مستجليًا أسرارها ، حتى أن الأندلسيين سَمّوه « الجنّان » نسبة إلى جِنان الأندلس ، وإلى براعته فى تصويرها .

ومع هذا الكلف بالوصف ، أجاد فى معظم الأغراض الأخرى كالغزل والمدح والرثاء والهجاء ... ، كما أجاد أيضا فى الفنون النثرية كالرسائل وغيرها .

وقد طبقت شهرته الآفاق ، وانكب أدباء عصره وبخاصة الأندلس والمغرب على شعره يروونه ويتمثلون به .

وقـال عنـه ابـن بسـام : « كان مقيمًـا بشرق الأنـدلس ، ولـم يتعرّض لاستمـاحة ملـوك طوائفها ، مع تهافتهم على أهل الأدب » ، وأثنى عليه بقوله إنه « الناظم المطبوع ، الذى شهد بتقديمه الجميع ، المتصرّف بين أشتات البديع » .

أما ابن الأبَّار، فقال عنه : « كان عالما بـالآداب ، صدرا فى البلغاء ، متقدما فى الكتاب والشـعراء ، يتصرّف كيف يريد، فيبدع ويجيد ، ناظمًا وناثرًا ، ومادحًا وراثيًا ، ومشبّبًا ومشبّهًا ، وكان نزيـه النفس ، لايتكسّب بالشعر ، ولا يمتدح رجـاء الرفد ... وديوان شعره متنـافَس فيه ، مرويّ عنه ، توفّى سنة ٥٣٣ هـ ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة » .

وقـد أثـار وصفه للريـاض إعجـاب بعض الكتـاب الغربييـن ، مثـل غرسيـه غـومس ، فقال عن روضياته : « إنها سائغـة تصـدرعن طبـع فنـىّ لمّـاح ، فتبدو كأنها مشاهد خياليّة ، أو مجالس أنس خمريّة » .

* * *

قال ابن خفاجة فى الاعتبار ، ووصف الجبل :

بعَيْشِـك هـل تَـدْرى أَهُـوجُ الجنـائِبِ　　تَخُـبُّ بـرحْلـى أَمْ ظُهُـورُ النَّجـائبِ ؟ (١)
فمـا لُحْـتُ فـى أُولَـى المشـارق كـوكبًـا　　فَـأَشْرَقْـتُ ، حتّى جُبْـتُ أخْرَى المغـارب
وحيـدًا تَهَـادانـى الفيـافِـى فـأَجْتَلـى　　وُجُـوهَ المنـايـا فـى قِنـاع الغَيَـاهِـب (٢)
ولا جَـارَ إلَّا مِـنْ حُسَـامٍ مُصَمِّـمٍ　　ولا دارَ إلَّا فـى قُتُـود الـرَّكـائب (٣)
ولا أُنْـسَ إلَّا أنْ أُضَـاحِـكَ سـاعـةً　　ثغُـورَ الأَمـانـى فى وُجُـوهِ المطـالـب
بليـلٍ إذا مـا قُلْـتُ قـد بـادَ فـانْقَضَـى　　تَكَشـفَ عـنْ وَعْـدٍ مِـن الظَّـنِّ كـاذب
سَحَبْـتُ الـدَّيـاجـى فيه سُـودَ ذَوائِبٍ　　لِأَعْتَنِـقَ الآمـالَ بِيـضَ تَـرائبِ
فمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيلِ عـن شَخْص أَطْلَسٍ　　تَطَلَّـعَ وَضَّـاحِ المضَـاحِـكِ قـاطِـبِ (٤)
رأيْـتُ بـه قِطْعًـا مِـنَ الفجـرِ أَغْبَشًـا　　تَـأَمَّـل عـنْ نجْـمٍ تَـوَقَّـدَ ثـاقـبِ
وأَرْعَـنَ طَمَّـاحِ الـذُّؤابـةِ بـاذخٍ　　يُطـاوِلُ أَعْنـانَ السَّمَـاءِ بغَـاربِ (٥)
يَسُـدُّ مَهَـبَّ الـرِّيـحِ عَـنْ كُلِّ وِجْهَـةٍ　　ويَـزْحَـمُ ليـلًا شُهْبَـهُ بـالمنـاكـبِ
وَقُـورٍ علـى ظَهْـرِ الفَـلاةِ كـأنَّـهُ　　طِـوالَ اللَّيـالـى مُطـرِقٌ فـى العَـواقـب
يَلُـوثُ عليـه الغَيْـمُ سُـودَ عَمـائمٍ　　لهـا مـنْ وَميـضِ البَـرْقِ حُمْـرُ ذوائبِ
أَصَخْـتُ إليـه وهْـو أَخْـرَسُ صـامِـتٌ　　فحَـدَّثنـى لَيْـلُ السُّـرَى بـالعَجَـائب (٦)
وقـال ألا كـم كُنْـتُ ملجـأ فـاتـكٍ　　ومـوطـن أوّاهٍ تبتـلَ تـائِبِ

---

(١) هوج : جمع هوجاء أى مسرعة - الجنائب : الدواب تقاد - النجائب : الإبل .
(٢) لحْتُ : رأيت - الفيافى : الصحراوات الواسعة المستوية - الغياهب : الظلمات .
(٣) مصمّم : قاطع - القتود : جمع القتد ، وهو خشب الرحل .
(٤) الذوائب : الخُصَل من الشعر - الترائب : عظام الصدر - الأطلس المغبر اللون ، ويقصد به الذئب .
(٥) أغبش : خالط بقية ظلمته بياض الفجر - ثاقب : مضىء - أرعن : طويل - طمّاح : مرتفع - الذؤابة من كل شىء أعلاه - باذخ : عال - عنان السماء : ما يبدو منها للناظر إليها - الغارب : الكاهل أو أعلى كل شىء .
(٦) يلوث : يلفّ ويعصب - أصخت : استمعت - السُّرى : سير عامّة الليل .

وكـم مـرَّبـى مـنْ مُـدْلـجٍ ومُـؤَوِّبٍ | وقـالَ بظِـلِّـى مـنْ مَـطِيٍّ وراكِـبِ (٧)
ولاطَـمَ مِـنْ نُكْـبِ الرِّيـاح مَعَاطفـى | وزاحَـمَ مِـنْ خُضْـرِ البِحـار جَـوانبـى
فمـا كـانَ إلّاأنْ طَـوَتْهُـمْ يَـدُ الـرَّدَى | وطـارتْ بهـمْ ريـحُ النَّـوَى والنَّـوائب
فمـا خَفْـق أيْكِـى غَيْـرَرَجْفـةِ أَضْلُـعٍ | ولانَـوْحُ وُرْقـى غَيْـرَصَـرْخَـةِ نـادِب (٨)
ومـا غَيَّـضَ السُّلْـوَانُ دَمْعـى وإنّمـا | نَـزَفْـتُ دُمُـوعـى فـى فِـراق الأصـاحـب
فحتّـى مَتَـى أَبْقَـى ويَظْعَـنُ صاحِـبٌ | أُوَدِّعُ منـهُ راحِـلًا غَيْـرَآيِـبِ ؟ (٩)
وحتّـى متَـى أَرْعَـى الكَـواكـبَ سـاهـرًا ؟ | فمِـنْ طالـعٍ أُخْـرَى اللّيـالـى وغـارِب
فـرُحْمـاكَ يـا مَـوْلاىَ دَعْـوَةَ ضـارعٍ | يَمُـدُّ إلـى نُعْمَـاك راحـةَ راغِـبِ !!
فَـأَسْمَعَنـى مِـنْ وَعْظِـه كُـلَّ عِبْـرَةٍ | يُتَـرْجِمُهـا عَنْـهُ لِسَـانُ التَّجـارِبِ
فسَلَّـى بمـا أَبْكَـى وسَـرَّى بمـا شَجـا | وكـانَ علـى لَيْـل السُّـرَى خَيْـرَصـاحِـب
وقُلْـتُ وقـد نَكَّبْـتُ عنـهُ لِطِيَّـةٍ : | سَـلامٌ فـإنّـا مِـنْ مُقيـمٍ وذاهـبِ (١٠)

* * *

وقال فى وصف بعض مظاهر الطبيعة :

أبـى البـرقُ إلاأن يَحِـنَّ فُـؤادُ | ويكْحَـلَ أجفـانَ المُحِـبِّ سُهـاد
فبِـتُّ ولـى مِـنْ قـانـىء الـدمـع قَهْـوةٌ | تُـدارُمِـنْ إحـدى يـدىَّ وسـادُ (١١)

---

(٧) أوّاه : كثير الدعاء - تبتّل : تفرّغ للعبادة - المدلج : السائر من أوّل الليل - المؤوّب : الذى يسير النهار كلّه إلى الليل - قال : نام وسط النهار.

(٨) النكْب : جمع النكباء وهى الريح التى تحبس القطر وتهلك المال - المعاطف : الجوانب - النوى : البين والفراق والبعد - النوائب : الكوارث والحوادث المؤلمة - الورق : الحمام ، واحده ورقاء.

(٩) غيّض : أنقص واحتبس - يظعن : يرحل - آيب : راجع.

(١٠) عبرة : عظة - سلّى : جعله ينسى فتطيب نفسه - سرّى : أشاع السرور وكشف الهمّ - نكّبت عنه : عدلت وتنحّيت - طِيّة : حاجة.

(١١) قانىء : شديد الحمرة - قهوة : خمر - خليّة : مطلقة.

تنـــوحُ لـــيَ الـورقـــاءُ وهْــي خَلِيَّــةٌ وَينْهَـــلُّ دمــعُ المُـــزْنِ وهْـــو جمـــادُ
وقـد كـــان فـي خــدِّيَ للشُّهـب مَلْعَــبٌ فقـــد صـــارَ فيــهِ للـــوِرادِ طِـــرادُ (١٢)
وليــلٍ كمـــا مــدَّ الغُـــرابُ جنـاحـــهُ وســـال علـــى وجـه السِّجِـــلِّ مِـــدادُ
بــه مِـــنْ وميضِ البـرق والجـوّ فحمــةٌ شَـــرَارٌ تَـــرَامَـــى والغَمـــامُ زِنـــادُ
سَـــرَيْـــتُ بــه أُخْيِيــه لاحَيَّـــةُ السُّـرى تَمـــوتُ ولامَيْـــتُ الصَّبـــاح يُعـــادُ
يُقلِّـــبُ مِنِّـــي العَـــزْمُ كمْســـانَ مُقلــةٍ لهـــا الأفْـــقُ جَفْـــنٌ والظـــلامُ ســـوادُ
بِخَـــرقٍ لقلْـــبِ البـــرقِ خَفَقَـــةُ رَوْعَــة بـــه ولِجِفْـــنِ النَّجْـــمِ فيـــه سُهـــادُ
سَحيـــقٍ فـــلا غيـــرَ الـــريـــاح ركـــائبُ هُنـــاكَ ولاغيـــرَ الغمـــام مَـــزادُ (١٣)
كـــأنـــي وأحشـــاءُ البـــلادِ تُجِنُّنـــي سَـــرِيـــرةُ حُـــبٍّ والظَّـــلامُ فُـــؤادُ
أجُـوبُ جيـوبَ البِيـد والصبـحُ صـارمٌ لـــه الليـــلُ غِمْـــدٌ والمجَـــرُّ نجـــادُ
وفـي مُصْطلـى الظلمـاءِ جَمْـرُ كـواكـبٍ عـــلاهـــا مــنَ الفجـــرِ المُطـــلِّ رمـــاد
ولمـا تَفَـرَّى مـن دُجـى الليـل طُحْلُـب وأغْـــرَض مـــن مـــاء الصبـــاح ثِمـــادُ(١٤)
حَنَنْـــتُ وقَـــدْ نـــاحَ الحمـــامُ صَبـــابــةً وشـــقَّ مِـــنَ الليـــلِ البهيـــم حِـــدادُ
علـــى حيـــن شَطَّــت بـــالأحبّـة نِيَّـــة وحـــالـــتْ فيـــافٍ بيننـــا وبـــلاد (١٥)
وبيـــضٌ بهـــاليـــلُ تَلَفَّـــتُ دُونهـــم عُيُـــون لأطـــرافِ الـــرمـــاحِ حِـــدادُ

---

(١٢) طراد : صيد - السجِلّ : الكتاب - فحمة الليل : سواده - الزناد : ما يقدح به النار.

(١٣) سحيق : بعيد - السريرة : ما يكتم ويُسَرّ - جيوب الأرض : مداخلها - صارم : سيف قاطع - الغمد : غلاف السيف - النجاد : حمائل السيف.

(١٤) تفرّى الليل عن صبحه : انشقّ وبدا الصبح - الطحلب : خضرة تعلو الماء المزمن - ثماد : ماء - الحداد : ثياب المأتم.

(١٥) الفيافى : الصحراوات الواسعة - البهاليل : السادة الكرام الجامعون لصفات الخير.

عَشِيَّةَ لا مثلَ الجوادِ ذخيرةٌ ولا مِثْلَ رَقْراق الحديد عَتادُ
إذا راب خَطْبٌ خَفَّرَتْني ثلاثةٌ سِنانٌ وعَضْبٌ صارمٌ وجوادُ
فبتُّ ولا غيرَ الحُسامِ مُضاجِعٌ ولا غيرَ ظَهْرِ الأَعْوَجِيِّ مِهادُ
مُعانِقَ خلٍّ لا يُخِلُّ وإنما مكانَ ذِراعيْهِ عليَّ نجادُ(١٦)

* * *

وقال فى وصف القمر :

لقد أصخْتُ إلى نجواكَ مِنْ قَمرٍ وبتُّ أُدْلِجُ بين الوَعْى والنظرِ(١٧)
لا أجتلى لمحَاً حتى أعِى مُلَحاً عَدْلًا من الحُكْم بين السمع والبصرِ(١٨)
وقدْ ملأتَ سوادَ العينِ مِنْ وَضَحٍ فَقَرِّطِ السمعَ قُرْطَ الأُنْسِ مِنْ سَمَرِ(١٩)
فلو جَمَعْتَ إلى حُسْنٍ مُحاورةً حُزْتَ الجماليْن مِنْ خُبْرٍ ومِنْ خَبَرِ
وإن صَمَتَّ ففى مَرْآكَ لى عِظَةٌ قد أَفْصَحَتْ لى عنها ألسُنُ العِبرِ
تَمُرُّ مِنْ ناقصٍ حَوْرًا ومُكتمِلٍ كَوْرًا ومِنْ مُرْتَقٍ طَوْرًا ومُنْحدرِ(٢٠)

* * *

وقال يصف شُهدة بعث بها إليه بعض أصدقائه : (٢١)

للهِ رِيقَةُ نَحْلٍ رَعَىَ الرُّبْى وَالشِّعَابَا
وَجَابَ أَرْضًا فَأَرْضًا يَغْشَى مَصَابًا مَصَابَا

---

(١٦) خفرتنى : حرستنى – الأعوجىّ أى القوس – الخلّ : الصديق المختصّ – لا يخلّ : لا يقصّر ولا يجحف .
(١٧) أدلج : أسرِ من أول الليل .
(١٨) لمحه ببصره لمْحًا : صوّبه إليه – المُلَح : جمع المُلْحة ، وهى الكلمة المليحة .
(١٩) قرّطه : ألبسه القرط ، وهو ما يعلّق فى شحمة الأذن .
(٢٠) يقال « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من النقص بعد الزيادة .
(٢١) الشهدة : القطعة من العسل .

حَتَّـــى ارْتَــوَى مِـــنْ شِفَـــاءٍ يَمُـــجُّ مِنْـــهُ رُضَـــابَـــا (٢٢)
إِنْ شِئْـــتَ كَـــانَ طَعَـــامًـــا أَوْشِئْـــتَ كَـــانَ شَـــرَابَـــا

* * *

وقال فى وصف نَهْر :

للهِ نَهْـــرٌ، ســـالَ فـــى بَطْحـــاءِ
أَشْهـــى وُرُودًا مِـــن لَمَـــى الحَسْنـــاءِ (٢٣)
مُتَعَطِّـــفٌ مِثْـــلُ السِّـــوارِ كـــأَنَّـــه ،
والـــزَّهْـــرُ يَكْنُفُـــه ، مَجَـــرُّ سَمـــاء
قَـــدْ رَقَّ ، حتَّـــى ظُـــنَّ قُـــرْصًـــا مُفْـــرَغًـــا
مِـــن فِضَّـــةٍ ، فـــى بُـــرْدَةٍ خَضَـــراء
وغـــدَتْ تَحُـــفُّ بـــه الغُصُـــونُ ، كـــأَنَّهـــا
هُـــدْبٌ يَحُـــفُّ بمُقْلَـــةٍ زَرْقـــاء (٢٤)
ولَطـــالَمَـــا عَـــاطَيْـــتُ فِيـــهِ مُـــدامَـــةً
صَفْـــراءَ ، تَخْضِـــبُ أَيْـــدِى النُّـــدَمـــاء
والـــرِّيـــحُ تَعْبَـــثُ بـــالغُصُـــونِ ، وقَـــدْ جَـــرَى
ذَهَـــبُ الأَصِيـــلِ عَلَـــى لُجَيْـــنِ المـــاء (٢٥)

* * *

(٢٢) يمجّ : يلفظ - الرضاب : رَغْوة العسل .
(٢٣) البطحاء : المكان الواسع ، يترك فيه السيل الرمل والحصى الصغار - اللَّمى : سمرة فى الشفاه .
(٢٤) الهُدْب : شعر الأجفان .
(٢٥) الأصيل : الوقت بين العصر والمغرب - اللجين : الفضة .

وقال فى صفة فرس :

وَأَقَبَّ وَرْدِيِّ الْقَمِيصِ بِمِثْلِهِ ... خِيضَ الظَّلَامُ وَرِيعَتِ الظُّلْمَانُ (٢٦)
يَمْشِى الْعِرَضْنَةَ فِي الطَّرِيقِ كَأَنَّهُ ... أَوْمَى بِجَذْبِ عِنَانِهِ نَشْوَانُ (٢٧)
فَبَدَا وَقَدْ مَلَأَ النُّفُوسَ مَسَرَّةً ... وَجَرَى بِمَا مُلِئَتْ بِهِ الْأَجْفَانُ
مُتَخَطِّفٌ مَا شَاءَهُ مُتَعَطِّفٌ ... فَكَأَنَّمَا هُوَ فِي الْعِيَانِ عِنَانُ (٢٨)
وَلَرُبَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ قَدْ خَاضَهُ ... سَبْحًا وَبِيضُ سُيُوفِهِ غُدْرَانُ
وَمِنَ الْحَمِينِ بِذِفْرَتَيْهِ فِضَّةٌ ... وَمِنَ النَّجِيعِ بِصَدْرِهِ عِقْيَانُ (٢٩)
وَالشُّهْبُ شُهْبٌ وَالْعَجَاجَةُ سُدْفَةٌ ... وَالشُّقْرُ جَمْرٌ وَالْقَتَامُ دُخَانُ
وَالْحَرْبُ رَوْضٌ فِيهِ مِنْ خُرْصَانِهَا ... زَهْرٌ وَمِنْ سُمْرِ الْقَنَى أَغْصَانُ (٣٠)
رَكِبُوا الْجِيَادَ إِلَى الْجِلَادِ وَأَوْجَفُوا ... حَتَّى كَأَنَّ وَجِيفَهُمْ طَيَرَانُ
فَكَأَنَّهُمْ مِنْ فَوْقِهَا أُسْدُ الشَّرَى ... وَكَأَنَّهَا مِنْ تَحْتِهِمْ عِقْبَانُ

* * *

وقال فى الحماسة والغزل :

مَضَاءٌ كَمَا سُلَّ الْحُسَامُ مِنَ الْغِمْدِ ... وَحَزْمٌ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزَّنْدِ
وَحُكْمٌ كَمَا زَاحَمْتَ مَنْكِبَ هَضْبَةٍ ... وَبَأْسٌ كَمَا حَدَّثْتَ عَنْ أَسَدٍ وَرْدِ (٣١)

---

(٢٦) أقبّ ؛ دقيق الخصر، ضامر البطن - رِيعت : فزعت - الظُّلمان : جمع الظليم، وهو ذكر النعام .
(٢٧) يمشي العرضنة أى مشية فيها اعتراض وبغى من النشاط - أومى : مسهّب أومأ بمعنى أشار.
(٢٨) متخطّف : يمرّ سريعًا - غدران : جمع غدير، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل .
(٢٩) الحميم : القيظ أو الماء الحار - الذفرى : العظيم الشاخص خلف الأذن - النجيع : الدم - عقبان : ذهب العجاجة : واحدة العجاج وهو الغبار - سدفة : الظلمة أو اختلاطها بالضوء - القتام : الغبار الأسود .
(٣٠) الخرصان : جمع الخُرص، وهو الحلقة من الذهب أو الفضّة - أوجفوا : أسرعوا فى سيرهم - يقال : هم أسد الشرى أى أشداء شجعان، والشرى : موضع كثير الأسد - عقبان : جمع عقاب وهو طائر كاسر.
(٣١) أسد وَرْد : لونه ما بين الكميت والأشقر.

بِأَمْثَالِهِمْ مِنْ مِـنْ فِتْيَةٍ أَقْتَضِي الْمُنَى ... وَفَتْكِ الْقَنَى بِالْكَفِّ وَالْكَفُّ بِالزَّنْدِ

شَبَابٌ عَلَى خَيْلٍ عِرَابٍ فَإِنْ يَكُنْ ... جِلَّدٌ فَقُلْ فِي بَأْسِ مُرْدٍ عَلَى جُرْدِ (٣٢)

إِذَا اعْتَقَلُوا الْخَطِّيَّ فِي لَيْلَةِ السُّرَى ... نَظَرْتَ إِلَى الْخَطِّيِّ مُلْدًا عَلَى مُلْدِ (٣٣)

فَأَسْمَرُ عَسَّالٌ وَّخُمْصٌ بَاسِلٌ ... وَمَثْوَى الرَّدَى بَيْنَ الْأَسَاوِرَةِ الْأُسْدِ (٣٤)

تَسَاقَوْا وَمَا غَيْرَ النَّجِيعِ سُلَافَةٌ ... تُدَارُ وَلَا غَيْرَ الْأَسِنَّةِ مِنْ وِرْدِ

وَلَا شَجَرٌ إِلَّا مُثَقَّفَةُ الْقَنَا ... وَلَا نَهَرٌ إِلَّا مُشَطَّبَةُ الْهِنْدِ (٣٥)

فَزَهْرٌ وَلَكِنْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنِ الْجَنَى ... وَمَاءٌ وَلَكِنْ غَيْرُ مُسْتَعْذَبِ الْوِرْدِ

قَدِ انْتَظَمُوا فِي نَحْرِ شُقْرٍ قِلَادَةً ... وَكُلُّهُمُ وُسْطَى فَنَاهِيكَ مِنْ عِقْدِ

فَدَيْتُهُمُ مِنْ كُلِّ أَرْوَعَ مَاجِدٍ ... كَرِيمِ السَّجَايَا لَا يَزِيفُ إِلَى النَّقْدِ (٣٦)

وَمَا مِنْهُمُ إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلٌ ... رَفِيعُ سَمَاءِ الْمَجْدِ هَامِي حَيَا الرِّفْدِ (٣٧)

مِكَرٌّ وَصَدْرُ الرُّمْحِ يَهْتَزُّ عِزَّةً ... وَيَمْضِي وَجَفْنُ السَّيْفِ يُسْفِرُ عَنْ جِدِّ

وَقَدْ عَطَفَ الضَّرْبُ الْحُسَامَ بِمَفِّهِ ... وَغَيْرُ قَوِيمٍ بُرْثُنُ الْأَسَدِ الْوَرْدِ

وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قَنَاتِهِمْ ... لَخِدْنُ الْعُلَى تِرْبُ النَّدَى لِدَةُ الْمَجْدِ (٣٨)

---

(٣٢) عراب : عربية ليس فيها عرق هجين – جلاد : مضاربة – المرد : جمع الأمرد وهو الذى ينبت شاربه ويبلغ خروج الحيته ولم تبد – الجرْد : الخيول السباقة .

(٣٣) اعتقلوا الخطىّ : جعلوه بين الركاب والساق ، والخطىّ هو الرمح – مُلْد : لينة .

(٣٤) الأسمر العسال : الرمح المضطرب المهتزّ للينه – أخمص : ضامر – الأساورة : جمع إسوار وهو الذى يجيد الرمى بالسهام .

(٣٥) مثقفة القنا : الرماح المسوّاة – مشطّبة الهند : السيوف لها شُطب أى خطوط أو طرائق تتراءى فى متونها .

(٣٦) ناهيك منه : كافيك عن تطلّب غيره – السجايا : جمع سجيّة وهى الطبيعة والخلق – لايزيف بمعنى لايمشى .

(٣٧) أغرّ محجّل بمعنى مشهور – الحيا : المطم – الرفد : العطاء .

(٣٨) برثن : مخلب – خدن : صديق – الترب واللدة : كلاهما بمعنى المماثل فى السنّ .

أَخُوضُ الظُّبَى تَخْضَرُّ فِي النَّقْعِ بِيضُهَا ... فَأَلْقَى الْمَنَايَا الْخُمْرَ فِي الْحُلَلِ الرُّمْدِ
فَأَطْعَنُ مِنْ عَزْمِي بِأَمْضَى مِنَ الْقَنَى ... وَأَعْتَزُّ مِنْ حَزْمِي بِأَوْفَى مِنَ السَّرْدِ (٣٩)
وَأَطْلُعُ لِلأَعْدَاءِ مِنْ حَيْثُ تَنْتَحِي ... طُلُوعَ جَبِينِ الشَّمْسِ لِلأَعْيُنِ الرُّمْدِ
عَلَى أَنَّ لِي قَلْبًا تَمَلَّكَهُ الْهَوَى ... فَلِلْحبِّ مَا يُخْفِي وَلِلشَّوْقِ مَا يُبْدِي
وَأَغْيَدَ قَدْ صَارَ الْعِذَارُ بِخَدِّهِ ... كَمَا خُطَّ بِالْكَافُورِ سَطْرٌ مِنَ النَّدِّ (٤٠)
تَخَيَّرْتُهُ مِنْ فِتْيَةِ الْحَيِّ سَيِّدًا ... تَكَوَّنَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ السَّعْدِ

* * *

وقال فى العتاب ، وقد بلغه عن صديق له ، أنه نال منه فكتب بها إليه :

خُذْها يُرنُّ بها الجوادُ صَهيلا ... وتَسِيلُ ماءً فى الحُسامِ صَقيلا
بَسَّامةً تُصْبى الأَريبَ وَسامةً ... لولا المشيبُ لسُمتُها تَقْبيلا (٤١)
حَمَّلْتُها شَوْقاً إليك تحيةً ... حَمَّلْتها عَتْباً عليكَ ثَقيلا
مِنْ كُلِّ بيتٍ لو تدفَّقَ طبعُهُ ... ماءً لغَصَّ به الفضاءُ مَسِيلا
إيهِ وما بينَ الجوانح غُلَّةٌ ... لو كنتُ أَنْقَعُ بالعتابِ غليلا (٤٢)
ما للصديقِ وُقِيتَ تأكُلُ لَحْمَهُ ... حَيًّا وتجعلُ عِرْضَهُ مِنْديلا
أَقْبَلْتهُ صدْرَ الحُسامَ وطالما ... أَضْفَيْتهُ دِرْعاً عليكَ طويلا (٤٣)
ماذا ثناكَ عن الثناءِ ونَشْرِهِ ... بُرْداً على الرسْمِ الجميلِ جميلا

(٣٩) السرد : اسم جامع للدروع وساير الحَلَق .
(٤٠) أغيد : ناعم متمايل – العذار : جانب اللحية – الكافور : نبت طيب الريح – النَدّ : ضرب من النبات يتبخّر بعوده.
(٤١) صقيل : لامع حاد – تصبى : تستميل – الأريب : العاقل .
(٤٢) الغلّة والغليل : كلاهما بمعنى شدة العطش – أنقع : أروى .
(٤٣) أقبلته صدر الحسام : سدّدته نحوه .

أرِجــاً كمــا عَثَــرَ النسيـــمُ بــروضــةٍ ... لَــدْنًــا كمــا نَضَــحَ الغمــامُ مَقِيــلا (٤٤)

أعــد التفـــاتـــك وأدْرِكْهـــا خلَّــةً ... لا تَسْتَقِـــلّ بهـــا عُـــلاكَ مَمِيـــلا

وأصِـخْ إلـى سَجْـعِ القــريـضِ فــربمّـا ... نَـدَبَ القــريـضُ مـــنَ الوفــاءِ هـديــلا

وعُـــجِ المطِـــيَّ علـى الـــودادِ وحَيِّـــهِ ... طللًا علـى حُكْـمِ الـزَّمـانَ مُحِيـلا (٤٥)

وابعـــث بطَيْفِـــك واعْتَقِـــدْهـــا زَوْرةً ... وصِـــلِ الســـلامَ علـــى النَّـــوى تَعْليـــلا

ولِئِــنْ سَــألْــتُ بـــك الغَمــامــةَ وابـــلًا ... يَسِـمُ الجـديـبَ لمَـا سَـألْـتُ بخَيـلا (٤٦)

وإذا دَعَبْـــتَ ولا دُعـــابَـــةَ غَيْبَـــةٍ ... فـــاغضُـــضْ هنـــاكَ مـــن العِنـــانَ قليـــلا

واصْحَـبْ وذِهنُــكَ مِـنْ هَجيــرٍ لافــحٍ ... ذِكْـــراً كمـــا سَـــرَتِ القَبُـــولُ بَليـــلا

فلقــد حَلَلْـــتَ مـــع الشبـــاب بمنــزل ... بَـــرْتَـــدُّ طَـــرْفُ النَّجْـــمِ عنـــهُ كليـــلا

وَبَــدهْـــتَ لا نَـــزْرَ المحـــاســـنِ مُجْبِـــلًا ... ومَضَيْـــتَ لا قَضِـــمَ الغِـــرارِ فَليـــلا (٤٧)

مُتَــدَفِّقـــاً أَعْيــا العُقـــولَ طَــرِيقـــةً ... فكـــأنّمـــا رَكِـــبَ المجَـــرَّ سَبيـــلا

يستـــوقـــفُ العَلْيـــا جَـــلالًا كُلّمـــا ... سَجَـــدَ اليـــراعُ بكفِّـــه تَبْجيـــلا (٤٨)

لا تستنيـــرُ بـــكَ السِّيـــادةُ غُـــرَّةً ... حتـــى يَسيـــلَ بـــك النَّـــدى تَحْجيـــلا

وســـوايَ يُنشِـــدُ فـــى ســـواك نـــدامـــةً ... يـــاليتنـــى لـــمْ أتَّخِـــذْك خَليـــلا (٤٩)

* * *

(٤٤) الأرج : الذى فاحت رائحته – لدْن : ليّن ناعم – نضحت السماء : أمطرت – المقيل : موضع القيلولة .

(٤٥) مُحيل : متغيرّ، أتى عليه أحوال .

(٤٦) الوابل : المطر الغزير – يسم : يصيب الأرض ويؤثر فيها – الجديب : الأرض اليابسة التى احتبس الماء عنها.

(٤٧) كليل : ضعيف النظر – بدهت : بدأت – مجبل : بخيل – القضِم : السيف الذى طال عليه الدهر فتكَسَّر حدّه – الغِرار : الجيش الكثيف – فليل بمعنى المكسور المثلّم .

(٤٨) أعيا : أعجز – المجرّ : مجموعة من الأجرام السماوية تتراءى من الأرض كوشاح أبيض – اليراع : القلم .

(٤٩) قال تعالى « يا وَيْلَتَى لَيْتَنى لم أتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » – سورة الفرقان ٢٨

وقال قصيدة كتب بها إلى أبى عَبْد الله بْن عَائِشَة ، رحمه اللهُ ! :

مِنْ لَيْلَةٍ لِلرَّعْدِ فِيهَا صَرْخَةٌ | لَا تُسْتَطَابُ وَلِلْحَيَا إِيقَاعُ
خَلَعَتْ عَلَيَّ بِهَا رِدَاءَ غَمَامَةٍ | رِيحٌ تُهَلْهِلُهُ هُنَاكَ صَنَاعُ (٥٠)
وَالصُّبْحُ قَدْ صَدَعَ الظَّلَامَ كَأَنَّهُ | وَجْهٌ وَضِيءٌ شَفَّ عَنْهُ قِنَاعُ
فَرَفَلْتُ فِي سَمَلِ الدُّجَى وَكَأَنَّمَا | فَزَعُ السَّحَابِ بِجَانِبَيْهِ رِقَاعُ
وَدَفَعْتُ فِي صَدْرِ الرَّدَى عَنْ مَطْلَبٍ | بَيْنِي وَبَيْنَ الدَّهْرِ فِيهِ قِرَاعُ (٥١)
وَقَبَضْتُ ذَيْلِي رَغْبَةً عَنْ مَعْشَرٍ | عُوجِ الطِّبَاعِ كَأَنَّهُمْ أَضْلَاعُ
جَارِينَ فِي شَوْطِ الْعِنَادِ كَأَنَّهُمْ | سَيْلٌ تَلَاطَمَ مَوْجُهُ دَفَّاعُ
يَرْمُونَ أَعْطَافِي بِنَظْرَةِ إِحْنَةٍ | وَقَدَتْ كَمَا تُذْكِي الْعُيُونَ سِبَاعُ
أَفْرَغْتُ مِنْ كَلِمِي عَلَى أَكْبَادِهِمْ | قِطْرًا لَهُ أَسْمَاعُهُمْ أَقْمَاعُ (٥٢)
وَوَصَلْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ | حَتَّى كَأَنَّا مِعْصَمٌ وَذِرَاعُ
وَظَفِرْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَشِيبِ بِصَاحِبٍ | خَلَفَ الشَّبَابَ فَلِي إِلَيْهِ نِزَاعُ
قَدْ كُمْتُ أُغْلِي فِي ابْتِيَاعِ وِدَادِهِ | لَوْ أَنَّ أَعْلَاقَ الْوِدَادِ تُبَاعُ
وَإِلَيْكَهَا غَرَّاءَ لَوْلَا حُسْنُهَا | لَمْ تُفْتَقِ الْأَبْصَارُ وَالْأَسْمَاعُ
عَبِقَتْ بِهَا فِي كُلِّ كَفٍّ زَهْرَةٌ | فُتِقَتْ لَهَا مِنْ حُسْنِهَا أَقْمَاعُ (٥٣)

* * *

(٥٠) تهلهله : ترقق نسجه – صناع : ماهرة .
(٥١) ثوب سَمَل : خلق بال – قزع السحاب : قطعه المتفرقة – رقاع : جمع رُقعة وهى القطعة – قراع : مضاربة .
(٥٢) إحنة : حقد – الأقماع : الآذان ، يقال : « ويل لأقماع القوم » يعنى الذين يسمعون القول ولا يعملون به ، شبه آذانهم وكثرة ما يدخلها من المواعظ ، وهم مصرّون على ترك العمل بها بالأقماع التى تفرّغ فيها الأشربة ، ولا يبقى فيها شيء .
(٥٣) أقماع : جمع – قمع ، وهو الأصل الأخضر الذى يبقى على الغصن بعد ذهاب أوراق الورد فيحمرّ .

وقال ، وكتب بها إلى أبي عَبْد الله مُحَمَّد بْـن عَائشَة يستدعيه للأنس به ، والراحة معــه ، فيما كانا يشتركان فيــه من نظر ، ولطب صديــق لهما تعذرت معالجته ، وطالت شكايته :

يَـــا هِـــزَّةَ الْغُصْـــنِ الْـــوَرِيـــقْ ... وَبَشَـــاشَـــةَ الـــرَّوْضِ الأَنِيـــقْ
أَأَتَتْكُمَـــا بُشْـــرى بِسُقْيَـــا ... أَمْ سَـــلاَمٌ مِـــنْ صَـــدِيـــقْ
فَهَـــزَزْتَ مِـــنْ عِطْـــفٍ نَـــدٍ ... وَسَفَـــرْتَ عَـــنْ وَجْـــهٍ طَلِيـــقْ
وَلَقَـــدْ أَقُـــولُ إِذَا سَـــرَى ... بَيْـــنَ الأَقَـــاحِـــي وَالشَّقِيـــقْ (٥٤)
نَفَـــسٌ وَنَـــى فَكَـــأَنَّـــهُ ... مِـــنْ رِقَّـــةٍ لَفْـــظُ الشَّفِيـــقْ
بِـــالله يَـــا نَفَـــسَ الصَّبَـــا ... حَـــيِّ الصَّـــدِيـــقَ عَـــنِ الصَّـــدِيـــقْ
قُـــلْ لِلْحَبِيـــبِ بَـــلِ الْحَمِيـــمِ ... بَـــلِ الشَّفِيـــقِ بَـــلِ الشَّقِيـــقْ
يَـــا مُلْتَقَـــى الْخُلُـــقِ الشَّـــرِيـــفِ ... وَهَشَّـــةَ الْـــوَجْـــهِ الطَّلِيـــقْ
إِنَّ النَّجَـــــــاةَ بَعِيــــــدَةٌ ... فَـــاسْلُـــكْ بِنَـــا قَصْـــدَ الطَّـــرِيـــقْ
وَارْكُـــضْ بِنَـــا رَكْضَـــا حَثِيثًـــا ... فِيـــهِ عَـــنْ نَظَـــرٍ رَقِيـــقْ (٥٥)
فَلِمِثْلِهَـــا مِـــنْ شُقَّـــةٍ ... أَعْـــدَدْتُ مِثْلَـــكَ مِـــنْ رَفِيـــقْ
فَـــارْغَـــبْ بِنَفْسِـــكَ عَـــنْ مَكَـــا ... نٍ قَـــدْ نُبِـــذْتَ بِـــهِ سَحِيـــقْ (٥٦)
وَارْكَـــبْ بِـــيَ اللَّفْـــظَ الْجَلِيـــلَ ... وَسِـــرْ إِلَـــى الْمَعْنَـــى الـــدَّقِيـــقْ
وَامْسَـــحْ قَـــذَى طَـــرْفِـــي بِـــهِ ... يَمْتَـــدَّ فِـــي فَـــجٍّ عَمِيـــقْ

---

(٥٤) عِطف : جانب – ندىّ : مبتلّ – الأقاحى والشقيق : من الزهور .
(٥٥) حثيث : سريع .
(٥٦) نُبذت به : طرحت .

وَشُبِ الْوَعِيدَ بِمَوْعِدٍ   فَالْمَاءُ يُمْزَجُ بِالرَّحِيقْ (٥٧)
وَتَلَافَ مِنْ بَحْرِ الشَّكَاةِ   أَخَا يَمُدُّ يَدَ الْغَرِيقْ
لا بِالسَّقِيمِ وَلا الصَّحِيحِ   وَلَا الأَسِيرِ وَلَا الطَّلِيقْ
لَوْ جِئْتَهُ فَفَجَأْتَهُ   لأَقَلَّ جَفْنَ الْمُسْتَفِيقْ
لَا تَبْخَلَنَّ بِنَفْحَةٍ   وَثَرَاكَ مِنْ مِسْكٍ فَتِيقْ (٥٨)
وَارْبَعْ بِوَادِي عِيشَةٍ   خَضِلٍ وَنَمْ فِى رَأْسِ نِيقْ (٥٩)

* * *

وقال يتألم لشكوى من لم يرها إلاّ بوساطة خطاب وزورة خيال :

يا مُنْيَةَ النَّفْسِ حَسْبى ، مِن تَشَكِّيك   أَنِّى أُصَابُ ، وكَفُّ الدَّهْرِ تَرْمِيكِ
ولَوْ تَسامَحَ خَطْبٌ فى فِدائِك بى   لكُنْتُ ، مَهْما عَراخَطْبٌ ، أُفَدِّيك (٦٠)
وكيفَ أُغْفِى بليلٍ تَسْهَرِينَ بِه   أو أَسْتَسِيغُ شَرابًا ليس يُرْوِيك ؟
هُمَيْدَ ، أَوْجَعْتِ قَلْبًا قَدْ أَقَمْتِ به   ما بالُ طَرْفى ، وما يُدرِيك ، يَبْكيك
فرُبَّ لُؤْلُؤِ دَمْعٍ كُنْتُ أَذْخَرُه   عِلْقًا أُغالِى به ، أَرْخَصْتُه فيك (٦١)
وإنْ نَأَى بكِ رَبْعٌ غَيْرُ مُقْتَرِبٍ   أوِ احْتَواكِ حِجابٌ فيه يُقْصِيك
فإنَّ كُلَّ نَسِيمٍ خَصَّه أَرَجٌ   رسُولُ شَوْقٍ ، أَتَى عَنى يُحَيِّيك (٦٢)
وربَّما شَفَعَتْ لى غفْوةٌ نَسَخَتْ   أُخرى الظلام ، فباتَ الطَّيْفُ يُدْنِيك !

* * *

---

(٥٧) الرحيق : الخمر.
(٥٨) النفحة : الطيب ترتاح له النفس – فتيق : مخلوط بما يذكيه .
(٥٩) رَبَع بالمكان : أقام فيه واطمأنّ – خِضل : ناعم ندّى – النيق : الطويل من الجبال .
(٦٠) عرا : ألمّ وأصاب .
(٦١) العلق : الشيء النفيس .
(٦٢) الأرج : انتشار الرائحة الطيّبة .

وقال يتوجع لفقد الشباب ، والأحباب ، ويصف فرسًا أشهب :

أَلَا سَرَتِ الْقَبُولُ وَلَوْ نَسِمًا ... وَجَاذَبَنِى الشَّبَابُ وَلَو قَسِيماً [٦٣]

وَطَالَعَنِى الظَّلَامُ بِهِ خَيَالًا ... فَأَقْبَلَ نَاظِرِى وَجْهًا وَسِيمًا

تَقَضَّى غَيْرَ لَيْلٍ مَا تَقَضَّى ... كَأَنَّ بِمَضْجَعِى فِيهِ سَلِيمًا

أُصَانِعُ تَحْتَهُ طَرْفًا قَرِيحًا ... غِرَارَ النَّوْمِ أَوْ قَلْبًا أَلِيمًا [٦٤]

كَأَنِّى مَا أَلِفْتُ بِهِ شَفِيعًا ... هُنَاكَ وَلَا طَرِبْتُ لَهُ نَدِيمًا

فَمَهْمَا شَاقَ مِنْ بَرْقٍ مُلِيحٍ ... أَرِقْتُ لَهُ أُنَاجِيهِ كَلِيمًا

وَأَسْأَلُ هَلْ سَقَى طَلَلًا بِحُزْوَى ... عَفَا قِدَمًا وَهَلْ جَادَ الْغَمِيمَا

وأَنْشَقُ لَوْعَةً لِعَرَارِ نَجْدٍ ... صَبًا نَجْدٍ أُسَائِلُهَا شَمِيمًا [٦٥]

وَكُنْتُ رَجَوْتُ أَنْ أَعْتَاضَ مِنْهُ ... زَعِيمًا أَوْ عَلِيمًا أَوْ حَلِيمًا

وَلَمَّا أَنْ نَظَرْتُ مَعَ اللَّيَالِى ... فَلَمْ أَنْظُرْ بِهَا إِلَّا مُلِيمَا

عَبَامًا أَوْ كَهَامًا أَوْ جَهَامًا ... لَئِيمًا أَوْ دَمِيمًا أَوْ ذَمِيمًا [٦٦]

شَدَدْتُ عَلَى الْقَوَافِى كَفَّ حُرٍّ ... كَرِيمٍ لَا يُسَوِّغُهَا لَئِيمًا

فَمَا أُطْرِى إِذَا أَطْرَيْتُ إِلَّا ... حَمِيًّا أَوْ حَبِيبًا أَوْ حَمِيمًا [٦٧]

وَمَطْرُورًا أُجَرِّدُهُ صَقِيلًا ... وَيَعْبُوبًا أُكُرُّ بِهِ كَرِيمًا [٦٨]

---

(٦٣) القبول : ريح الصَّبا – قسيم الشىء : شطره والنصيب منه .

(٦٤) السليم : الملدوغ أو الـريح المشفى على الهلكة – أصانـع : أدارى وألاين – قريح : جريـح – غرار النوم : القليل منه .

(٦٥) مليح : باد ظاهر – أنشق : أشمّ – العرار : نبات طيّب الرائحة – الشميم : ما يشمّ .

(٦٦) المليم : الذى يأتى ما يلام عليه – عبام : أحمق غليظ الخلقة – كهام : بطىء ضعيف – جهام : لا خير فيـه .

(٦٧) أطرى : أثنى – حمىّ : كلّ محمىّ – حميم : قريب تودّه ويودّك .

(٦٨) سنان مطرور : محدّد – صقيل : مجلوّ – يعبوب : فرس طويل سريع .

إِذَا أَقْبَلْتُــــهُ سُمْـــرَ الْعَـــوَالِــي   فَلَسْــــــتُ أَرُدُّهُ إِلَّا كَلِيمَــــــا
وَقَـــدْ لَــفَّ الْعَــدُوَّ كَـــأَنَّ رِيحًــا   عَلَـى شَــرَفٍ تَلَـفُّ بِــهِ هَشِيمَـا (٦٩)
يَشِيـــمُ بِــهِ وَرَاءَ النَّقْـــعِ بَـــرْقًــا   تَــأَلَّــقَ شُهْبَـــةً وَصفَــا أَدِيمَــا (٧٠)
إِذَا أَوْطَــأْتُـــهُ أَعْقَـــابَ لَيْـــلٍ   طَــرَدْتُ مِــنَ الظَّــلَامِ بِــهِ ظَلِيمَـا (٧١)

* * *

وقال مع الاكتهال :

طُـــوبَـــى لِعَبْـــدٍ قَــامَ خَشْيَـــةَ رَبِّـــهِ   وَاللَّيْـلُ قَــدْ ضَــرَبَ الظَّـلَامَ رِوَاقَـا (٧٢)
خَضِـلِ الْمَدَامِعِ خَوْفَ عَرْضَـةِ مَالِكٍ   خَضَــعَ الْمُلُــوكُ لَــهُ بِهَــا أَعْنَـاقَـا
وَالنَّـاسُ مِـن كَـابٍ هُنَـاكَ وَسَـابِقٍ   قَــدْ أُلْـزِمُــوا أَعْمَــالَهُــمْ أَطْـوَاقَـا
فَحَنَـانَــكَ اللَّهُـمَّ فِــي عَبْـدٍ غَــوَى   زَمَنًــا فَشَـدَّ إِلَـى الْفُسُـوقِ نِطَـاقَـا (٧٣)
قَلِـقِ الْمَضَـاجِـعِ بَـاتَ يَقْـرَعُ سِنَّـهُ   نَــدَمًـا وَيُــرْسِـلُ دَمْعَــهُ إِشْفَـافَـا
سَحَـبَ الشَّبِيبَـةَ فِـي الْغَـوَايَـةِ ضِلَّـةً   حَتَّــى تَسَــرْبَـلَ ثَوْبَهَــا أَخْـلَاقَـا (٧٤)
فَلَئِـــنْ سَطَـوْتَ بِــه فَــلَا ظُلْمًـا لَـهُ   وَلَئِــنْ صَنَعْــتَ لَـهُ فَـلَا اسْتِحْقَـاقَـا

* * *

(٦٩) الشرف : الموضع العالى – الهشيم : المتكسر كالنبات من عام أوّل .
(٧٠) يشيم البرق : ينظر إليه يتحقق أين يكون مطره – شهبة : بياض مختلط بسواد .
(٧١) أوطأته : جعلته يطأ أى يدوس – ظليم : ذكر النعام .
(٧٢) طوبى : كلّ مستطاب فى الجنة من بقاء بلا فناء ، وعزّ بلا زوال ، وغنى بلا فقر – الرواق : بيت كالفسطاط يحمل على عمود واحد طويل ، ورواق الليل : مقدمه وجانبه .
(٧٣) كاب : عاثر – حنانك : رحمتك – شدّ نطاقا إليه أى تهيأ ، والنطاق : حزام يشدّ به الوسط .
(٧٤) أخلاق : جمع خَلَق ، وهو البالى من الثياب والجلد وغيرهما .

وقال فى ذلك الغرض :

كَفَــى حِكْمَـةً للهِ أَنَّــكَ صَـائِرٌ   تُـرَابًـا كَمَـا سَـوَّاكَ قَبْـلُ فَعَـدَّلَـكْ
وَلَيْـسَ بِخَـافٍ كَيْـفَ كَـوْنـكَ ثَـانِيًـا   وَهَـا أَنْـتَ رَاءٍ كَيْـفَ كَـوَّنَ أَوَّلَـكْ
فَهَـلْ أَنْـتَ فِـي دَارِ الْفَنَـاءِ مُمَهِّـدٌ   مَحَلَّـكَ فِـي دَارِ الْبَقَـاءِ وَتَنْـزِلَـكْ

* * *

قال بن خفاجة يرثى جملة من الإخوان الأعيان . تلاحقوا فى أقصر مدة من الزمان . ويندب ريعان الشباب . ومعاهد أولئك الآتراب الأحباب . ويمدح أبا العلاء ابن زُهر . أعزه الله ! وكتب بها إليه . منتصف محرم سنة أربع عشرة وخمسمائة:

كفـانىَ شَكـوَى أن أرى المجـدَ شـاكيـا   وحَسْـبُ الـرزايـا أن تـرانـىَ بـاكيًـا
أدارى فـؤادًا يَصْـدعُ الصـدْرَ زَفْـرةً   ورَجْـعَ رنيـنٍ يَجْلِـبُ الدمـعَ ساجيـا (٧٥)
وكيـفَ أُوارى مِـن أُوارٍ وَجَـدْتنـى   لـه صـادراً عـنْ مَنْهـل المـاء صـاديـا (٧٦)
وهـا أنـا تَلْقـانـى اللَّيـالـى بمِلْئهـا   خُطـوبـاً وأَلْقـى بـالعَـويـل الليـاليـا
ويطْـوى علـى وَخْـز الأَشَـافى جَـوانحـى   تَـوالِـى رَزايـا لاتَـرى الـدَّمْـعَ شـافِيـا (٧٧)
ضمـانٌ عليهـا أَنْ تـرى القلْـبَ خـافقـا   طِـوالَ الليـالـى أَوْ تَـرى الطَّـرْف داميـا
وإنَّ صَفـاءَ الـوُدِّ والعَهْـدِ بيننـا   لَيَكْـرُمُ عـنْ أَنْ أشـربَ المـاءَ صـافيـا
وكـمْ قـدْ لَحَتْنـى العـاذِلاتُ جَهـالـةً   ويَـأْبـى المُعَنَّـى أَنْ يُطِيـعَ اللَّـواحيـا (٧٨)
فقلـتُ لهـا إِنَّ البُكـاءَ لـراحـةٌ   بـه يَشْتَفـى مَـنْ ظَـنَّ أَلَّا تـلاقيـا

(٧٥) يصدع : يشق – ساجيًا : دائماً .
(٧٦) أوارى : أخفى – الأوار : شدّة العطش – صاديًا : عطشان .
(٧٧) الأشافى : جمع الإشفى ، وهو أداة تستعمل فى خصف النعال .
(٧٨) لحتنى : لامتنى ، واللواحى : اللائمون – المعنىّ : الذى يُكلّف ما يشقّ عليه .

أَلَا إِنَّ دَهْـراً قـد تَقَـاضَـى شَبِيبَتِـى ... وصَحْبِى لَدَهْـرٌ قد تَقَاضَى المرازيا (٧٩)
وقد كنتُ أُهدى المدْحَ والدارُ غُربةٌ ... فكيفَ بإهدائى إليه المراثيا
أإخوانَنَا بالعُذَوَيْن صَمَمْتُمُ ... بحُكْمِ الرَّدى عنْ أنْ تُجيبوا مُناديا
فقَيَّدْتُ مِنْ شَجْوى وأَطْلَقْتُ عَبْرتى ... وخَفَضْتُ مِنْ صَوْتى هنالكَ شاكيا
وَأَكْبَرْتُ خَطْبًا أنْ أرى الصبرَ بائنًا ... وراءَ ظلامِ اللَّيْلِ والنَّجْمِ ثاويا
وأنْ عَطِلَ النادى به مِنْ حِلَاكُمُ ... وكانَ على عَهْدِ التفاوُضِ حاليا (٨٠)
وما كانَ أَحْلَى مُقْتَضَى ذلك الجَنَى ... وأَحْسَنَ هاتيكَ المرامِى مَراميا
وَأَنْدَى مُحيًّا ذلك العصرِ مَطْلَعًا ... وأَكْرَمَ نادِى ذلك الصَّحْبِ ناديا
زمانٌ تَولَّى بالمحاسنِ عاطِرٌ ... تكادُ لياليه تَسِيلُ غواليا (٨١)
تَقَضَّى وأَبْقَى بين جَنْبَى لَوْعَةً ... أُناجِى لها أُخرى اللَّيالى البَواكيا
كأنِّىَ لمْ آنسْ إلى اللَّهْوِ لَيْلَةً ... ولم أَتَصَفَّحْ صَفْحَةَ الدَّهْرِ راضيا
ولم أتَلَقَّ الرِّيحَ تَنْدَى على الحشا ... سُلُوًّا ولم أطْرَبْ إلى الطَّيرْ شاديا
وكانتْ تَحايانا عَلَى القُرْبِ والنَّوى ... تَطِيبُ على مَرِّ الليالى تعاطيا
فهلْ مِنْ لِقاءٍ مُعْرِضٍ أو تَحِيَّةٍ ... معَ الرَّكْبِ يَغْشَى أو معَ الطَّيْفِ ساريا
فها أنا والأَرْزاءُ تَقْرَعُ مَرْوَةً ... بصَدْرِى وقَلْباً بَيْن جَنْبَىَ حانيا (٨٢)
أَحِنُّ إذا ما عَسْعَسَ اللَّيْلُ حَنَّةً ... تُذيبُ الحَوايا أو تَفُضُّ التَّراقيا (٨٣)

---

(٧٩) المرازىء : جمع المرزئة وهى المصيبة .
(٨٠) عطِل : خلا من الزينة ، وامرأة عاطل أى خالية من الحلى .
(٨١) الغوالى : جمع الغالية ، وهى نوع من الطيب مركب من المسك والعنبر وغيرهما .
(٨٢) الأرزاء : جمع الرزء ، وهى المصيبة - المروة : واجدة المرو ، وهو ضرب من الحجارة تقدح منها النار .
(٨٣) عسعس بمعنى أقبل أو أدبر ، فهو من الأضداد - الحوايا : الأمعاء - التراقى : العظام المشرفة بين ثغرة النحر والعاتق .

وأُرْخِصُ أَغْلاقَ الدُّموعِ صَبابةً | وعَهْدِي بأَغْلاقِ الدُّموعِ غَواليا (٨٤)
فما بِنْتُ أَيْكٍ بالعَراءِ مُرِنَّةٌ | تُنادِي هَدِيلًا قد أَضَلَّتهُ نائيا (٨٥)
وتَنْدُبُ عَهْدًا قد تَقَضَّى برامَةٍ | ووَكْرًا بأَكْنافِ المشَقَّرِ خاليا
بأَخْفَقِ أَحْشاءً وأَنْبَى حَشِيَّةً | وأَضْرَمَ أَنْفاساً وأَنْدَى مآقِيا (٨٦)
فمَنْ قائلٍ عَنِّى لِوادٍ بذِى الغضى | تأَرَّجَ مَعَ الإِمْساءِ حُيِّيتَ واديا (٨٧)
وعَلِّلْ بريَّا الرَّنْد نَفْسًا عليلةً | مَعَ الصُبحِ يَنْدَى أَوْ مَعَ اللَّيلِ هاديا (٨٨)
فكَمْ شاقَنى مِنْ مِنْظَرٍ رائِقٍ | هَزَزْتُ لهُ مِنْ مِعْطَفِ السُّكْرِ صاحيا
وَضاحَكَنى مِنْ أُقْحُوانٍ ومَبْسِمٍ | فلَمْ أدرِ أيٌّ كانَ ثَمَّ الأقاحيا
ودون حِلى تِلكَ الشَّبيبةِ شَيْبَةٌ | حَلِيتُ بها رَغْما ولَمْ أكُ حاليا (٨٩)
وإنَّ أَجَدَّ الوَجْدِ بأَشْمَطٍ | تَلَدَّدَ يَسْتَقْرِى الرُّسُوم البواليا (٩٠)
وتَهْفُو صَبا نَجْدٍ بهِ طِيبَ نَفْحَةٍ | فَيَلْقَى صَبا نَجْدٍ بما كان لاقيا
فقلْ لليالى الخَيْفْ : هل من مُعرّجٍ | عَلَينا ولو طَيْفاً سُقِيتِ لياليا (٩١)
وردِّدْ بهاتيكَ الأباطحِ والرُّبى | تحيَّةَ ناءٍ ليسَ يَرْجو التلاقيا
فما أَسْتَسيغُ الماءَ بعذْبُ ظامئاً | ولا أَسْتطيبُ الظِّلَّ يبرُدُ ضاحيا
ولَوْلا أَمانٌ عَلَّلَتْنى على النَّوَى | بلُقْيا ابنِ زُهْرٍ ما عَرَفْتُ الأمانيا

---

(٨٤) أعلاق : نفائس .
(٨٥) الأيك : الشجر الكثير الملتف - مِرنّة : صائحة - الهديل : ذكر الحمام .
(٨٦) أنبى : من نبا الشيء أى لم يستوفى مكانه .
(٨٧) الغضا : شجر من الأثل ، خشبه من أصلب الخشل - تأرّج الطيب : فاح .
(٨٨) الرند : شجر طيب الرائحة .
(٨٩) الشبيبة : الشباب ، والشيبة : ابياض الشعر .
(٩٠) الأشمط : الذى اختلط سواد شعره بياض - تلدّد : تحيرّ.
(٩١) الخيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء .

أخو المجد لم يعدلْ عن النَّجْد نازِلا ... بأَرْضٍ ولم يَشْمَخْ مع الوجَدْ نازيا
تَلُوذُ بِرُكْني حالقٍ منه شاهقٍ ... فتَغْشَى كريمًا حاملًا عنك حاميا
تُساجِلُ طَوْرًا كفُّهُ الغيثَ غاديا ... ويحملُ طورًا درعُهُ اللَّيْث عاديا
وَتبْأَى العُلا منهُ بأبيضَ ماجدٍ ... يُجَرِّدُ دونَ المجدِ أبيضَ ماضيا (٩٢)
ويحطمُهُ ما بين دِرْعٍ وقَوْنَس ... وإن كان عَضْبَ الشَّفْرتين يمانيا
شريفٌ لآباءٍ نَمَتْه شَريفة ... تَطُولُ العَوَالي بَسْطَةً والمعاليا
تُسابِقُ أنفاسَ الرِّياحِ سَماحةً ... وتَحْمِلُ أوضاحَ الصَّباح مَسَاعِيا
إذا نحنُ أَثْنَيْنا عليها وَجَدْتنا ... نُحَلِّي صُدوراً للعُلا وهواديا
كفى قَوْمُهُ عَلْياءَ أن كان غايةً ... لهم وكَفَاه أنْ يكونوا مَباديا (٩٣)
تَبَوَّأَ منْ رسْمِ الوزارةِ رُتبةً ... تَمَنَّى مَراقيها النجومُ مراقيا
وأَحْرَزَ في أُخْرى اللَّيالي فَضَائلًا ... تُعَدّ على حُكْمِ المعالي أواليا
مكارمُ يُسْتَضْحى بها من مُلمةٍ ... تَنُوبُ ويُسْتَسْقى الغمام غواديا
لَقِيتُ به والنبلُ رائشُ نَبْلِهِ ... أَخافَهُم لا يُخطىء الرأى راميا
وأروعَ يُنْدِي للطلاقة صفحةً ... ويَقْدَحُ زَنْدًا للنباهةِ واريا (٩٤)
فيجمع بين الماء أبيضَ سلسلا ... يسحُّ وبين الجمر أحمرَ حاميا
أَحِنُّ إليه حَنَّةَ النيب هُجِّرَتْ ... وقد ذَكَرَتْ ماءَ العِضَاهِ صواديا (٩٥)

---

(٩٢) الحالق : المرتفع المنيف – الشاهق : عظيم الارتفاع – تساجل : تبارى وتفاخر – أبيض ماجد أى شريف نقيّ العرض ، أما الأبيض الماضي فهو السيف .

(٩٣) القونس : أعلى الخوذة من الحديد – عضب : حادّ – العوالي من كل شيء أرفعها – الأوضاح : جمع الوضح ، وهو البياض أو الضوء – الهوادى : الأعناق أو المتقدّمات من كلّ شيء – غاية : نهاية وآخر – المبادىء : جمع المبدأ وهو بمعنى الأوّل .

(٩٤) أروع : ذكيّ الفؤاد معجب بحسنه وشجاعته .

(٩٥) النيّب : النوق المسنّة – العضاه : شجر له شوك .

فيــا أيُّهــا النَّــائى مَــعَ النَّجْــمِ هِمَّــةً ... ومَــرْقَــى خــلالٍ فى الإمــارةِ ســاميــا
يَــرَى فَــرْقَــدُ اللَّيــلِ السُّهَــى منــهُ ثــالثًــا ... ويَــرْعَــى بــه بَــدْرُ الــدُّجُنــةِ ثــانيــا (٩٦)
حنــانَيْــكَ فــى نــأْىٍ شكــا مَــسَّ لَــوْعــةٍ ... فسِفَّــر مِــن شَــوْقٍ إليــكَ القــوافيــا
وحيــى بهــا أذْكــى مِــن الــرَّوْض نَفْحــةً ... وأزْهَــفَ مِــنْ لــدْن النَّسيــم حَــواشيــا
وقــد نَــدِيَــتْ حتَّــى لَــمَ ادْرِ أرْقعــةً ... أنمّــقُ أمْ دمعــاً أُرقــرق جــاريــا
وإنــكَ للعــذبُ الفُــراتُ علــى الصَّــدى ... وإنْ بِنْــتَ والبَــرُّ الكــريــمُ أيــاديــا
شقيــقُ النَّــدى وابــنُ النُّهــى وأبــو العــلا ... وحَسْبُــكَ بَيْتــاً فــى المكــارمِ عــاليــا

* * *

وقال يرثى والدة الفقيه الأجلّ ، قاضى القضاة ، أبى أُمَيَّةَ :

فــى مِثْلِــهِ مِــنْ طَــارِقِ الأرْزَاءِ ... جَــادَ الْجَمَــادُ بِعَبْــرَةٍ حَمْــرَاءِ
مِــنْ كُــلِّ قَــانِئَــةٍ نَسِيــلُ كَــأَنَّهَــا ... شُهْــبٌ تَصَــوَّبُ مِــنْ فُــرُوجِ سَمَــاءِ
تَحْمَــى فَتَغْــرَقُ مُقْلَــةٌ فــي جَــاحِــمٍ ... مِنْهَــا وَتُحْــرَقُ وَجْنَــةٌ فــي مَــاءِ (٩٧)
مَحَــتِ الْكَــرَى بَيْــنَ الْجُفُــونِ وَرُبَّمَــا ... غَسَلَــتْ سَــوَادَ الْمُقْلَــةِ الْكَحْــلَاءِ
لَاتُــورِثُ الأَحْشَــاءَ إِلَّاغُلَّــةً ... وَالْمَــاءُ يَنْقَــعُ غُلَّــةَ الأَحْشَــاءِ (٩٨)
أَهْــوِلْ بِــهِ مِــنْ يَــوْمِ رُزْءٍ فَــادِحٍ ... سَحَــبَ الصَّبَــاحُ لَــهُ ذُيُــولَ مَسَــاءِ
مُتَــلَاطِــمِ الأَحْشَــاءِ تَحْسَــبُ أَنَّــهُ ... بَحْــرٌ طَمَــى مُتَــلَاطِــمُ الأَرْجَــاءِ
جَمَــعَ الْحِــدَادَ إلَــى الْعَــوِيــلِ فَمَــا تَــرَى ... فِــي الْقَــوْمِ غَيْــرَ حَمَــامَــةٍ وَرْقَــاءِ

---

(٩٦) السهمى : كوكب صغير خفى الضوء – الدجنّة : الظلمة .
(٩٧) قانئة : شديدة الحمرة – تصوّب : انحدر – فروج : نواحى – مقلة : عين – جاحم : جمر شديد الاشتعال .
(٩٨) ينقع غلّته : يروى عطشه

مِنْ مَاسِحٍ عَنْ وَجْنَةٍ مَمْطُورَةٍ ... أَوْ رَافِعٍ مِنْ زَفْرَةٍ صُعَدَاءِ (٩٩)
وَكَأَنَّمَا يَسْقِى بِمَا يَبْكِى ثَرَى ... مَا قَدْ ذَوَى مِنْ دَوْحَةِ الْعَلْيَاءِ
وَلَئِنْ جَزِعْتَ لِيَوْمِ أُمٍّ بَرَّةٍ ... نَشَأَتْ تَطُولُ أَكَابِرَ الْآبَاءِ
تَصِلُ الدُّعَاءَ إِلَى الْبُكَاءِ كَأَنَّمَا ... تَرْمِى السَّمَاءَ بِمُقْلَةٍ مَرْهَاءِ (١٠٠)
فَلِمِثْلِهِ مِنْ يَوْمِ خَطْبٍ نَازِلٍ ... جَمَّتْ دُمُوعُ أَفَاضِلِ الْأَبْنَاءِ
فَاسْمَحْ بِأَعْلَاقِ الدُّمُوعِ فَإِنَّمَا ... تُقْنَى دُمُوعُ الْعَيْنِ لِلْبُرَحَاءِ (١٠١)
وَاهْتِفْ بِمَا تَشْكُو إِلَيْهَا لَوْعَةً ... إِنْ كَانَ يُصْغِى هَالِكٌ لِنِدَاءِ
وَاقْرَعْ لَهَا بَابَ السَّمَاءِ بِدَعْوَةٍ ... تَسْتَمْطِرُ الْخَضْرَاءَ لِلْغَبْرَاءِ (١٠٢)
حَتَّى تجُودَ بِكُلِّ عَارِضِ رَحْمَةٍ ... يَسْتَضْحِكُ الْأَنْوَارَ لِلْأَنْوَاءِ
زَجِلِ الرُّعُودِ كَأَنَّمَا مَسَحَتْ بِهِ ... كَفُّ الصَّبَا عَنْ نَاقَةٍ عُشَرَاءِ (١٠٣)
فَبِمِثْلِهَا مِنْ تُرْبَةٍ قَدْ قُدِّسَتْ ... نَثَرَ النَّسِيمُ فَلَائِدَ الْأَنْدَاءِ
وَسَرَى يُمَرِّغُ خَدَّهُ قَمَرُ الدُّجَى ... وَيُذِيلُ فَضْلَ ضَفِيرَةِ الْجَوْزَاءِ
وَلَئِنْ صَبَرْتَ وَصَبْرُ مِثْلِكَ حِسْبَةٌ ... فَلَقَدْ أَخَذْتَ بِشِيمَةِ النُّبَلَاءِ
مِنْ كُلِّ مَاضِى الْعَزْمِ يَهْوِى بِالْأَسَى ... عَنْ هَضْبَةٍ مِنْ صَبْرِهِ خَلْقَاءِ (١٠٤)
كَشَفَتْ لَهُ الْأَيَّامُ عَنْ أَسْرَارِهَا ... فَرَأَى جَلِيَّ عَوَاقِبِ الْأَشْيَاءِ
لَمْ يَثْنِ فِي السَّرَّاءِ مِنْ تِيهٍ بِهَا ... أَعْطَافَهُ فَيَخُورَ فِي الضَّرَّاءِ

---

(٩٩) الوجنة : ما ارتفع من الخدّين – زفرة صعداء : نفس ممدود أو مع تبجّع .
(١٠٠) مرهاء : خالية من الكحل أو أصابها المَرَه ، وهو مرض فى العين تمرح منه – جَمّت : كثرت .
(١٠١) البرجاء : الشدّة ، ومنه برجاء الحمَّى .
(١٠٢) الخضراء : السماء – الغبراء : الأرض .
(١٠٣) زجِل : له صوت – العشراء من النوق : ما مضى على حملها عشرة أشهر .
(١٠٤) هصبة خلقاء : لانبات فيها .

مَا ارْتَابَ أَنَّ سُرُورَهُ لِكَآبَةٍ ... يَوْمًا وَأَنَّ بَقَاءَهُ لِفَنَاءِ
فَكَأَنَّهُ وَالْعِيسُ تَبْسُطُ خَطْوَهُ ... قَدْ بَاتَ مُرْتَحِلًا عَنِ الْأَحْيَاءِ (١٠٥)
فَلَرُبَّ رَكْبٍ لِلرَّدَى تَحْتَ الثَّرَى ... ضَرَبُوا قِبَابَهُمُ بِهَا لِثَوَاءِ
مُتَوَسِّدِينَ بِهَا التُّرَابَ كَأَنَّهُمْ ... لَمْ يَرْتَعُوا فى زَهْرَةِ النَّعْمَاءِ
صَرْعَى فَلَا قَلْبٌ لِغَيْرِ صَبَابَةٍ ... يُذْكَى وَلَا عَيْنٌ لِغَيْرِ بُكَاءِ
مَا شِئْتَ مِنْ قُرَنَاءِ خَيْرٍ أَعْصَفَتْ ... رِيحُ الرَّدَى بِهِمُ وَمِنْ قُرَبَاءِ
مُلِئَتْ بِهِمْ عَيْنِى دُمُوعًا كُلَّمَا ... مُلِئَتْ عُيُونُهُمُ مِنَ الْإِغْضَاءِ
وَكَفَى أَسًى وَصَبَابَةً أَنْ أُنْزِلُوا ... وَهُمُ الْأَقَارِبُ مَنْزِلَ الْبُعَدَاءِ
بَدَدًا بِمَسْرَى كُلِّ رِيحٍ عَاصِفٍ ... وَمَصَابِ كُلِّ غَمَامَةٍ هَطْلَاءِ
أَلْوَى بِهِمْ وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ ... دَاءٌ عَيَاءٌ عَزَّ كُلَّ دَاوَاءِ
وَطَوَى الْقُرُونَ بِحَيْثُ صَمَّتْ عَنْهُمُ ... أُذُنُ الْمُصِيخِ وَكَلَّ طَرْفُ الرَّائى (١٠٦)
وَسَطَا بِسَيِّدَةِ النِّسَاءِ وَمَا دَرَى ... أَنْ قَدْ سَطَا بِقَلِيلَةِ النُّظَرَاءِ
بِنَجِيبَةٍ جَاءَتْ بِأَوْحَدَ أَمْجَدٍ ... قَدْ فَاتَ طَوْلًا أَيْدِىَ النُّجَبَاءِ (١٠٧)
مُتَقَلِّبٌ فى اللهِ بَيْنَ بَشَاشَةٍ ... يَنْدَى الْهَشِيمُ بِهَا وَبَيْنَ مَضَاءِ
لَدْنٌ فى كَمَطْلُولِ النَّسِيمِ وَتَارَةً ... خَشِنٌ كَصَدْرِ الصَّعْدَةِ السَّمْرَاءِ (١٠٨)
فى مَقْعَدٍ وَسِعَ الْأَنَامَ عَدَالَةً ... وَسَمَا فَزَاحَمَ مَنْكِبَ الْخَضْرَاءِ
يَسْتَنْزِلُ الْأَرْوَى هُنَاكَ سَكِينَةً ... وَيَرُوعُ قَلْبَ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ

---

(١٠٥) العيس : الإبل البيض الكريمة يخالط بياضها شقرة .
(١٠٦) داء عياء : شديد لا طبّ له ولا برء منه - كلّ : ضعف - الرائى : الناظر .
(١٠٧) الطوْل : الغنى والفضل .
(١٠٨) المطول : الذى أصابه الطلّ وهو المطر الخفيف يكون له أثر قليل .

عَــدلٌ يَظَــلُّ بِظِلِّــهِ ذِئْبُ الْغَضَـــى جَــارًا هُنَــاكَ لِظَبْيَــةِ الْـــوَعْسَــاءِ (١٠٩)

وَكَفَــاهُمَــا أَنْ يَخلُــوَا بِــأَرَاكَـــةٍ عِنْـدَ الْمَقِيـلِ وَيَشْـرَبَـا مِنْ مَـاءِ (١١٠)

وإِلَيْــكَ مِــنْ حُــرِّ الْكَــلَامِ عَقِيلَــةٌ قَصُــرَتْ خُطَـاهَــا خِجْلَـةُ الْعَــذْرَاءِ

نَشَــأَتْ وَشُقْــرٌ دَارُهَــا وَكَــأَنَّمَــا وَرَدَتْـــكَ زَائِرَةً مِـــنَ الـــزَّوْرَاءِ

زُفَّـتْ وَقَـدْ عَلِمَـتْ بِمَـوْضِعِ حُسْنِهَـا فَـــأَتَتْــكَ تَمْشِـــى مِشْيَــةَ الْخُيَــلَاءِ

* * *

وقال يتحدث عن آلام الاغتراب وشدّة تعلّقه بالوطن :

بيــنَ شُقْــرٍ ومُلتقَـــى نَهْــرَيْهــا حيــثُ أَلْقَـتْ بنــا الأمــانــى عَصاهــا

ويُغَنّـــى المُكَّـــاء فـــى شـــاطئيْهــا يَسْتَخِـفّ النُّهَى فحلَّــتْ حُباهــا (١١١)

عِيشــةٌ أقبلـــتْ يُشَهَّـــى جَنـــاهـــا وارِفٌ ظِلُّهـــا لـــذيـــذٌ كَـــراهـــا

لَعِبـــتْ بـــالعقـــول إلّاقليـــلًا بَيْــنَ تــأويبِهــا وبَيْــن سُــراهــا (١١٢)

فـــانْثَنَيْنــا مــع الغصـــون غُصــونًــا مَــرَحًــا فـــى بِطــاحهــا ورُبــاهـــا

ثـــمّ ولّــتْ كـــأنّهــا لـــم تكُــدْ تَـــلْ بَـــثُ إلّاعشيَّـــةً أوضُحـــاهـــا

فـــانـدُب المَـــرْجَ فـــالكنيســـةَ فـــالشَّـطَّ وقـــلْ آهِ يـــا مُعيـــدَ هَـــواهـــا ! (١١٣)

---

(١٠٩) الأورى : إناث الوعول – ذئب الغضا : أخبث الذئاب ، والغضا هـو شجر الأثل أو الشجر الملتفّ عامة – الوعساء : السهل الليّن من الرمل .

(١١٠) الأراكة : شجرة السواك – المقيل : نومة نصف النهار أو الاستراحة فيه وإن لم يكن نوم .

(١١١) شقر : بلدة شرقى الأندلس – المكاء : طائر صغير مغرد – النّهى : العقول – الحبى : جمع الحبوة وهي الجمع فى الجلوس بين الظهر والساقين بعمامة ونحوها أو ضمّ الفخذين والساقين إلى البطن بالذراعين – وحل الحبى كناية عن الاستقرار والاسترخاء والانطلاق .

(١١٢) يشهّى : يستلذ – الجنى : كل ما يجنى من الشجر – وارف : ممتدّ – كراها : نومها – تأويبها : سيرها بالنهار – سراها : سيرها بالليل .

(١١٣) البطاح : السهول الواسعة – الربا : المرتفعات من الأرض – اندب : ابك وعدّد المحاسن .

آهِ مـــن غُــربــةٍ تُـــرَقْــرِقُ بَثًّـــا		آهِ مِـــن رحلـــةٍ تطــولُ نَـــواهـــا !
آهِ مـــن فُـــرقـــةٍ لغيـــر تـــلاقٍ		آهِ مــن دارٍ لايُجيـــبُ صَــداهـــا ! (١١٤)
لســتُ أدْرِى ومـــدمـعُ المـــزْن رَطْــب		أبَكـــاهـــا صبـــابـــةً أمْ سقـــاهـــا ؟ !
فتعـــالَـــىْ يـــا عَيْـــنُ نَبْـــكِ عليهـــا		مِـــن حيـــاةٍ إنْ كـــان يُغْنـــى بُكـــاهـــا
وشبـــابٍ قـــد فـــات إلّ تنـــاسِيـــه ،		ونَفْـــسٍ لـــم يَبْـــقَ إلّا شَجـــاهـــا
مـــا لعَيْنـــى تبْكـــى عليهـــا ، وقَلْبـــى		يَتَمَنَّـــى سَـــوادُه لـــو فَـــداهـــا ؟ ! (١١٥)

* * *

---

(١١٤) ترقرق : تصبّ وتحرّك - البثّ : أشدّ الحزن - نواها : بعدها - الصدى : رجع الصوت .
(١١٥) الصبابة : الشوق أو الهوى - الشجا : الهمّ والحزن - سواد القلب : حبّته .

يحيى بن بقى

(ت . نحو ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م)

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبى القيسى المشهور باسم بن بقى نسبة إلى جدّ أبيه ، وهو وشّاح بارع فى عصر المرابطين ، اختلفت المصادر فى ذكر البلد الذى ينتسب إليه ، فمنها ما ينسبه إلى قرطبة ، ومنها ما يذكر أنه من طليطلة أو سرقوسة أو وادى آش ، وقد حفظ هذه المصادر قدرا من شعره وأشار بعضها إلى أن معظمه من التوشيح ، وأن « له ما ينيف على ثلاثة آلاف موشّحة ، ومثلها قصائد ومقطعات منقّحة » ، وأغلب الظنّ أن هذا العدد من المبالغة ما فيه .

ويظهر من أخباره أنه عانى الحرمان والإقلال فترات طويلة من حياته ، فكثر ترحاله فى البلدان إلى أن وصل إلى سلا بالقرب من مدينة الرباط الحالية بالمغرب فغمره بنو عَشْرة قضاة سلا بجودهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخاه أحمد القاضى ، فمكث فى رحابهما طويلا ينشىء الأشعار والموشحات .

وقد وصفه بعض من ترجموا له بأنه « رافع راية القريض ، وصاحب آية التصريح فيه والعريض ، أقام شرائعه ، وأظهر روائعَه ، وصار عصيُّه طائعَه ، إذا نَظَم أَزْرَى بنَظْم العقود ، وأتى بأحسن من رَقْم البُرُود . ضفا عليه حرمانُه ، وما صفا له زمانُه ، فصار قعيد صَهَوات ، وقاطع فَلَوات ، مع توهُّم لا يُظْفره بأمان ، وتقلُّب دهرٍ كواهى الجُمان » .

* * *

قال ابن بقى يلوم أهل المغرب ، بعد أن ضاق بهم وذمّ مقامه عندهم :

أقمتُ فيكم على الإقتارِ والعَدَم ... لو كنت حُرًّا أبِّى النفس لم أُقِمِ
وظَلْتُ أُبلى لكُم عذرًا لعلَّكمُ ... تستيقظون وقد نمتم عن الكَرم (١)
فلا حَديقتُكم يُجْنَى بها ثمرٌ ... ولا سَماؤكم تنهلُّ بالدِّيَمَ
لا رِزْقَ عندكمُ لكنْ سأطلبهُ ... فى الأرضِ إنْ كانتِ الأرزاقُ بالقِسَم
أنا امروٌّ إنْ نَبَتْ لى أرضُ أندلس ... جئت العراقَ فقامتْ لى على قدم
أين الرَّجَا والعُلَا من حازم يقظٍ ... يغزو أعادِيَه فى الأشهر الحُرُم
إنْ كان سَهْمًا فلا تُنْمَى رميَّته ... أو كان سيفًا فمسلُولُ على البُهَم
ما العيشُ بالعلم إلا حيلةٌ ضَعُفَتْ ... وحِرْفَةٌ وكِّلت بالقُعْوَدِ البَرِمِ (٢)
لا يكسر الله متن الرمح إن به ... نيلَ العُلا وأتاحَ الكسر لِلقلَم
ولا أراق دمًا من باسلٍ بطلٍ ... ومان كلُّ أديب غبطة بدم
أَوْغَلْتُ فى المغرب الأقصى وأعْجزنى ... نيلُ الرغائب حتَّى أُبْتُ بالندم

* * *

ومنها :

وساقطٍ نال منَ عرضى فقلتُ له : ... « إليكَ عنّى فليس السبُّ منَ شِيَمى »
أعرضتُ عنه ولو أنى عرضتُ له ... سقيتُه حُمَةَ الأفْعَى من الكَلِم (٣)

---

(١) الإقتار : ضيق العيش – أبلى : اختبر ، اى أستعرض أعذارا لعلى أجد فيها عذرا لكم فى غفلتكم عن حال إقتارى أيام إقامتى عندكم وأنتظر زوال الغفلة عنكم ، فشبه غفلتهم عنه بالنوم ، وشبّه زوال الغفلة باليقظة .

(٢) لا تُنمى : لا يفوته أخذها ، يقال : أنمى الصيد إذا رماه فأصابه وبقى فيه رمق فذهب عنه فمات – البهم : جمع بُهمة ، وهو الشجاع – العقد : الجبان أو الخامل الذى يقعد عن المكارم .

(٣) الحُمَة : السمّ .

وقال :

إلـــى اللهِ أشكـــوهـــا نَـــوًى أجنبيَّـــةً ‏ لهــا مـن أبيهــا الـدهــرِ شيمــةُ ظــالــمِ
إذا جـاشَ صـدْرُ الأرضِ بى كنتُ مُنْجِدًا ‏ وإنْ لـم يجِـشْ بى كنـتُ بيـن التَّهـائم [٤]
أكـــلُّ بنـــى الآدابِ مِثلـــىَ ضـــائعٌ ‏ فـــأجعـلُ ظُلمـــى أســوةً فـــى المظالـــم
سَتَبْكـى قـوافـى الشعـرِمِلىَ جُفـونِها ‏ علـى عـربـىٍّ ضـاع بيـن أعـاجـم [٥]

* * *

وقال يستنجد الوزير أبا محمد بن مسعدة :

قـلْ للـوزيـرِ أبــا محمّـد الـرِّضــى ‏ وفَعـــالُـــه وقــفٌ علـــى العَلْيــاءِ
رَعَـدتْ سمـاؤُك ســاحتــى بسحـابهــا ‏ وأنـــا أَشِـــمُ بــــوارقَ الأنْـــواء
وإذا مَطَلْــتَ مَضَــتْ بشـاشــةُ منطقــى ‏ وذَوَى قضيـــبُ الـــرَّوْضَـــة الغَنَّـــاء

* * *

وقال يفتخر :

ولـــى هِمَـــمٌ ستقـــذفُ بـــى بـــلادًا ‏ نـــأتْ إمَّــا العــراقَ وإمــا الشـآمــا
وألحـــقُ بـــالأعـــاريـــب اعتـــلاءً ‏ بهـــم وأُجيـد مــدحَهــمُ اهتمــامــا
لكيمـــا تحمـــل الـــرُّكبـــان شِعـــرى ‏ بـــوادى الطَّلْـــح أووادى الخـــزامـــى
وكيمـــا تعلـــم الفصحـــاء أنـــىٍّ ‏ خطيـــبٌ عَلَّـــم السَّجْـعَ الحَمـــامـــا
وقـــد أَطْلَعْتُهُـــنَّ بكـــلِّ أرضٍ ‏ بُـــدورًا لايفـــارقْـــن التَّمـــامـــا
فلـــم أعـــدمْ وإيَّـــاهـــا حَســـودًا ‏ كمـــا لاتَعْـــدَمُ الحسنـــاءُ ذامـــا

* * *

---

(٤) التهائم : جمع تِهامة ، وهى الأرض المنخفضة .

(٥) يشير الشاعر إلى حلوله بين البربر فى بلاد المغرب الأقصى ، وذلك فى « سلا » عند أميرها يحيى بن على ابن القاسم بن عشرة .

موشحة لابن بقى :

عَبِثَ الشوقُ بقلبى فاشتكى   ألمَ الوَجْدِ فلبَّتْ أدمعى

* * *

أيها الناسُ فؤادى شَغِفُ

وهو منبَغِى الهوى لا يُنْصِفُ

كمْ أداريه ودمعى يَكِفُ

أيها الشادنُ من علَّمكا   بسهامِ اللحظِ قَتْلَ السَبُعِ

* * *

بدرُتِمٍّ تحت ليلٍ أغطشِ

طالعٌ فى غصن بان مُنْتَشِ

أهيفُ القَدِّ بخَدٍّ أرْقَشِ

ساحرُ الطَّرف وكم ذا فَتَكا   بقلوبِ الأُسْدِ بينَ الأَضْلُعِ (٦)

* * *

أيُّ ريمٍ رُمْتُه فاجتنبا

وانثنى يهتزُّ من سُكْرِ الصِّبا

كقضيبٍ هزَّه ريحُ الصَّبا

قلتُ : هب لى يا حبيبى وصلكا   واطَّرِحْ أسبابَ هجرى وَدَعِ

* * *

---

(٦) أغطش : مظلم - أرقش بمعنى مُزَوّق مُزَيّن .

قــال : خَــدّى زهــرُهُ مُــذْفَــوَّفــا
جَــرَّدَتْ عينــاى سَيْفًــا مُــرْهَفــا
حَــذَرًا منــــه بــأَنْ لا يُقْطَفــا
إِنَّ مَــــنْ رامَ جَنـــــاه هَلَكـــا   فـــأَزِلْ عنـــكَ عِـــلال الطَّمَـــعِ (٧)

* * *

ذابَ قلبى فى هوى ظبيٍ غـريـرْ
وَجْهُـهُ فى الدَّجْن صبحٌ مستنير
وفــؤادى بيــن كفيَّـــه أَسيــرْ
لــم أَجِــدْ للصبــرِ عنــه مَسْلكــا   فــانتصــارى بــانسكــابِ الأَدْمُــعِ

* * *

ولـه أيضا هـذه الـموشـحـة :

أَدِرْلنــا أَكــوابْ يُنسِـى بهــا الــوجــدُ   واستصحِــب الجُلاسْ كمــا اقتضى العهــدُ

* * *

دِنْ بالهوى شَرْعا مـا عشتَ يا صاحِ
ونـزِّه السمعـا عن منطـقَ الـلاحِـى
والحكُـم أن يُـدْعى إِليـكَ بـالـراحِ
أنــامـــلُ العُنَّــابْ ونَقْلـــكَ الــوردُ   حَفًّــا بصِــدْغَى آسْ يلــويهمــا الخــدُّ

* * *

(٧) علال الطمع : استدراه باستمرار من عالل الناقة : حلبها صباحا ومساءً وظهرا .

لله أيـــامٌ دارت بهـــا الخمـــرُ
والـــروض بســـامٌ بـــاكَـــرَه القطـــرُ
وَصْـــلٌ وأَنغـــامٌ وأَوجُـــهٌ زُهْـــر

فنحـــنُ بـــالأَصحابْ قـــد ضمنـــا عِقْـــدُ   وأَفـــرط الإينـــاسْ ممـــا لـــه حَـــدُّ

* * *

بينـــا أَنـــا شـــاربْ للقهـــوة الصِـــرْفِ
وبيننـــا تـــائبْ لكـــن علـــى حَـــرْفِ[٨]
إِذْ قال لى صاحـــبْ من جملةِ الظُرفِ

أَميـــرُنـــا قـــد نـــابْ غـــنٍّ لـــه واشْـــدُ   واعـــرِض عليـــه الكـــاسْ عســـاه يـــرتَـــدُّ

* * *

وله أيضا :

يـــا وَيْـــحَ صـــبٍّ إلـــى البـــرقِ * لـــه نَظَـــرُ * وفـــى البكـــاء مـــع الـــوُرْق * لـــه وَطَـــرُ[٩]

من أجـلِ بعدِى عـن   صحبـى بكيـتُ دَمَـا
كـم لـى هنـاكَ مـن   سِـرْبِ ووصـلُ دمـى
وعسكـرُ الليـلِ فـى   الغـربِ قـد انهـزمـا

(٨) تائب على حرف : أى على وجه واحد ، كأنه يتوب عن معصية ولا يتوب عن أخرى .
(٩) الورق : القمارى ، فى لونها بياض وسواد ، واحدها : ورقاء .

والصبحُ قد فاض في الشرقِ * له نَهَرُ * وسالَ من أنجم الأفقِ * دمٌ كَدِر

شوقي أحبّ بترداذي   وإن كَثُرا
إن المعظّم في   النادي نَوَى سَفَرا
أقولُ لما حَدا   الحادِي به سَحَرا

أمسك فؤاديَ بالرفقِ * إذا ابتكروا * إني أراه من الخفق * سينفطر

بأرض غِرْناطةٍ   بدرٌ قد اكتملا
يُطيعه النَّظْمُ   والنثر إذا ارتجلا
وبعضُ حِليتِه   الفخرُ وأيُّ حُلَى

كم رامَهن من الخلْقِ * فما قدروا * هذى حُجُول من السبقِ * وذوى غُرَر

تُرْوِى ذوى الخمس   من خَمس أنامله (١٠)
وتُخْجِلُ الشمس   من شمس فضائله
يا أحسن الإنس   في الإنس لآمله

بالبِشْر من وَجْهك الطَّلْق * دَرى البشَر * أنّ بنانَك بالرزق * سينهمر

لما ولعت بذكراه   وبَرَّح بي
كتبت ما السوق أملاه   على كتبي
وصحتُ واحَرَّ قَلْباه   من الوَصَب (١١)

بالبَيْن يا عابدَ الحقّ * جرى القدرُ * فالشوقُ عندى لايُبقى * ولايَذَر

* * *

---

(١٠) ذوو الخمس : الظماء ، وأصل الخمس ألاتشرب الإبل لمدّة خمسة أيام ، وتُسقى فى السادس .
(١١) الوصب : المرض .

ولـــه أيضـــًا :

مـــا لــــى شَمـــول * إلاشُجُـــونْ * مِـزاجُهـــا فـــى الكـــاسْ * دَمْـــعٌ هَتُـــونْ

لله مـــا بَـــذَرْ		مـــن الـــدمـــوعْ
صَـبٌّ قـد استعبَـرْ		مِـــنَ الـــوُلُـــوع
أَوْدَى بـــه جُـــؤذَر		يـــومَ البقيـــع (١٢)

فهـــو قتيـــلْ * لابـــل طعيـــنْ * بيـــن الـــرَّجـــا واليـــأسْ * لـــه مَنـــونْ

جَـرَحْـتُ للحيْـن		كَفًّـــى بكفّـــى
وحِيـلَ مـــا بينـى		وبيـــنَ إُلفـــى
لاشـــكَ بـالبيْـــنِ		يكـــونُ حَتْفـــى

حـــانَ الـــرَّحيـــلْ * ولـــى دُيـــونْ * إن ردّهـــا العبـــاس * فهـــو الأميـــن

أمـــا تَـرى البَـدْرا		بـــدرَ السُّعـــود
قـد اكتســىَ خُضْـرا		مِـــن البُـــرود
إذا انثنـــى نَضْـــرا		بيـــن القُـــدوم

أضحـــىَ بقـــولْ * مُـــتْ يـــا حـــزيـــنْ * قـــد اكتســـى بـــالآسْ * اليـــاسَمِيـــنْ

قلـــتُ وقـــد شَـــرَّد		النـــومَ عَنِّـــى
وأيـــأسَ العُـــوَّد		السُّقْـــمَ مِنِّـــى
صَـــدٌّ فلمـــا صَـــدْ		قَـــرَعْـــتُ سنّـــى

---

(١٢) استعبر : بكى – الولوع : الحبّ – أودى به : قتله – الجؤذر : ولد المهاة .

جسمِـــى نَحيــــلْ * لا يستبيـــنْ * تطلُبـــه الجُـــلَّاس * حيـــثُ الأنيـــنْ

تجـــاوزَ الحَـــدّا قلبـــى اشتيـــاقًـــا
وكَلَّـــف السُّهـــدا مَـــنْ لـــو أطـــاقـــا
قلـــتُ وقـــد مَـــدّا ليلـــى رِوَاقـــا

ليـــلٌ طـــويـــلْ * ولا مُعِيـــن * يـــا قلـــبَ بعـــضِ النـــاسْ * أمـــا تَليـــنْ ؟

* * *

ولـــه أيضـــًا :

ساعِـدُونا مصبِحينـا * نرتشِفْها قـد ظمينا * كنُضَـارٍ فى لُجَيْنٍ * نِغْـمَ أجر العـامِلِينا (١٣)

قُـمْ بنـا نجلـو الكـؤوسَـا تحـتَ أظـلالِ السَّحـاب
نتعـــاطـاهـــا عَـرُوســا حَلْيُهـــا دُرُّ السحَـــابِ
قهـوةُ تُعطِـى النفـوسـا عِـــزَّ أيـــامِ الشَبـــابِ

تَغْصِبُ الليثَ العَرِينا * ويُـرَى كسرِى قَرِينا * حين يُسْقَى باليديـن * جامَها حِينًا فَحِينا (١٤)

يـــومُنـــا يـــومٌ أنِيـــقُ يـــومُ شُـــربٍ والتـــذاذِ
طـــرّزتْ فيـــه البـــروقُ لابِسًـــا أثـــوابَ لاذِ
وسقـــى الغَيْـــمُ الـرقيـــقُ مـــاءَ وردٍ بــــرذاذِ

(١٣) نضار : ذهب – لجين : فضّة .
(١٤) الجام : إناء للشراب من فضة أو نحوها .

أَظْهَرَ السِّحرَ المُبينا * حيـن رشَّ الياسمينا * وبكى مِنْ دونِ عين * فضحِكْنـا فاكِهينا (١٥)

أيها السـاقِي المُحَيَّـا   بـريـاحيـنِ التَّمَنِّـى
سِحْرُ عينيك الحُميَّـا   فاصرِفِ الصَّهباءَ عنىّ
لاتُسَلِّطْهـا عَلَيّـا   فـالهوى قـد نال منِّى

قد نَفَثَتَ السِّحْـر فينا * فَرَضِينا الحُـبَّ دِينا * فَمُنائى دونَ مَيْنِ * أَنْ نَـرى ذاك الجبينَا (١٦)

لـى حبيـبٌ يـوسُفِـيٌ   وصلُه فـى الحُبِّ مِنَّـهْ
وجهُـهُ صبـحٌ وضـيٌ   قـد تبدَّى فـى الدُّجُنَّـهْ
دلنَّـى منـه الأبِـىُّ   فـأعـادَ النـارَ جَنَّـهْ

بَـذَلَ الـوردَ المصُـونا * بعـدمـا كـان ضنِينَـا *فكـأنـى ذو رُعين * أو أميـرُ المـؤمنِينَـا (١٧)

سـاءنَـا لمـا اتَّصَلْنـا   كـلُّ مغْتـابٍ حَسُـودِ
وكـذاكَ الـوجـهُ قلنـا   لالتـدنيـسِ البُـرودِ
لـم نُـرِدْ فيمـا امتثلنـا   غيـرَ إقـلاقِ الحسـودِ

قـد بلِينـا وابتلينا * واش يقـول النّـاس فينـا * قم بنـا يـا نـور عينـى * نجعل الشّـك يقينـا

---

(١٥) الفاكه من الرجال : الناعم العيش .
(١٦) الصهباء : الخمر - مين : كذب .
(١٧) دجنّة : سواد وظلمة - ذورعين : ملك من ملوك حمير، ينسب إلى رُعين ، وهو اسم جبل باليمن فيه حصن.

ابن مُنَيّر الطرابلسى

(٤٧٣ - ٥٤٨ هـ / ١٠٨٠ - ١١٥٣ م)

هو أبو الحسن أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسى ، كان والده ينشد الأشعار ويغنى فى الأسواق ، وقد لقّب بالرّفاء ؛ لأنه - فيما قيل - اتخذ الرفى مهنة له .

وولد بطرابلس ، وكانت وقتئذ بلدا عامرا يشجع أهلها وحكامها الأدب والعلم ، ويكثرون فى مجالسهم من المناظرات والمحاورات ، ويجزلون العطايا لمن يقصدهم من الشعراء ، مثل ابن حيوس وابن الخياط ، وكان آل عمار يحكمون إمارة طرابلس ، وهم من الشيعة الإمامية ، وقد عرف عنهم أنهم أقاموا علاقات طيبة بالفاطميين فى مصر وبالسلاجقة فى العراق وبغيرهم من أصحاب الممالك والإمارات .

نشأ شيعيا إماميا ، وتلقى تعليمه على يد جماعة من العلماء المشهورين ، وبدأ ينظم الشعر شابا يافعا ، ودفعه طموحه إلى أن يتردد على البلدان ، كدمشق وحلب وحماة وشيزر وبغداد ، وقد عاصر فى شبابه حصار الصليبيين لطرابلس ، ولعله غادرها قبل سقوطها فى أيديهم سنة ٥٠٢ هـ أو بعد ذلك ، ويبين من بعض أخباره أنه عمل بالتدريس حينا من الوقت لطلاب اللغة والأدب بحلب ، كما يبين من أشعاره التى وصلت إلينا أنه متمكن من لغته متملك للأدوات اللازمة للشاعر المجيد ذى الثقافة الواسعة .

ومن أظهر الأغراض التى تناولها ابن منير فى شعره : المديح ، فقد مدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر ، من أشهرهم طفتكين أمير دمشق وابنه بورى . وأكثر من مديح عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ، وتغنى بانتصاراتهما على الصليبيين فى بادين والرّها وغيرهما من ساحات الحرب بالشام ، وكان مقربا من نور الدين يصحبه فى كثير من غزواته ووقائعه ، واتخذه سفيرا إلى حاكم دمشق فى بعض المهام . وكان ابن منير وابن القيسرانى يسجلان فى قصائدهما بالإعجاب والإكبار كل معركة من معارك نور الدين من خلدا ذكره وسجلا بطولته ، قال صاحب كتاب الروضتين : « ماتا ... قبل أن يفتح نور الدين كل عام فى ازدياد من جهاد واجتهاد ولو كانا أدركا ذلك لأتيا فى وصفه ، بعجائب المدائح » .

وهجا كثيرا من الأعيان هجاءً شديدًا ، فسجنـه صاحب دمشق بورى بن طغتكين ، وعزم على قطـع لسانه ، ثم شفـع فيه ، فنفاه ، ولكنه رجـع إلى دمشق بعـد وفاته ، وظل أهلهـا بعد بورى ينفـونه مرارا ، يقـول عنه الذهبى : إنـه « كان هجاء خبيـث اللسان ، يكثر الفحـش فى شعره ويستعمل فيه الألفاظ العامية » .

ومن الأغراض الشعرية التى أجادها : الغـزل والوصف والحكمة ، وقد أجمع المؤرخون لحياته والراوون لشعره على علو منزلته ، قال ابن منقذ: إنه « أوحد عصره ، ولسان دهره. تأخر زمانه ، وتقـدم فضله وبيانه ؛ فهـو زهير الفصاحة ، وابـن حجاج الملح والطرافـة ، فى أشعاره لطافة تستخفّ القلب ، وتملك السمع ... » ، وقال بعضهـم فى الثناء عليه : « ما كان أسمح قريحته ، وأوضـح طريقته ، وأبدع بلاغتـه ، وأبلغ براعته ... » ، وقال العمـاد : « ومحـاسـن أبى الحسين ابـن منير مُنيرة ، وفضائله كثيـرة » ، وقال ابن القلانسى : « ... مـرهوب اللسان ، خبيث الهجاء ، مجيد فيه ، لا يكاد يسلم من مقاطيع هجائه منعم عليه ولا مسىء إليه ، وكان طبعه فى الذمّ أخفّ منه فى المدح ، وكان يصل بهجائه ، لا بمدحه وثنائه » .

* * *

قال ابن منير يهنىء عماد الدين لفتح الرُّها سنة ٥٣٩ هـ :

صِفاتُ مجدِك لفظٌ جلّ معناه — فلا استردَّ الذى أعطاكهُ اللهُ
يا صارمًا بيمين الله قائمُهُ — وفى أعالى أعادى اللهِ حَدَّاهُ
أصبحتَ دون ملوك الأرض منفردًا — بلا شبيهٍ إذِ الأملاكُ أشباهُ
فداك من حاولتْ مسْعَاكَ هِمَّتُهُ — جهلًا ، وقصَّر عن مسعاك مسعاهُ
قل للأعادى : ألا موتوا به كمدًا — فاللهُ خيَّبَكُم واللهُ أعطاهُ
ملِكٌ تنام عن الفحشاء هِمَّتُهُ — تُقَى وتَسهرُ للمعروف عيناهُ
ما زال يَسْمُكُ والأيامُ تخدمُهُ — فيما ابتلاهُ وتُدْنى ما توخّاهُ(١)
حتى تَعالَتْ عن الشِّعْرَى مشاعرهُ — قدْرًا ، وجاورت الجوزاءَ نَعلاهُ(٢)
وقد روى النّاسُ أخبارَ الكرام مَضَوْا — وأين مِمّا رَوَوْهُ ما رأيناهُ
أين الخلائف عن فتحٍ أُتيح له — مظلِّلٌ أُفُقَ الدنيا جناحاهُ
على المنابر من أنبائه أَرَجٌ — مقطوبةٌ بفتيق المِسْك ريّاهُ(٣)
فتحٌ أعاد على الإسلام بهجتَهُ — فافْتَرَّ مِبْسَمُهُ واهتزَّ عِطْفاهُ(٤)
يهدى بـ « معتصم بالله » فتكته — حديثُها نَسَخَ الماضى وأنساهُ
إنّ « الرُّهَا » فى « عَمُّوريَّةٍ » ، وكذا — مَن رامَهَا ليس مَغْزَاهُ كمغزاهُ(٥)

(١) يَسْمُك : يرفع - توخّاه : تحرّاه وقصد إليه .
(٢) الشِّعْرى : كوكب نيّر - الجوزاء : من بروج السماء .
(٣) فتْق المسك : هو استخراج رائحته بشىء تدخله عليه .
(٤) افترّ : ابتسم وبدت ثناياه - عطفاه : جانباه .
(٥) عَمُّورية : بلد فى بلاد الروم ، غزاه المعتصم بالله العباسى سنة ٢٢٣ هـ ، وكان الفتح من أعظم فتوح الإسلام ، قال فيه أبو تمّام :

يا يومَ وقعةِ عَمُّوريةَ انصرفتْ — عنك المُنى حُفَّلًا مَعْسُولَةَ الحَلَب

أُخـتُ الكـواكـب عِـزًّا مـا بغـى أحـدٌ   مـن الملـوك لهـا وقْمًـا فـواتـاهُ(٦)
حتـى دَلِفْـتَ لهـا بـالعـزْم يشحـذُهُ   رأيٌ ببيـت فُـوَيْـقَ النّجـم مسـراهُ
مشمّـرًا وبنـو الإسـلام فـي شُغُـل   عـن بـدء غـرسٍ لهـم أثمـارُعُقْبـاهُ
يـا مُحْيِـيَ العـدل إذ قـامـت نَـوَادِبُـهُ   وعمـارَ الجـود لمّـا مـحّ مَغْنـاهُ(٧)
يـا نعمـةَ الله يستصْفـى المـزيـد بهـا   للشـاكـريـن ويستقنـى صفـايـاهُ(٨)

* * *

وقال يمدح نور الـدين ، ويذكر ظفره بالبـرنس صاحب أنطاكية وأصحـابه ، وحمْل رأسه إلى حلب ، وقد أنشده عند حصن « إنَّب » فى سنة ٥٤٤ هـ :

أَقْـوَى الضَّـلالُ وأقْفَـرتْ عَـرَصَـاتُـه   وعَـلَا الهـدى وتبلَّجَـتْ قسمـاتُـه (٩)
وانْتَـاشَ ديـنَ محمَّـدٍ محمـودُهُ   مـن بعـد مـا عُلَّـتْ دمًـا عَبَـراتُـه (١٠)
ردَّتْ علـى الإسـلام عصـرَ شبـابـه   وثبـاتـه مـن دونـه وثبـاتُـه
أرسَـى قـواعـده ، ومـدّ عمـادَه   صُعُـدًا ، وشيّـد سـورَه سـوراتُـه (١١)

---

(٦) الوقم : القهر والإذلال .
(٧) محّ : عفا وأخلق – المغنى : المنزل الذى غَنِى به أهلُه .
(٨) يستقنى بمعنى يُرضى أو يعطى ما يقتنى به .
(٩) أقوى المكانُ وأقفر : خلا من أهله – عرصاته : ساحاته – تبلّجت : أنارتْ وتنضّرت سرورا .
(١٠) انتاشه : أنقذه – عُلّت بمعنى سُقِيت .
(١١) السَّورة : السطوة والوثبة .

وأعـــاد وجـــه الحـــقّ أبيـــض نـــاصعًـــا
إصْـــلاتُـــهُ ، وصِـــلاتُـــه ، وَصَـــلاتُـــه [(١٢)]
لمّـــا تـــواكـــل حـــزبـــه ، وتخـــاذلـــت
أنصـــاره ، وتقـــاصـــرت خطـــواتُـــه
رفعـــت لنـــور الـــدّيـــنِ نـــار عـــزيمـــة
رجعـــت لهـــا عـــن طبعهـــا ظُلُمـــاتُـــه
ملـــك مجـــالـــسُ لهـــوه شـــدَّاتُـــه
ومشُـــوقُـــهُ بيـــن الصُّفـــوف شـــذاتُـــه [(١٣)]
يُغْـــرَى بحثحثـــة اليـــراع بَنـــانُـــهُ
إنْ لـــذّ حثحثـــة الكئـــوس لِـــداتُـــه [(١٤)]
ويـــروقُـــهُ ثَغْـــرُ العِـــداء قـــانٍ دمـــا
لاالثّغْـــر يعبـــق فـــى لمـــاهُ لثـــاتـــه
فصَبُـــوحُـــهُ خمْـــرُ الطّلَـــى ، وغُبُـــوقُـــه
نطـــف النّفـــوس تـــديـــرهـــا نشـــواتُـــه
فتـــحٌ تعمَّـــتِ السَّمـــاءُ بفخـــره
وهَفَـــتْ علـــى أغصـــانهـــا عَـــذَبـــاتُـــه [(١٥)]

---

(١٢) إصلات السيف : تجريده من غمده - الصِّلات - بكسر الصاد : جمع الصِّلة وهى العطية والجائزة .

(١٣) الشدّات : الحملات فى الحرب - المشوق : جمع مشق ، وهو سرعة الطعن والضرب - الشذا : كسر العود الذى يُتَبَخَّر به ، والواحدة : شذاة .

(١٤) الحثحثة : التحريك - اليراع : القصب ، واليراعة : القلم يتخذ من القصب - اللِّدات : جمع اللدة وهو التِّرب أو من ولد معك فى وقت واحد .

(١٥) الصبوح : شراب الصباح - الغبوق : شراب العشىّ - الطلَى : الخمر - العذبات : أطراف العمائم .

سَبَغَـــتْ علـى الإســلام بيــض حُجُـولــه

واختـــال فـــى أوضـاحهــا جبهــاتُـــه [16]

وانْهَـــلَّ فـــوق الأبطحيـــن غمـــامُـــهُ

وسَـــرَتْ إلـــى سَكِينهـــا نَفَحـــاتُـــه

لله بلجـــــة ليلـــــة محصـــت بـــه

واليـــوم دَبَّـــجَ وشْيَـــهُ ســـاعـــاتُـــه

حـــطّ القـــوامـــص فيـــه قمـــاصهـــا

ضـــرب يصلصـــل فـى الطّلـى صعقـــاتُـــه [17]

نبـــذوا السّـــلاح لضَيْغَـــمٍ ، عـــاداتُـــه

فَـــرْسُ الفـــوارس ، والقنـــا غـــابـــاتُـــه [18]

لمجـــرب « عُمَـــرِيَّـــة » غضبـــاتُـــه

لله ، « مُعْتَصِمِيَّـــــةٌ » غـــــزواتُـــــه [19]

تحيـــا لِضِيـــق صفـــاده أُسَـــراؤه

وتغيـــض مـــاءَ شـــؤنهـــا نقمـــاتُـــه [20]

---

(١٦) الحجول : جمع الحجل ، وهو الخلخال .

(١٧) البلجة : ضوء الصبح عند انصراع الفجر - محصتْ بمعنى لمعتْ - يصلصل : يصوّت - الطلى : جمع طلية أو طلاة ، وهو العنق .

(١٨) الضيغم : الأسد الواسع الشدق - الفَرْس : القتل .

(١٩) عمريّة : نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - معتصميّة : نسبة إلى المعتصم العباسى وفتحه عمُّورية .

(٢٠) الصفاد : الوثاق - الشئون : مجارى العين الدمعيّة .

بيـــن الجبـــال خـــواضعًـــا أعنـــاقُهـــا
كـــالـــذَّوْد نـــابـــت عـــن بـــراه حـــداتُـــه (٢١)

نشـــرت علـــى « حلـــب » عقـــودُ بُنُـــودهـــم
حُلَـــلَ الـــربيـــع تنـــاسقـــت زهـــراتُـــه

روضٌ جنـــــاه لهـــــا مكـــــرٌّ جيـــــادِه
واستـــوأَرَتْ حمّـــالـــه حمـــلاتُـــه (٢٢)

متســـانديـــن علـــى الـــرّحـــال ، كمـــا انتشـــى
شـــرْب أمـــالـــت هـــامَـــه قهـــواتُـــه

لـــم تُنْبِـــتِ الآجـــام قبـــل رمـــاحـــه
شجـــرًا أصـــولُ فـــروعِـــه ثمـــراتُـــه

فلْيَحْمَـــدِ الإســـلامُ مـــا جُـــدِحـــتْ لـــه
شَـــربـــاتُ غـــرْبٍ هـــذه مَجْنـــاتُـــه (٢٣)

وسقـــى صـــدَى ذاك الحيـــا صـــوبُ الحيـــا
خيـــرَ الثـــرى مـــا كنـــتَ أنـــتَ بنـــاتُـــه

نصـــب السّـــريـــر ومـــال عنـــه ، ومهّـــدت
لمقـــرّ منصبـــك السّـــرىّ ســـراتُـــه (٢٤)

---

(٢١) الذّود : السوق والطّرْد - البُرى : جمع بُرة ، وهى حلقة فى أنف البعير يقاد منها .
(٢٢) استوأرت الإبل : تتابعت على نفار.
(٢٣) جدحتْ : مُخِضت - شربات : نخلات - مجناته : ثماره .
(٢٤) السَّراة : جمع السرىّ وهو الشريف السخىّ .

مـــا ضــــرّ هـــذا البـــدرَ وهـــو محلّـــق
أنّ الكـــواكـــبَ فـــى الـــذُّرا ضــرّاتُـــه

فـــى كـــلّ يـــوم تستطيـــلُ قنـــاتُـــه
فـــوق السّمـــــاء ، وتعْتَلـــى دَرَجـــاتُـــه

وتظـــلّ تـــرقـــمُ فـــى الضُّحَـــى آثـــاره
مجـــدًا وألسنـــةُ الـــزَّمـــان رُواتُـــه (٢٥)

أيـــن الألَـــى مـــلأوا الطُّـــرُوس زخـــارفـــا
عـــن نـــزْفِ بحـــرٍ هـــذه قطـــراتُـــه

غـــدقـــوا بـــأعنـــاق العـــواطـــل مـــالـــه
مـــن جـــوهـــر فـــأتتهـــمُ فـــذَّاتُـــه (٢٦)

لـــو فصّلـــوا سمطًـــا ببعـــض فتـــوحـــه
سخـــرت بمـــا افتعلـــوا لهـــم فِعـــلاتُـــه (٢٧)

يُمْســـى قنـــانيـــه بنـــات قيـــونـــه
فـــوق القـــوانـــس والقنـــا قيْنـــاتُـــه

صلتـــان مـــن دون الملـــوك تقـــرّهـــا
حـــركـــاتـــه وتُنيمهـــا يقظـــاتُـــه (٢٨)

قعـــدت بهـــم عـــن خطـــوه هِمّـــاتهـــم
وسمـــت بـــه عـــن قَطْـــوِهـــم هِمّـــاتُـــه (٢٩)

---

(٢٥) ترقم : تكتب .
(٢٦) أغدق عليه مالًا : أفاضه عليه - العواطل : جمع العاطل ، وهى المرأة خلت من الحلْى - الفذّات : الفرائد.
(٢٧) السمط : القلادة .
(٢٨) الصلتان : القوى الشديد .
(٢٩) القطو : التثاقل فى المِشية ، وقطا : ثقل مشيه .

سكنـــوا مسجَّفـــة الحِجـــالِ ، وأسكنـــت
زُحَـل الـرّحـال مـع السُّهـا عـزمـاتُـهُ[٣٠]

لــــولاح « للطّـــائىّ » غُـــرَّةُ فتْحــــه
بـــاءتْ بحمْـــل تـــأوُّهِ بـــاءاتُـــه[٣١]

أوهَــــبَّ « للطَّبَــرِىّ » طِيـــبُ نسيمـــه
لَاختَــشَّ مـــن تـاريخــه حشـــواتُــه[٣٢]

صـــدم الصَّليـــب علـى صـــلابـــة عُـــودِه
فتفـــرَّقَـــتْ أيـــدى سَبـــا خَشَبـــاتُـــه[٣٣]

وسقـــى « البِـرِنْـــس » وقــد تَبَــرْنَـسَ ذِلَّـــةً
بـالــروُّج ممقـــر مـــا جَنَـتْ غَـدَراتُــه[٣٤]

فـــانقـــاد فــــى خطـــم المنيّـــة أنفُـــهُ
يـــوم الخطيـــم ، وأقصـــرت نـــزواتُـــه

ومضـــى يـــؤنّـــب تحـــت « إنّـــب » همَّـــةً
أمْسَـــتْ زوافـــر غيّهـــا زفـــراتُـــه[٣٥]

---

(٣٠) الحجـال : جمع حجلـة وهـى الستريضـرب للعروس فـى جـوف البيت - المسجّفـة : التـى أرسل عليهـا السجف وهو الستر - زحل والسُّها : كوكبان .

(٣١) الطائىّ هو أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر ، وباءاته هى قصيدته التى أوّلها :

السيفُ أَصْدَقُ أنباءً من الكُتبِ   فى حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللعِبِ

(٣٢) الطبرى : هو محمد بن جرير ، مؤلف « تاريخ الرسل والملوك » توفى سنة ٣١٠ هـ .

(٣٣) أيدى سبـا : ضرب بهـم المثل فى التفرُّق ؛ لأنه لما غـرق مكانهـم ، وذهبت جناتهـم تبدّدوا فـى البلاد ، فأخذت كلّ طائفة منهم طريقا .

(٣٤) كذا .

(٣٥) إنّب : حصن من أعمال عزاز من نواحى حلب ، له ذكر .

أســـدٌ تبــوأ كـــالغــرنـــف فجــأتـــه
فتبـــوّأتْ طـــرفَ السِّنـــان شـــواتُـــه (٣٦)

دون النُّجُـــوم مغمضًـــا ، ولَطـــالمـــا
أغضـــب وقـــد كـــرّت لهـــا لحظـــاتُـــه

فجلـــوتـــه تبكـــى الأصـــادق تحتـــه
بـــدم إذا ضحكـــت لـــه شُمَّـــاتُـــه (٣٧)

تمشـــى القنـــاةُ بـــرأســـه وهـــو الـــذى
نظمـــتْ مـــدار النَّيِّـــرَيْـــن قنـــاتُـــه

لـــو عـــانـــق العَيُّـــوق يـــوم رِفعتـــه
لأَرَاكَ شـــاهِـــدَ خفضـــه إخْبَـــاتُـــه (٣٨)

مـــا انْقـــادَ قبلـــك أنفـــه بخِـــزَامـــه
كـــلّا ، ولاهمَّـــت لهـــا هـــدراتُـــه (٣٩)

طيّـــان خـــفّ « السَّـــرْح » طـــال زئيـــره
نطقـــت سُطـــاك لـــه فطـــال صُمـــاتُـــه (٤٠)

لمّـــا بـــدا مُسْـــوَدُّ رايـــك ، فـــوقـــه
مُبْيَـــضُّ نصْـــرك ، نُكِسَـــتْ رايـــاتُـــه

---

(٣٦) الغرنف : القصباء والحلفاء والشجر الكثير الملتف – الشواة : جلدة الرأس .
(٣٧) الأصادق : جمع الصديق – الشُّمات : الشامتون .
(٣٨) العيُّوق : نجم أحمر مضيء – الإخبات : الخشوع والتواضع .
(٣٩) الخزام : جمع خزامة وهي حلقة من شعر تجعل في أحد جانبي منخري البعير – الهَدْر : ترديد البعير صوته في حنجرته .
(٤٠) السرح : موضع بالشام عند بُصْرَى – الصُّمات : الصَّمْت .

ورأى سيـوفـك كـالصَّـوالـج طـاوحـت
مثـل الكُـريـنِ تقلّصـت كـرّاتُـه (٤١)

ولّـى وقـد شـربـت ظبـاك كُمَـاتَـه
تحـت العَجـاج وأَسْلَمَتْـه حُمَـاتُـه (٤٢)

تـرك الكنـائس والكنـاس لنـاهـبٍ
بـالبيـض ينهـب مـا حـواه عُفـاتُـه (٤٣)

غـلّاب ، أروع ، لايُميـت عِـداتِـه
داءُ المطـال ، ولاتعيـش عُـداتُـه (٤٤)

للـوحـش مُلْقًـى بـالعـرا يقتـاتُـه
مـا كـان قبـلُ بصيـده يقتـاتُـه (٤٥)

اليـوم ملّكـك القِـراع قِـلاع
متسنِّمًـا مـا استشـرفـت شـرفـاتُـه (٤٦)

وغـدًا تحـلّ لـك الحـلائل أسهـم
متـوزّعـات بينهـن بنـاتـه

أوطـأت أطـراف السَّنـابـك هـامـه
فتقـاذفـت بعتيقهـا قـذفـاتُـه (٤٧)

(٤١) الصولجان : عصًا يُعطف طرفها يضرب بها الكرة على الدواب - الكرين : جمع كُرة .
(٤٢) الظبا : جمع الظّبة وهى حدّ السيف وغيره - الكماة : لابسو السلاح الشجعان - العجاج : الغبار .
(٤٣) الكناس : الموضع يستتر فيه الظبي - العفاه : جمع العافى ، وهو طالب النوال والمعروف .
(٤٤) المطال : المماطلة بالحقّ وتأجيل موعد الوفاء به مرة بعد الأخرى .
(٤٥) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشيء - يقتاته : يجعله قوتًا وطعامًا .
(٤٦) متسنّما : معتليًا .
(٤٧) العتيق : الكريم الرائع من كلّ شيء كالفرس وغيره .

لازال هـــذا الملـــك يشمـــخ شـــأنـــه

أبـــدًا ويكفــت فــى الحضيــض شتــاتُــه[٤٨]

مـــا أخطـــأتـــك يـــد الـــزّمـــان فـــدونـــه

مـــن شـــاء فلتُشْـــرع إليـــه هنـــاتُـــه[٤٩]

أنـــت الـــذى تُحلـــى الحيـــاةَ حيـــاتُـــه

وتهـــبُ أرواح القصيـــد هِبـــاتُـــه

* * *

(٤٨) يكفته : يصرفه عن وجهه .

(٤٩) هناته : شروره وفساده .

وقال متغزلاً :

أحلى الهوى ما تُحِلُّهُ التُّهَمُ باح به العاشقون أو كَتمُوا
أَغْرَى المُحِبّين بالمحبّة فالـ ـعذل كلامٌ أسماؤه كَلِمُ
[ومُعْرِضٌ صرّح الوُشاةُ له فعلَّمُوهُ قتلى وما علموا]
سَعَوْا بنا ، لا سَعَتْ بهم قَدمٌ فلا لنا أصلحوا ولا لَهُمُ
ضَرُّوا بهجراننا وما انتفعوا وصدّعوا شَمْلَنا وما التأموا
باللهِ يا هاجِرى بلا سببٍ إلّا لِقَالَ الوُشاةُ أو زَعَمُوا
بحقّ من زان بالدُّجى فَلَق الـ ـصُّبْحِ على الرُّمح إنّه قَسَمُ
وقال للماء : قِفْ بوَجْنَتِهِ فَمَازج النّارَ وهى تضطَّرِمُ
هل قلتَ للطَّيْفِ لا يعاوِدُنى بَعْدَكَ أم قد وَفَى لك الحُلُمُ
[أَمْ قلتَ للَّيْلِ : طُلْ ، فأفْرَط فى الـ ـطّاعةِ حتى إصْبَاحهُ ظُلَمُ
مولاى إنّ الذى قُذِفْتُ به زُورٌ ، فَزُرْ ، لا يَرُعْكَ قولُهُمُ
عندى لهم مُقْلَةٌ يحجُبُهَا الدَّمْعُ وأُذُنٌ شِعارُهَا الصَّمَمُ
إنْ يحسدونى فلا أَلُومُهُمُ مِثْلُكَ تَسْمُو لحُسْنِهِ الهِمَمُ
رأوك لى جنَّةً مُزَخْرَفَةً ما وجدوا مثلَها ولا عَدِمُوا
فاختَلَقُوا وافتروا ، فَلَيْتَهُم حين رأوا ما رأيتُ فيك عَمُوا
فأين كان المُمَوِّهون وقد وَحَّد قلبى هَوَاكَ قبْلَهُمُ (٥٠)
لى حُرْمَةُ الصّابر الشكور وما أحدثْتُ دينًا تُلْغَى له الحُرَمُ

---

(٥٠) المموّهون : الذين يلبسون الحقّ بالباطل ويزخرفون الحديث .

{خبَّرنـي شـاهـدٌ بِـزُورهِـم | وأنـت خصْمـي وحِلْمُـكِ الحَكِـمُ]
يـا قمـرًا أصْبَحَـت محـاسِنُـهُ | تَنْهَـبُ ألبـابَنـا وتقْتَسِـمُ
فيـك مَعَـانٍ لـو أنّهـا جُمِعَـت | فـي الشمـس لَـم يَغْـشَ نُورَهـا الظُّلَـمُ
تمشـي فتُـرْدِي القضيبَ مـن أَسَـفٍ | وتَكْسِـفُ البـدرَ حيـن تبتسـمُ
وتُخْجِـلُ الـرَّاحَ منـك أربعـةٌ : | خَـدٌّ ، وثَغْـرٌ ، ومُقْلَـةٌ ، وفَـمُ
يـا ربُّ خُـذْ لـي مـن الـوُشـاة إذا | قـامُـوا وقُمْنـا لَـدَيْـكَ نَحْتَكِـمُ

* * *

وقال معاتبا :

جعـل القطيعـة سُلَّمًـا لعتـابـه | متجـرِّمٌ جـانٍ علـى أحبـابـه
مـا زال يضمـر غـدره مُتَعَلِّـلًا | بـوُشـاتـه مُتَسَتِّـرًا بكُـذّابـه
حتـى تحـدّث نـاظـراه فَحَلَّـلا | مـا كـان أوثـق مـن عُـدَى إعتـابـه (٥١)
واللهِ لَـوْلا مـا يقـوم بنصـره | مـن نـار وجنتـه ومـاء شبـابـه
لأَبَحْـتُ ما خَطَـرَ الهـوى من هجـره | ليصـح أو حـرَّمْـتُ حِـلَّ رِضـابـه
وَلَكـانَ مـن ديـن المـروءة تـركـه | فـالصَّبْـر أعْـذَبُ مـن أليـم عـذابـه
حَتَّـامَ أُقْبِـلُ وهـو ثـانٍ عِطْفَـهُ | والحـبُّ يحملنـي علـى اسْتجـذابـه
وأقـول : غِـرّطـنَّ غـيّ وشـاتـه | رُشْـدًا فـأرجـو أن يفيـق لِمـا بـه
وإذا تغيّـره لمعنّـى بـاطـنٍ | لا خـوف عـاتبـه ولا مغتـابـه
يـا ظـالمًـا أعطـى مـواثـق عهـده | بـوفـائه والعُـذر مـلْء ثيـابـه

---

(٥١) الإعتاب : الرضا ورجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب .

زيَّنتَ لي وجهَ الغرورِ بموعدٍ كذِبٍ فواظمئِي لِلَمْعِ سرابه
ونبذتَني نَبْذَ الحَصاةِ مُضَيَّعًا ودًّا بخلتَ به على خُطّابه
ما كان وصْلُك غيرَ هَجْعَةِ ساهرٍ غضِّ الجفون فريّع في أهيابه
آهًا لهذا القلب كيف خدعْتَهُ متصنِّعًا فسكنْتَ سِرَّ حجابه
ولناظرٍ كَتَبَتْ إليك جفونُهُ خبرًا، فما أحسنْتَ ردّ جوابه
هذا هواك محكَّمًا ما ضرَّهُ ما قطع الحُسّادُ من أسبابه
ومكانك المأهولُ لم يَحْلُلْ به أحد سواك ولا أقام ببابه
وأنا الّذي جَرَّبْتُهُ فوجدتُهُ ماءً تَقَرُّ النَّفْسُ باستعذابه
فإن استقمتَ، فأنتَ أنت، وإنْ تَزُغْ فالْبَغْيُ مَصْرَعُهُ على أربابه

* * *

طَلائع بن رُزِّيك

(٤٩٥ - ٥٥٦ هـ / ١١٠٢ - ١١٦١ م)

ولد بأرمينية ، وكانت آنذاك تحت حكم السلاجقة الأتراك - من أسرة علم وشرف ، فنشأ منذ صغره محبا للعلم والمعرفة ، ولم يكتف بما تلقاه على أعلام بلده ، بل دفعه شغفه بالعلم إلى أن يرحل فى طلبه ، فأتقن الكثير من علوم الدين ، ونمّى مواهبه الأدبية بما ثقفه من فنون الأدب ، وذكر بعض من ترجموا له أنه كان ديِّنًا « محافظا على الصلاة : فرائضها ونوافلها ، شديد المغالاة فى التشيع » ، محبّا لآل البيت وللإمام علىّ وعترته ، وقد دفعه هذا الحب إلى أن يقصد العراق ليزور مشهد الإمام علىّ بالنجف ، ثم زيّن له بعض الناس أن يتوجه إلى الفاطميين فى مصر ، فاتصل فى القاهرة بديوان الخلافة ، وعمل بالكتابة ، فأبدى همّة وإخلاصا وذكاء وحصافة وحسن سياسة ، ولذلك اختير واليا على قوص وكانت حينئذ عاصمة للصعيد الأعلى ، وقيل إنه ولى على مُنْيَة بنى الخصيب (المنيا الآن) ، ثم على أسوان ، وهى باب مصر الجنوبى ، وكانت ثقة الخلفاء الفاطميين به كبيرة ، لولائه ومقدرته على تأمين الحدود الجنوبية لمصر ، حتى إنهم ولوه الصعيد كله ، وظل فى هذه الولاية زمنا طويلا مكّنه من أن يقوم بإصلاحات شتى وأن يساعد المعوزين والفقراء ، كما مكنه أيضا من أن يجمع حوله قوة من الجيش اقتدر بها على إنقاذ الخلافة الفاطمية بالقاهرة حين استغاثوا به مستنجدين .

ذلك أن الخليفة الظافر تعرض للقتل فى مؤامرة دبّرها عباس الصنهاجى وابنه نصر سنة ٥٤٩ هـ ، وقُتل فيها أخوا الخليفة وابن أخيه ، ولما عرف الناس ذلك ثاروا على عباس وابنه ، وطاردوهما فى شوارع القاهرة ، وبعثت سيدات القصر إلى طلائع بالصعيد لنجدتهن وإعادة الاستقرار والنظام فى البلاد ، وعلم عباس وابنه بقدومه ، فبادرا إلى الفرار بما معهما من أموال نهبوها ، ثم قتلهما الصليبيون وهما فى طريقهما إلى الشام .

وصار طلائع رجل الـدولة المسئول ، وخلعت عليه خلع الوزارة ولقب بـالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، فقد تولى الخلافة ابن للظافر تلقّب بالفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان طفلا لم يتجاوز سنّه خمسة أعوام ، فضبـط طلائع الأمور وقاوم الصليبيين ونازلهم مرارا فى البر والبحر ، فضرب المثل فى الشجاعة والبطولة ولقبه معاصروه بأبى الغارات .

وكان يدعو نور الدين محمود بن زنكى حاكم دمشق للتعاون على قهر الصليبيين ، ولكن دعوته لم تتحقـق ، وقد عرف عنه أنه قام بـإصلاحات داخلية كثيرة ، واعتنى بمجـالس العلم والشعـر فى قصـره ، فجمع حـوله مجمـوعة مـن أعلام عصـره الأدباء ، مثـل عمارة اليمنـى والقاضى الرشيد والمهذب ابنى الزبير ، يطارحهم الشعر .

وكانـت بينه وبين أسـامه بن منقـذ صداقة قديمـة ، وظلّ يبادلـه الرسائل بعـد أن ذهب أسامة إلى الشام ، يبشره بانتصاراته على الصليبيين .

وشعره فى معظمه جيد رصين ، وقد نظم كثيرا منـه فى مديح آل البيت ورثاء الإمام على والإمام الحسن والدعوة إلى التشيع ، كما نظم بعضه فى الفخر والحماسة ووصف المعارك .

وقد قتل سنـة ٥٥٦ هـ بعد أن تولى العاضـد الخلافة بسنة واحدة ، ويقال إنـه هو الذى دبر لمقتله لاستبداده بالأمر ولأنه - كما قيل - كان شيعيا على مذهب الإمامية ولم يكن على مذهب الفاطميين الإسماعيلى .

ولطلائع مسجد مشهور مازال قائما بباب زويله .

* * *

قال وقد أشاد يوما فى بعض من مجالس أنسه وسهره ونظم الشعر وقريضه بذكر الدار الموسومة - بالوزارة - ومن قطنها قبله من الخلفاء والوزراء ومن حضرها من الأمراء والعلماء وأخيرا تصرف الأحوال بهم وانقراضهم وما فى ذلك للعاقل اللبيب من العبرة والموعظة والتفكر:

يا قلبُ كمْ هذا الغرور ... خُدَعُ المنى كَذِبٌ وزُورُ
أَوَ ما تَرى الآمالَ . . يفضـ ... ـحُ طولَهَا العمرُ القصير
لو دَامَ ملكٌ لم يكنْ ... بعد الملوكِ لنا بصير
انظرْ لهذى الدار كمْ ... قد حلّ ساحتَها وزير
وَلكَمْ تَبَخْتَر آمِنًا ... بينَ الصفوفِ بها أمير
ذهبوا فلا والله ما ... بَقِى الصغيرُ ولا الكبير
حتّى ولا أضحتْ ترى ... بينَ القُبورِ لهم قُبور
ما استيقظُوا من غفلةٍ ... إلّا وأرؤُسهم تَطير
ولُحومهم مَمْضوغة ... ومن الوَرَى أيْضًا نُسور
فاصبرْ فلا حُزْنَ على الدّ ... نيا يدومُ ولا سُرور
لا تُنْكِرَنْ ما قد جَرى ... فى عصرِنا فكذا العُصور
كلّا ولا تَجْزَعْ لريْب ... زمانِنا فكذا الدهور
هذا الحسينُ بكَرْبلاء ... ثَوى وليسَ له نَصير
قَبْلَ الخِداعِ وغَرَّه ... مِن أهلِ دَعْوَتهِ الغَرُور
فغدا بفتيَتِه الكرام ... إلى مَصارِعِهم يَسير
حتّى تَلَقّاهمْ بجَنْب الطـ ... ـف يومٌ قَمْطَرير (١)

---

(١) القمطرير من الأيام: الشديد المظلم.

وغَـــــدا مُـــــرَاقُ دمـــــائِم حَـــوضُ الميــاهِ بـــه يَمــــور[2]

فسُقـــوا النَّجِيــــعَ هنــــاك لمـــا أَعْــوزَ المـــاءُ النَّمِيـــر[3]

وبنــــو أُميّـــــة آمنـــــ ـــون تـــد ورُبينهــــمُ الخُمـــور

لَهْفـــى لصَــرْعـــى فـــى رجـــا لِهـــمُ وشِيعتهـــم حُضـــور

وطِئـــتْ ظُهُـــورهــــم ورُضَّــــ ـــت بـــالخيــول لهـــم صُــدور

بـــالسَّيـــفِ مـــن أولاد فـــا طمــةِ ضُحَـــى فطــم الصَّغيـــر

وسِـــوى الإمـــامِ ثـــوى الصُلْــ ـــبِ أبيـــه أربعـــةٌ ذُكـــور[4]

وَبنُـــو عقيــــلِ كلّهـــم مـــا فيهـــمُ إلّا عَقِيـــر

ولجَعْفَـــرِ الطيـــارِ صَـــرْ عَـــى فـــى دمـــائِهم كثيـــر

مـــا جَـــدَّهـــم أبـــدًا علَـــى هـــذا لأُمَّتِـــه بَشيـــر

لكنّـــه لهـــمُ عليـــ ــه يطــول خِــزْيهـــمُ نـــذيـــر

إنْ كـــان فيهـــمْ مـــؤمنـــو ن بـــزعْمهـــمْ فمـــنِ الكَفُـــور

أو زُخْـــرفَـــتْ عَـــدْنٌ لهـــمْ فلمـــنْ تـــرى تُـــذْكـــى السَّعيـــر

تبًّـــا لأفَّـــاكيـــن عنـــ ـــد الله ذنبُهُـــمُ كبيـــر

قتلُـــوا الحُسَيـــنَ ومـــا استتبَّـــ ـــتْ بَعْـــدهُ لَهُـــمُ أمُـــور

مـــا بيـــنَ مَصْـــرَعـــهِ وهُلْـــ ـــك يـــزيـــدهـــمْ إلَّايَسِيـــر

فكـــأنَّـــه مـــا كـــانَ قَـــ طٌّ ولـــمْ تكـــنْ تلـــك الشُّهـــور

ولمثـــلِ مـــا صَـــاروا إليـــه مـــن الفنـــاءِ غَـــدًا نَصِيـــر

* * *

(2) مار الدم على وجه الأرض: انصب فتردد عرضا.

(3) النجيع من الدم: ما كان مائلا إلى السواد.

(4) إشارة إلى العباس وعبد الله وعثمان وجعفر.

بعث أسامة بن منقذ قصيدة إلى طلائع بن رزيك الملك الصالح مطلعها قوله :

أجِيـرةَ قلبـي إن تَـدَانـوا وإن شَطّـوا ... ومُنيـةَ نفسـى أنْصَفُونـى أوِ اشتطّـوا (٥)

فأجابه طلائع بقصيدة محرّضًا فيها على الجهاد :

هـى البـدرُ، لكـنّ الثُّـريـا لهـا قُـرْطُ ... ومـن أنجُم الجَـوْزاءِ فـى نَحْـرها سِمْـطُ (٦)
مَشَـتْ وعليهـا للغمـامِ ظـلائلٌ ... تُظِـلّ ، ومِـن نَسْـج الـربيـعِ لهـا بُسـط
تَـؤُمّ صـريعًـا فـى الـرجـالِ ، كـأنـه ... مـن السُّقْـم ، والأيـدى تقلّبـه ، خـطّ
فمـا اخْضَـرَّ قُـرْبُ الأرضِ إلّا لأنّهـا ... عليـه ، إذا زارتْ ، بـأقـدامِهـا تَخْطـو
ولا طـابَ نشـرُ الـروضِ إلّا لأنـه ... يَجُـرّ عليـه مـن جَـلابيبهـا مِـرْطُ (٧)
ولا طـارَ ذكـرُ الظَّبْـيِ إلّا وقـد غـدا ... يصـدُّ كمـا صـدَّتْ ويَعْطـو كمـا تعَطْـو (٨)
مـن البيـض مِثْـل الصبح مـا للظـلام فـى ... محـاسِنهـا ، لَـوْلا ذوائبُهـا ، قِسْـطُ
إلـى العَـرَبِ الأمْحـاض يُعْـزَى قبيلُهـا ... وقـد ضَمَّها فـى الحسن مـعْ يـوسفٍ سِبْـط
ولمـا غَـدَتْ كـالعـاج ، زيَّـن صَـدْرهـا ... بحُقَّيـن منـه ، قـد أجـادهمـا الخَـرْط
وأرسـلَ فـوَق الخـدِّ صِـدْغٌ مُكَلَّـلٌ ... كما انساب فـى الرَّوْضاتِ حَيَّاتُهـا الرُّقْط (٩)
ذوائبُ زارَ الخضْـرَ منهـنّ فـاحـمٌ ... تَحَـدَّر ، لا جَعْـدَ النبـات ، ولا سَبْـط
يُنـافِـى سَنـا الكـافـورِ، إنْ مُشِّطَـتْ بـه ... ويُخفـى سـوادَ المِسْـكِ ، فهْـو لهـا خلْـط
ولمـا نـأَتْ عنـا ، علـى كـلِّ حـالـةٍ ... تَساوَى الرِّضا والسُّخْطُ والقُرْبُ والشَّحْط (١٠)

---

(٥) شطّ : بُعد ، واشتطّ : جار.
(٦) السمط : قلادة أطول من المخنقة .
(٧) المرط بالكسر: كساء من صوف أو خز.
(٨) العطو: رفع الرأس واليدين .
(٩) الرقطة : سواد يشوبه نقط بياض أو عكسه .
(١٠) الشحط : البعد .

فَأَذْكَرَنا ذاك البعادُ ، معاشًا ... نَأَوا ، فكأنَّما ما لقيناهُمُ قَطّ
وَأَلْقَوا ، وقد شَطُّوا ، فؤاد مُحِبِّهم ... إلى بَحْرِ شَوْقٍ ما لِلجُنَّةِ شَطٌّ (١١)
وليسَ تَشُقُّ السُّفْنُ أَمواجَهُ ، ولا ... بِساحِلِهِ لِلعِيسِ رَفْعٌ ولا حَطٌّ
أحبابَنا بالشَّام ، عُفْتُمْ جِوارنا ... فجاوَرَكم فى أَرْضِها الخَوْفُ والقَحْط
وما كان بعدَ النِّيلِ ، والنِّيلُ زاخرٌ ... بمصرَ لِيُغْنِى عنكم ذلك الخُطُّ (١٢)
وقد عِشْتُمُ فيها زَمانًا ، فما اعترَى ... رِضَاكُمْ بها ، لولاتَخوُّفكُم ، سُخْطُ
وكنتُم لنا دُونَ الأَقارِبِ أُسْرَةً ... ونحنُ لكُم من دُون رهْطِكُمُ رهْطُ
وإنا أُناسٌ ، ليسَ يَبْرحُ جَارُنا ... يُحكَّم فى الأَموالِ مِنَّا ، فَيشتَطُّ
ويمتَاحُنَا زُوَّارُنَا ، فكأنَّما ... غَدَا لهم شَرْطٌ علينا ، ولا شَرْط
ويصبحُ بسطُ الكفِّ بالمال عندَنا ... وكلّ مليكٍ عنده القبضُ والبَسْط
وتخرِق شرقُ الأرضِ والغربِ خَيْلُنا ... عليها الشبابُ المرْدُ ، والجِلَّة الشُّمْط (١٣)
وظَلْماء للشُّهبِ الدَّرارِى إذا سَرَتْ ... هناك مع السارين فى جُنْحها خَبْط
كما أولُ الفَجْرين سَقْط يسلّ من ... حشاها ، كذاك البرقُ فى جَوْفِها سقط
سَلَلْنا بها البيضَ السيوفَ فلاح فى ... شبابِ الدُّجَى لما بدا لَمْعُها وَخْط
سيوفٌ لها فى كلّ دِرْعٍ وجُنَّة ... إذا ما اعتلت قَدٌّ أو اعْتَرَضَتْ قَطٌّ (١٤)
ذَخَرْنا سطاها للفِرنج ، لأنّها ... بهم دونَ أهلِ الأرضِ أجدرُ أن تَسْطو
لهمْ قِسْطهمْ فى الحربِ منها ، وما لها ... عليهم لَدى الهيجاءِ عَدْلٌ ولا قَسط (١٥)

---

(١١) اللُّجَّة : مجمع الماء ، وخصه بعضهم بمعظم البحر .
(١٢) الخُط بالضم : موضع الحى .
(١٣) الشَّمَط : بياض شعر الرأس يخالطه سواده ، والشمط فى الرجل : بياض اللحية . والجِلّة : جمع جليل .
(١٤) الجُنَة : كل ما وقى – القدّ : الشق طولا – والقطّ : القطع عرضا .
(١٥) القَسط بالفتح : الجوروالعدل عن الحق .

وقد كاتبوا فى الصُّلحِ ، لكنّ جوابَهم / بحَضْرَتِنا مايَنبتُ الخَطّ لا الخَط (١٦)

سُطُور خُيولٍ لا تُغِبّ ديارَهم / لها بالمواضى والقَنا الشَّكْلُ والنَّقط

وحَرْبٌ لها الأرواحُ زاهِقة لما / تُعاين والأصواتُ من دَهَشٍ لَغْط (١٧)

إذا أَرْسَلَتْ فَرْعًا من النَّقْع فاحمًا / أثيثًا فأسنانُ الرمحِ لها مُشْط (١٨)

كأنَّ القنا فيها أنامِلُ حاسبٍ / أَجَدَّ بها فى السُّرْعة الجمعُ واللَّقْط

رَدَدْنا بها ابن الفُنْش عنا ، وإنما / يُثَبِّته فى سَرْجه الشَّدُّ والرَّبْط

فقولُوا لنورِ الدينِ : ليس لجائفِ الجرا / حاتِ إلا الكَيُّ فى الطِّبِّ والبَطّ

وحَسْمُ أصول الداءِ أَوْلى لعاقلٍ / لبيبٍ إذا استولَى على المُدْنِفِ الخَلْط (١٩)

فدعْ عنك مَيْلًا لِلفرنْج وهُدْنَةً / بها بدا يُخْطِى سِواهم ، ولم يَخْطوا

تَأَمَّلْ فكمْ شَرْطٍ شَرَطْتَ عليهمُ / قديمًا ، وكم غدرٍ به نُقِضَ الشَّرْطُ

وشَمِّر فإنَّا قد أَعَنَّا بكلّ ما / سَأَلْتَ وجَهَّزنا الجيوشَ ولن يُبْطُوا

ودونَك مَجْدَ الدينِ عذراءَ زَفَّها / إليك الوفاءُ المَحْضُ والكَرْم السَبْط (٢٠)

هُدِيًّا تَهادَى بينَ حُسْنٍ وفائِنا / وإنعامِنا ، ذا التاج زانَ وذا القُرط (٢١)

عَلَى أنَّها تشتطّ إنْ هى ساجلت : / (أجيرةَ قلبى ، إن تدانوا إن شطوا) (٢٢)

* * *

---

(١٦) الخط : سيف البحرين ومرفأ السفن بالبحر ، وإليه نسبت الرماح . والخط الثانية : المراد بها الكتابة .

(١٧) لَغَط القوم : صاحوا وأجلبوا .

(١٨) أثّ النبات : كثر والتفّ ، وهو أثيث : أى كثير عظيم .

(١٩) بطّ الجرح : شقّه - المدنف : المريض - الخلاط بالكسر : أن يخالط الرجل فى عقله .

(٢٠) شمّر الرجل : مرّ مسرعًا ، وللأمر : نهض وخفّ - البسط - بالفتح : السخىّ .

(٢١) الهَدِىّ : العروس .

(٢٢) القصيدة فى ديوان أسامة بن منقذ .

وأرسل أُسامة قصيدة إلى الملك الصالح يمدحه بها ومطلعها :

أَذْكِـرْهُمُ الـودّإنْ صَـدُّوا وإنْ صـدَفُـوا   إنّ الكِـرامَ إذا استعطَفْتهم عَطَفـوا

فأجابه الملك الصالح بقوله :

آدا بُـك الغُـرُّ بحْـرٌ، مـالـه طَـرفُ   فى كـلّ سمعٍ بَـدا من حُسْنـه طرُفُ
نقـولُ ، لمـا أتـانـا مـا بَعَثْـتَ بـه :   هـذا كتابٌ أتـى ، أمْ روضةٌ أُنُـف (٢٣)
خَـطٌّ تنـزْهـتِ الأزهـارُ حيـن بـدا   كـأنـه الـدرُّ، عنـه فُتّـح الصـدف
إنْ نَظْمُـه طَـرَق الأسمـاعَ كـانَ لهـا   وإنْ حَـوَتْ عَطَـلًا مـن حِلْيـةٍ شَنَـف (٢٤)
رَقَّـتْ حَـواشِـى كـلامٍ أنـتَ نـاظمُـه   فيـه ، فجـاء كـزهْـرِ الـروض ، يُقْتَطـف
وَرَدْتَ بحـرَ القـوافـى فـاعترفْـتَ كمـا   قـد حـلَّ يـومًـا بمَـدِّ النيـلِ مُغْتـرف
زَهَـتْ علـى البـدرِ نـورًا ، إذ أتـتْ بسـواد   النِّقْـس يشبِهُـهُ مِـنْ خَـدِّه كَلَـف (٢٥)
قَـرْطَسْـت رَمْيًـا ، وكـالـرامِ بـأسهمـه   إذا تُحقِّـق منـه يَسْلَـم الهَـدَف
بنـاظـرٍ فـاقَ غَـزْوَ العِـدِّ ل، لاوَشَـل   ولا ببـرْضٍ إذا مـا حـلّ يُنْتَـزف (٢٦)
إذا تطلّـعَ فـوقَ الأرضِ ذو أدبٍ   فـأنـت منه على العَيُّـوقِ تَشْتَـرِف (٢٧)
وإمْ تَعَـرَّى دَعِـيٌّ مـنْ فضـائِلـه   فـأنـتَ مُـدَّرعٌ منهـا ، ومُلْتَحِـف
إذا تَخَفَّـى لفتـحٍ وجْـهُ قـافيـةٍ   فعـنْ قوافيـك شِيلـت دوننا السُّجُـف (٢٨)
لأعْيُـن النـاس نَهْـبٌ مـن محـاسِنهـا   كمـا القلـوبُ تُـلاقيهـا ، فتَتَخَطَّـف

---

(٢٣) روضة أنف بضمتين : لم ترع .
(٢٤) الشنف بالفتح : القرط .
(٢٥) غرف الماء : أخذه بيده – النقس : المداد – الكلف : سواد فى صفرة .
(٢٦) قرطس : أصاب القرطاس ، وهو أديم ينصب للنضال – البرْض : القليل – الوشل : الماء القليل .
(٢٧) العيوق : نجم – وتشترف : تشرف .
(٢٨) السجف : جمع السجاف وهو السّتر .

إذا ذكرناك (مجد الدين) عاودَنا ... شوقٌ تَجَدَّد منه الوجدُ والأسف (٢٩)

ورُمْنَ ما قد وجدناه لفرقتِكم ... يحيطُ بالقلب من أرجائه التَّلَف

ولو عرَفْت الذى فى القلبِ مِنك لما ... أنْ كنتَ عنا على الأحوال تَخْتلف (٣٠)

ولا عَجِيبٌ إذا حافَ الزمانُ على ... حرٍّ، وكلّ قضاياه بها جَنَفَ (٣١)

فلا تكنْ جازعًا ، إنّ التجاوُزعن ... إنفاقِك الصَّبْرَفى شرْعِ الهَوَى سَرَف

فإن حَصُلْتَ على الصَّبْر احتويتَ على ... الأجرِ الجزيلِ ، وفى إحرازِه شَرَف

يا منْ جَفَانا ، ولو قد شاء كان إلى ... جنابنا دونَ أهلِ الأرضِ يَنْعَطف (٣٢)

وحقّ مَنْ أمّه ، وفدَ الحجيجُ ، ومن ... ظَلَّت إلى بيته الرّكبانُ تختلف (٣٣)

إنّا لَنُوفِى عَلَى حالِ العباد ، كما ... نُوفِى لمنْ ضَمَّه فى قُرْبنا كَنَفَ (٣٤)

وتغفرُ الذنبَ إنْ رامَ المسىءُ بنا ... عفوًا ، ونَسْتُره فى حينِ يَنكشف

وإنْ جَنَى مَنْ رَأَى أَنّا نُعاقبه ... يَرُدّنا الصفحُ أو يَعْتاقنا الأَنَف (٣٥)

نَعَمْ ، ونَحْفظُ عندَ الغيبِ صاحِبَنا ... وليسَ يُدْرِكُنا كِبْرٌ، ولا صَلَف (٣٦)

فما لإبعادِنا يومَ الوغى مَيَلٌ ... ولا لموعدنا يومَ النَّدى خَلَف

فعندنا جَنَّةٌ تدنُو الثمارُ بها ... إذا دَنا مُجْتَنٍ منها ومُقْتَطف

هَدَى مُصاحِبنا ضَوْء النهارِ، وكمْ ... قد ضَلَّ مَن فى ظلام اللّيل يَعْتَسف (٣٧)

---

(٢٩) الوجد : الحزن.

(٣٠) « أن » زائدة بعد « ما ».

(٣١) الحيف : الظلم . والجنف : الميل والجور.

(٣٢) الجناب : الفناء والناحية.

(٣٣) اختلف إليه : تردد.

(٣٤) الكنف : الجانب والظل والناحية.

(٣٥) يعتاقنا : يعوقنا . والأنف : الاستنكاف.

(٣٦) الصلف : أن تتمدح بما ليس عندك ، ويقال صلف فلان أى لم يحظ عند الناس وأبغضوه.

(٣٧) يعتسف : يخبط على غير هداية.

فمِـــلْ إلينـــا بـــآمـــالٍ مُحَقَّقـــة وكُـفَّ غَـرْبَ دُمـوع لـم تَـزَلْ تَكِـف (٣٨)
كَفـى اغترابًـا ، فعَجِّل بـالإيابِ لنـا فمنـك لاعِــوَض يُلْقَـــى ولاخَلَــف
وقـد أَجَبْنـا إلـى مـا أَنْـت طـالبُـه فـالآنَ كيـفَ تُـرَوِّى فيـه أو تَقِـف
فـرأيُنـا فيـك قـد أَضْحـى عَـلاَنيـةً والجُنْـدُ قـد عَرَفُـوا منـه الَّـذى عَـرَفُـوا
وقُـدِّمــت لـك تَمْهيـداتُنــا ، وبهـا وَحْـشُ الفــلاةِ إذا مـا رُوِّعــت أَلُـف
كـأننـا حيـن تَجْـرى ذِكْـرَة لكـم علـى اضْطـرامِ لهيـبِ النّـار نَعْتَكِـف
فـإنْ يبـالـغْ أُنـاسٌ فـى الثَّنـاء علـى أوصـافِكـم قَصَّـروا فـى كـلّ مـا وَصَفـوا
فخـذْ نظـامًا علـى قَـدْر الـذى كَتَبَتْ يَــداك إذ عَــدَدُ النَّظِميـن مُـؤْتَلِـف

* * *

وذكر العماد فى الخريدة فقال : أنشدنى زين الدولة الحسين بن الوزير أبى الكرام قال : كتب الصالح بن رزيك إلى والدى بعد عودته من مصر إلى الشام سنة إحدى وخمسين وخمسمائة :

أحبـابَ قلبـى ، إنّ شَـطَّ المـزارُبكـم فـإنَّكـمْ فـى صَميـم القَلْب سُكّـانُ (٤٠)
وإنْ رجعتُـم إلـى الأَوطـانِ إنّ لكـمْ صُـدورَنـا عِـوَضَ الأوطـانِ أوطـان
جـاورتـمُ غيـرَنـا ، لمـا نـأتْ بكـم دارٌ، وأنْتـمْ لنـا بـالـوُدِّ جيـران
فكيـفَ ننسـاكـمُ يـومًـا لبُعْـدِكـمُ عنـا ، وشَخْصُكـمُ للعيـن إنسـان

* * *

(٣٨) الغرب : الحدة والنشاط والندى .
(٣٩) روّى فى الأمر : نظر وفكّر .
(٤٠) شطّ : بعد .

وقال فى الزهد وذم الدنيا وبيان متاعبها ومصاعبها :

يـا دَهْـرُ، حَسْبُـك مـا فعلـتَ بنـا   أتُـراك تَطْلُـبُ عنـدَنـا إحَنـا [41]
كـمَ نَّتقيـك بكـلِّ سـابغـةٍ   وسِهـامُ كيـدِك تَخْـرقُ الجُنَنـا [42]
مـا تنفـعُ الـدِّرْعُ الحصينـةُ مَـنْ   عمَّـا قليـلٍ يلبـسُ الكَفَنـا
كـلَّا ، ولا الأيـامُ تَقْبَـل عـن   أرواحِنـا رَشْـوا ولا ثَمَنـا
لـو بـالثُّـرَيّـا حَـلَّ معتَصِـمٌ   منهـا لكـان لـه الثَّـرَى وَطَنـا
ولقـد يُهَـوّنُ مـا أصـابكـمُ   فقـدُ (الحسين) الطّهْـر و (الحَسَنـا)
وبَنيهـمُ ، إذ طـوّحـتْ بهـمُ   أيـدى زمـانِهـمُ هنـا وهنـا
وأرى الأئمـةَ جـارَ دهـرُهُـم   فـى فعْلـةٍ بهـمُ ، فكيـف أنـا
لـى أُسْـوةٌ بهـمُ الغـداة إذا   أَصْبَحْـتُ فـى الأحـداثِ مُـرْتَهنـا

* * *

قال فى بعض الوقائع مفتخرًا :

تـوالـتْ علينـا فـى الكتـائبِ والكُتْـبِ   بشـائرُ مـن شَـرْق البـلاد ومـن غَـرْب
بَشـائرُ تُهْـدِى للمَـوالـى مَسَـرَّةً   وتُحْـدِث للبـاغيـن رُعْبًـا علـى رُعْـب
ففـى كبِـدِ مـن حرِّهـا النـارُ تَلْتظـى   وفـى كبـدٍ أحْلـى مـن البـرد العَـذْب
جَعَلْنـا جبـالَ القُـدْس فيهـا وقـد جَرَتْ   عليهـا عِتـاقُ الخيـل كـالنَّقْنَف السُّهْـب
فقـد أصبحـتْ أوعـارُهـا وحُـزونهـا   سُهـولًا تُـوَطًّـا للفـوارس والـرَّكْـب
ولمـا غَـدَتْ لا مـاءَ فـى جَنَبـاتهـا   صَبَبْنـا عليهـا وابـلًا مـن دَمٍ سَكْـب [43]

---

(٤١) الأجن ؛ جمع إحنة ، وهى الغضب والعداوة والحقد .
(٤٢) درع سابغة : تامة طويلة – الجُنن : جمع جُنَّة ، وهى كلّ ما وقى .

وجادتْ بها سُحْبُ الدُّروع من العِدا ... نَجِيعًا فَأَغْنَتْها الغَداةَ عن السُّحْب
وَأَجْرَتْ بِجارًا منه فوق جِبالها ... ولكنْ بحارٌليس تَعْذبُ للشُّرْب
فقد عَمَّها خِضْب به رُءوسهم ... بها وَلَكَمْ خِضْبٍ أضَّر من الجَدْب
وقد رَوَّعَتْها خيْلُنا قبلَ هذه ... مِرارًا وكانتْ قبلُ آمنةَ السِّرب
وأخْفَى صهيلُ الخيلِ أصواتَ أهلِها ... فعاقتْ نواقيسَ الفرنْج عن الضَّرب
وأبطالِ حربٍ من كتامةَ دَوّخوا ... بلادَ الأعادِي بالمسَوَّمة القُبِّ (٤٤)
وعادُوا إلينا بالرءوس على القنا ... وأغناهم كَسْبُ الثْناء عن الكَسْب
وإنّا بنُو زُرَّيْك ما زالَ جارُنا ... يَحلّ لدينا بالكَرامة والخِصْب
وَنفْتك بالأموالِ فى السّلْم دائمًا ... كما نحن بالأعداءِ نَفْتِك فى الحَرْب

* * *

(٤٣) النفنف : المفازة - السهب : المستوى من الأرض - الحزن : ما غلظ من الأرض - الوابل : المتلاحق .
(٤٤) كتامة : قبيلة عربية قدمت مع الفاطميين - المسومة : المعلمة - القبّ : الضوامر من الخيل .

أبو جعفر بن سعد

(ت ٥٥٩ - هـ / ١١٦٤ م)

أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، من سلالة عمار بن ياسر ، نزل أسلافه قلعة فى كورة غرناطة حملت اسمهم ، واستقلت بها الأسرة خلال الفتنة التى عمت قرطبة آخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس ، واستقلت بها مرة أخرى فى نهاية عصر المرابطين ، ثم دان زعيمهم عبد الملك بن سعيد للموحّدين . وقبل ذلك حاول أن يتخذ من ابنه أبى جعفر وزيرا ولكن الابن ، وكان فى ريعان الشباب شاعرًا صاحب لهو وطرب اعتذر لأبيه ، وقال إنه لا يصلح للوزارة فأعفاه منها ، ومضى مع رفاقه ، يعيشون للهوهم .

وحين ولىّ عبد المؤمن بن على أمير الموحدين أبنائه وقواده على بلدان الأندلس ، كانت غرناطة من نصيب ابنه أبى سعيد عثمان ، وكان محبا للأدب فطلب وزيرا أديبا من أهلها يستعين به ، فوصفوا له أبا جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره ، وحاول هذا أن يستعفى فأبى أبو سعيد ، وقلّده الوزارة .

كان أبو جعفر كلفا بفتاة شاعرة ذات جمال وثراء ، هى حفصة الركونية ، لفت ذكاؤها أباها فعنى بتربيتها ، وأتاح لها من الحرية ما جعلها تلقى الأدباء والشعراء وتحاورهم ، وتبادل أبا جعفر حب بحب ، يتلاقيان ، ويتهاديان ، ويتبادلان الرسائل شعرا ، وعرف أبو سعيد والى غرناطة ما كان من جمالها وشعرها فحاول أن يتضرب إليها ، وعرف ما كان بينها وبين أبى جعفر من حب فغار منه ، ووجد عليه ، وزادته الوشايات موجدة وغيظا . نقل إليه أن أبا جعفر قال لحفصة عنه : « ما تحبين فى ذلك الأسود ؟ » وكان لون أبى سعيد مائلا للسواد ، وأنا أقدر أن أشترى لك من سوق العبيد عشرة خيرا منه ، فأسرّها فى نفسه . ونقلوا إليه أيضا أن أبا جعفر عناه فى بيته :

فقل لحريص أن يرانى مُقَيّدا

بخدمته لا يُجعل البازفى القفص

وواتت أبو سعيد الفرصة للانتقام حين تمرّد محمد بن مردنيش شرقى الأندلس ، وانضمّ أحد أفـراد أسرة بنى سعيد إليـه ، فألقى القبـض على أفراد الأسـرة ، وقتل أبا جعفر صَبْـرا فى مدينة مالقة عام ٥٥٩ هـ ، فحزنت حفصة عليه ، ولبست السواد علانية ، وبكته جهرة ، ورثته فى أبيات حفظ لنا التاريخ ثلاثة منها ، ثم هجرت غرناطة إلى مراكش ، وعملت هناك معلمة لبنات الخليفة الموحدى إلى أن توفيت عام ٥٨٦ هـ .

* * *

لما سقطت دولة المرابطين استقل عبد الملك بن سعيد بأمر قلعة بنى سعيد ، اتخذ ابنه أبا جعفر أحمد وزيرا ، واستنابه ، فلم يصبر على ذلك ، واستعفى فلم يعفه ، وقال : « أفى مثل هذا الوقت الشديد تركوه إلى الراحة ؟ ! ، فكتب إليه أبو جعفر :

مولاىَ فى أىِّ وقتٍ ... أنالُ فى العيش راحَهْ
إنْ لم أنَلْها وعمرى ... ما إن أنارَ صباحه ؟
وللملاح عيونٌ ... تميلُ نحوَ الملاحه
وكأسُ راحىَ ما إنْ ... تملُّ منِّىَ راحه
والخطبُ عَنِّىَ أعمى ... لم يقتربْ لىَ ساحه
وأنتَ دونىَ سورٌ ... من العُلا والرجاحه
فأعْفِنى وأقِلْنى ... ممَّا رأيتَ صلاحه
ما فى الوزارة حظٌّ ... لمن يريدُ ارتياحَه
كَلٌّ وقالٌ وقيلٌ ... مِمن يطيلُ نبُاحه (١)
أنسى أتى مُسْتغيثًا ... فاتركْ - فُديتَ - سراحه

* * *

وقال فى رحلة صيد :

ويومٍ تَجَلىَّ الأُفْقُ فيه بعنبرٍ
من الغيْمِ ، لُذْنا فيه باللهو والقَنَصْ
وقد بقِيتْ فينا مِن الأَمسِ فَضْلَةٌ
من السُّكْرِ تُغرينا بمنتَهبِ الفُرص (٢)

(١) الكَلّ : الضعف والإعياء - القال والقيل : كلاهما بمعنى القول ، وقد نهى النبىّ ﷺ عن القيل والقال ، أى عن فضول القول مما يوقع الخصومة بين الناس .
(٢) القنص : الصيد - فضلة : بقيّة .

رَكِبْنَـــا لـــه صُبحًـــا ولَيـــلًا وبعضُنـــا
أصيـــلًا ، وكـــلٌّ إن شـــدا جُلْجُـــلٌ رَقَـــصْ

وشُهْـــبِ بُـــزاةٍ قـــد رَجَمْنـــا بشهبهـــا
طيـــورًا ، يســاغ اللهـــوُ إن شكَـــتِ الغُصَـــص (٣)

وعـــن شَفَـــقٍ تغـــرى الصبـــاحَ أو الـــدجـــى
إذا أوثقَـــتْ مـــا قـــد تحـــرّك أو قمـــص

وملنـــاء وقـــد نلنـــا مـــن الصيـــد سُـــؤْلَنـــا
علـــى قَنَـــصِ اللَّـــذَّاتِ والبـــردُ قـــد قَـــرَص (٤)

بِخيمـــةِ نـــاطـــورٍ تـــوسّـــط عَـــذْبَهـــا
جحيـــمٌ ، بـه مَـــن كـان عُـــذِّبَ قد خَلُـــص (٥)

أدرنـــا عليـــه مثلَـــهُ ذَهَبِيَّـــةً
دعتْـــه إلـــى الكبـــرى فلـــم يُجِـــبِ الـــرُّخَـــص

فقُـــلْ لحـــريـــص أنْ يـــرانـــى مُقيَّـــدًا
بخـــدمتـــه : لا يُجْعَـــل البـــازُ فـــى القفـــص

ومـــا كنـــتُ إلَّا طـــوعَ نفســـى فهـــل أُرى
مطيعًـــا لمَـــنْ عـــن شَـــأْوِ فخـــرىَ قـــد نقـــص

* * *

(٣) الجلجل : جرس صغير يُعلّق فى أعناق الدوابّ وغيره – رجمنا بمعنى صدنا أو قتلنا – البُزاة : جمع البازى وهو ضرب من الصقور الصغيرة تصيد – الغصص : جمع الغصّة وهو ما اعترض فى الحلق من طعام أو شراب .

(٤) قَمَص : نفر أو جرى أو وثب – سؤلنا : أمنيتنا – وقوله « قرص » لعل الشاعر أراد به « قرس » يقال : قرس البرد أى اشتدّ .

(٥) الناطور : حافظ الزرع والتمر والكرم .

وطلب الاجتماع بحفصة فمطلته شهرين ، فكتب لها .

لهـا يـا مَـنْ أُجـانـبُ ذكـراسـ ـــمِه وحَسْبـى عـلامـة
مـا إنْ أرى الـوعـدَ يُقّضَـى والعمـرُ أخشـى انصـرامَـه
الـيـوم أرجـوكَ لا أن تكـونَ لـى فـى القيـامـه
لـو قـد بَصُـرتَ بحـالـى والليـلُ أرخـى ظـلامـه
أنـوح وَجْـدًا وشَـوْقًـا إذ تستـريـح الحمـامـه
صـبٌّ أطـال هـواه علـى الحبيـب غـرامَـه
لمـن يَتيـهُ عليـه ولا يـردّ سـلامـه
إن لـم تُنيلـى أرِيحـى فـاليـأس يَثْنـى زِمـامـه

فأجابته :

يـا مُـدعـى فـى هـوى الحُسْـ ـنِ والغـرام الإمـامـه
أتـى قـريضُـك لكـنْ لـم أرضَ منـه نظـامـه
أمـدّعـى الحـبِّ يَثْنـى يـأسُ الحبيـب زمـامـه ؟
ضللـتَ كـلَّ ضـلالٍ ولـم يُفِـدْك الـزعـامـه (٦)
مـا زلـتَ تصحـبُ مـذكُنـتَ فـى السبـاق السـلامـة
حتـى عثـرت وأخجلـ ـتَ بـافتضـاح السـآمـه
بـالله فـى كـلّ وقـتٍ يُبـدى السحـاب انسجـامـه
والـزهـر فـى كـل حيـنٍ يشـقُّ عنـه كِمـامـه (٧)
لـو كنـتَ تعـرف عـذرى كففـت غـرب المـلامـه

* * *

---

(٦) نظامه : تأليفه - يثنى زمامه بمعنى يلوى وجهه ليكفكفه عن سرعته ، والزمام : الحبل يزمّ به البعير وغيره .
(٧) الكمام : أوعية الزهر والطّلع .

وقال وقد استشعر النهاية التى يُبَيِّتُها له أبو سعيد :

مـــن يشتـــرى منـــى الحيـــاةَ وطيبَهـــا
ووزارتـــى وتـــأدّبـــى وتهـــذّبـــى

بمحـــلّ راعٍ فـــى ذُرا ملمـــومـــةٍ
زُويـتْ عـن الـدنيـا بـأقصـى مَـرْتـب (٨)

لا حكـــمَ يـــأخـــذه بهـــا إلّا لمـــن
يعفـــو ويـــرأَفُ دائمـــا بـــالمـــذنـــب

فلقـــد سئمـــتُ مـــن الحيـــاة مـــع امـــرئٍ
متغضّـــبٍ مُتغلّـــبٍ مُتـــرتّـــب

المـــوتُ يلحظنـــى إذا لاحظتـــهُ
ويقـــومُ فـــى فكـــرى أوانَ تَجَنُّبـــى

لا أهتـــدى مـــع طـــول مـــا حـــاولتـــه
لـــرضـــاه فـــى الـــدنيـــا ولا للمهـــرب

* * *

(٨) الملمومة بمعنى المستديرة المدوّرة من الصخور وغيرها - زُويت بمعنى بعدت أو طُويت - المرتبة : المرقبة وهى أعلى الجبل ، أو العلم الذى ترتب فيه العيون والرقباء فى الجبل والصحراء أو المضيق فى الوادى .

واتفق أن التقى أبو جعفر مع حفصة ، فى بستان بِحَور مؤمّل ، وذكر تلك الليلة التى أمضياها معا ، فقال :

رعى اللهُ ليلًا لم يَرُحْ بمذمَّم
عَشيَّة وارانا بحَوزِ مؤَمَّلِ
وقد خَفَّقَتْ من نَحْوِ نجدٍ أَرِيحةٌ
إذا نفحَتْ هَبَّتْ بريَّا القَرَنْفُل (٩)
وغرَّد قُمْرِيٌّ على الدَّوْح وانثنى
قضيبٌ من الرَّيْحان فوق جَدْول
ترى الروضَ مسرورا بما قد بداله :
عِناقٌ وضَمٌّ وارتشافُ مُقَبَّل (١٠)

فكتبت إليه بقولها :

لعمرُك ما سُرَّ الرياضُ بوصلنا
ولكنّه أبدى لنا الغِلَّ والحسدْ
ولاصفّق النهر ارتياحًا لقربنا
ولا غرّد القمَرىّ إلّا لما وجد (١١)

(٩) نجدو حور مؤمل من أجمل ضواحى غرناطة الإسلامية ، ومسكن الطبقة العالية ، ومؤمل الذى ينسب إليه الحور كان مولى لباديس بن حبوس أمير غرناطة فى عصر الطوائف .
الأريحة : الريح الطيبة - نفحت : نسمت وبدت حركتها - رَيَّا القرنفل : رائحته الطيبة .

(١٠) الدّوح : الشجر العظيم المتشعب ذو الفروع الممتدة ، واحده : دوحة - المقبَّل : موضع التقبيل واللثم وهو الثغر .

(١١) الغِلّ : العداوة والحقد الكامن - التصفيق : هو الضرب أو التحريك يسمع له صوت ، ويقال : صفّقت الريح الماء أى ضربته واختلفت عليه - وجد : أحبّ أو حزن .

فـلا تحسـن الظـنَّ الـذى أنـت أهلـهُ
فمـا هـو فـى كـلِّ المـواطـن بـالـرشـد
فمـا خلـتُ هـذا الأفـقُ أبـدى نجـومَـه
لأمـرٍ سـوى كيمـا يكـونَ لنـا رصـد [12]

* * *

وله هذه الموشّحة :

ذَهَّبَتْ شمسُ الأصيلِ فِضّةَ النهْرِ
أيَّ نهرٍ كالمُدَامَهْ
صيَّرَ الظلُّ فدامَهْ
نَسَجَتْهُ الريحُ لامَهْ
وثَنَتْ للغُصنِ لامَهْ

فهْو كالعضبِ الصَّقيلِ حُفَّ بالسُّمْرِ [13]
مضحِكًا ثغرَ الكِمَامْ [14]
مُبكيًا جفنَ الغَمامْ
مُنطِقًا وُرْقَ الحَمَامْ
داعِيًا إلى المُدامْ

---

(١٢) رَصَد : رقيب .
(١٣) اللأمة : أداة الحرب كلها من درع ورمح وسيف وغيرها – العضب : السيف الحادّ – الصقيل : المجلوّ – السّمْر : الرماح .
(١٤) الكمام : وعاء الطلع وغطاء النَّوْر والزهر .

فلهــــذا بـــــالقَبُـــــولِ   خُـــــطٌّ كـــــالسَّطْــــــرِ

حبّـــذا بـــــالحـــــورِ مَغْنـــــى

هـــــى لفـــــظٌ وهـــــو معنـــــى

مُـــــذهِـــــبُ الأشجـــــانِ عنّـــــا

كـــــم درينـــــا حيـــــث سِـــــرْنَـــــا

ثـــم فـــى وقـــتِ الأصيـــلِ   لمـــــن نكـــــنْ نـــدرِى

قلـــــتُ والمـــــزجُ استـــــدَارا

بِـــــذُرَا الكـــــأسِ سِـــــوارا

ســـــالـــــبٌ منـــــه الـــــوقـــــارا

دائِرًا مـــــن حيـــــثُ دارا

صـــادَ أطيـــارَ العقـــولِ   شيـــــك الخمـــــرِ

وَعَـــدَ الحِـــبُّ فـــأَخْلَـــفْ

واشتهَـــى النطْـــلَ فســـوَّفْ (١٥)

ورســـولـــى قـــد تعـــرّف

منـــه مـــا أدرى فحـــرَّفْ :

بـــالله قُـــلْ يـــا رســـولـــى   لـــش يغـــب بـــدرى

* * *

---

(١٥) الحِبّ : المحبّ أو المحبوب - المطل : تأجيل الوفاء بالحقّ مرة بعد الأخرى - سوَّف : مَطَل .

المهذَّب بن الزبير

(ت ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م)

أبو محمد الحسن بن على بن الزبير الغسانى ، ولد بأسوان فى صعيد مصر فى أوائل القرن السادس الهجرى ، من أسرة معروفة بالرئاسة مشهورة بالعلم والأدب ، وقد اتصل سنة ٥٢٦ ببنى الكنز ، وهم من سراة أسوان ، وله أشعار كثيرة فى مدحهم .

رحل إلى القاهرة ، فعاين أحداثها وعايش أعيانها ، ومدح رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ ، ورثاه عندما قتل ، ورحب بقدوم أسامة بن منقذ إلى مصر وأرسل له قصيدة فى ذكر الديار من أسوان ، كما مدح الملك العادل سيف الدولة على بن السلار حينما تولى الوزارة للخليفة الظافر ، وقد حفل عصر المهذّب بالاضطراب بين الشيعة والسنة ، وبين الفاطميين والأيوبيين ، وكان الوزير شاور مصدر همّه ، ويحكى الداودى فى طبقات المفسرين أنه لما مات الصالح بن رزّيك حدثت عداوة بين القاضى الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، فبلغ شاور أن المهذب يمدح شيركوه ويحرضه على قتله فلما سار شيركوه إلى القاهرة قبض شاور على المهذب واعتقله وعزم على قتله ، فدخل عليه القاضى الجليس ، وما زال به حتى أفرج عنه ورد إليه حريته ، وسرعان ما توفى سنة ٥٦١

كان حافظا للقرآن الكريم والشعر والأمثال والمأثورات عارفا باللغة والتاريخ والعلوم المتنوعة ، وقد ظهر أثر ذلك كله فى شعره .

وكان أخوه القاضى الرشيد أحمد بن الزبير شاعرًا أيضًا ، كما كان فقيهًا عارفًا بعلوم النحو واللغة والعروض والمنطق ، ملمّا بالهندسة والطب والموسيقى ، وثيق الصلة - كأخيه - بشيركوه وابن أخيه صلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصومه ، ولكن شاور سرعان ما قلب لهما ظهر المجن ، فهرب الرشيد ثم ظفر به شاور وقتله .

أجاد المهذّب فى أغراض شعرية شتى ، منها : الاستعطاف ، وله فى ذلك قصائد فى استعطاف شاور ، أشعار مشهورة أرسلها إلى أحد الدعاة الفاطميين باليمن ليعفو عن أخيه الرشيد ، أما المديح فقد أحتفل فيه بوصف بطولات الجيوش المصرية وما حاق بالصليبيين من هزائم وأكثر من الإشادة بطلائع بن رزّيك الذى تولى الوزارة سنة ٥٤٩ وكان المهذب أثيرا لديه .

وقد صور فى شعره حبه الشديد لمصر ، بمثل قوله :

وما لى إلى ماءٍ سوى النيلِ غُلَّةٌ ولو أنه - أستغفر اللهَ - زَمْزَمُ

وفى بيان منزلته العـالية وصفه العماد الأصبهانى بأنه : « محكـم الشعر كالبناء المشيد ، لـم يكن فى زمانه أحد أشعر منه ، وله شعر كثير ، ومحلّ فى الفضل أثير » .

* * *

قال المهذب فى مدح الصالح طلائع بن رزّيك سنة ٥٥٣ هـ، ووصف أسطوله ونصرته فى البحر على الروم:

أعَلِمْتَ حين تجاوز الحيّانِ ... أنّ القلوبَ مواقدُ النّيرانِ؟!
وعرفْتَ أنّ صدورَنا أصبحتْ ... فى القوم وَهْىَ مرابضُ الغِزْلانِ (١)
وعيونَنا عِوَضَ العيون أمدَّها ... ما غادروا فيها من الغُدْرانِ (٢)
ما الوَخْدُ هزَّ قِبابَهم، بل هزَّها ... قلبى لما فيه من الخَفقانِ (٣)
وتراهُ يكرَهُ أن يرى إظْعانَهم ... وكأنّما أصبحْتُ فى الأظعانِ (٤)
وبمُهْجتى قمرٌ إذا ما لاح للسَّـ ... ـارِى تضاءَلَ دونه القَمرانِ
قد بانَ للعُشَّاقِ أنَّ قَوامَهُ ... سرقَتْ شمائِلَهُ غصونُ البانِ
وأراكَ غُصْنًا فى النّعيم تميلُ إذْ ... غُصْنُ الأراك يميدُ فى نَعْمانِ (٥)
للرُّمح نَصلٌ واحدٌ، ولقَدِّهِ ... من ناظريه إذا رَنَا نَصْلانِ
والسيفُ ليس له سوى جَفْنٍ، وقد ... أضحى لصارم طَرْفِه جَفنانِ
والسَّهمُ تكفى القوسُ فيه، وقد غدَا ... من حاجبَيْهِ للحظهِ قوسانِ
ولَرُبَّ ليلٍ خِلْتُ خاطفَ بَرْقِهِ ... نارًا تَلَفَّعَ للدُّجى بدُخانِ
كالمائل الوسنانِ من طُول السُّرَى ... جَوْزاؤُهُ، والرَّاقصِ السّكرانِ
ما بانَ فيه من ثُريَّاهُ سوى ... إعجامِها، والدَّالُ فى الدَّبرانِ (٦)

---

(١) المرابض: جمع المربِض وهو المأوى.
(٢) العيون: ينابيع الماء – الغدران: قطع المياه يغادرها السيل.
(٣) الوخد للبعير هو الإسراع وسعة الخطو فى المشى.
(٤) الإظعان: التسيير – الأظعان: الهوادج تكون فيها النساء.
(٥) يميد: يتمايل – نَعمان: واد فى طريق الطائف يخرج إلى عرفات، يقال له نعمان الأراك.
(٦) الدبران: خمسة كواكب من الثور، وهو من منازل القمر، وقيل: نجم بين الثريا والجوزاء.

وترى المجرّةَ فى النجوم كأنها ... تَسْقِى الرّياضَ بجدولٍ ملآنِ [٧]
لو لم يكن نهرًا لَمَا عامَتْ به ... أبدًا نجومُ الحوتِ والسرّطانِ [٨]
نادَمْتُ فيه الفرقدين كأننى ... - دون الورى - وجَذيمةَ أخوانِ [٩]
وترفَّعَتْ - همَمى فما أرْضَى سوى ... شهب الدُّجى عِوضًا من الخِلّانِ
وأَنِفْتُ حين فُجعتُ بالأحباب أن ... ألْهُو عن الإخوان بالخَوّانِ
واعْتضتُ من جود الوزير مواهبًا ... أَسْلَتْ عن الأوطار والأوطان [١٠]
يا كسِرَ الأصْنامِ قُمْ فانهضْ بنا ... حتى تصيرَ مُكَسِّرَ الصُّلْبانِ
فالشّامُ مُلْكُكَ قد ورثتَ تُراثَهُ ... عن قومِك الماضين من غَسَّانِ
فإذا شككتَ أنّها أوطانُهم ... قِدْمًا ، فسَلْ عن حارث الجَوْلانِ
أوْرُمْتَ أن تتلو محاسِنَ ذكرِهِمْ ... فاسنِدْ روايتها إلى حسَّانِ [١١]
ما زُلزلتْ أرضُ العِدا ، بل ذاك ... بقلوب أهليها من الخفقان
وأقولُ : إنّ حصونَهم سجدتْ لِما ... أُتيتَ من مُلْكٍ ومن سلطانِ
والنّاسُ أحْذَرُ بالسّجودِ ، إذا غدا ... لعُلاكَ يسجدُ شامخُ البُنيانِ
ولقد بعثتَ إلى الفرنج كتائبًا ... كالأُسْدِ حين تصولُ فى خفَّانِ [١٢]
لبسوا الدروع ، ولم نَخَلْ مِن قَبْلهِمْ ... أنّ البحارَ تحلُّ فى غُدْرانِ
وتيمّموا أرضَ العدوِّ بقفرةٍ ... جرداءَ خاليةٍ من السُّكانِ

---

(٧) المجرّة : مجموعة كبيرة من النجوم تتراءى من الأرض كوشاح أبيض يعترض السماء .
(٨) الحوت والسرطان من بروج السماء .
(٩) الفرقدان : نجمان فى السماء لايغربان ، وربما قالت العرب لهما الفرقد .
(١٠) أسْكتْه : جعلتْه يسبالله أى ينسى - الأوطار : المآرب والحاجات .
(١١) غسان : قبيلة كبيرة من الأزد - حادث لجولان : جبل أو قرية بالشام - حسان هو ابن ثابت وكان فى الجاهلية يفد على الغساسنة ويمدحهم .
(١٢) خفّان : موضع فيه تعيش الأسود .

عشــريــن يــومًــا فــى المُغَــار وليلــةً ... يَسْـرُوْن تحت كـواكـبِ الخُـرْصـانِ (١٣)
حتــى إذا قطعــوا الجِفــارَ بجحفــلٍ ... هــو فــى العــديــد ورمْلُـخُ سِيَّــانِ (١٤)
أغــريتهــمْ بحمــى العِــدَا فجعلْتَــهُ ... بِسُطَـــاكَ بعـــد العـــزِّ دار هـــوانِ
عجّلــت فــى تــلِّ العُجــولِ قِــراهُــمُ ... - وهُـمُ لـك الضّيفـان - بـالـذِّيفـانِ (١٥)
لمّــا أبَــوْا مــا فــى الجِفــان قَــرَبْتَهُــمُ ... بصـــوارمٍ سُلَّـــتْ مـــن الأجْفـــانِ (١٦)
وثلَلْــتَ فــى يــوم العــريــش عُـروشَهُــمُ ... بشَبَـــا ضــرابٍ صــادقٍ وطعـــانِ (١٧)
ألْجــأتَهُــمْ للبحــر لمَّــا أنْ جَــرَى ... مِنْــه ومـــن دمهـــمْ معًــا بَحــرانِ
مُـلِحَ الــورى بـالبـأسِ إذْ خَضَبُـوا الظُّبَا ... فـــى يـــوم حـــربهـــمُ مـــن الأقـــرانِ
ولأنْــتَ تخضــبُ كــلَّ بحــرٍ زاخــرٍ ... ممَّــن تحـاربُ بــالنَّجيــعِ القـانــى (١٨)
حتــى تــرى دمَهــمْ وخُضْـرَةَ مــايــهِ ... كشقـــائقٍ نُثِــرَتْ علـــى الـــرَّيْحـــانِ
وكـــأنّ بحـــرَ الـــرُّوم خُلِّـــقَ وجْهُـــهُ ... وطَفَــتْ عليــه منــايــتُ المَرْجــانِ (١٩)
ولقـــد أتَــى الأسطــولُ حيــن غــزَا بمــا ... لــم يــأتِ فــى حيــنٍ مــن الأحيــانِ
أحْبِــبْ إلــيَّ بهــا شــوانِــيَ أصبحــتْ ... مــن فتكهـا ولهـا العُـداةُ شوانــى (٢٠)
شُبِّهْــنَ بــالغِــربــانِ فــى ألـــوانهــا ... وفَعلْـــنَ فِعْـــلَ كـــواســـرِ العِقْبـــان
أوْقــرْتَهـــا عُــددَ القتــلِ فقـــد غَــدتْ ... فيهـــا القَنَــا عِــوضًــا مــن الأشْطــان (٢١)

(١٣) الخرصان : الرماح أو أسنّتها .
(١٤) الجفار : أرض بين فلسطين ومصر، أولها رفح من جهة الشام - الجحفل : الجيش الكثير.
(١٥) القرى : ما يقدّم إلى الضيف من طعام - الذّيفان : السم الناقع .
(١٦) الجفان : قصاع الطعام - قريتهم : أطعمتهم - الأجفان : أغماد السيوف .
(١٧) ثَلّلت : أذهبت سلطانهم - الشبا : جمع شباة وهى حدّ السيف .
(١٨) النجيع القانى : الدم الشديد الحمرة .
(١٩) خُلِّق : طُيِّب بالخلوق وهو الزعفران .
(٢٠) الشوانى : السفن الحربية ، والشوانى كلمة مصرية بمعنى المخازن التى تخزن فيها الغلة وغيرها .
(٢١) أوقرتها : حمَّلتها - العدد جمع العُدَّة وهى ما يعدّ للقتال - الأشطان : الحبال الطويلة .

فأتتكَ مُوقَرَةً بِسَبْيٍ بينه ... أسْرَاهُمُ مغلولةَ الأذقانِ

حربٌ عَوانٌ حكَّمَتْكَ من العدا ... فى كلِّ بِكرٍ عندهمْ وعَوَانِ (٢٢)

وأعَدْتَ رُسْلَ ابن القسيم إليه فى ... شعبانَ كى يتلاءَمَ الشَّعبانِ

والفألُ يشهدُ بأسمه أن سوف يغـ ... ـدُو الشامُ وهْوَ عليكما قِسْمانِ

وأراك من بعد الشَّهيد أبًا له ... وجعلتَه من أقرْبِ الإخوان (٢٣)

وهو الذى مازال يفعَلُ فى العِدَا ... مالم يكنْ لِيُعَدَّ فى الإمكان

قَتلَ البِرنْسَ ومَن عساهُ أعانهَ ... لمَّا عَتَا فى البغى والعُدْوان

وأرى البريَّةَ ، حين عادَ برأسه ... مُرَّ الجَنَى يبْدو على المُرَّان (٢٤)

واتعجَبُوا من زُرْقَةٍ فى طرفهِ ... وكأنّ فوقَ الرَّمحِ نَصْلًا ثانى

فَلْيَهْنِهِ أَنْ فازمنك بسيِّدٍ ... أوفى برتبته على كيوانِ (٢٥)

قد صاغَ من أرماحِهِ لِمَسَامع الـ ... أملاك أقْرطًا من الخُرْصَانِ

والخيلُ تعلمُ فى الكريهة أنّهُ ... قد حَطَّ هيكلَها على الفرسانِ

عجبًا لجُودِ يديه إذْ يبنى العُلا ... والسيلُ يهدِمُ ثابتَ الأرْكانِ

وَلَنَارُ فِطْنَتِهِ تُريكَ لشعره ... عَذْبًا يُرَوِّى غُلَّةَ الظَّمْآن

وعُقودَ دُرٍّ لو تحبَّسَ لفظُها ... ما رُصِّعَتْ إلَّا على التِّيجان

وتنزّهتْ عن أن تُرَى أفرادُهَا ... لمواضعِ الأقْراطِ والآذان

---

(٢٢) العوان : الحرب الشديدة التى قوتل فيها مرة بعد أخرى - العوان : المرأة التى كان لها زوج .

(٢٣) الشهيد لقب عماد الدين أتابك زنكى (ت ٥٤١ هـ) والد نور الدين محمود .

(٢٤) البرنس : ريمون دى بواتييه صاحب أنطاكية - الجنى : الثمر - المُرّان : الرماح الصلبة اللّدنة ، واحدتها : مُرَّانة ، أو شجر الرماح .

(٢٥) كيوان : هو الكوكب زحل ، يضرب به المثل فى العلو وبعد المسافة .

مــن كــلِّ رائقــةِ الجمــالِ زهَــتْ بهــا ... بيـــن القصـــائدِ عِـــزَّةُ السلطـــان

سيَّـــارةٌ فـــي الأرض لايَعْتـــاقُهـــا ... فـــي سيـرهـــا قَيْـدٌ مـــن الأوزان (٢٦)

يـــا مُنْعِمًـــا مـــا للثنـــاء ولـــو غـــلا ... يـــومًـــا بمـــا تُـــولـــي يـــداهُ يَـــدَان

قَلَّـــدْتَ أعنـــاقَ البـــريَّـــةِ كُلَّهـــا ... مِنَنًـــا تحمَّـــلَ ثِقْلَهَـــا الثَّقَـــلانِ (٢٧)

حتـى تسـاوَى النـاسُ فيـك وأصبـح الْـ ... ـقاصى بمنـزلـة القـريـبِ الـدَّانـى

ورحِمْـتَ أهـلَ العجـزِ. منهـمْ مثلمـا ... أصبحــتَ تَغْفِــرُ للمســىءِ الجـانــي

* * *

وله من قصيدة يمدح فيها الداعي ويستعطفه لإطلاق سراح أخيه الرشيد : (٢٨)

يـا رَبْـعُ أيـن تَـرى الأحبَّـةَ يمَّمُـوا ... هـل أنجدوا مـن بعـدنا أمْ أتْهمُـوا ؟ ! (٢٩)

نـزلـوا مـن العَيـن السَّـوادَ وإنْ نـأَوْا ... ومـن الفـؤاد مكـانَ مـا أنـا أكتُـمُ

رحَلُـوا وفـي القلـبِ المُعَنَّـى بعـدهـم ... وَجْـدٌ علـى مـرِّ الـزَّمـانِ مُخَيَّـمُ

وسَـرَوْا وقـد كتمُـوا المسـرَ، وإنَّمـا ... تَسْـرِى إذا جَـنَّ الظَّـلامُ الأَنْجُـمُ

وتَعـوَّضَـتْ بـالأُنْـس رُوحـى وحْشَـةً ... لاأوْحَـشَ الله المنـازلَ مِنهُـمُ

لـولاهُـمُ مـا قُمْـتُ بيـن ديـارِهـمْ ... حيـرانَ أَسْتَـافُ الـدِّيـارَ وألْثِـمُ (٣٠)

أمنـازلَ الأحبـابِ، أيـن هُـمُ، وأَيْـنَ الـ ... ـصَّبْـرُ مـن بعـد التَّفَـرُّقِ عنهُـمُ ؟ !

يـا سـاكنـى البلـدِ الحـرامِ وإنَّمـا ... فـى الصدْرِ مَـعْ شحْـطِ المزارِ سكنْتُمُ (٣١)

---

(٢٦) سيارة : بمعنى مشعورة تنتقل من مكان إلى مكان - لايعتاقها : لايعوقها ولا يمنعها .

(٢٧) الثِّقْل : الحِمْل الثقيل - الثقلان : الإنس والجنّ .

(٢٨) الداعى : هو المتوج المعظم محمد بن سبا أصاحب عدن، من دعاة الباطنية الإسماعيلية (ت ٥٥٠ هـ) .

(٢٩) يمموا : قصدوا . أنجدوا : دخلوا نجدًا - أتهموا : دخلوا تهامة .

(٣٠) أستاف الديار : أشمها .

(٣١) شحط المزار : بُعده .

يـا ليتنـي فـي النّـازليـن عَشِيَّـةً ... بِمِنًـى ، وقـد جمـع الرِّفـاقَ المَوْسِـمُ
فـأفـوزَ إن غَفَـلَ الـرَّقيـبُ بنَظْـرَةٍ ... منكـمْ إذا لبَّـى الحجيـجُ وأحْـرمُـوا
إنّـي لأذكـركـمْ إذا مـا أشـرقَـتْ ... شمسُ الضّحـى من نحوكم فـأسلِّمُ
لاتبْعثُـوا لـي فـي النّسيـم تحيّـةً ... إنّـي أغـارُ مـن النّسيـم عليكـمُ
إنّـي أمـرؤٌ قـد بِعـتُ حظّـي راضِيًـا ... مـن هـذه الـدنيـا بحظِّـيَ منكـمُ
فسلَـوْتُ إلّا عنكـمُ ، وقنِعْـتُ ... إلّا منـكُ ، وزهـدتُ إلّا فيكـمُ
ورأيـتُ كـلَّ العـالميـن بمُقْلَـةٍ ... لـو ينظُـرُ الحسـادُ مـا نظَـرَتْ عَمُـوا
مـا كـان بعـد أخـي الـذي فَـارَقْتُـهُ ... ليبـوحَ ، إلا ، بـالشكـايـةِ لـي فـمُ
هـو ذاك لـم يَمْلـكْ عُـلاهُ مـالِـكٌ ... كـلّا ، ولا وجْـدي عليـه مُتَيَّـمُ
أقْـوَتْ مغـانِيـه ، وعُطِّـل رَبْعُـهُ ... ولـرُبَّمـا هجـرَ العـريـنَ الضَّيْغَـمُ (٣٢)
ورمَـتْ بـه الأهـوالَ هِمَّـةُ مـا جـدٍ ... كـالسيـفِ يُمْضـى عـزْمَـهُ ويُصَمِّـمُ (٣٣)
يـا راحِـلًا بـالمجـد عنّـا والعُـلَا ... أَتُـرى يكـونُ لكـم إلينـا مَقْـدَمُ ؟ !
يَفْـديـكَ قـومٌ كُنْـتَ واسِـطَ عِقْـدِهـم ... مـا إنْ لهـم مُـذْ غِبْـتَ شَمْـلٌ يُنْظَـمُ
لـك فـي رِقـابِهِـمُ وإنْ هـمْ أنكـروا ... مِنَـنٌ كـأطـواق الحَمـامِ وأنْعُـمُ
جهلـوا فظنّـوا أنّ بُعـدَكَ مَغْنَـمٌ ... لمّـا رحلـتَ ، وإنّمـا هـو مَغْـرَمُ
فلَقَـدْ أقـرَّ العيـنَ أنّ عِـداكَ قـد ... هلكـوا ببغيِهـمُ ، وأنـت مُسَلَّـمُ
لـم يَعصـمِ اللهُ ابـنَ معصـومٍ مـن الْـ ... ـآفاتِ ، واخْتُـرِمَ اللعيـنُ الأخْـرَمُ (٣٤)
واغْتَضْـتَ بعـدهـمُ بـأمـرِ معشـرٍ ... بـدءوا لـك الفِعـلَ الجميـلَ وتَمَّمُـوا

(٣٢) أقوتْ مغانيه : خلتْ منازله - الضيغم : الأسد .
(٣٣) يصمِّم : يمضى إلى العظم ويقطع .
(٣٤) اخترُم : أخذه الموت - الأخرم : ضعيف الرأى .

فلَعَمْرُ مَجْدِكَ إن كرُمْتَ عليهمُ		إن الكريمَ على الكِرام مُكرَّمُ
أقيالُ بأسٍ ، خَيرُمَنْ حَملُوا القنا		ومُلوكُ قحطانَ الذين هُمُ هُمُ (٣٥)
متواضعون ولو ترى ناديهمُ		ما اَسْطَعْتَ من إجلالهمُ تتكلَّمُ
وكفاهُمُ شَرفًا ومجدًا أنّهمْ		قد أصبح الدَّاعِى المُتَوَّجُ منهمُ
هو بذْرُتِمٌ فى سماءِ عُلاهمُ		وبنو أبيه بنو زُرَيْعٍ أنْجُمُ
ملكٌ حِماهُ جنَّةٌ لعُفاتِهِ		لكنّه للحاسدين جهَنّمُ
أُثْنى عليك بما مَنَنْتَ ، وأنت مِن		أوصافِ مجدِك يا مليكًا أعظمُ
فاَغفرْ لىَ التقصيرَ فيه ، وعُدَّهُ		مَعَ ما تجودُ به علىَّ وتُنْعِمُ
مَعَ أنّنى سيَّرْتُ فيك شواردًا		كالدُّرِّ بل أبهى لَدَى مَنْ يَفهَمُ
تغدو وهُوجُ الذَّارياتِ رواكِدٌ		وتبيتُ تسرى والكواكبُ نُوَّمُ (٣٦)
وإذا المآثِرُ عُدِّدَتْ فى مشهدٍ		فبِذِكرها يُبدا المقالُ ويُخْتَمُ
وإذا تلا الرَّاوون محكَم آيِها		صَلَّى عليك السَّامعون وسلَّموا
وكفى برأيِ إمامِ عَصْرِك ناقضًا		ما أحْكَمَ الأعداءُ فيك وأبْرمُوا

* * *

وله من قصيدة فى مدح الصالح طلائع بن رُزَّيك بمصر :

وتلقى الدَّهرَ منه بليثِ غابٍ		غدَتْ سُمْرُ الرِّماحِ له عَرينا
تخالُ سُيوفَهُ إمَّا اَنْتضاها		جداوِلَ والرِّماحَ لها غصونا (٣٧)

(٣٥) الأقيال : جمع القَيْل وهو الملك من ملوك اليمن .
(٣٦) الشوارد : القصائد السائرة فى البلاد - هوج : جمع هوجاء ، وهى الرياح التى لا تستوى فى هبوبها وتقلع البيوت - الذاريات : الرياح التى تذرى ما يعترضها فى سيرها أى تطيرّه وتفرّقه .
(٣٧) انتضاها : أخرجها من غمدها .

وتَحسَـــبُ خَيْلَـــهُ عِقبـــانَ دَجْــنٍ	يَــرُحْــنَ مــع الظَّــلامِ ويَغتــدينــا (٣٨)
إذا قَــدَحَــتْ بجنْــحِ الليــلِ أوْرَتْ	سنًــا يُعْشــى عيــونَ النَــاظــرينــا (٣٩)
وإن جَنَحَــتْ مــع الإصبــاحِ عــدْوًا	أثــارَتْ للعَجَــاجِ بــه دُجُــونــا
كــأنّ الشّمــسَ حيــن تُثيــرُ نقْعًــا	تُحــاذِرُ مــن سُطــاهُ أن تَبينــا (٤٠)
ومــا كُسِفَــتْ بُــدورُ الأُفْــقِ إلّا	أســىً ؛ إذْ أبصــرَتْ منــه الجبينــا
ومــا اضطــربتْ رِمــاحُ الخــطِّ إلّا	مخــافَــةَ أن يُحطِّمَهــا مُبِينَــا
ومــا تَنــدَقُّ يــوم الــرَّوعِ حتَّــى	يَــدُقَّ بهــا الكــواهــلَ والمتُــونــا (٤١)
عجبــتُ لهــا تُصــافــح مــن يَــديْــه	وتُــوصَــفُ بــالظَّمــا - بحــرًا مَعينــا
ويُــورِدُهـــا ، ولايُخطــى بــرأيٍ	نِطــافًــا مــن دُروع الــدَّارعينـــا (٤٢)
وهــلْ يَشْفَــى لهــا أبــدًا غَليــلٌ	وقــد شــرِبَــتْ دِمــاءَ الكــافــرينــا ؟ !
إذا لَقِيَــتْ عيــونَ الــروم زُرْقًــا	حسِبْــتَ نِصــالَهــا تلــك العيــونــا
وقــائعُ فــى العُــداةِ لــه تُبــارى	صنــائِعَ فــى العُفــاةِ المُجْتــدينــا (٤٣)
وإرْغــامٌ بــه أبكــى عيــونًــا	وإنْعــامٌ أقَــرَّ بــه عُيــونــا (٤٤)

---

(٣٨) عقبان : جمع عُقاب وهو طائر قويّ المخالب من كواسر الطير .
(٣٩) الجنح من الليل : الطائفة منه ، أو ظلامه واختلاطه - أوردتْ : أوقدت - يُعشى أى يجعل بصرها يسوء ليلًا ويضعف .
(٤٠) العجاج والنقع : كلاهما بمعنى الغبار - السُّطا : البطش والغلبة .
(٤١) الخطّ : أرض يُنْسب إليها الرماح الخطيّة ، ويقال هو مرفـأ السفن بالبحرين - الكواهـل : جمع الكاهل وهو من الإنسان ما بين كتفه إلى مَوْصل العنق فى الصلب - المتون : الظُّهور .
(٤٢) « نطافًا » بمعنى تقطر دمًا .
(٤٣) المجتدى طالب الجدوى أى العطيّة .
(٤٤) الإرغام : الإذلال والإكراه .

وقال يمدح العادل بن السّلّار، ويذكر وقعة عباس :

أبـــى اللهُ إلا أن تُعـــانَ وتُنْصـــرا ... وتظفـــرَ حتـــى لقبـــوك المظفَّـــرا
وتُصبـحَ سيفـا مثـلَ نعتـك قـاطعًـا ... مُحلًّـى بـأصنـافِ الفَخـارِ مُجـوْهَـرَا
يـراك حـديـدُ الهنـدِ أشـرفَ قيمـةً ... وأعظـمَ آثـارًا ، وأكـرمَ عُنْصُـرَا
إذا أنـت صـاحبـتَ الحُسامَ إلـى الـوغـى ... وكلَّفْتَـهُ فيهـا مضـاك فقصـرًا
وقـد مـارستْ منـك الأعـادِى ممـارسًـا ... لهـا حـازمًـا إن أوْردَ الأمـرَ أصْـدرَا (٤٥)
تـرى خلفـه مـن قـادةِ النَّـاس عسكـرًا ... وقُـدَّامَـه مـن صـادِق البـأسِ عسكـرًا
أخـو العـزِّ ينفـى الجبْـنَ عنـه مضـاؤُهُ ... وذو الحـزمِ يكفيـه الثَّبـاتُ التَّهُّـورا
وحسبُ الأعـادى منـك بـالأمـس وقعـةً ... قضـى اللهُ أن يُنْسـىَ الـزّمـانُ وتُـذْكـرا
وأقْبلْتَهـا نحـوَ الصَّعيـدِ فلـو تَشـا ... هنـاك منَعْـتَ النّيـلَ أن يَتَحـدَّرا (٤٦)
كتـائبُ يُـوهـى جَنْـدلَ الأرضِ سيْـرُهـا ... ويـذروهُ حتـى يمـلأَ الأرضَ عِثْيَـرَا (٤٧)
ومـا يـومُ مـروانَ الحمـارِ بنَحْـوِهـا ... بـأعظـمَ مـن يـوم الحمـارِ وأشْهَـرَا (٤٨)
غـدا أبـنُ مصـالٍ للصَّـوارمِ حـارسًـا ... وراحَ ، وقـد ألْبَسَتْـهُ الـدَّمَّ مِغْفَـرَا (٤٩)
وظـنَّ الـوغـى مُسْتَنْـزَهَ الصَّيْـدِ والظُّبـا ... حَـوائمَ طَيْـرٍ بـالصَّـوارِمِ نُقَّـرَا
فـأقـدمَ عـن جَهْـلٍ بهـا لا شجـاعـةٍ ... وعـاجَلَـهُ المقـدورُ أن يتـأخَّـرَا
فـإن كـان نجـم الـديـن حقًّـا كمـا دَعَـوْا ... فـإنَّـك شمـسُ الـدّيـنِ أخْفَتْـه أن يُـرى

* * *

(٤٥) مارستْ : عالجت وزاولتْ ، والممارس : الشديد فى المعالجة .
(٤٦) أقْبلْتها : أى سدّدتها ، يعنى بها الرّماح .
(٤٧) الجندل : الحجارة - العِثْيَرَ : الغبار .
(٤٨) المعروف أن مروان الحمار هو مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين .
(٤٩) الصوارم : السيوف القاطعة - المغفر : زَرَد أو حِلَق من الدروع على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة .

ومما قاله فى مدح الخليفة العاضد : (٥٠)

وإنّ أميرَ المؤمنين وذكرَهُ قرينان للآى المُنَزِّل فى الذّكر

لِقول رسولِ اللهِ تلقون عِترتى
معًا ، وكتابَ اللهِ فى مَوْرِدِ الحشرِ

إذا ما إمامُ الحشرِ لاحَ لناظرى
فو العصرِ إنّ الجاحدين لفى خُسْرِ

ويكفى الورى منه يتيمةُ تاجِهِ
وما قد حوته من بهاءٍ ومن فخرِ

ولم تَرَعَيْنى قبلها قَطُّ كوكبًا
يلوحُ مع الشمسِ المنيرةِ فى الظُّهرِ

وما هُوَ إلّا البحرُ ليس بمُنْكَرٍ
إذا ما تحلّى بالجواهر والدُّرِّ

على أنّه لا يقْتنيها لحاجَةٍ وشمس الضّحى تُغنى عن الأنجم الزُّهرِ
وقد قابَلَتْها للمِظَلَّة هالةٌ بهِ أَبدًا تسمو على هالةِ البدْرِ
وما هىَ إلّا بعضُ سُحْبِ يمينه وما زال منشا السُّحبِ من لُجَّةِ البحر(٥١)

* * *

(٥٠) الخليفة العاضد هو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ بن محمد بن المستنصر، آخر ملوك مصر من العبيديين (ت ٥٦٧) .
(٥١) لجّة البحر: معظمه وتردّد أمواجه .

ومن شعره فى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب :

أميـرَ المـــؤمنيـــن ، وخيـــرَ مَلْجـا ... يُســـارُ إلـــى حِمـاهُ ، وخَيْـــرَ حـامِ
كــأنّـى إنْ جعلـتُ إليـك قَصْـدى ... قصَـدْتُ الـرّكـنَ بـالبيـت الحـرام
وخُيِّـلَ لـى بـأنّـى فـى مقـامـى ... لـديـه بيـن زمـزمَ والمقـامِ
أيـا مـولاىَ ذِكْـرُكَ فـى قعـودى ... ويـا مـولاىَ ذِكْـرُكَ فـى قيـامـى
وأنْـتَ إذا انتبهـتُ سميـرُ فكـرى ... كـذلـك أنـت أُنْسـى فـى منـامـى
وحُبُّـكَ إن يكـن قـد حـلَّ قلْبـى ... ففـى لحمـى اسْتكـنّ وفـى عِظـامـى
فلـولا أنـت لـم تُقْبَـلْ صـلاتـى ... ولـولا أنـت لـم يُقْبـل صيـامـى
عسـى أُسْقَـى بكـأسِـكَ يـوم حشـرى ... ويُـرْوَى حيـن أَشـربُهـا أُوَامـى [٥٢]
وأنْعَـمُ فـى الجِنـانِ بخيـر عَيْـش ... بفضـل وَلاكَ والنِّعَـمِ الجِسـام
صـلاةُ اللهِ لاتعـدوك يـومًـا ... وتتبَعُهـا التّحيّـةُ بـالسـلام

* * *

وكتب - وهو فى سجن الخِزانةِ - إلى شجاع بن شاور :

أيـا صاحِبَـىْ سجنِ الخِـزانـة خلِّيـا ... مـن الصبُّح مـا يبـدُو سَنـاهُ لنـاظـرى
فـوَاللهِ مـا أدْرى : أَطَـرْفِـىَ سـاهـرٌ ... على طول هـذا الليـلِ ، أم غيـرُ ساهـرِ ؟ !
ومـا كنـتُ أخشـى قبـل سَجْنكمـا علـى ... دمـوعـىَ أن يقْطُـرْنَ خـوفَ المقـاطِـرِ [٥٣]
ومـالـىَ مَـنْ أشكـو إليـه أذاكمـا ... سوى ملـك الـدنيـا ؛ شجـاعِ بـنِ شـاوِرِ

* * *

---

(٥٢) الأُوام : حرارة العطش .
(٥٣) المقاطر : جمع مِقْطرة ، وهى خشبة فيها خروق على قدر سعة رجل المحبوسين .

وقال متغزلًا:

وقــد أنكــروا قتلــى بسيــف لِحــاظِــهِ
ولــو أنصفــونــى مــا ٱستطــاعُــوا لــه جَحْــدَا

وقــالــوا : دَعِ الــدَّعــوى ؛ فمــا صــحَّ شــاهــدٌ
عليهــا ؛ ولسنــا نقبــلُ الكــفَّ والخــدَّا

ولــو كــان حقًّــا مــا تقــولُ وتــدَّعــى
علــى مُقْلَتَيْــهِ ، عــادَ نَــرْجَسُهــا وَرْدَا

ومــا علمــوا أنّ الحُســامَ بِسفْكِــهِ
دَمَ القِــرْنِ يــومًــا ، عُــدَّ أمْضَــى الظُّبــا حَــدَّا

* * *

ابن الكيزاني

(ت : ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م)

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري ، الذى لقبه بعضهم بالمصرى ، وبعضهم بالكنانى نسبة إلى مصر أيضا .

لم يذكر المؤرخون متى كان مولده ولا أين ، ولكنهم ذكروا أنه توفى فى سنة ٥٦٠/ ١١٦٥ . وانفرد ابن خلكان بالقول بأنه «توفى ليلة الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الأول- وقيل : بل توفى فى المحرم - سنة ٥٦٢/ ١١٩٦ » . واتفقوا على أنه دفن فى أول الأمر بالقرب من قبر الإمام الشافعى ، ولكن نجم الدين محمد بن الموفق الخبوشانى ، من علماء الشافعية ، دفع إلى إخراجه ودفنه فى سفح المقطم .

وقد وصفه العماد الأصفهانى فذكر أنه عالم بالأصول والفروع ، والمعقول والمشروع ، ذو رواية ودراية بعلم الحديث ، أنه كان عالما بالفقه وأصوله والحديث وعلم الكلام .

واتفق الجميع على أنه كان من العباد الملازمين للمقابر ، غلب عليه التصوف والزهد . فعاش من كسب يده ، إذ كان يصنع كيزان الماء ويبيعها ، وينفق من عائدها على نفسه والمحتاجين من طلبته .

واتفقوا أيضا على أنه كان له طائفة اتبعته فى أفكاره ، وسميت وبقيت مدة بعد وفاته . ولكنهم اختلفوا فى هذه الأفكار :

فذهب العماد الأصفهانى إلى أنه كان يقول بقدم أفعال العباد وبالتشبيه ، أى أن الله يتصف بصفات تشبه صفات المخلوقين ، أخذا من قوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) وقوله (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وأمثالهما ... وتابع كثيرون العماد .

وأعلن ابن سعيد أنه كان من المعتزلة ، ويتنافى فى هذا القول كل التنافى مع القول الأول .

ولا يؤيد ما بقى من شعره أيا من الادعاين ، وإنما يؤيد أنه كان من أصحاب الحب الإلهى . أضيف إلى ذلك أن من كتبوا عنه وصفوه بالشافعى المذهب . وقد ألف كتابين فى الوعظ ، عنوان أحدهما « الرقائق » والثانى « مليك الخطب » .

وأثنى العماد الأصفهاني على شعره ونثره ، فقال فـي ترجمته : « فقيه واعظ مذكِّر ، حين العبارة ، مليـح الإشارة ، لكـلامه رقـة وطلاوة ، ولنظمـه عذوبـة وحلاوة ... ولـه ديوان شعـر يتهافـت الناس على تحصيله وتعظيمـه وتبجيله ، لما أودع فيـه من المعنى الدقيـق ، واللفظ الرشيـق ، والـوزن الموافـق ، والوعظ الـلائق ، والتذكيـر الرائع الرائق ، والقـافية القافيـة آثار الحِكَم ، والكلمة الكـاشفة أسرار الكرم ... وهـو شيخ ذو قبول ، وكلام معسـول ، وشعر خال من التصنع مغسول » .

ووافقه أبو محمد يوسف بن قزأوغلى المعـروف بسبط ابن الجوزى ، فقال عنه : « ديوانه بمصر مشهور ، وممـدوح مشكور . ولقد وقفت عليه فـى مصر ، فرأيته مليـح العبارة ، صحيح الإشارة ، فيه دقة وحلاوة ، وعليه طلاوة » .

ولكن ابن سعيد المغربى لم يرض عنه ، فهاجمه قائلا : وقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة ، غير مرضى عند صدور الشعراء وأصحاب غوص الكلام وفرسـان النظام . ولم أكتـب من ديـوانه - وقد ضجـرت من اختياره ومطـالعته - شيئـا تهش النفس إليه .

ويتضح من هذه الأقـوال أنه كان له ديوان يعجب به المصريـون ، ويكثرون من الإقبال عليه فـى أسواق الفسطاط والقـاهرة ، وأنه اتبـع طريقـة سهلة سلسة خـالية من التصنـع فى التعبير مما جلب عليه سخط بعض الأدباء .

وفى العصـر الحديث ، جمع د . علـى صافى حسين : المقطـوعات الباقية مـن شعره ، وصدرها مع دراسة له .

* * *

قال ابن الكيزانى :

واللهِ لــولا أَنَّ ذكــرَك مــؤنِســى　　　مــا كــان عيشــى بــالحيــاة يطيــبُ
ولئــن بكــتْ عينــى عليــك صبــابــةً　　　فلكــل جــارحــةٍ عليــك نحيــبُ
أَتظــنُّ أَن البعــد حــلَّ مــودتــى　　　إن بَــانَ شَخْصــك فــالخيــال قــريــبُ
كيــف السلــوُّ وقــد تمكَّــن فــى الحشــا　　　وجَــدٌ علــى مــا فــى الفــؤاد رقيــبُ
وإليــك قــد رَحَــلَ الهــوى بحُشَــاشتــى　　　والسُّقْــمُ مُشْتَمِــلٌ وأَنــتَ طبيــبُ (١)

* * *

وقال :

أَصــرِفــوا عنِّــى طَبِيبِــى　　　وَدَعُــونِــى وَحَبِيبِــى
عَلِّلــوا قلبــى بــذكــراهُ　　　فقــد زادَ لهيبِــى
طــابَ هَتكــى فــى هــواهُ　　　بَيــنَ وَاشٍ ورقيــبِ
لا أُبــالــى بفَــوَات النَّفــ　　　ــسِ مــادامَ نصيبِــى
ليــسَ مَــن لامَ وإن أَطنــ　　　ــبَ فيــه بمصيــبِ
جَسَــدى راضٍ بسُقمِــى　　　وَجُفُــونِــى بنَحيبِــى

* * *

وقال :

ســواءٌ أَن تلــومــا أَو تــريحــا　　　رأَيــتُ القلــب لا يَهــوَى نصيحَــا
أَمــا لــو ذُقتُمَــا صَــرفَ الليــالــى　　　إِذَنْ لعــذَرتُمــا القلــبَ القَــرِيحــا (٢)

---

(١) الحشا : ما دون الحجاب مما فى البطن - الحشاشة : بقية الروح فى المريض .
(٢) صَرْف الليالى : نوائبها وحِدثانها - القريح : المجروح .

وكـــانـــت فُـــرقـــةُ الأَحبـــاب ظَنًّـــا   فـــأَصبح بَينَهُـــمْ خَبَـــرًا صـــريحَـــا
ولـــو لـــم ينـــزلـــوا سَلمـــاتِ نجْـــدٍ   لمـــا استنشقْـــتُ للسَّلمَـــاتِ ريحـــا [3]
ولاأَهـــديـــتُ لـــلأَسمـــاع يـــومًـــا   غنـــاءً مـــن حمـــائمهـــا فِصِيحَـــا
وهـــأَنـــا قـــد سمحـــتُ بـــدمـــعِ عينـــى   وكنـــتُ بـــدَمْعهـــا أَبـــدًا شَحيحَـــا
وأَمكنـــتُ المحبَّـــة مِـــن قِيـــادى   وصنـــتُ مـــع النَّـــوى وُدًّا صحيحَـــا
وقـــد سكـــن الجـــوى قلبًـــا صحيحًـــا   وقـــد تَـــرَكَ الهـــوى صَـــدرًا قـــريحَـــا

* * *

وقال :

قـــد قتلـــتِ فـــاتئـــدى   لاتُعَـــذِّبـــى كَبـــدى [4]
وانظـــرى جَـــوًى وهـــوًى   سُلِّطـــا علـــى جســـدى
لا تهتـــــدى بغَـــــدٍ   فـــالممـــاتُ بعـــد غـــدِ
كلمـــا طلبـــتُ رِضًـــا   بـــالـــوصـــال لـــم أَجـــدِ
مـــا أَرَى صـــدودكُـــمُ   ينتهـــى إِلـــى أَمـــدِ
إِننـــى بـــذلـــتُ دَمـــى   مـــا عليـــكِ مـــن قَـــوَدِ [5]
إِن بخلـــتِ أَن تصلـــى   فـــأَسمحـــى بـــأَن تعـــدى
مُـــذْ عَلِقْـــتُ حُبَّكُـــمُ   لـــم أَمِـــل إِلـــى أَحَـــدِ
مـــا جـــرى صـــدودُكـــمُ   قبـــل ذاك فـــى خَلَـــدِى
فـــأَرحمـــى قتيـــلَ ضَنًـــا   فـــى هـــواكِ واقتصـــدى

* * *

(3) السلمات : جمع سَلَمة ، وهى اسم لشجرة يكثر نبتها فى بلاد نجد ، وهى فى اللغة أيضا اسم لنوع من الحجارة ، ومقصود الشاعر هنا : الأمكنة والبقاع التى تتوافر فيها تلك الحجارة أو نبت بها هاتيك الأشجار .
(4) اتئدى : تمهّلى وتأنّى .
(5) القود : القصاص .

وقال :

قُـلْ لمــن وكّلنــى بــالسُّهُــدِ ... إنَّ مَــن أَسْهَــرْتَـه لــم يَــرْقُــدِ
بِنْــتَ والشــوق مقيـمٌ فــى الحَشـا ... يتمــادَى حَــرُّه فــى الكَبِــد (٦)
أنــا فــى أسـرِك فــانظـرْ واحتكـمْ ... مــا علـى هَجْـرِك لــى مـن جَلَـد
لايَغُــرَّنَّــكِ يــا مــالِكتــى ... رَمَــقٌ يبقــى ليــومٍ أوغَــدِ

* * *

وقال :

تلــذُّلـى فــى هَـوَى ليلــى معــاتبتــى ... لأنَّ فــى ذكــرهــا بَـرْدًا علــى كَبِـدى
وأَشتهــى سَقَمــى أن لا يفــارقنــى ... لأنهــا أودعَتــهُ بــاطــنَ الجَســد
وليس فـى النـوم لى مـا عشـتُ مـن أَرَبِ ... لأنهــا أوقَفــتْ جَفنـى علــى السُّهُـدِ
ولــو تمــادت علــى الهِجـران راضيـةً ... بــالهجـر لــم أشـكُ مـا ألقى إلــى أحـدِ
فــإن أمــت فـى هـواهــا فَهىَ مــالكتى ... ومــا لعبــدٍ علــى مــولاه مــن قَــوَدِ
اللــومُ أشبــه بــى منهــا وإن ظلمــت ... أنـا الذى سقـتُ حَتفـى فـى الهوى بيـدى

* * *

وقال :

لـولا المطـامـعُ بـالتـلاقـى ... لَذُبْـتُ من فَرْطِ اشتيـاقى (٧)
إنَّــا وإن نَــأَتِ الــديــا ... رُبنـا علـى قُـرْبِ الـوفـاقِ
تمضــى بنــا الأيــامُ فــى ... صَفـوِ الهـوى والـودّ بــاق
وأظــلُّ أمحـو بـالتـرجِّـى ... فيكــمُ أثَــرَ الفــراق

* * *

---

(٦) السُّهُد : القليل من النوم - بنتَ : بَعُدْت ورحلت .

(٧) تقتضي سلامة الوزن أن تمدّ اللام من كلمة « لذبت » حركتين ، الأمر الذى يحمل على القول بأن البيت قد دخله الخبن أو أن هذا الشعر كان ينشد ويغنى به ، لأن الغناء هو الذى يتأتى معه مثل هذا المدّ ، والواقع أن أبيات هذه المقطوعة فى مجموع ألفاظها وكلّ كلماتها تساومه طبيعة الغناء .

وقال :

يـا كـاتـمَ الحُـبِّ والأَجفـانُ تَهْتِكُـهُ ... وطـالـب العِتْـقِ والأَشـواقُ تملكُـهُ
شـرط المحَبَّـة أَن لا يشتكـي مَلَـلًا ... مـن قـد رأَى أَنَّ فَـرْطَ الحـب يُهْلكـهُ
والصبـرُ تحـت مـذلَّاتِ الهـوى أَبـدا ... عـزٌّ فمـا منصـفٌ فـي الحـب يتـرُكـه
دَمُ المحـبِّ بـأَيـدي الحِـبِّ مبتـذَلٌ ... إِن شـاءَ يمنعُـه أَو شـاءَ يَسْفِكـهُ
مـن كـان فـي شَـرَكِ الأَشواق مُـرْتَهَنًا ... كـانـت لـه عُلَـقٌ لا بُـدَّ تُمْسِكُـهُ (٨)

* * *

وقال :

أَيَّ طـريـق أَسلُـكُ ... وأَيَّ قَلـبٍ أَملـك
وَأَيَّ صبـرٍ أَبتغـي ... وهـو بكُـمْ مُستهلَـكُ
أَدارنـي حبّكـمُ ... كمـا يـدُور الفلـكُ
أَأَنثَنـي وكـلُّ عضـو ... فيـه منكـمْ شَـرَكُ
أَخلصـتُ فيكـم بـاطنًـا ... فيـه هِـوًى لا يُـدْرَكُ
جَـلَّ فمـا فـي صَفـوهِ ... شَـوْبٌ ولا مُشتَـرَكُ
ولاؤكـمْ لـي مَـذهَـبٌ ... وذكـركـمْ لـي نُسُـكُ
ومهجتـي مملـوكـةٌ ... يـا حبـذا الممَلَّـكُ
وإِن أَردتـمْ فـاْحقِنـوا ... وإِن أَردتـم فـاْسفكـوا (٩)
مـا أَنتـمُ ممـن يُخَلَّـى ... حُبُّـه ويُتـرَكُ

* * *

---

(٨) الشرك : حبالة الصيد - العُلَق : جمع العُلْقة وهو التعلّق أو ما يُتمسّك به .
(٩) احقنوا الدماء : أي امنعوها أن تُسفك .

ابن قلاقس الإسكندرى

(٥٣٢ - ٥٦٧ هـ / ١١٣٧ - ١١٧٢ م)

هو أبو الفتح نصر بن عبد الله بن عبد القوى اللخمى الأزهرى ، نشأ بالإسكندرية ، وفيها ظهرت مواهبه الأدبية ونظم مدائحه فى بعض أعيانها وعلمائها ، ولا سيمّا شيخه الإمام الحافظ أبو طاهر السِّلَفى (ت ٥٧٦) ، وكان إليه أمر المدرسة الحافظية بالإسكندرية وكان ابن قلاقس من طلابها .

ويظهر من بعض كتاباته التى وصلت إلينا أنه ارتحل إلى القاهرة ، وأقام فيها فترة من الزمن مكثرًا من مديح حكامها ووزرائها من كتاب الدواوين ، مثل القاضى الفاضل .

ثم عاد إلى الإسكندرية ، وغادرها بعد ذلك إلى صقلية ، متجوّلا فى مدنها ، مثل بَلِرْمو العاصمة ومسِّينى التى صرح فى شعره بأنه أقام فيها ثلاثة شهور، وقد استمرّت رحلته هذه سنتين (٥٦٣-٥٦٤)، وفى كتابه «الزهر الباسم والعَرْف الناسم فى مدِيحِ الآجَلّ أبى القاسم» وصف لهذه الرحلة ومديح لأبى القاسم بن حَجَر بن حَمُّود القرشىّ ولغيره من أولى الأمر والنهى فى صقلية مثل القاضى على بن أبى الفتح الأموىّ .

كما ذهب إلى اليمن سنة ٥٦٥ ، وكتب لبعض أمرائها فى عدن ودهلك وغيرهما ، ومدحهم بأشعاره ، وقد توفى وهو فى طريق عودته إلى مصر في عيذاب ، أحد موانى البحر الأحمر من جهة الأرض المصرية ، ولم تتجاوز سنه السادسة والثلاثين ، وقد ترجمت له مصادر كثيرة ، منها : الخريدة ومعجم الأدباء ووفيات الأعيان وحسن المحاضرة وشذرات الذهب ومرآة الجنان ، وقد وُصف فى هذه المصادر بأنه « كثير الحركات والأسفار » وبأنه من المجيدين فى ميدانى النثر والشعر .

* * *

قال ابن قلاقس ، وقد عِيب شيء من أفعاله :

أيُّهـا الحـاكـمُ بـالظـنِّ (٢) ... ومـا بـالظَّـنِّ حُكْـمُ
لا تَسُـمْ خِلَّـك خَسْفًـا ... فهـو عَمَّـا تَسْـمُ يَسْمـو
أوليْـسَ اللهُ حقًّـا ... قـال : « بعـضُ الظـنِّ إثـم »[1]

* * *

وقال أيضًا فى مثل ذلك :

لسـتُ ممَّـن يُظَـنُّ فيـه سِـوَى مـا
يَقْتَضيـهِ الـوِدادُ فـى الإفـراطِ
وَلَـوَ أنِّـى رأيـتُ ذَلِـك داءً
رُحْـتُ مِـن عَـزْمتـى إلـى بُقْـراط
حـاشَ لله أن أَزِلَّ ضـلالًا
بَعْـد مـا لَاحَ لـى سَـوِىُّ الصِّـراط[2]

* * *

وقال بمدينة صقلية:

مـا رَأَيْنـا مِثـالَ ذا اليـومِ يَـوْمًـا ... صَـحَّ فيـه تنـاقُـضُ الأَمْثـال
صـار فيـه الغِـرْبـالُ يُمْسِـكُ مـاءً ... مَـنْ رَأى المـاءَ قَـطُّ فـى الغِـربـال

* * *

(١) الخلّ : الصديق المختصّ - سامه خسفًا أى أوْلاه ذلًّا - وقوله « تسْم » بتسكين السين من حقها أن تكون بكسرها بمعنى تسِمه أى تعيبه أو تنسبه إليه - وقوله « إن بعض الظن إثم » جزء من الأية ١٢ من سورة الحجرات .

(٢) بقراط : طبيب يونانىّ قديم ، وهو الذى باسمه القسم الذى يقسم به الأطباء - حاش لله : براءة لله ومعاذا - السوِىّ : المستوى المعتدل .

وقال فى مغنّ :

ينـــافـــر إيقـــاعُـــه صَـــوْتَـــهُ ... فهـــذا يـــزيـــد وذا ينقـــصُ
ويتبعــــه زامــــرٌ مثلُــــهُ ... تليـــعٌ لـــه نَفَـــسٌ أوْقَـــصُ
فـــإنْ مـــا بيننـــا راقِصـــاً ... فكُـــلٌّ إلـــى بيتـــه يَـــرْقُـــصُ (٣)

* * *

وقال حين أشرف على جزيرة صقلية سنة ثلاث وستين وخمسمائة :

بَلَـدٌ أعـــارَتْـهُ الحَمَـــامَـــةُ طَـــوْقَهَـــا ... وكســـاهُ حُلَّـــةَ ريشِـــهِ الطـــاووس
فكـــأنَّمـــا الأنهـــارُ منـــه سُـــلَافَـــةٌ ... وكـأَنَّ ســـاحـاتِ الـرِّيـاضِ كُـؤوسُ (٤)

* * *

وقال يصف بركة تحت قصر ملك صقلية :

بـــرْكَـــةٌ بُـــورِكَـــتْ فنحـــنُ لَـــدَيْهَـــا ... نستفيـــدُ الغِمـــارَ مـــن ضَحْضَـــاحِ (٥)
نَظَـــرَتْ فـــى قـــرارِهـــا بعيـــونٍ ... غَـــازَلَتْنَـــا بـــأَسْـــرَعِ الالْتمـــاحِ
تســرِقُ اللحظَـــةَ اخْتِـلاسًـــا وتُغْضِـــى ... نظـــرةَ الصَّـــبِّ خـــاف إنكـــارَ لاحِ (٦)
قـــد صَفَـــتْ واعتلـــى الحَبـــابُ عليهـــا ... فهـــى سِيَّـــانِ مـــع كـــؤوس الـــرَّاحِ (٧)
يـــا لَهـــا أسْهُـــمٌ بـــواطِـــنُ لـــولا ... زَرَدٌ ظـــاهـــرٌ لأيـــدِى الـــرِّيـــاحِ (٨)

---

(٣) ينافر : يخاصم – الإيقـاع : اتفاق الأصوات وتوقيعها فى الغناء – زامر تليع أى طويـل الرقبة – أوْقص : قصير الرقبة ، والمراد أن نَفَسَه قصير – يرقص بمعني يخبّ ويسرع .
(٤) الحلّة : الثوب الجيّـد الجديد غليظًا أو رقيقًـا – السلافة : أفضل الخمر وأخلصها – الرياض جمـع الروضة وهى الأرض ذات الخضرة .
(٥) الغمار : جمع غمر ، وهو الماء الكثير – الضحضاح : الماء القليل القريب الغور .
(٦) الصبّ : المحبّ المشتاق – اللاحى : اللائم العاذل .
(٧) الحباب : طرائق تظهر على وجه الماء ، تصنعها الريح .
(٨) زرد : درع .

أَيُّ دِرْعٍ مــوْضُــونَـةِ النَّسْـجِ تمتــدُّ   السَّــواقِــى عنهــا بمِثْــلِ الصِّفــاح (٩)
فــى جِنــانٍ لــه حُلِــيُّ العَــذَارَى   وحِــلَاهــا فـــى مِعْطَـفٍ وَوِشــاح (١٠)
مــن قُــدودٍ نُهــودُهــا عِــوَضُ الــرُّمَّـ   ـــانِ تـــزهـــو بنُهَّـــدِ التفـــاحِ
ورُبًـــى وَرَّدَتْ خـــدودَ شَقيـــق   وجَلَــتْ بــالحيــا ثُغــورَ أَقــاحِــى (١١)
وقِــداحٍ بهـــا أفتَسْمْنَـــا المســرَّا   تِ جَـــزُورًا بحَضْـــرَةِ الأَقـــداحِ (١٢)
ظَفِـــرَ الإِغْتِبـــاقُ منهـــا بحَـــظٍّ   لــم يَخِــبْ عنــه وافِــدُ الاصْطِبــاحِ (١٣)
ومُغَـــنٍّ تنـــاولَـــتْ يــدُهُ العـــو   دَ فعـــادَتْ لنـــا علـــى الاقْتِـــراح (١٤)
جَـــسَّ أَوتـــارَهُ فـــأَفْسَـــدَ منهـــا   صـــالَحًـــا صـــار فـــى يــد الإصْطِــلاح
بَيْـــنَ ريـــحٍ مـــن المـــزَامِيـــرِ أَسْـــرَى   بَيْـــنَ أَجســـامِنـــا مـــع الأَرْواح
وصِبـــاحٍ قَـــدْ عَقَّـــدُوا طُـــرُزَ الليـــ   ـــلِ جَمَـــالًا علـى وُجــوهِ الصَّبــاح (١٥)
يبعــث الــرَّقْــصُ مِنْهُـــمُ حــركَــاتٍ   سَـــرَقَـــتْ بعْضَهـــا طِـــوالُ الـــرِّمـــاح
هكـــــذا هكـــــذا وإلا فـــــلا لا   طُـــرُقُ الجـــدِّ غَيْـــرُ طُـــرْقِ المِـــزاحِ

* * *

(٩) الموضونة : الدرع المقارَبة النسج المداخَلَة الحَلَق بعضها فى بعض - الصِّفاح : جمع الصفيحة ، وهى وجه كل شيء عريض كوجه السيف أو اللوح أو الحجر.

(١٠) الجنان : جمع الجَنّة ، وهى الحديقة ذات النخل والشجر - الوشاح : نسيج عريض يرصّع بالجوهر ، وتشدّه المرأة بين عاتقها وكشحيها .

(١١) الربى : جمع الربوة ، وهى ما ارتفع من الأرض - الشقيق : هو شقائق النعمان وهو نبات أحمر الزهر مبقّع بنقط سود الأقاحى : جمع الأقحوان ، وهو نبت زهره أصفر أو أبيض .

(١٢) القداح : جمع القدح ، وكان يُستعمل فى الميْسر - الجزور : ما يصلح لأن يذبح من الإبل .

(١٣) الاغتباق : شرب الغبوق ، وهو ما يُشرب بالعشىّ - الاصطباح : شرب الصبوح : وهو ما يشرب فى الصباح .

(١٤) الاقتراح : الاختيار ، ومنه يقال : اقترح عليه صوتَ كذا وكذا .

(١٥) الصِّباح : جمع الصَّبوح ، يقال : صَبحُ الوجه أى أشرق وجَمُل .

وقال فيما اقتضى ذلك :

لا أَشْـــــرَبُ الـــــرَّاحَ إِلَّا ... مـــا بَيْـــنَ شـــادٍ وشـــادِنْ (١٦)
وإن فَنِيـــــتُ فعنــــدى ... إلـــى مَعَـــادٍ معـــادِنْ (١٧)
قُـمْ يـا نـديمِـى فـأَنْصِـتْ ... والليـــلُ داجٍ لِـــداجـــنْ (١٧)
غَنَّـــى ونـــاحَ فَنَـــزَّعْـــ ... ـــتُ ثـوبَ خـاشٍ مُخَـاشِـنْ (١٨)
طـــاوِعْ علـــى القَصْـــفِ والعَـــزْ ... ف كُـــلَّ حـــاسٍ وحـــاسِـــنْ (١٩)
وانهَـــضْ بطيشِـــكَ عـــن سِمْـــ ... ـــتِ ذى وَقَـــارٍ وقـــارِنْ
هـــاتِ الكُمَيْـــتَ وأَهـــلًا ... منهـــا بصَـــافٍ وصـــافِـــنْ (٢٠)
أَثُـــورُ مـــن ذِى ومـــن ذا ... بكُـــلِّ غـــابٍ بغـــابِـــنْ
وإن رَمَتْنـــى الليـــالـــى ... يـــومًـــا بـــدَاهٍ أُداهِـــنْ (٢١)

* * *

وقال أيضًا كأنه يخاطب امرأة :

أنـــا مـــن عينيـــك نشـــوانُ ... ومُـــدَامُ الطَـــرْفِ ألـــوانُ
يـــا قضيبًـــا كـــلِّ زاهـــرةٍ ... واجهَتْـــا منـــه بستـــانُ
وَجْنَـــةٌ كـــالجُلَّنـــارِ لهَـــا ... مـــن ثِمَـــارِ الصَّـــدْرِ رُمَّـــانُ (٢٢)

---

(١٦) الراح : الخمر – شاد : مغنّ – الشادن : ولد الظبية .
(١٧) النديم : المسامر المصاحب على الشراب – داج أى عمت ظلمته – الداجن : المقيم الملازم .
(١٨) خاشٍ : خائف – المخاشن : المحارش ، خلاف المُلاين .
(١٩) القصف : اللهو والافتتان فى الطعام والشراب – الحاسى : الذى يتناول الشارب جرعة بعد جرعة – حاسِنْ من المحاسنة وهى المعاملة بالحسنى ، أو المباهاة بالحسن .
(٢٠) الكميت : الخمر ، لما فيها من سواد وحمرة – صافِنْ : من المصافنة وهى موافقة الناس .
(٢١) الداهى : الذى يصيب لداهية – أُداهن : أدارى وألاين .
(٢٢) الوجْنة : ما ارتفع من الخدّين – الجُلّنار : زهر الرمان .

بـــأبِـــى أفـــديـــكِ مـــالكـــةً ... عبـــدُهَـــا فـــى الخُلْـــدِ رَضْـــوانُ
جَيَّشَـــتْ مـــن حُسْنهـــا وبـــدَتْ ... وهـــى - دامَ المُلْـــكُ - سُلْطَـــانُ
وسُيـــوفُ اللحـــظِ مخبـــرةٌ ... إنّمـــا الأجفـــانَ أجفـــانُ
حَـــرِّبـــى يـــا رمـــحُ قـــامتَهـــا ... ذا سنـــانٌ منـــك وسَنـــانُ (٢٣)
وابـــلائى مـــن مُخَـــدَّرَةٍ ... دونَهـــا ســـورٌ وجُـــدْرانُ
وأُســـودٍ خـــافَ سَطْـــوَتَهـــا ... كلَّمـــا حَـــازَتْـــهُ خَفَّـــانُ (٢٤)
ورقيـــبٍ لـــو يـــلاحظُهـــا ... لتَثَنَّـــى وهْـــو غَيْـــرانُ
خضـــتُ بحـــرَ الهـــولِ أطلبُهـــا ... دُرّةً والبحـــرُ طُـــوْفـــانُ
فـــأعـــانَ السعـــدُ واتّفقَـــتْ ... وسعـــودُ المـــرءِ أعـــوانُ
فبكفّـــى أىُّ لـــؤلـــؤةٍ ... مـــالَهـــا فـــى الـــدُرِّ أثْمـــانُ
قـــل لعـــذّالـــى فـــلا حَضَـــروا ... ولحُسَّـــادى فـــلا كـــانـــوا
كـــلُّ يـــومٍ لـــى بهـــا ولَكَـــمْ ... فـــى تصـــاريـــفِ الـــرَّدَىٰ شـــانُ

* * *

وقال أيضًا فى الغزل :

أصبحـتُ أعـذُرُ عـاشقًـا فـى حبّـه ... ولكـم عَشِقْـتُ فما عَـدِمْـتُ عَـذُولا
لقْبتُ تنـزيـلًا غرامـى فـى الهـوى ... أرأيـت حبًّـا قبلَـهُ تنـزيـلا
لـولـم أكـن فيمـا فعلـتُ محمَّـدا ... مـا كـان مـن أحبيتُـهُ جبـريـلا
رَشَـأ لـو أن اللّيـث حـاوَل صيـده ... لـرأيتَـهُ فـى راحتيـهُ قتيـلا (٢٥)
وأنـا الـذى تـرك الفـؤاد وراءَهُ ... بـالصّـالحيّـةِ إذ أرادَ رَحيـلا

---

(٢٣) يقال « حَرَّب السنان ونحوه » أى أحدّه - الوسنان : الآخذ فى النعاس .
(٢٤) خَفّان : مكان مشهور بكثرة السِّباع .
(٢٥) الرشأ : ولد الظبية إذا قوى وتحرّك ومشى مع أمّه .

وقال ارتجالًا وهو جالس بمصر فى مكان يعرف بدار الأنماط ومعه جماعة، وقد مرت بهم امرأة مشهورة بالجمال تعرف بابنة أمين الملك، وكانت تمشى ثم تقف فتلتفت

لهـا نـاظـرٌ فـى ذُرَى نـاضِـرٍ ... كمـا رُكِّـبَ السِّـنُّ فـوقَ القنـاة
لَـوَتْ حيـنَ ولَّـت لنـا جيـدَهـا ... فـأىُّ حيـاةٍ بَـدَتْ مـن وفـاة
كمـا ذُعِـرَ الظبـىُ مـن قـانـصٍ ... فقـرَّ وكـرَّر فـى الالْتِفـات [26]

* * *

وقال أيضًا ارتجالًا:

ولطيفـةِ الألفـاظِ لكـنْ قلبُهـا ... لـم أشـكُ فيـه لـوعـةً إلّا عَتَـا [27]
كَمُلَـتْ محـاسنُهـا فـودَّ البـدرُ لـو ... يَحْظَـى ببعـضِ صفـاتِهـا أن يُنْعَتَـا
قـد قلتُ لمّـا أعـرضـتْ وتَعَـرَّضَـتْ ... مُـؤَيْسًـا يـا مُطعمـًا قـلْ لـى متـى
قـالـتْ أنـا الظبـىُ الغـريـرُ وإنمـا ... ولِّـى وأَوْجَـسَ نَبْـأَةً فتلفَّتَـا [28]
يـا قـولـةً فتنـتْ بهـا فـى خـاطـرٍ ... مـن خـاطـرٍ تـرَكَ الفـؤادَ مُفَتَّتـا [29]

* * *

وقال يتغزل:

الله يعلـم أننـى مـا خلتُـهُ ... يصبـو إلـى الهجـرانِ حيـن وَصَلْتُـهُ
لاذَنْـبَ لـى إلّاهـواهُ لأننـى ... لمّـا دعـانـى للغـرامِ أجبتُـهُ
أحبـابَنَـا أنفقـتُ عُمْـرى عنـدَكُـمْ ... ومتـى أُعَـوَّضُ بعـضَ مـا أنفقتُـهُ
ولمـن أسيـرُ إلـى سـواكُـمْ فـى الهـوى ... والقلـبُ فـى عَـرَصـاتِكُـمْ خلَّفتُـهُ [30]
أأرومُ بَعْـدَكُـمُ محبّـاً صـادقًـا ... هيهـاتَ ضـاقَ العُمْـرُ عمـا رمتُـهُ

* * *

---

(٢٦) الناظر: العين – القناة: الرمح – القانص: الصائد.

(٢٧) عتا: استكبر وجاوز الحدّ.

(٢٨) أوجس: سمع أو أحسّ – النبأة: الصوت ليس بالشديد ولا بالمسترسل.

(٢٩) كلمة «خاطر» الأولى بمعنى الفكر، أما الثانية فاسم فاعل من «خَطَـر» أى مشى متأوّدًا متبخترًا، يعنى بذلك الفتاة.

(٣٠) العَرَصات: ساحات الدور.

وقال أيضًا :

يقـــولُ أنـــاس لـــو نعَـــتَّ الهَـــوَى   فـــوالله مـــا أدْرِى لَهُـــمْ كَيْـــفَ أنـــتُ
بَلَـــى غيـــرَ أنـــى لا أزالُ كـــأنَّمـــا   علـــىَّ مـــن الأحـــزانِ بَيْـــتٌ مُبَيَّـــتُ
إذا اشتـــدَّ مـــا بـــى كـــان أفضـــلُ حيلتـــى   لَهُـــمْ وضـــعَ كفِّـــى تحـــتَ خَـــدِّى وأَصْمُـــتُ

* * *

وقال أيضًا :

حَمَـلَ الخضَـابَ علـى المَشِيْـبِ لِكَـىْ   يُصْبِـى الحسـانَ بـديـعُ حِلْيَتِـه [٣١]
مـــا كـــان أسعـــدَهُ غـــداةَ يُـــرَى   وضَمِيـــرُهُ كضميـــرِ لِحْيَتِـــهِ

* * *

(٣١) الخِضاب : ما يُخضب به من حنّاء ونحوه .

عَرْقَلَة الكلبى

(٤٨٦ - ٥٦٧ هـ / ١٠٩٣ - ١١٧١ م)

أبو الندى حسان بن نميـر، اشتهر بلقب عرقلة، وهو عربى من بنـى كلب وَبَرَة، نزح إلى دمشق من البادية التـى سكنها أهله، وعاش فى أحيائها قرب المسجـد الأموى الكبير، وتردّد فى ضواحيها ومنازهها مثل النيرب وجيرون، فعشقهـا وأحبّ أهلها وأكثر من ذكرها فى شعره. وقد عاصر مرحلة الكفاح ضد الصليبيين، وكانـت راية الأيوبيين قد ارتفعت على معظم بلاد الشام بعد أن تمكّن صلاح الدين من تطهيرها منهم، سوى بعض الثغور.

عاش فى أوّل أمره متقلّبا بين يدى الحاجة، فاضطر إلى السؤال بشعره، كقوله :

كتبـت إليكـمُ أشكـو سقـامًـا ... بـرى جسْمـى مـن الشَّـوْق الشـديـد

وفـى البلـد القـريـب عـدمـتُ صبرى ... فكيـفَ أكـونُ فـى البلـد البعيـد

نـوى بعـد الصـدود، وأىُّ شـىءٍ ... أمـرُّ مـن النـوى بعـد الصـدود

ومـدح أعيـان عصـره، وعـلـى رأسـهم صـلاح الدين وبعـض إخوتـه وقوّاده، وقـرّبه صلاح الـدين واصطفاه وأنقـذه من العـوز وذلّ السؤال، وكان عـرقلة قد لازمـه بدمشـق قبل دخلوه مصر، ويبدو أنه بشّره بفتحها، فوعده بأنه لو تحققت البشرى فسيبعث إليه ألف دينار فلما ملـك صلاح الديـن مصر ذكره الشـاعر بوعده فـأرسل إليه ألفـى دينار، ويقال إنـه حين تلقّاها قضى نحبه، ربما لأنه لم يصدق أنه تملك هذا المبلغ الكبير.

توفّرت فيه صفات النديـم لخفّة ظلّه وسرعة بديهته ونزوعه إلى الـدّعابة، ووصفه العماد الأصبهانى بـأنه كان ربعة مائلًا إلى القصـر، أعور، مطبوعًا، حلو المنادمـة، لطيف النادرة، معاشرا للأمراء، شاعرا مستطرف الهجاء .

وموضوعات شعره فى المديح والشكوى ووصف مشاهد الطبيعة فى دمشق وما حولها، والهجاء الذى لايخلو من العزل والطرافة والسخرية المُرَّة كقوله :

يقولون لمْ أرخَصْتَ شِعرك فى الورى فقلتُ لهم إذا مات أَهْلُ المكارمِ
أُجازَى على الشِّعْر الشَّعِيرَ وإنه كثيرٌ إذا استَخْلَصْتَهُ من بهائمِ

وشعره فصيح ، لاتشوبه عاميّة ، ولاتخالطه عُجمة ، كبعض شعر معاصريه ، يقول العماد : « قصائده قصار ، وفى النادر أن تزيد قصيدته على خمسة وعشرين بيتًا ، ومقطعته على عشرة أبيات ، وكلها نوادر ، وكلام مضحك » .

وكثر مطولاته فى المديح أما مقطعاته ففى الهجاء والواصف ، والملحوظ أنه لم يُحسن وصف الأعداء ، ولم يسقط تخليد ملاحمهم ، كما خلّد المتنبى ملاحم سيف الدولة مع الروم. ولكنه كان من الوصافين البارعين والمصوّرين البارعين ذو الشاعرية السامية حين يعرضون لما حولهم من مظاهر الطبيعة ، كقوله :

ونادبةٍ ناحتْ سُحَيْرًا بأيْكَةٍ فهيَّجت الوسْواسَ فى قلب نادبِ
تَنوحُ على غصْنٍ أنوحُ بمثِله وهل حاضِرٌ يبكى أسىً مثلُ غائِب

* * *

قال عرقلة يمدح الأمير مجير الدين أَبق بن محمد بن بورى بن طغتكين : (١)

عَــرِّج علــى نجــدٍ لعلَّــكَ منجــدى ... بنسيمِهــا ، وبــذكــر سُعْــدى ، مُسْعِــدى
بــدويــــةُ الأَلفــــاظ دونَ خِبــــائهــــا ... خيــــلٌ تــروح إِلـــى الطعــان وتغتــدى
قــد كــان يُغنــى لحظُهــا وقــوامُهــا ... عــن كــل خَطِّــىٍّ ، وكــلِّ مهنّــدِ (٢)
يــا سائلــى ، لِــم دمــعُ عينــى سائــلٌ ... هــاك الحــديثَ عن الغــزال الأَغيــدِ (٣)
مــن لــى بمعســول الثنــايــا عــذبهــا ... لَــدْنٍ كَخُــوطِ البــانــةِ المتــأوِّدِ (٤)
أبـــدًا هـــواه لـــى مقيـــمٌ مقعِـــدٌ ... روحـــى فــداه ، مـــن مُقيـــم مُقْعِـــدِ
ولقــد نَعِمــتُ بــوصلِــهِ فــى نَيــرَبٍ ... أَلِفَ الــربيعَ بروضِــهِ الغُصنُ النــدِى (٥)
أَزهـــاره مـــن جــوهــرٍ ، ونسيمـــه ... مــن عنبــرٍ ، وثمــارُهُ مــن عَسْجَــدِ (٦)
وعلــى الغصــونِ مــن الحمــائم قَيْنــةٌ ... تغنيــك عــن شــدوِ الغريــضِ ومَعْبَــدِ (٧)
والمــاءُ فــى بَــرَدى كــأَنَّ حَبَــابَــه ... بَــرَدٌ جَنَتَــهُ الــريــح غيــرُ مُجَمَّــدِ (٨)
بينــا تــراه كــالسجنجَــلِ ســاكنًــا ... حتـــى تــراه أَجعـــدًا كــالمِبــرَدِ (٩)
وكــأَنّمــا أَنفــاسُ رَيَّــاهُ ثنــا ... أَبــق الهمــامِ المــاجــدِ بن محمــدِ (١٠)
ملــك تشــرفــت المنــابــر بــاسمــه ... وعلمــت مناقبُــهُ فُوَيْــقَ الفَرْقَــدِ (١١)

---

(١) أمير تركى الأصل ، حكم دمشق قبل أن يملكها نور الدين محمود سنة ٥٦٤ هـ .
(٢) الخطىّ : الرمح – المهنّد : السيف .
(٣) الأغيد : المتمايل المتثنى فى نعومة .
(٤) خوط : غصن – البانة : ضرب من الشجر ، يشبّه بها الحِسان فى الطول واللين – المتأوّد : المتثّى المتعوّج .
(٥) نيرب : قرية مشهورة بدمشق فى وسط البساتين .
(٦) عسجد : ذهب .
(٧) قينة : مغنّية – الغريض ومعبار : مغنيان مشهوران عاشا فى العصر الأموى .
(٨) بردى : نهر دمشق الأعظم – البرد : ماء جامد ينزل من السحاب قطعا صغارا .
(٩) السجنجل : المرآة .
(١٠) أبق : هو الممدوح .
(١١) المناقب : المفاخر والفعال الكريمة – الفرقد : نجم ثابت الموقع يُهتدى به .

وعلى الأَسِرَّةِ من أَسِرَّةِ وجهه شمس تجلَّت من بروج الأَسعدِ
ما نُشِّرت راياتُهُ يوم الوَغَى إِلّا انطوى جيشُ العدوِّ المعتدى
من قَاتَل الأفرنجَ دِينًا غيرهُ والخليلُ مثلُ السَّيْلِ عند المشْهَدِ
ردَّ الأَمانَ بكل نَدْبٍ باسلٍ ومن الجيادِ بكل نهدٍ أَجْرَدِ
ومن السيوفِ بكل عضبٍ أَبيضٍ ومن العجاج بكل نقعٍ أَسوَدِ (١٢)
حتى لوى الإِسلام تحت لوائِهِ وغدا بحمدٍ من شريعةِ أَحمَدِ
طلقُ المحيّا واضِحٌ مُتَهلِّلٌ مثل الحُميَّا فى الحمى ، طلقُ اليَدِ
كَسَد القريض وكان قدمًا نافقًا فى ذا الزمان ، وعنده لم يكسَدِ (١٣)
أَمجيرَ دينِ اللهِ ، وابنَ جمالِهِ والسَّيدَ بنَ السيّدِ بنِ السَّيِّدِ
كم حاسِدٍ لك فى الشجاعةِ والندى والعلم ، لاقَرَّت عيونُ الحُسَّدِ
أَضحت دمشق بحسن وجهِكَ جنَّةً فيها الذى يَشْناكَ غيرُ مُخَلَّدِ
لازلت للإِسلام عَضْدًا ما سَرَتْ بعـ ـد الكرى شدنيَّةٌ فى فَدْفَدِ (١٤)

* * *

وقال يمدح الملك المعظم فخر الدولة ثوران شاه نجم الدين أيوب : (١٥)

دمشق حييتِ من حيٍّ ومن نادى وحبذا ، حبذا واديكِ من وادِ
ليس النَّدامى حين تنزله يعُلُّهم شادنٌ كأسًا على شادِ (١٦)

---

(١٢) الندب : السريع النجيب الماضى - النهد : القوى الضخم - الأجرد : القصير الشعر ، وذلك من علامات العتق والكرم - العضب : السيف الحادّ القاطع - النقع : الغبار الساطع .
(١٣) القريض : الشعر - نافق : رائج مرغوب فيه .
(١٤) الشدنيّة : الأبل المنسوبة إلى شَدَن وهو موضع باليمن -الفرقد : الأرض المستوية الواسعة لا شيء بها .
(١٥) توفى عام ٥٧٤ هـ ، وهو أخو صلاح الدين الأيوبى .
(١٦) الندامى : جمع النديم وهو المسامر المصاحب على الشراب - يعلّهم : يسقيهم السَّقْية الثانية أو تباعا .

حقـًـــا وللـــوُرق فـــى أوراقـــه طـــرب كـــأنّ فـــى كـــل عـــودٍ ألـــفَ عَـــوّادِ

يـــا غـــاديًـــا رائحًـــا عـــرِّج علـــى بـــردى وخلِّنـــى مـــن حـــديـــث الـــرائح الغـــادى

كـــم قـــد شَـــرِبـــتُ بـــه فـــى ظـــل داليـــةٍ مـــن مـــاءِ داليـــةٍ تنبيـــك عـــن عـــادِ (١٧)

فـــى جنـــب ســـاقيـــةٍ مـــن كـــف ســـاقيـــةٍ قـــامـــت تثنّـــى بقـــدٍّ غيـــر مُنـــآدِ (١٨)

سمـــراءُ كـــالصعـــدةِ السمـــراء واضحـــةٌ يَشفـــى لَمَـــى شفتيهـــا غُلَّـــةَ الصـــادى

لهـــا بعينـــى إذا مـــاســـت عـــواطفهـــا جمـــالُ « ميّاسـةٍ » فـــى عين « مِقْـــدادِ » (١٩)

وهـــل أَذمُّ زمـــانـــى فـــى محبتهـــا وأَهلُـــهُ عنـــد أَعـــدائى وحُسّـــادى

وقـــد غـــدوت بفخـــر الـــديـــن مفتخـــرًا علـــى البـــريّـــة مـــن حضـــر ومـــن بـــادى (٢٠)

ثـــوران شـــاه بـــن أيـــوب الـــذى شَـــرُفـــت بـــه دمشـــقُ علـــى مصـــرَ وبغـــدادِ

مـــن ابـــنُ مـــامَـــةَ والطـــائىُّ فـــى كَـــرَمٍ وشـــدَّةِ البـــاسِ ، عمـــروٌ وابـــن شـــدّادِ (٢١)

كـــالبـــدر إن غـــاب خَلَّـــتْ بعـــده ظُلَـــمٌ وإن أَلَـــمّ أتـــاك المـــؤنـــسُ الهـــادى

وهـــو الـــذى لـــم يـــزل فـــى كـــل منزلـــةٍ يسيـــر خلـــف العلـــى بـــالمـــاء والـــزادِ

مـــن معشـــرٍ لـــم تـــزل نيـــران حـــربهـــم مشبـــوبـــةً ، ذات إِبـــراقٍ وإرعـــادِ (٢٢)

تمضـــى مجـــالسهـــم غُـــرًّا محجَّلـــةً هـــزلَ ابـــن حجّـــاج فى جـــدِّ ابـــنِ عبـــادِ (٢٢)

* * *

(١٧) الدالية : الأرض تسقى بالدلو، والدالية أيضا بمعنى الدلو أو الناعورة يديرها الماء والحيوان (الساقية) .
(١٨) القدّ : القامة أو القوام – غير منآدِ : غير معوج .
(١٩) ميّاسة : اسم معشوقة المقداد بن الأسود الصحابى المعروف كما تروى القصة .
(٢٠) الحاضر : المقيم فى المدن والقرى – البادى : المقيم فى البادية .
(٢١) كعب بن مامة الإيادى وحاتم الطائى : كلاهما من أجواد العرب ، وعمرو بن معد يكرب وعنترة بن شداد كلاهما من الفرسان ذوى الإقدام .
(٢٢) غرّ محجّلة بمعنى مشهورة – والحسين بن حجاج شاعر عباسى وهو من شعراء يتمة الدهر ومن معاصرى المتنبى – والصاحب بن عباد من كتاب دولة بنى بويه وكان معاصرا وصديقا لأبى الفضل بن العميد .

وقال يمدح ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه : (٢٣)

أَمالى على الأَحبابِ يا سَعْدُ مُسعدُ ولامنجدٌ لمّا أغاروا وأنجدوا (٢٤)
عذرت العذارى فى صدودى ولم أقل خليليَّ لِم حظِّى من البيض أَسودُ
ولاعجبٌ للشيخ إن أَلِفَ القِلَى وقد كان هذا رسمُهُ وهو أَمردُ (٢٥)
وأَسمرُ كالخطِّىِّ لونًا ولينَةً يكاد يُحَلُّ الخَصْرُ منهُ ويُعقدُ
تقلَّد بالعضب الحُسامِ وما درى بأَنَّ دمى من قلبه يتقلّدُ
ووجنته واللحظ وردٌ ونرجسٌ وفى فمه خمرٌ ودُرٌّ منضَّدُ
وكم شاعرٍ أَودتْ ثعابينُ شعره إذا ما بدا منهنَّ سَبْطٌ وأَجعَدُ (٢٦)
سبانى كما يسبى الأَميرُ عُداتهُ فتى الملكِ المنصورِ والخيل تُرعَدُ
لناصر دين الله ، نصرٌ على العدى وعزم حكاهُ المَشرفىُّ المهنَّدُ (٢٧)
تجودُ السحابُ الغُرُّ قطرًا إذا همت وما جودُه إلّا لُجَيْنٌ وعسجَدُ (٢٨)
على بيت شِعرٍ ، بيتُ مالٍ عطاؤه إلى أن خلا منه طريفٌ ومُتلِدُ (٢٩)
هو البدرُ للسارى بكل تنوفةٍ إليه ، إذا ما طال ليلٌ وفدفَدُ (٣٠)
فصيحٌ إذا قال ابن عباس عبده ويبرد من عِىٍّ لديهِ المبرِّد (٣١)

(٢٣) هو ابن عم صلاح الدين الأيوبى .
(٢٤) أغاروا : أتوا الغور وهو كل منخفض من الأرض - أنجدوا : أتوا نجدا ، وهو ما ارتفع من الأرض وصلب .
(٢٥) القِلى : الهجر والإبغاض - الأمرد : الشاب الصغير .
(٢٦) أودتْ : هلكتْ - السبط : المنبسط المسترسل الطويل ، ونقيضه : الجَعْد بمعنى المجتمع المتقبّض القصير .
(٢٧) المشرفىّ : سيف يُجلب من المشارف وهى قُرًى باليمن .
(٢٨) القطر : المطر - اللجين : الفضّة .
(٢٩) الطريف : المستفاد من المال حديثا - المتلد : المال القديم .
(٣٠) السارى : الذى يقطع الليل بالسير - التنوفة : الأرض القفر التى لاماء بها .
(٣١) عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - حَبْر الأمة ، وأبو العباس المبرِّد عالم لغوى معروف ، مؤلف كتاب « الكامل » .

وملـــكٌ لـــه بحـــران ، عِلـــمٌ ونـــائلٌ　　يفيـض بـذا صـدرٌ، وتهمـى بـذا يـدُ (٣٢)

ونـــاران للحـــرب العـــوانِ وللقِـــرى　　غـــدت كــلُّ نـــارٍ منهمـــا تتـــوقـــدُ (٣٣)

هـو القَيْـلُ وابـنُ القَيْـلِ والمعشـر الألُـى　　إذا غـــاب منهـم سَيِّـدٌ قـــام سَيِّـدُ (٣٤)

غُيُـــوثٌ إذا جـــادوا ليـــوثٌ سَطَـــوا　　لهـــم نـــائلٌ جـــمٌّ ومجـــدٌ مُشَيَّـــدُ (٣٥)

أنـــاصِـــرَ ديـــن الله ، لازلـــت نـــاصـــرى　　علـــى زمـــنٍ فيـــه الأديـــب مُطهَّـــدُ (٣٦)

لَئِـــنْ جـــلَّ حَسَّـــانٌ بمـــدحِ محمـــدٍ　　فهـــا أنـــا حَسَّـــانٌ وأنـــت مُحمَّـــدُ (٣٧)

وإنّـــى لفـــى قـــومـــى كـــريـــمٌ مُسَـــوَّدٌ　　وكـــل عـــدوٌّلـــى لئيـــم مُسَـــوَّدُ

أَصِـــخ أيّهـــا المـــولَـــى إلـــىَّ ولاتَقُـــلْ　　مضـى ذلـــك الفضـــل الـــذى كـــان يُعْهَـدُ

فلـو كـــان هـــذا الشعـــر قِـــدمًـــا ، رواه فـــى　　أُميَّـــةَ حمـــادُ وغنّـــاه مَعْبَـــد (٣٨)

علـــى أنـــه مـــا زال فـــى كـــل بَلْـــدةٍ　　يُغَنَّـــى بـــه عنـــد الملـــوك ويُنْشَـــدُ

فـــلا مَلِـــكٌ يُـــرجـــى ســـواك ويُتَّقـــى　　ولا شـــاعـــر يُهـــوى ســـوايَ ويُحْمَـــدِ

* * *

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب :

إلامَ ألامُ فيـــــك وكـــــم أُعـــــادى　　وأمـــرض مـــن جفـــاك ولـــن أُعـــادا

لقـــد أَلِـــف الضنـــى والسُّقْـــمَ جسمـــى　　وعينـــــايَ المـــدامِـــعَ السهـــــادا

---

(٣٢) نائل : جُود وعطيّة - تهمِى : تسيل .
(٣٣) القرى : ما يقدّم إلى الضيف .
(٣٤) القيْل : الملك .
(٣٥) غيوث : جمع غيث ، وهو المطر - سطوا : بطشوا وقهروا .
(٣٦) كذا ، وفى المعاجم : ضَهَدَه واضطهده : ظلمه وقهره ، وأَضْهَد به : جار عليه .
(٣٧) هو حسان بن ثابت شاعر النبى ﷺ ، واسم عرقلة حسان أيضًا ، كما أن اسم الممدوح محمد .
(٣٨) هو حماد الراوية المعروف ، أما معبد فمن أشهر المغنين فى العصر الأموى .

وهـا أنـا قـد وهـى صبرى ، وشوقـى   إذا مـا قلّـتِ الأَشـواقُ ، زادا (٣٩)
بقلبـى ذاتَ خلخـالٍ وقُلْـبٍ   تملَّـكَ فَـوْدُهـا منـى الفـؤادا (٤٠)
مهفهفـة كـأنَّ قضيـبَ بـانٍ   تثنّـى فـى غـلائلهـا ومـادا (٤١)
بـوجـهٍ لـم يـزدْ إلّا بيـاضًـا   وشعـرٍ لـم يـزد إلا سـوادا
تعجـب عـاذلـى مـن حَـرِّ حُبـى   ومـن بـرد السّلُـوِّ وقـد تمـادى
ولا عجـبٌ إذا مـا آبَ حَـرٌّ   بـآبَ ، ومـن جمـاد فـى جُمـادى
وقـد أنسـانـىَ الشيـبُ الغـوانـى   فـلا سُعْـدى أُريـدُ ولا سُعـادا
وهـل أَخشـى مـن الأَنـواء بخـلًا   إذا مـا يـوسـفُ بـالمـال جـادا (٤٢)
فتـى للـديـن لـم يَبـرَحْ صـلاحًـا   ولـلأَمـوال لـم يبـرح فسـادا
هـو المعـروف بـالمعـروف حقًّـا   جـوادٌ لـم يَهَـبْ إلا الجـوادا
بـه الأَشعـارُ قـد عـاشـت نَفَـاقًـا   وعنـد سـواه قـد مـاتـت كسـادا (٤٣)
يحـب الخمسـة الأَشبـاحَ دينًـا   ومـا يهـوى يـزيـدًا أو زيـادا (٤٤)
لَئِـنْ أَعطـاه نـور الـديـن حِصنًـا   فـإنَّ اللهَ أَعطـاه البـلادا (٤٥)

* * *

(٣٩) وَهي : ضعف .
(٤٠) القُلْب : سوار المرأة يكون نظمًا واحدا – الفود : جانب الرأس مما يلى الأذن .
(٤١) مهفهة : ضامرة البطن دقيقة الخصر – الغلائل : الثياب الرقيقة تلبس تحت الدُّثر – ماد : تمايل وتبختر .
(٤٢) الأنواء : جمع النوء وهو المطر الشديد .
(٤٣) النَّفَاق : الرواج ، ضدّ الكساد .
(٤٤) الخمسة « عند الشيعة » هم : محمد – عليه الصلاة والسلام – وعلى وفاطمة والحسن والحسين – يزيد هو ابن معاوية – وزياد هو ابن أبيه أو ابن أبى سفيان والى العراق .
(٤٥) يعنى نور الدين زنكى .

وقال أيضًا :

يــا راكــب البَكــر بيــن الشيــحِ والغــارِ
أجــارَكَ الله مــن جَــوْرٍ ومــن عــارِ[٤٦]

عَــرِّجْ علــى الحــىِّ مــن كلــبٍ ونــادِ بــهِ
يــا لَلجُــلاحِ ، أُصيحــابــى وأنصــارى[٤٧]

لاأوحــش الشــامَ مــن تصهــال خيلِكــمُ
ولاأبــاعِــرَكــم مِــن دمنــةِ الــدارِ[٤٨]

إلامَ تغفــل عــن ثــأرِ ابــنِ عَمِّكُــمُ
فِعــلَ الحــواضــر لايُــزْجَــوْنَ للثــارِ

لقــد غــزتــه عيــونُ الغُــرِّ غــائرةً
فهــل بَصُــرتُــمْ بمقتــول بــأبْصــارِ

أغصــانِ بــانَ إذا هــبَّ النسيــم بهــا
تــرنحــت بيــن كثبــان وأقمــار[٤٩]

مــن كــل أَشنَــب أَلْمَــى فــى مــراشِفِــهِ
مــاءُ العُــذَيــبِ علــى صهبــاءِ خمّــارِ[٥٠]

يغيثــك فــى كــل حــربٍ قــوسُ حــاجبــه
عــن قــوس حــاجــب فــى أيام ذى قــار[٥١]

* * *

---

(٤٦) البكر : الفتىّ من الإبل - الشيح : نبت له رائحة طيبة قوية ترعاه الماشية - الغار : شجر بَرىّ دائم الخضرة يصلح للتزيين - أجارك : حماك وأنقذك - جور : ظلم .

(٤٧) الجلاح : بطن من كلب ، وإليه ينتسب الشاعر .

(٤٨) التصهال : صوت الخيل - الأباعر : الإبل ، مفرده : بعير - الدمنة : آثار الدار والناس .

(٤٩) كثبان : جمع كثيب وهو الرمل المستطيل المحدودب .

(٥٠) الأشنب : الثغر الذى رقّت أسنانه وابيضت - المراشف مواضع الرشف وهو المصّ بالشفتين - العذيب : ماء معروف لبنى تميم - صهباء : خمر .

(٥١) هو حاجب بن زرارة وحكاية قوسه معروفة ، وذو قار يوم من أيام الحروب بين العرب والفرس فى الجاهلية .

وقال أيضًا :

مـــا فتّـــح النَّـــوْرُ إلّا أشــــرق النَّـــورُ ... فمـــا اشتغـــالُـــك ، والمنثـــور منثـــور (٥٢)

وللـــربيـــع ربـــوعٌ كلَّـــا ضحكـــت ... بكـــى علـــى نشـــواتِ الخمـــر مخمـــور

أَمـــا دمشـــقُ فجنـــاتٌ معجلـــةٌ ... للطـــالبيـــن ، بهـــا الـــولـــدانُ والحـــور

مـــا صـــاح فيهـــا علـــى أوتـــاره قَمَـــرٌ ... إلّا وغنّـــاه قُمـــريٌّ وشحـــرور (٥٣)

يـــا حبـــذا ودروعُ المـــاءِ تنسُجُهـــا ... أنـــامـــلُ الـــريـــحِ لـــولا أنهـــا زور

ويـح اللـــوائِم فـــى لـــونِ اللَّمَـــى حســـدًا ... حتـــى متـــى أنـــا محســـودٌ ومهجـــور

هـــم عـــارضـــونـــى علـــى حبـــى لعـــارضِـــهِ ... ومـــن أَحـــبَّ عِـــذارًا فهـــو معـــذور (٥٤)

* * *

وقال فى الربيع ووصف دمشق :

هـــذا هـــو الـــزمـــن البـــديـــع المُـــونِـــقُ ... والعيشـــة الـــرَّغْـــدُ التـــى هـــى تُعشـــقُ

فعـــلامَ تصحـــو والحمـــام كـــأنَّهـــا ... سكـــرى تغنّـــى تـــارةً وتصفِّـــقُ

وتلـــومُ فـــى حُـــبِّ الـــدِّيـــار جَهـــالـــةً ... هيهـــات يلـــوهـــا فـــؤادٌ شيِّـــق

والشـــامُ شـــامـــةُ وجنـــةِ الـــدنيـــا كمـــا ... إنســـانُ مقلتِهـــا الغضيضـــةِ جِلَّـــقُ (٥٥)

مـــن آسِهـــا لـــك جنّـــةٌ لا تنقضـــى ... ومـــن الشقيـــق جهنَّـــمُ لا تَحـــرِقُ (٥٦)

---

(٥٢) النَّوْر - بفتح النون : الزهر الأبيض .

(٥٣) القُمرى : ضرب من الحمام مطوّق حسن الصوت - الشحرور : طائر غرِّيد .

(٥٤) العارض : جانب الوجه أو صفحة الخدّ - العذار : جانب اللِّحية .

(٥٥) الشامة : علامة فى البدن يخالف لونها لون سائره - الوجنة : ما ارتفع من الخدّين - الغضيضة : المسترخية الأجفان - جلَّق : اسم دمشق .

(٥٦) الآس : شجر عطرىّ - الشقيق : نبت أحمر .

سِيمَـا وقـد رقـم الـربيـع ربـوعهـا وشيًـا بـه حدق البـرايـا تَحـدِقُ (٥٧)
فـى نيـربٍ ضحكـت ثغـور أقـاحِـه لمـا بكـاه العـارض المتـألّـقُ (٥٨)

* * *

وقال أيضًا :

بـروق الغـوادى أم بـروق المبـاسـم أشـاقـكَ وهنًـا ، أم هـديـل الحمـائِمِ (٥٩)
كـأنّ بـك الـوجدَ الـذى بـى مـن الأسـى وقـد عيـل صبـرى بيـن واشٍ ولائِمِ
تـؤرّقُ ورُقُ الغـوطتيـن لـواحظـى ويُنحـلِ جسمى حـب غـزلان جاسِـم (٦٠)
أأحبـابنـا إن كنتـم قـد عـزمتُـمُ على البعـد عـن أطـلالكم والمعـالِمِ
فـلا تـرسلـوا بـرقًـا إلـى غيـر سـاهـرٍ ولا تبعثـوا طيفًـا إلـى غيـر نـائِمِ
أعـاذل فيمـن لسـت أسلـو أذابنـى فلو شئتُ من سُقمـى تمنطقت خاتمى (٦١)
ذَرِ العَـذْلَ فـى تسكـاب طَـرْفـى ، لطَـرفِـهِ ولا تـدخُلَـنْ مـا بيـن سـاجٍ وسـاجِـمِ (٦٢)

* * *

وقال أيضًا :

دعِ استمـاعـكَ ذكـرى ديـرِ سمعـانِ فمـا أمـرَّ النـوى عـن ديـر مُـرّانِ (٦٣)
فيـه شمـامسـة مثـل الشمـوسِ إذا جـاءوك بيـن أنـاجيـلٍ وصُلبـانِ (٦٤)

---

(٥٧) سِيَما : بالتخفيف ، والتشديد على الياء ، وبإضافة لا أو حذفها - رَقَمه : نقشه ووشاه وطرّزه - الوشـى : نقش الثوب أو الثياب الموشية : الحَدَق : جمع الحَدَقة وهى السود المستدير وسط العين - تحدِق : تنظر .
(٥٨) نيرب : قرية - العارض : السحاب المطلّ .
(٥٩) الغوادى : السحب .
(٦٠) الغوطتـان : مواضع كثيرة المياه والشجر والبساتين حـول دمشق - جاسـم : قريـة فى حوران ، وفيهـا ولد الشاعر أبو تمام .
(٦١) شدّ وسطه بالمنطقة .
(٦٢) ساجى : ساكن - ساجم : سائل .
(٦٣) دير سمعان : بنواحى دمشق فى موضع نزه وبساتين محـدقة به وعنده قصور - دير مرّان : يقع إلى الغرب من حلب ، وفى معجم البلدان أنه كان بنواحى دمشق .
(٦٤) الشمامسة : من يقومون بالخدمة على الكنيسة ومرتبته دون مرتبة القسيس ، واحده : الشمّاس .

وكـل قَــسٍّ كقُــسٍّ إنْ تحــدّث عــن ... عيسى ابـن مريم أو مـوسى بـن عمرانِ [٦٥]
وفـى الشعــانين مــن أولاد جفنَــة لــى ... ظبــىٌ ينــاشـدنــى أشعــار حســان [٦٦]
للهِ ليلـــةَ بتنـــا وهــــو ثـــالثنــا ... مـــن مسلـــمٍ ويهـــوديٍّ ونصـــرانـــى
وراحنـــا مـــن ثـــلاثٍ أبيـــضٍ يَقَــقٍ ... وأصفــرٍ فـاقــعٍ أو أحمــرٍ قـانــى [٦٧]
وقـــال هيّـا فقـــد لاح الصبـاحُ وقــد ... طــاب الصَّبــوحُ علــى روْحٍ وريحـــانِ
مــا بيـن سطــرا ومقــرا جنَّــةٌ سـرحـت ... أنهـــارهـا فــى ظــلال الآسِ والبــانِ [٦٨]
يظــل منثــورهـــا الـــروض مُنتشــرًا ... كـــأنمــا صيــغ مـــن درٍّ ومـــرجـــانِ
والطيــر تُنشـدُ فــى أغصــانها سَحَــرًا : ... هــــذا هـــو العيـــش إلّا أنـــه فـــانِ

* * *

وقال أيضًا :

نـــاولنـــى مـــن أُحـــب نـــرجســـةً ... أحســـن فـــى نـــاظـــرى مـــن الـــوردِ
كـــأنمــــا بِيضُهـــا مـــرصعـــةً ... مـــن ثغـــره ، والصَّفـــار مـــن خَـــدِّى

---

(٦٥) القَسّ :رئيس فى الدين من رؤساء النصارى - وقُسّ بن ساعدة الإيادى هو الخطيب الشهير .
(٦٦) الشعانين : عيد من أعياد النصارى يحتفل فيه بذكرى دخول السيد المسيح بيت المقـــدس - وحسان ابن ثابت : الشاعر المعروف .
(٦٧) يقق : شديد البياض ناصعه .
(٦٨) سطرا ومقرا : قريتان فى غوطة دمشق .

عمارة اليمنى

(٥١٥ - ٥٦٩ هـ / ١١٢١ - ١١٧٤ م)

هو أبو حمزة عمارة بن على بن زيدان ، ولد بوادى وساع بتهامة باليمن ، من أسرة ذات مكانة وسيادة واهتمام بالعلم والثقافة ، وقد وصف عمارة موطنه بقوله إن به المولد والمربى ، وأهله بقية العرب فى تهامة ، « لأنهم لا يساكنهم حضرىّ ، ولا يناكحونه، ولا يجيزون شهادته ، ولذلك سلمت لغتهم من الفساد » ، واهتم والداه بتثقيفه ، فأرسلاه إلى زبيد ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وعن ذلك يقول : « وفى سنة إحدى وثلاثين دفعت لى والدتى مصوغاتها بألف دينار ، ودفع لى أبى أربعمائة دينار وسبعين ، وذهبتُ بالمال إلى زبيد » ، ونصحه والداه بألا يرجع إليهما حتى يأخذ حظه من العلم ، قائلين له : « قد احتسبناك عند الله ، وصبرنا عنك » ، فظل أربع سنوات يدرس الفقه الشافعى والأدب ، واتصل بحكام زبيد وعَدَن ووزرائهم .

وذهب إلى حج بيت الله الحرام سنة ٥٤٩ ، فالتقى بأمير مكة الذى أعجب بعلمه وأدبه وحمّله رسالة إلى الخليفة الفاطمى بالقاهرة ، فوصل إليها سنة ٥٥٠ ، وعن ذلك يقول : « فقدمنا إلى الدولة المصرية ، والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك ، ولما أحضرت للسلام عليهما فى قاعة الذهب بقصر الخليفة أنشدتهما قصيدة ، أولها :

الحمدُ للعيسِ بعد العزمِ والهمم ... حمدًا يقومُ بما أولتْ من النِّعم

وأعجب طلائع وأمراء الدولة وموظفوها الكبار بهذه القصيدة فتهادوه وأغدقوا عليه ، ورجع إلى مكة ، ثم زبيد ، وعاد إلى الحج سنة ٥٥١ فأرسله أمير مكة برسالة ثانية إلى مصر ، ولما قدم إليها استوطنها حتى آخر حياته . وكان طلائع بن رزيك قد دعاه إلى مجالسه بقصره بالفسطاط ، وفيها من الأدباء أمثال : المهذّب بن الزبير ، والقاضى الرشيد ، وابن الخلال ، والقاضى الجليس بن الحباب ، وصار عمارة شاعرا من شعراء البلاط تجرى عليه الرواتب

وتفاض عليه الأرزاق ، وقد جرت بينه وبين بعض الشعراء كـابن الزبير مهاجاة كان ابن رزيك يغرى بها بعضهـم ، مع كره عمارة للهجاء ورغبته فـى حفظ ما عهد به والده إليـه من العزوف عن الإيذاء والشتم .

وقد سجل فى شعره بعض الأحداث التى مرّت بها مصر فى أثناء حكم ابن رزيك ، منها غارة الصليبيين بقيادة بلدوين صاحب بيت المقدس على حدود مصر الشرقية ودخوله سيناء واقترابه من الشرقية ، وقيام الكتائب المصرية المنتصرة بصدّ المغيرين بالشام .

وتوفـى ابن رزيك سنـة ٥٥٦ ، فرثاه رثاء دل علـى شدّة تعلقه بـه ، ثم تعاقـب الوزراء ، وقـويت صلتـه بالـوزيريـن شاور وضرغـام ، وحينما سقطـت دولة الفـاطميين وتمـت الغلبة لصلاح الدين الأيوبى على مصر ، كان لهذا أثره المـؤلم فى نفسه ، فلم يتقبل تولّى الأيوبيين السلطة وتملكهـم قصور الفـاطميين ، وحـاول أن يقنع نفسه بـالوضـع الجديـد ، وأن يمدح صلاح الدين وأسرته ، ولكن حب الفاطميين كان قد ملك عليه نفسه ، فنظم الشعر فى انتقاد الدولة الجديدة ، والتـأسف على الدولة التى عاش فى ظلها ونعـم بقرب خلفائها ووزرائها ، ومن ذلك قصيدة ، مطلعها :

أيـا أُذُنَ الأَيـّـام إنْ قلْـتُ فـاسْمَعـى لنَفْثَـةِ مَصْـدورٍ ، وأَنَّـة مُـوجَـعِ

وأخرى ، أوّلها :

رَمَيْـتَ يـا دهـرُ كـفَّ المجدِ بـالشَّلَـل وجِيـدُه بَعْـد حُسْـن الحَلْـى بـالعَطَـلِ

وقد اتُّهم عمارة بالتآمر لإعادة ملك الفاطميين والاستعانة فى ذلك بالصليبيين ، فانتهت حياته بمقتله هو وشركائه المتآمرين .

ومن مـؤلفاتـه المطبوعـة : أخبار اليمـن ، ومختصر المفيـد فى أخبـار صنعاء وزبيـد ، والنكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

* * *

قال عمارة اليمنى يمدح الفائز الفاطمى وأنشدها إياه فى قاعة الذهب :

الحمدُ للعيس بعدَ العَزْم والهِمم — حَمدًا يقُومُ بما أوْلَتْ من النِّعَمِ
لا أجحدُ الحقَّ عندى للركاب يدٌ — تَمنَّتْ اللُّجْمُ فيها رُتْبَةَ الخُطُمَ
قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزارِ العِزِّ من نَظَرِى — حتى رأيتُ إمامَ العَصْرِ من أَمَمِ (١)
ورُحْنَ من كعْبةِ البطحاءِ والحَرمِ — وفْدًا إلى كَعْبةِ المعروفِ والكرمِ
فهَلْ درَى البَيْتُ أنِّى بعدَ فرقَتِهِ — ما سِرْتُ من حرمٍ إلَّا إلى حَرَمِ
حيث الخلافَةُ مضروبٌ سرادِقُها — بينَ النقيضينِ من عَفْوٍ ومن نِقَمِ
وللإمامَةِ أنوارٌ مقدَّسةٌ — تجْلُو البغيضيْنِ من ظُلْمٍ ومنْ ظلَمِ
وللنُّبوَّةِ آياتٌ تُنَصُّ لَنا — على الخفيّيْنِ من حُكْمٍ ومن حِكَمِ
وللمكارم أعلامٌ تُعَلِّمنا — مَدْح الجزيلينَ من بأْسٍ ومن كرمِ
وللعُلا ألسُن تُثنِى محامدِها — على الحميدين من فعلٍ ومن شِيَمِ
ورايةُ الشرف البذَّاخ ترفعها — يدُ الرفيعين من مجدٍ ومن هِمَمِ
أقسمتُ بالفائزِ المعصوم مُعْتقدًا — فوزَ النَّجاةِ وأجرَ البِرِّ فى القَسَمِ
لقد حمَى الدين والدنيا وأهْلَهما — وزيرُه الصَّالحُ الفَرَّاجُ للغُمَمِ
اللَّابسُ الفخرَ لم تَمْسحَ غلائِلَهُ — إلَّا يدُ الصَّنيعينِ السَّيفِ والقلمِ
وجودُه أوجَدَ الأيامَ ما اقترحَتْ — وجودُه أعدَم الشاكينَ للعَدَمِ
قد مَلّكتْهُ العوالى رِقَّ مملكةٍ — تُعيرُ أنْفَ الثَّريَّا عِزَّة الشَّمَمِ (٢)
أَرَى مقامًا عظيمَ الشَّأْنِ أوهَمنِى — فى يَقْظَتِى أنَّها من جُمْلَةِ الحُلُمِ

(١) العيس : الإبل البيضاء مع شقرة يسيرة – الركاب : الإبل المركوبة – اللجُم : جمع لجام وما يتصل بها سيور وغيرها فى فم الفرس – الخُطمُ : جمع خطام وهو ما يوضع من حبال على أنف الجمل ليقاد به – من أمم : من قرب .
(٢) العوالى : جمع العالية ، وهى النصف الذى يلى السنان من الرمح – الشَّمم : السيادة والترفع والأنَفَة .

يومٌ من العُمْرِ لم يخْطِرْ على أَمَلى ... ولا ترقَّتْ إليه رغبةُ الهِمَمِ
ليْتَ الكواكِبَ تدْنُو لى فأنْظِمها ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرْضَى لكم كلِمى
تَرى الوزارة فيه وهْى باذِلَةٌ ... عند الخلافَةِ نُصْحًا غيرَ مُتَّهمِ
عواطِفُ علَّمَتنا أن بينهما ... قِرابةً من جَميلِ الرَّأيِ لا الرَّحِمِ
خُليفةٌ ووزيرٌ مَدَّ عدلُهُما ... ظِلًّا على مَفْرِقِ الإسْلامِ والأممِ
زيَادَةُ النيل نَقْصٌ عند فيضهما ... فما عسى يتعاطى مِنَّة الدِّيَمِ (٣)

* * *

وقال مفتخرًا ومادحًا :

ونهجِ سَعَتْ فيه إليكَ مدائحٌ ... فبَرَّزَتْ إذ خَافَتْ وخابَتْ سُعَاتُه
بَذَلْتُ به الدُّرَّ المصُونَ لأرْوَعٍ ... يُصَدِّقُ دَعْوى المادحين عُفَاتُه (٤)
تجنّبتُ مطروقَ الكلام وهذهِ ... سُلافةُ ما أنْشاتُه وابتداتُه (٥)
ولم أرَ مثلَ الشعرِ ترجو بغاثُهُ ... مُطارًا بجوٍّ قد حَمتْهُ بُزاتُهُ (٦)
توهَّمَ قومٌ أنه الوزنُ وحدهُ ... وقد غابَ عنهمْ سِرُّهُ وسَرَاتُه
كذلك لونُ الماءِ فى العين واحِدٌ ... وما يتساوَى مِلحُهُ وفُراتُهُ (٧)
متى رُمْتُ منه رقَّةً وجَزالةً ... فإنّ كلامِى ماؤهُ وصِفاتُه
وغير بهيم الخطِّ شعرٌ أقولُهُ ... وأوْصافكم أوضاحُهُ وشياتُه (٨)

* * *

(٣) الدِّيم : الأمطار يطول زمانها فى سكون .
(٤) الأروع : الذكى الفؤاد أو المعجب بحسنه وشجاعته - العفاة : طالبو المعروف .
(٥) الكلام المطروق الذى خاض فيه الناس وعرضوا له - السلافة من كل شىء : خالصه .
(٦) البغاث : طائر ضعيف الطيران - البزاة : نوع من الصقور الصغيرة .
(٧) المِلْح : الماء غير العذب - الفرات : الماء الشديد العذوبة .
(٨) أوضاح :جمع وَضَح وهو البياض - الشِّيات جمع شية ، وهى العلامة أو السواد فى بياض أو البياض فى سواد.

وقال فى الهرمين :

خليلَــىَّ مــا تحــتَ السَّمــاءِ بَنِيَّــةٌ ... تُمــاثِلُ فــى إتقــانِهــا هرَمَــىْ مِصْــرِ
بنَــاءٌ يخَــافُ الــدَّهْــرُ منــه وكــلُّ مــا ... على ظَـاهِـرِ الـدُّنيـا يخـافُ مـن الـدَّهـرِ
تَنَــزَّة طَــرْفــى فــى بــديــع بنــائه ... ولــم يتَنــزَّهْ فــى المــرادِ بهــا فِكْــرِى

* * *

وقال ينتصر للفاطميين ويَرُدَّ على الشاعر ابن أبى عيينة الذى ذمَّ الفاطميين فى مــدحــة له بين يدى نجم الـدين أيوب والد صلاح الدين الذى أسكنه قصر اللـؤلؤة من قصور الخلفاء الفاطميين :

أثِمْتَ يــامــن هجـا السَّــاداتِ والْخلَفَـا ... وقُلْــتَ مــا قُلْتَــه فــى سَلْبِهــمْ سخفــا
جَعَلْتَهــمْ صَــدَفًــا حلُّــوا بلُــؤْلــؤةٍ ... والعُـرْف مـا زال سكنـى اللـؤلـؤ الصَّـدفـا
وإنمــا هـــى دارٌ كحَــلَّ جــوهــرهُــمْ ... فيهــا وشَـفَّ فــأسنــاهــا الــذى وَصفــا
فقـــالَ لــؤلـــؤةٌ عجَبًــا ببهجتِهـــا ... وكــونهــا حَــوَتِ الأشــراف والشــرفــا
فهْــى بسّكـــانِهــا الآيـــاتُ إذ سكنـــوا ... فيهـا ومـن قبلها قـد أسْكِنُـوا الصّحُفَـا (٩)
والجــوهــرُ الفــردُ نــورٌ ليــس يعــرفــهُ ... مـــن البــريَّـــةِ إلَّا كــلُّ مـــن عــرَفــا
لـــولا تجسُّمُـــهُ فيهـــمْ لكـــان علـــى ... ضعــفِ البصــائر لـــلأبْصــار مختطفَــا
فــالكلْــبُ يــاكلــبُ أسنَــى منــك معــرفــةً ... لأن فيـــه حِفـــاظًـــا دائمًـــا ووَفَـــا

* * *

(٩) يشير إلى ذكرهم فى القرآن الكريم ، وهم آل البيت .

وكان ابن أبى عيينة يمدح الفاطميين ، فلما زالت دولتهم انقلب عليهم وأنشد صاحب الدولة الأيوبية وذمّ الفاطميين بالأبيات التى يذكر فيها قصر اللؤلؤة ويقول فيها :

يا مالِكَ الأرضِ لا أرضَى له طَرَفا ... منها وما كان فيه لم يُكنْ طرفا

قد عجَّل الله هذى الدارَ تسكُنُها ... وقد أعدَّ لكَ الجنَّاتِ والغُرفا

تشرَّفت بك عمَّن كان يَسْكُنها ... فالبسْ بها العزَّ، ولتلبَسْ بك الشرفا

كانوا بها صدفًا والنَّارُ لؤلؤةٌ ... وأنتَ لؤلؤةٌ صارتْ لها صَدَفا

* * *

وقال يمدح الصالح وولده وأخاه فارس المسلمين :

أَبيضُ مُجرَّدةٌ أم عيونْ ... تُسَلُّ وأَجفانُهنّ الجفون

عجبتُ لها قُضُبا باتره (١٠)

تصول بها المُقَلُ الفاتره

فتغدو لأَرواحنا واتره

ظباءٌ فتكن بأُسْد العرينْ ... وغائرة خرجتْ من كمينْ

إذا ما هززن رماحَ القدودْ

حَمَيْنَ النفوسَ لذيذَ الورودْ

حياضَ اللَّمَى ورياضَ الخدودْ

(١٠) الجفن هو غطاء العين أو غمد السيف، وجمعه : أجفان وجُفون - قضب باترة : سيوف قاطعة .

فــــلا تُطمِعنّــــك تلــــك الغصـــونْ فـــإنّ كثيـــب نَقــاهـــا مَصـــونْ

وفيهـــنّ فتـــانــــةٌ لـــم تـــزلْ
أَوامــــــرُ مقلتهـــا تُمتثَـــــلْ
ومـن أجـل سلطـانهـا فـى المُقَـلْ

تقـــول لهـــا أَعيُـــنُ النـــاظـــريـــنْ إذا مــا رنـــتْ مــا الــذى تــأمـــريـــنْ

منعَّمــــــةٌ رِدفُهـــا مُخْصِـــــبُ
ومـا اْهتــزَّ مـن خصـرهـا مُجـدِبُ
مقسَّمـــــةٌ كلُّهـــــا يُعْجِـــــبُ

فجسْـــمٌ جـــرى فيـــه مـــاءٌ مَعيـــنْ وقلـــبٌ غـــدا صخـــرةٌ لاتَليـــنْ (١١)

وقال يمدح فارس المسلمين :

يُــلاحَ بــى عــادِلْ	فــى أَحْـوَرِ خــاذِلْ	حَلْـــوِ الشِّيَــــمْ
فـــى وصلـــه وابــلْ	لــروضَــى الــذابـلْ	لا فـــى الـــدِّيَـــمْ
قـــد حيَّـــر الأذهـــانْ	فكلُّهـــا وَلْهـــانْ	يشكـــو الصَّـــدَى
للحُسْـن والإحســانْ	فـــى وجهــه عُنْـوانْ	إذا بَـــــــــدَا
وجـوهــرُ الأَلحــانْ	أَصـــدافُـــه الأذانْ	إذا شَـــــــــدَا
مـن لحظه الخــاتـلْ	ولفظِـــه القـــاتـــلْ	ذقـــتُ الأَلَـــمْ (١٢)
والسحـرُ مـن بــابـلْ	فـى جفنـه الــذابـلْ	أصـــلُ السَّقَـــمْ

---

(١١) ماء مَعين : ظاهر تراه العين يجرى على وجه الأرض .
(١٢) الخاتل : المراوغ ، الخادع عن غفلة .

ومنها :

يـا مُطرِب الأفهـامْ ومُتعِـب الأجسـامْ كـم تَعنـفْ

والظُّلْـمُ والإظـلامْ بفـارس الإسـلام لا يُعْـرَفْ

قـد هـذب الأيّـامْ فـالدهـرُ والأحكـامْ لا يَجنِـفْ (١٣)

* * *

وكتـب إلى السلطـان الملك النـاصر صـلاح الـدين هـذه القصيدة - ولـم ينشدهـا - وترجمها بـ : « شكاية المتظلّم ونكاية المتألّم » :

أيـا أُذُنَ الأَيـام إنْ قلْـتُ فـاسْمعِـى لنَفْثـهِ مَصْـدُور ، وأنّـهِ مـوجَـع

وعَـى كـلَّ صـوتٍ تسمعيـنَ نـداءَهُ فـلا خيـرَ فـى أُذْنٍ تنـادَى فـلا تِعـى

تقـاصـربـى خَطْـوُ الـزمـان وبـاعُـهُ فقصَّـر مـن ذَرْعِـى وقصَّـر أذرُعـى (١٤)

وأخـرجنـى مـن مـوضـعٍ كنـتُ أهلَـهُ وأنـزلنـى بـالجـور فـى غيـر مَـوْضِـعِ

بسيـف ابـنِ مهـدىٍّ وأبنـاءِ فـاتـكٍ أقـضَّ مـن الأوطـان جنبـى ومضجعـى

فَيمَّمـتُ مصـرًا أطلبُ الجـاهَ والغنـى فنلتهمـا فـى ظـلِّ عيـشٍ مُمَنَّـعِ

وزرتُ ملـوكَ النّيـل أرتـادُ نَيلَهـم فـأحمـدَ مُـرتـدى وأخصـبَ مـربعـى (١٥)

وفـزتُ بـألـفٍ مـن عطيـةِ فـائزٍ مـواهبُـه للصنـع لا للتصنُّـعِ (١٦)

وكـم طـرقتنـى مـن يـدٍ عـاضِـديَّـةٍ سَـرَتْ بيـن يقظَى من عيـونٍ وهُجَّـعِ (١٧)

---

(١٣) لا يجنف : لا يميل ولا يجور.

(١٤) الباع : مسافة ما بين الكفّين إذا انبسطت الذراعان يمينا وشمالًا - ذرعى : طاقتى ووسعى .

(١٥) أحْمَدَ : صار محمودًا - المرتاد بمعنى المطلب ، يقال ارتاد لأهله منزلًا وغيره أى تلمّسه لهم - أخصب : كثر فيه العشب والكلأ - المربع : الموضع يقام فيه زمن الربيع .

(١٦) فائز : يقصد به الخليفة الفاطمى الفائز بن الظافر.

(١٧) عاضديّة : نسبة إلى العاضد الفاطمىّ .

وجاد ابنُ رُزِّيكٍ مِنَ الجاه والغنى ... بما زاد عن عَزْمَىْ رجائى ومطمعى [18]
وأوحى إلى سمعى ودائعَ شعره ... فخبّرتُه منى بأكرم مُودَعِ
وليست أيادى شاوَرٍ بذميمةٍ ... ولا عهدُها عندى بعهدِ مُضَيَّعِ [19]
ملوكٌ رعَوْا لى حُرْمةً صار نبتُها ... هشيمًا رعتْه النائباتُ وما رُعى
ورُدَّتْ بهم شمسُ العطايا لوفدِهمْ ... كما قال قومٌ فى علىٍّ ويُوشعِ
مذاهبهم فى الجود مذهبُ سُنَّةٍ ... وإنْ خالفونى فى اعتقادِ التشيُّعِ
فقُلْ لصلاحِ الدينِ ، والعدلُ شأنُهُ ... مَن الحاكم المُصغى إلىَّ فأدَّعى ؟
سكتُّ فقالتْ ناطقاتُ ضرورتى : ... إذا حَلقاتُ البابِ غُلِّقْن فأقرعِ
فأذْلَلْتُ إدلالَ المحبِّ وقلتُ ما ... أتانى بعفوِ الطبعِ لا بالتطبُّعِ
وعندى من الآداب ما لو شرحتُهُ ... تيقَّنتَ أنى قدوةُ ابنِ المقفَّعِ [20]
أقمتُ لكم ضيفًا ثلاثةَ أشهرٍ ... أقول لصدرى كلّما ضاق : وسِّعِ
أُعَلِّلُ غلمانى وخيلى ونِسْوتى ... بما ضقتُ من ذَرْعٍ ضعيفٍ مُرَقَّعِ [21]
ونُوّابكم للوفد فى كلِّ بلدةٍ ... تفرِّقُ شمْلَ السائل المتورِّعِ
وكم فى ضيوف البابِ ممَّن لسانُه ... إذا قطعوه لا يقوم بإصبعِ
مشارعُ من نعمائكم زرتُها وقد ... تكدَّر بالإسكندريةِ مشرعى [22]
فيا راعىَ الإسلام كيف تركتَنا ... فريقى ضَياعٍ من عَرايا وجُوَّعِ ؟
دعوناكَ من قربٍ وبُعدٍ فهب لنا ... جوابَك فالبارى يجيبُ إذا دُعى

---

(١٨) ابن رزّيك : يقصد الملك الصالح طلائع الوزير .
(١٩) شاور : وزير مصر فى عهد العاضد .
(٢٠) ابن المقفّع : اسمه عبد الله ، الكاتب العباسى البليغ (ت ١٤٢ هـ) .
(٢١) أعلّل : أشغل وألهى .
(٢٢) مشارع : موارد مياه .

إلــى الله أشكــو مــن ليــالــى ضــرورةٍ ... رجعنــا بهــا نحــو الجنــابِ المُــرَجَّــعِ

قنعنــا ولــم نسـألــك صبـرًا وعفَّــةً ... إلــى أن عَـــدِمْنــا بُلغــةَ المتقنِّــع [٢٣]

ولمَّــا أغـصَّ الــريـقُ مجـرى حلـوقنــا ... أتينـــاك نشكـــو غُصَّـــة المتجـــرِّعِ

ألـــم تَــرْعَنـــى للشـــافعـــىِّ فـإنَّـــهُ ... أجـــلُّ شفيـــعٍ عنـــد أعلـــى مُشَفَّـــعِ

ونصـرى لـه فـى حيـثُ لا أنـت نـاصـرى ... بضــربِ صقيـلاتَ ولا طعــن شُــرَّعِ [٢٤]

ليـــالـــىَ لا وقـــتُ العـــراقِ بسَجْسَـــجٍ ... بمصــرَ ولا ريـــحُ الشـــآمِ بــزَعْــزعِ [٢٥]

كــأنّـى بهــا مــن آل فــرعـونَ مــؤمــنٌ ... أُصَـارعُ عـن دينـى وإن خــاب مصـرعـى

أمــن حسنـــات الـــدَّهــرِ أم سَيئــاتــهِ ... رِضَــاكِ عــن الـــدُّنيـا بمــا فعَلـتْ معِـى

ملكْــتَ عِنــانَ النَّصــرِ ثــمَّ خــذلتَنِـى ... وحــالــيِ بمْـرأى مــن عُــلاكَ ومسْمَــعِ

فمــا لَـكَ لــم تُـوسِـعْ علـىَّ وتلْتَفِـتْ ... إلـــىَّ الثقـــاتَ المنِعــم المتَـــبَــــرِّعِ

فـــإمَّـــا لأنّــــى لسَـــتُ دُونَ مَعــاشـــرٍ ... فتَحْــتَ لُهــمْ بــابَ العَطــاءِ المــوسَّــعِ

وإِمَّـــا لمـــا أوضَحْتُـــه مـــن زُعَـــازعٍ ... عَصَفْـنَ علــى دينـى ولـم أتــزعْـزعِ [٢٦]

وردَّى ألـــوف المـــالِ لـــم ألتفــت لهــا ... بعَيْنـــى ولـــم أخْفـــلْ ولـــم أتطلَّـــعِ

وإمَّـــا لفــنٍّ واحـــدٍ مـــن معـــارفـــى ... هـــو النَّظـــمُ ، إلاّ أنـــه نَظْـــمُ مُبْـــدعِ

فـــإنْ سُمْتَنِـى نظـامًــا ظِفِــرتَ بمفلــقٍ ... وإنْ سُمتنـــى نثـرًا ظفِـرتَ بمصْقــعِ [٢٧]

طبــاعٌ وفــى المطبــوع مــن خطــراتــه ... غنًّــى مــن أفَــانيــنِ الكــلام المصَنَّــعِ

ســألتـكَ فــى دَيــنٍ لبــالَيــك سُقْنَــهُ ... وألـــزمتنيـــهِ كـــارهًـــا غيـــرَ طيِّـــعِ

(٢٣) البلغة : ما يكفى لسد الحاجة – المتقنّع : الذى يتكلّف القناعة .
(٢٤) صقيلات : سيوف مجلوّة – شُرَّع : رماح مسدّدة .
(٢٥) سجسج : معتدل ، لا حرّ فيه ولا برد – زعْزع : ريح شديدة .
(٢٦) الزعازع : الرياح الشديدة ، وزعازع الدهر : شدائده .
(٢٧) المفلق : المجيد الذى يأتى فى شعره بالمعجب – المصقع : الخطيب البليغ المتفنّن .

وهـاجـرتُ أرجـو منـك إطلاقَ راتـبٍ   تقـرَّر مـن أزمان كِسْـرى وتُـبَّـع (٢٨)
وليتَـك فيمـنْ أطلـق الشـرْق مطلعـى   لتعلـمَ نَبْعـى إن عجمـتَ وخـروعـى (٢٩)
ومـا أنـا إلّا قـائمُ السيـف لـم يُعَـنْ   بكـفٌ ، ودُرٌّ لـم يجِـدْ مَـنْ يُـرَصِّـع (٣٠)
ويـاقـوتـةٍ فـى سِلْـكِ عِقـدٍ مُـدارةٍ   علـى خـرازتٍ مـن عقيـقٍ مجـزَّعَ
وكـم مـاتَ نضنـاضُ اللسـانِ مـن الظمـا   وكـم شَـرِقتْ بـالمـاءِ أشـداقُ ألكـعَ (٣١)
فيـاواصـل الأرزاقِ كيـفَ تـركتنِـى   أمُـدُّ إلـى نيـل المنـى كـفَّ أقطـع (٣٢)
أعيـذُكَ أنـى كُلَّمـا عطَـسَ امْـرؤ   بـذى شَمَـمٍ أقنَـى عطشـتُ بـأجـدَع (٣٣)
ظـلامـةٌ مصـدوع الفـؤاد فهـل لهـا   سبيـلٌ إلـى جبـر الفـؤاد المُصَـدَّعِ ؟
وأقسمـتُ لـو قـالـت لياليـك للـدجـى :   أعِـذْ غـاربَ الجـوزاء قـال لهـا : أطلُعـى
غـدا الأمـرُ فـى إيصـال رزقـى وقطعـه   بحكمـك فـابـذلْ كيفمـا شئـتَ واصنـعِ
كـذلـك أقـدارُ الـرجـال وإن غـدتْ   بـأمـرِكَ فـاحفـظ كيـفَ شئـتَ وضيِّـعِ
فيـا زارعَ الإحسـان فـى كـلِّ تـربـةٍ   ظفـرتَ بـأرضٍ تُنبـت الشكـر فـأزرعِ
فعنـدى إذا مـا العُـرْفُ ضـاع غـريبُـه   ثنـاءٌ كعَـرفِ المسكـةِ المتضـوِّعِ (٣٤)
وقـد صـدرتْ فـى طـىِّ ذا النظـم رقعـةٌ   عـدا طمعـى فيهـا إلـى غيـرِ مطمـعِ

---

(٢٨) كسرى : اسم ملك الفرس – تُبَّع : لقب أعاظم ملوك اليمن .
(٢٩) النبع : شجر ينبت فى قلة الجبل تتخذ منه السِّهام والقِسِىّ – الخروع : كلّ نبت ضعيف يتثنّى .
(٣٠) الياقوتة : مفرد ياقوت ، وهو حجر صلب من الأحجار الكريمة – العقيق : حجر أحمر كريم .
(٣١) نضناض : مُصَوِّت يتحرّك – الأشداق : جمع الشدق ، وهو جانب الفم مما تحت الخدّ – ألْكع : لئيم .
(٣٢) أقْطع : مقطوع اليد .
(٣٣) الشمم : ارتفـاع قصبة الأنـف فى استـواء – الأقنى : الأنـف الذى ارتفـع وسط قصبتـه وضاق منخـراه – الأجدع : الذى قطع أنفه أو طرف من أطرافه .
(٣٤) العُرف – بضمّ العين : المعروف ، وبالفتح : الرائحة الطيبة – المِسكة : القطعة من المسك ، وهو الطيِّب المعروف – المتضوِّع : الذى اشتدّ انتشار رائحته .

أريــدُ بهــا إطــلاقَ دَيْنــى وراتبــى / فــأَطِلقهمـا ، والأمـرُ منـك فـوقِّـعِ (٣٥)
فبينــى وبيــن الجــاه والعــزِّ والغنــى / وقــائع أخشــاهــا إذا لــم تــوقِّــعِ
ومـــا هــى إلّامــدَّةٌ تستمــدّهــا / وقـد فُجِّـتِ الأرزاقُ مـن كـلِّ منبـعِ
إلـى هـاهنـا أُنهـى حـديثى وأنتهـى / ومـا شئـتَ فـى حقِّى مـن الخير فـاْصنعِ
فـإنـــك أهــلُ الجـودِ والبــرِّ والتُّقــى / ووضـعِ الأيـادى البيـضِ فى كـلِّ مَـوْضـعِ

* * *

وعلّق الصَّفَدِى على هذه القصيدة بقوله :« قلتُ : الذى أظنُّه وتقضى به ألمعيَّتى أنَّ هذه القصيدة كانت أحدَ أسباب شنقه – والله أعلمُ – لأنَّ الملوك لايخاطَبون بمثل هذا الخطاب ، ولا يواجَهون بهـذه الألفاظ وهـذا الإذلال الذى يـؤدِّى إلى الإذلال . وأظـنُّ أن هـذه القصيدة مـا أجْدَتْ شيئًا ، فمال عمارة حينئذٍ وانحرف » .

رَمَيْـتَ يــا دَهْـرُ كـفَّ المجـدِ بـالشَّلَـلِ / وجيـده بعـد حُسْـنِ الحَلْـى بـالعطَـلِ (٣٦)
سَعَيْـتَ فـى منهـج الـرَّأيِ العَثُـورِ فـإن / قـدَرْتَ مـن عَثَـراتِ الدَّهـرِ فـاستقِـلِ (٣٧)
جـدَعْـتَ مَـارِنَـك الأقْنَـى ، فـأنفَـكَ لا / يُنفَـكُّ بيـن أمْـرِ الشَّيْـنِ والخجَـلِ (٣٨)
هـدَمْـتَ قـاعـدة المعـروف عــن عَجَـلِ / سُقيـتَ مُهْلًا ، أمـا تمشِـى على مَهَـلِ (٣٩)
لهفـى ولهـف بنـى الآمــالِ قــاطبـةً / علـــى فجيعتِهـــا فــى أكــرم الـــدُّوَلِ
قــدِمْــتُ مصـر فـأولانــى خــلائفهــا / مــن المكــارم مــا أرْبــى علــى أمَلِــى
قـوْم عـرفَـتْ بهـم كسْـبَ الألـوفِ ومـنْ / كمــالهـــا أنهـا جـاءَتْ ولـمْ أسَــلِ

---

(٣٥) وقِّع أى اكتب تـوقيعك ، والتوقيع هو العبارة التى يعلِّق بها الرئيس عـلـى مـا يعـرض عليه مكتوبـا ليدلى برأيـه فيه .
(٣٦) العَطَل : الخلوّمن الحَلْى .
(٣٧) استقال : طلب الإقالة أى الصفح والتجاوزعن العثرة .
(٣٨) المارن : الأنف أوما لان منه – الشين : العيب والقبح .
(٣٩) المُهل : المعدن المذاب أو القطران .

وكنتُ من وزراءِ الدَّسْتِ حين سَمَا ... رأسُ الحِصَانِ بهاديهِ على الكفلِ [٤٠]

ونِلْتُ من عظماءِ الجيشِ تكرِمةً ... وخُلّةً حُرِسَتْ من عارِضِ الخَلَلِ

يا عاذِلِي في هوَى أبناءِ فاطمةٍ ... لكَ الملامَةَ إنْ قصَّرتَ في عَذَلي

باللهِ زرْ ساحةَ القصرينِ وابكِ معي ... عليهما ، لاعلى صِفّينَ والجمَلِ [٤١]

وقلْ لأهليهما : واللهِ ما التحمتْ ... فيكمْ جُرُوحي ، ولاقَرحي بمُنْدمِلِ

ماذا تُرى كانت الإفرنجُ فاعلةً ... في نسلِ آلِ أميرِ المؤمنينَ عَلِي ؟

هل كانَ في الأمرِ شيءٌ غير قسمةِ ما ... ملكتُمو بيْنَ حُكمِ السَّبْي والنَّفَلِ [٤٢]

وقد حَصُلتُمْ عليها واسم جدِّكمُ ... مُحمَّدٌ ، وأبوكم خيرُ مُنْتَعِلِ

مَررتُ بالقصْرِ ، والأركانُ خاليةٌ ... من الوفودِ ، وكانت قبلَةَ القِبَلِ

فملتُ عنها بوجهِ ، خوفَ منتقدٍ ... من الأعادِي ، ووجهُ الوُدِّ لم يَمِلِ

أسبلتُ من أسَفٍ دمعِي غداةَ خلَتْ ... رِحَابكُمْ ، وغدتْ مهجُورةَ السُّبُلِ

أبكي على مأثُراتٍ من مكارِمكمْ ... جالَ الزَّمانَ عليها وهي لم تَحُلِ [٤٣]

دارُ الضيافةِ كانتْ أنْسَ وافِدْكمْ ... واليومَ أوحشُ من رسْمٍ ومن طَلَلِ

وفطرةَ الصَّوم إن أصْغتْ مكارِمكمْ ... تشكُو من الدَّهرِ ضيفًا غير محتمَلِ

وكَسْوَةَ النَّاسِ في الفصلين قد دَرَسَتْ ... ورثَ منها جديدٌ بعدهُمْ وبَلي

وموسمٌ كان في يوم الخليج لكَمْ ... يَأتي تَجمُّلُكمْ فيه على الجَمَلِ

---

(٤٠) الدَّسْت : منصب الوزارة أو صدر المجلس - هادى الحصان : عنقه - الكفل : العَجُز.

(٤١) صِفّين : موضع كانت به وقعة بين عليّ ومعاوية رضى الله عنهما - الجمل : موقعة انتصر فيها عليّ ابن أبى طالب على المعارضين لبيعته .

(٤٢) النَّفَل : الغنيمة أو الهبة .

(٤٣) لم تَحُل : لم تتغير.

وأولَ العـــام والعِيـــدين كـــم لكُـــمْ فيهـنَّ من وَبْـلِ جُـودٍ ليسَ بالـوشَـلِ (٤٤)
والأرضُ تهتَـــزُّ فـــى يـومِ الغَـــديـــر كمــا يهْتـزُّ مـا بيـن قصْـرَيْكِـمْ مـن الأسَـلِ (٤٥)
والخيـــلَ تُعْـرَضُ فـــى وشـــيٍ وفـى شِيَـــةٍ مثـلَ العَـرائِسِ فـى حَلّـى وفـى حُلَـلِ
ومَـا حملتُـــمْ قـرى الأضيـافِ مـــن سعـةٍ الأطبـــاق إلّا علـــى الأكتـــاف والعَجـــلِ
ومـــا خَصَصْتُـــمْ ببـــرٍّ أهــــلَ مِلّتكَـــمْ حتَّـى عَممتُـــمْ بـه الأقصــى مـن المِلَـلِ
كـــانـتْ رواتبُكُـــمْ للـوافـدينَ وللضَّيْـــ ــفِ المقيـــمِ ، واللطّـارى مـــن الـرُّسُـــلِ
ثُـــمَّ الطِّـــرازُ بتنِّيـــسَ الـــذى عَظُمَـــتْ منـه الصِّـلاتُ لأهْـلِ الأرضِ والـدُّولِ (٤٦)
وللجـــوامِـــعِ مـــن إحْبـــاسِكَـــمْ نِعَـــمٌ لمـنْ تصـــدَّرَ فـى عِلْـمٍ وفـــى عَمَـلِ (٤٧)
وربمَّـــا عَـــادتِ الـــدنيـــا فمعقِلُهـــا منكُمْ ، وأضحـت بكمْ محلَولَـةَ العُقَلِ (٤٨)
والله لا فـــاز يـــوم الحشـــرِ مبغضُكـــمْ ولا نجـا مـــن عَـــذابِ النَّـــارُ غيـــرُ وَلِـــى
ولا سُقِـــى المـــاءَ مـن حـــرٍّ ومـــن ظمـــإٍ مـن كـفِّ خيـرِ البـرايـا خـاتـم الـرُّسُـلِ
ولا رأى جنَّـــــةَ الله التـــــى خُلِقَـــــتْ مـن خان عهـدَ الإمـامِ العـاضِدِ بـن علِـى
أئمتَّـــى وهُـــدَاتِـــى ، والـــذخيـــرة لِـــى إذا ارتَهَنْـــتُ بمـــا قـــدَّمـتُ مـــن عمَـــلِ
تـــا الله لـم أُوَفِهِّــمْ فـــى المـدْحِ حقّهـمُ لأنّ فضلَهُـــم كـــالـــوابِـــلِ الهَطِـــلِ
ولـــو تضـــاعفـتِ الأقـــوالُ واستبقـــتْ مـــا كنـــتُ فيهـمْ بحَمْـــدِ الله بـــالخَجِـــلِ

---

(٤٤) وبْل : مطر شديد - الوشل : الماء القليل لا يتّصل قَطْرُه .
(٤٥) يوم الغدير : اتخذه الشيعة منذ أوائل العصر الفاطمى عيدًا لهم ، ويوافق الثامن عشر من ذى الحجّة ، وهو غدير خُمّ : موضع بين مكة والمدينة - الأسل : الرماح .
(٤٦) الطراز : ما ينسج من الثياب للسلطان أو الموضع تنسج فيه الثياب الجيّدة - تنّيس : مدينة قريبة من دمياط تنسب إليها الثياب الفاخرة .
(٤٧) الإحباس : هو وقف الأشياء وقفًا محرّمـا ، لا تورّث ولا تباع ولا توهب وإنمـا تسبّل ثمراتها فـى سبيل الخير تقرّبًا إلى الله .
(٤٨) العُقلة : ما يُعقل به كالقيد أو العقال .

ومن شعر عمارة أيضًا :

أيُّهـا النـاسُ ، والخطـابُ إلـى مَـن ... هـو مِـن حيـث فضلُـه إنسـانُ
هـذه خطبـة إلـى غيـر شخـصٍ ... نَظَمَـتْ نثـر عقـدهـا الأوزانُ
لـم أخصِّـص بهـا فـلانًا لأنّـى ... فـى زمـانٍ مـا فـى بنيـه فـلانُ
مَـنْ يكـنْ عنـدهُ مَـزِيَّـةُ فهـمٍ ... فليكـن سـامعًـا فعنـدى لسـانُ
لـم يميِّـز بيـنَ البـريَّـةِ إلّا ... حسنـاتٌ يَـزِينهـا الإحسـانُ
والخطـايـا مستـورةٌ بـالعطـايـا ... كـم جميـلٍ بـه المَسـاوى تصـانُ
لايَغُـرَّنَّكُـمْ زيـادةُ حـالٍ ... فـالـزيـاداتُ بعـدهـا نقصـانُ
وإذا الـدوحُ لـم يُظِـلَّ مـن الشمـ ... ـسِ فـلا أورقـتْ لـه أغصـانُ
وأحـقُّ الأنـام بـالـذَّمِّ جيـلٌ ... بيـن أبنـائه كـريـمٌ بهـانُ
طُـرُق الجـودِ غيـرُ مـا نحـن فيـه ... قـد سمعنا الـدعوى فـأين البيـانُ ؟
أصبـح الجـودُ قصـةً عنـد قـومٍ ... مستحيـلٌ فـى حقِّهـا الإمكـانُ
وعَـدِمْنـا نشـرًا يـدلُّ عليـه ... إنّمـا النـارُ حيـثُ نـمَّ الـدخـانُ[٤٩]
كـذَّبـونـى بـواحـدٍ يهـب الألـ ... ـف وأنَّـى مـن السَّمـاع العِيـانُ ؟

* * *

وقال أيضا على لسان بعض من حصل فى اعتقال السلطان :

هـذى منـاجـاةُ عبـد رقّ حـاسـدُهُ ... مـن البـلاء الـذى أمسـى يكـابـدُهُ
لايَطـرق النـومُ أَجفـانـا لمقلتـه ... ومقلةُ المـوت مـن قُـرْبٍ تـراصـدُهُ[٥٠]

---

(٤٩) نمّ : انتشرت رائحته .
(٥٠) تراصده : تراقبه .

ومنها :

أمّـا الـرجـاء فقـد جهّـزتُ مـركبـه وَفْـدًا إلـى مَلِـك مـا خـاب وافـدُهُ
الكـاملُ ابـن أبى الفتـح الذى اعتصمت بـه الخـلافـةُ لمّـا غـاب والـدُهُ
حـاشـا كمـالِـك مـن نقـص تقـدمُّـه والبـدرُ يُعـرَف بعـد النقـص زائدُهُ
فَتّـِشْ تَجِـدْ لـى نظيـرا فـى الـذيـنَ هفَـوا ومـا نظيـرك ممّـن أنـت واجـدُهُ
ومـا أُقيـمُ لنفسـى حُسْـنَ معـذرة أنـا المُسِـىءُ الـذى ضلّـتْ مَقاصـدُهُ
بَعُـدتُ عنكـم وكـانـت زلّـةٌ وخطـا فـأغفـرْ وذلـك ذنـبٌ لا أعـاودُهُ
إنّـى شَقِيـت وهـل مـن فضـلِ عـاطفـةٍ علـىّ تُسعِـد جَـدى أو تسـاعـدُهُ
لستُ الجليـدَ علـى مـا قـد بُليـتُ بـه فأرحـمْ فلو كنـتَ صخرا ذاب جـامدُهُ(٥١)
إنّ ابـن سبعيـن قـد أشفـى علـى طَـرَفٍ مـن المنيّـة واختلّـت قـواعـدُهُ

وقال أيضا :

هـم الأَحبّـةُ إن جـاروا وإن عـدلُـوا والملكـون لقلبـى كيـف مـا فعلُـوا
فلْيَعلمـوا أنّ وُدّى مـا يغيّـره تغيُّـرٌ مـن سجـايـاهـم ولا مَلَـلُ
وليَقبِـض اللـومَ عـن قلبـى تبسُّطُـه فقـد طَـوَيْـتُ بسـاطًـا مَـدَّه العـذلُ
أُجِلُّهـم أن يـزور العيـبُ سـاحتهـم وأن أقـول لهـم يـا قـاطعيـن صِلُـوا
فكلَّمـا لاح ضُـوءُ البـرق قلـت لـه أَقصِـرْ فقلبـى ببـرق النَّيْـل مشتغِـلُ(٥٢)
فمـا أُلامُ علـى شـىء سـوى كَلَفـى بحـبّ مـن ليس فـى الـدنيـا لـه بَـدَلُ

---
(٥١) الجليد : القوىّ الصابر.
(٥٢) أقصرْ : كُفّ .

أَحبّــةٌ لهـــمُ فـــى القلـــب منـــزلـــة | أَضحـت وفِرْدَوْسُ أَخـلاقـى لها نُـزُلُ (٥٣)
يقـوم بــالعُــذْر عنّـى فــى محبّتهـم | عُــذْرٌ يقــدِّســه التشبيــبُ والغَــزَلُ

* * *

وقال من قصيدة :

يــا دهــرُ قــد أَكثـرتَ فــى التلـويــنِ | فــإلى متــى بمَطــالبـى تلـوينِـى (٥٤)
أَتظنّنــى أَرْضَــى بمــا مَــلأَ الثَـرَى | نَــوْءُ الثُّــرَيَّــا دُونَ مــا يُــرضينِــى (٥٥)
حَلِّـقْ يُخــافِقْنى مُنــاىَ إلــى السُّهَــى | فــالــدُّونُ لا يَــرضــاه غيــرُ الــدُّونِ
سَـلْ بــى ولستَ بجــاهـل فنـوائبُ الــ | أَيّــام أَدريهــا كمــا تَــدرينِــى
مــن لــى بطــالعـة السعـود وقـد غــدا | قطــعُ الفــراق مُــلازِمــى وقــرينِــى
خَــذَلَ النصيـرُ علــى الـزمــان وصَـرْفِـه | وجفــا مُعينــى حيـن جـفّ مَعينِــى (٥٦)
حسبــى إذا خــذل الـزمــانُ واهلُــه | عــونــا علــى الــدنيــا بنجـم الــديــن
كــم قلــتُ أُصْبِــى فكـرَه بغــرائبـى | فسمعــتُ منــه غــرائبًــا تُصْبينِــى (٥٧)
مَلِــكٌ إذا قــابلــتُ بِشْــرَ جبينــه | فـــارقتُـــه والبِشْــرُ فــوق جَبينِــى
وإذا لثمــتُ يمينــه وخــرجــتُ مــن | أبــوابــه لثـم الــرجــالُ يمينِــى
وإذا نظمــتُ لــه النجــومَ فــإنّمــا | أَجْـزِى علــى المفــروضِ بــالمسنـونِ
أَمّـا الــوعــود فقــد أتــانــى وصلُهــا | وأُريــد وصــلَ نَجـازهــا يــأتينِــى

* * *

(٥٣) نُزل : منزل .
(٥٤) التلوين بمعنى التغيّر والتحوّل - تلوينى أى تماطلنى وتتأخرعنى .
(٥٥) الثرى : الأرض - النوء : النجم إذا مال للغروب - الثّريّا : مجموعة من النجوم فى صورة الثور .
(٥٦) مُعينى - بضم الميم : مساعدى ، وبالفتح : الماء الظاهر على وجه الأرض .
(٥٧) أُصبى : أستميل .

وقال وكتب بها إلى تقيّ الدين :

قــــد كـــــان حُبِّـــــىَ مَحضًـــــا ... فـــــردًا لسِـــتِّ الأغـــانِـــى (٥٨)
فـــــزاحمتْهـــــا أُخَيْـــــرَى ... مـــــن الحســـان الغـــوانِـــى
تقسَّـــــمَ الحُـــــبُّ منّـــــى ... مـــــا بيـــن حـــادٍ وثـــانِ
جمعـــتُ عشـــريـــن ظَبْيـــا ... فـــى قبضتـــى وبنـــانِـــى
وســـوف أَمْـــلأُ بيتـــى ... مـــن الـــوجـــوه الحســـانِ
مـــن كُـــلّ ذات قـــوام ... مجـــدولـــةٍ كـــالعِنـــانِ (٥٩)
لا بـــالطـــوال العـــوالـــى ... ولا القصـــار السمـــانِ
يَسلبـــن جِيـــدا ولحظـــا ... مـــن الظِّبـــاء الـــرَّوانِـــى
يمشيـــن مَشْـــىَ حمـــام ... مقيَّـــدِ الخطـــوعـــانِ
فهـــذه بـــدرُ تِـــمِّ ... وهـــذه غصـــنُ بـــانِ (٦٠)

* * *

(٥٨) محض : خالص .
(٥٩) مجدولة : حسنة الخَلْق - العنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابّة .
(٦٠) بدر تِمّ أو تمام : أى ليلة أربع عشرة من الشهر القمرىّ حين يستوى القمر ويصير بدرًا .

محمد بن غالب الرصافى

(ت ٥٧٢ هـ / ١١٧٧ م)

كنيته أبو عبد الله ، ولد فى رصافة بلنسية ، المعروفة بأنهارها الجارية وبساتينها الغنّاء ومناظرها الساحرة وطبيعتها الجميلة ، رحلت أسرته - وهو طفل صغير - إلى مالقة ، وكان أبوه يتعيّش بصناعة الرَّفْو.

ومما يدل على شاعريته المبكرة أنه شارك فى مديح عبد المؤمن أمير الموحدين حين قدم لزيارة الأندلس سنة ٥٥٦ ، ولم يكن الرصافى قد تجاوز عشرين عاما ، ولكنه لم يلق ما كان يتوقَّعه من التقدير والمكافأة اللائقة .

سكن غرناطة مدة ، وزار مكناسة والمسيلة فى المغرب ، ثم عاد إلى مالقة ، وقد آلى على نفسه ألّا يمدح أحدًا أو يتملّق حاكمًا ، أو يبتذل نفسه فى خدمة ، راضيًا بعمله فى صناعة رفو الملابس ، منصرفًا فى شعره إلى وصف الطبيعة ومجالس اللهو ، وقد توفى وهو فى نحو السادسة والثلاثين من عمره .

وصفه القدماء بجودة الشعر والركانة وطول الصمت ، فقالوا بأنه « كان فحلًا من فحول الشعراء ، ورئيسًا فى الأدباء ، عفيفًا ساكنًا وقورًا ذا سمت وعقل » ، و « كان رقيق الغزل ، سلس الطبع ، بارع التشبيهات ، بديع الاستعارات ، نبيل المقاصد والأغراض ، كاتبا بليغا ديّنا متفقّها عالى الهمّة ، حسن الخُلُق والخَلْق والسمت ، تام العقل ... وشعره لا نهاية فوقه رونقًا ومائيّة وحلاوة وطلاوة ، ورقّة ديباجة ، وتمكن ألفاظ ، وتأصّل معنى » .

ومن نماذج نثره قوله من مقامة يصف القلم :

قصيرُ الأنابيب لكنّه ... يطولُ مضاءَ طِوال الرماحِ
إذا عَبَّ للنِّقْس فى دامس ... ودَبّ من الطِّرْس فوق الصِّفاح
تجلَّتْ به مشكلاتُ الأمورِ ... ولانَ له الصعبُ بعد الجِماح

فـلولاه لغـدت أَغْصـان الاكتساب ذاويـة ، وبيوتُ الأمـوال خـاوية ، وأسـرعت إليهـا البُوسى ، وأصبحت كفؤاد أمّ موسى ، فهو لا مَحالـة تَجْرها الأَرْبح ، ومِيزانها الأرجح ، به تدرّ ألبـانها ، وتثمـر أفنانهـا ، ويستمرّ إِفضـالها و إحسـانها ، فهـو رأسُ مالهـا ، وقُطب عمّـالها وأعمالها ، وصاحب القلـم قد حَوى المملكة بأسْرها ، وتحكّم فى طَيّهـا ونَشْرها ، فهو قُطب مَدارها ، وجُهَيْنة أخبارهـا ، وسِرّ اختيارها واختبارها ، ومَظهر مجدها وفخـارها ، يَعْقد الرّيات لكّ وال ، ويَمْنحهـم من المبـرَّة كلّ صافيـة المَقِيل ضـافية السِّربـال ، يُطفئ جَمـرة الحرب العَوان ، ويكـابد العدوّ بـلا صارم ولا سِنان ، يقـدّ المفاصل ، ويتحلّـل الأَباطح والمعـاقل ، ويقمع الحواسد والعواذل .

* * *

خرج محمد بن غالب صغيرا من وطنه ، فأكثر الحنين إليه ، وقصر معظم منظومه عليه ، قال فى التشوّق إلى بلنْسية :

خليلىَّ ما للبِيد قد عَبِقَتْ نَشْرا | وما لرءوس الرَّكْب قد رُنِّحَتْ سُكْرا [1]
هل المسك مفتوتًا بمدْرَجة الصَّبا | أم القومُ أَجْرَوا من بَلَنْسيَةٍ ذِكْرا [2]
خليلىَّ عُوجا بى قليلًا فإنّه | حديثٌ كبَرْد الماءِ فى الكبِد الحَرَّى
قفا غيرَ مأموريْن ولْتَصْدَيا بها | على ثقةٍ للمُزْن ، فاسْتَسْقيا القَطْرا [3]
بجِسْرِ مَعَانٍ والرُّصافةِ إنّه | على القَطْرِ أن يَسْقى الرُّصافة والجِسْرا
بلادى التى ريشَتْ قُوَيْدمتى بها | فُرَيْخًا وآوتْنى قرارتُها وَكْرا [4]
فبادِى أنيقِ العيْشِ فى رَيِّق الصِّبا | أَبَى اللهُ أن أَنْسى اغْتِرارى بها غِرّا [5]
أكلَّ مكانٍ راح فى الأرض مَسْقطًا | لرأسِ الفتى يَهْواه ما عاش مُضْطَرّا
ولامِثْل مَدْحُوٍّ مِن المسْكِ تربةً | تُمَلِّى الصَّبا فيه رَحيقتَها عِطرا [6]
نباتٌ كأنّ الخدَّ يَحْمِل نَوْرَه | تَخالُ لُجَيْنًا فى أعاليه أو تِبْرا
وماءٍ كتَرْصيع المجرَّة جَلَّلَتْ | نواحيَه الأزهارُ فاشتبكتْ زُهْرا
أنيقٍ كرَيَّانِ الحياةِ التى حَلَتْ | طليقٍ كرَيْعانِ الشَّباب الذى مَرّا
وقالوا : هلِ الفِرْدَوْسُ ما قد وَصَفْتَه ؟ | فقلتُ : وما الفردوسُ فى الجنّة الأُخرى

---

(١) البيد : الفلوات ، جمع بيداء - عبقت : ظهرت رائحتها الطيبة - رُنِّحَت : رنّحها الشارب فتمايلت .
(٢) مفتوت وفتيت بمعنى دقاق ، وفتّه أى دقّه أوكسره .
(٣) تصدى : يشتد عطشها .
(٤) ريشت : أى قويت ونبت ريشها - القويدمة : تصغير القادمة وهى إحدى الريشات فى مقدم الجناح - الفريخ : تصغير الفرخ ، وهو ولد الطائر .
(٥) ريّق : أوّل .
(٦) مدحوّ : مبسوط موسّع - تملّى : تُمهل وتطوّل .

بَلَنْسِيَـــةٌ تلـــك الـــزُمُـــرُّدَة التـــى | تَسِيـلُ عليهــا كـلُّ لُــؤلــؤةٍ نَهْـرا (٧)
كـــأنّ عَـــروسًـــا أَبْـــدَعَ اللهُ حُسْنهـــا | فصَيَّـــر مـــن شَرْخ الشَّبــابِ لهــا عُمْــرا
تُــزاحِـم أنفــاسُ الـريــاح بـزَهْـرهــا | نجـومًــا فــلا شيطــانَ يَقْــرَبُهــا ذُعْــرا
تُــؤَبَّـــد فيهـــا شَعْشَعـــانِيَّـــة الضُّحـــى | إذا ضــاحَـك الشمسُ البحيرةَ والنَّهـرا (٨)
وإنْ كــانَ قــد مَــدَّتْ يــدُ البيْــن بينَنــا | مِـن الأرض مـا يهـوى المجِــدّ بـه شهـرا
هـى الــدُّرَّة البيضــاءُ مــن حيثُ جِئْتَهــا | أضـــاءتْ ومـن للـــدُّرِّ أنْ يُشبـه الـــدّرا (٩)
خليلـــيَّ إنْ أصـــدرْ إليهـــا فـــإنّهـــا | هى الـوطنُ المحبوبُ أو كلتـه الصدرا (١٠)
ولـم أَطْــوِ عنهـا الخطْـو هَجْـرًا لهـا إذَنْ | فـــلا لَثَمَــتْ نَعْلــى مَســاكنَهـا الخُضْـــرا
ولكـــنَّ إجــلالًا لتُـــرْبتِهــا التـــى | تَضُـــمّ فتــاهـا النَّـــدْبَ أوكَهْلَهـــا الحُــرا
أكـــارمُ عـــاث الـــدهـرُ مـــاشـــاءَ فيهــمُ | فبـادتْ لياليهـم فهلْ اشتكـى الدَّهـرا (١١)
هُجـوعٌ ببطْـنِ الأرْض قــد ضَـرَبَ الـرَّدَى | عليهـم قُبَيْبــاتٍ فُـوَيْـقَ الثَّـرَى غُبْـرا (١٢)
معـــاهـــدُ قـــد ولَّـت إذا مـــا اعتبـــرتَهـــا | وَجَـدْتَ الـذى يَحْلـو من العيـش قـد مـرّا

وقـــال :

دَعـــاكَ خليـــلٌ والأصيـــلُ كـــأنّـــه | عليـــلٌ يَقْضــى مُـــدَّة الـزَّمَــن البـــاقــى
إلـــى شـــطٍّ مُنْســابٍ كـــأنّـك مـــاؤه | صفـــاءَ ضميـــرٍ أوعـــذوبـــةَ أخـــلاق

(٧) الزمردة : حجر كريم شفاف أخضر اللون .

(٨) تؤبّد : تقيم أبدًا ولا تبرح - الشعشعانية أى الأنوار الشعشعانيـة - البحيرة : إشارة إلى بحيرة معروفة فى بلنسية تزيد صحوة الشمس فى ضيائها .

(٩) وصف بلنسية بأنها درّة بيضاء تضيئ من جميع النواحى ، وكـان يقال : ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس .

(١٠) صَدَرإلى المكان أى انتهى إليه .

(١١) عاث : أفسد وأتلف .

(١٢) القُبَيبة : تصغير القُبّة ، وهى البناء المستدير المجوّف المقوّس ، ويريد بها القبر .

وَمَهْـوَى جنـاحٍ للصّبا يَمْسَـحُ الـرُّبـا خَفِـيءَ الخـوافـى والقـوادمِ خَفَّـاق (١٣)
وفِتْيـان صِـدْق كـالنجـوم تـألّفـوا علـى النَّـأْى مـن شَتَّـى بُـرُوج وآفـاق
على حيـن راح البـرْقُ فـى الجـوِّ مُغمـدًا ظُبـاه ، ودَمْـعُ المـزْنِ فـى جَفْنـه راقـى
وجـالـتْ بعَيْنى على الـرِّيـاض التِفـاتـةٌ حَبَسْـتُ بها كـأْسى قليـلًا عـن السـاقـى
علـى سطْـرِ خِيـرىٍّ ذكـرتُـك فَـانْثنـى يمَيـلُ بـأَعْنـاقٍ وَيـرْنـو بـأَحْـداق (١٤)
وقـفْ وِقفـةَ المحبـوبِ فيهـا فـإِنَّهـا شمـائلُ مَشْغـوفٍ بمَـرآك مشتـاق
وصِـلْ زَهَـراتٍ منـه صُفْـرا كـأنّهـا وقـد خَضِلَـتْ قَطْـرا مَحاجِـرَ عُشـاق (١٥)

* * *

وقال فى مغنٍّ مُحْسن :

ومُطـارحٍ مِمَّـا تَحِـنُّ بَنـانُـه صَـوْتًـا أَفـاضَ عليـه مـاءَ وَقـارِه (١٦)
يَثْنِـى الحمـامَ فـلا يَـرُوح لـوَكْـره طَـرَبًـا ، ورِزْقُ بَنِيـه فـى مِنْقـاره

---

(١٣) الخوافى : ريشات صغار تخفى إذا ضم الطائر جناحيه ، ضد القوادم .
(١٤) السطر : الصفّ من كلّ شىء - الخيرىّ : نبات له زهر ، ويقال للخزامى خيرى البرّ لأنه أزكى نبات البادية .
(١٥) خضلت : نديت وابتلّت - محاجر : جمع محجر ، وهى فى العين ما يحيط بها .
(١٦) تحنّ : تصوّت ، ويقال : حنّ العود أى صوّت عند النقر .

تاج الملوك بورى

(٥٥٦ - ٥٧٩ هـ / ١٦٦١ - ١١٨٣ م)

هو أبو سعيد بورى ابن الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شادى الأخ الأصغر للسلطان صلاح الدين الأيوبى . ولد بدمشق ، وكان والده فى خدمة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ، ونشأ بورى فى بيت الإمارة يرعاه والده ويحوطه إخوته النجب القادة الفرسان : صلاح الدين ، والعادل ، وتوران شاه .

تلقى تعليمه الأوّلى فى دمشق ، فحفظ القرآن الكريم وبعض الحديث وتعلّم اللغة واستظهر الكثير من الشعر وعاش بين الرياض ومشاهد الطبيعة الغناء فتفتحت بين أرجاء دمشق مواهبه الشعرية .

وكانت المناوشات والمعارك دائرة بين نور الدين والصليبيين ، فكثرت الغارات على قلاعهم وحصونهم وأسْر فرسانهم وأمرائهم ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، فأحيانا يغير الصليبيون ويناوشون ، ولكن النصر والغلبة غالباً لنور الدين .

وشارك نجم الدين وأبناؤه فى هذه الحروب ، فنشأ بورى نشأة عسكرية ودرب على الفروسية والقتال ، وتولّى بعض الأعمال والمهام ، أظهر فيها مواهب مبكرّة وشجاعة فائقة واقتدارا على النجاح .

ثم ارتحل مع أبيه وإخوته إلى القاهرة ، وأقاموا فى قصر من قصور الفاطميين التى آلت إلى صلاح الدين بعد أن انتهت خلافتهم وتولّى السلطنة .

ولما مات أبوه رعاه أخوه صلاح الدين ، وكان بورى يميل إلى اللهو والشراب والاستماع إلى الغناء ، وقد عوتب على ذلك ، ولكن طبعه كان غلابا ، وفى ديوان بورى أشعار يعاتب فيها صلاح الدين ويشكر أخاه العادل وكان أكثر عطفًا عليه ومسامحة .

ويدور معظم شعره حول حياته الخاصة وأسرته وغرامياته وأحاسيسه بالغربة عن أحبّته وعن مصر عند مفارقته لها فى معاركه مع أخيه صلاح الدين بالشام .

وفى وصف إقدامه والفخر بشجاعته ، يقول :

يـا صـاحبـى دعنـى أكـرُّعلـى العـدا فليـس كـرمُ القـوم مـن يتهيَّـبُ
ولاتَبْـغ لـى طيـبَ الحيـاةِ مُسَـالمًـا فَلَلْمـوتُ فـى يـوم الكـريهـة أعـذبُ
ودعنـى أنـلْ بـالطعـن حَظًّـا مـن العـلا فـإنَّ العـلا بـالطَّعـن تكسـى وتُسْلـب

وقضى بـورى نحبه بعد أن أصيـب بطعنة فى حصـار حلب ، ولـم يزد عمره علـى اثنين وعشرين عامًا إلّا قليلا .

* * *

قال تاج الملوك بورى متغزلًا :

خُلِق الهوَى داء بغير دواءِ   فعليلُه أبدا بغير شفاءِ
ولأجلِ ذاك أنا الشَّقِيُّ بمن له   قد جدَّ بى وجْدِى وعَزَّ عَزائِى
يهوى سِوَاىَ ، ولستُ أهوى غيره   والناسُ يختلفونَ فى الأَهواءِ
كالصَّعْدةِ(١) السَّمراءِ أسمرُ لحظِه   يحكى سِنَانَ الصَّعدةِ السمراءِ
وكأنَّ بهجةَ وجهِه فى شعرِه   قمرٌ بدا فى ليلةٍ ظلماءِ
وكأنَّ عَقربَ صُدغِه فى خدِّه   وقَضَتْ مخافَةَ نارِه والماءِ
قمرٌ رجَوْتُ من الزمانِ وصالَهَ   يومًا ، فأخْلَفَ بالصُّدُودِ رجَائى
إنى لآملُ بعد طولِ فِراقِه   أنْ سوفَ يعْقِبُهُ بيوم لِقاءِ
ويعودُ من بعد القطيعةِ واصِلًا   فيرِقَّ لى من بعد طولِ جفاءِ
وكذاك طبع الدَّهر حين عرفتُه   يمضى على السَّرَّاء والضَّراءِ
والعيشُ بين حلاوةٍ وقرارةٍ   والنَّاسُ بين سَعادةٍ وشَقَاءِ

وقال يمدح أخاه السلطان الناصر صلاح الدين :

هل ما نأَى من حَبِيبِ النَّفْسِ مُقْتَربُ   أم هَلْ يُسَرُّ بجمع الشَّمْلِ مُكتئبُ
صبْرًا ، فكم مُدْرِكٍ بالصبر بُغْيَتَهُ   من حيث لم يحتسبْ ، أو حيث يحتسبُ
ما دام خيرٌ ولا شرٌّ على أحدٍ   للدّهر صَرْفٌ وللحالات مُنقلَبُ(٢)
أحبابَ قلبى ، وفى قلبى لفُرقتِكم   نارٌ على مدى الأيام تلتهبُ
بَعُدْتُمُ ، فسرورى كلُّه أسفٌ   وراحتى كلُّها من بعدكم تعبُ

---

(١) الصعدة : الرمح أو القناة التى يركب عليها سن الرمح .
(٢) صرف الدهر : نوائبه وحدثانه .

ولو بكَيْتُ دمًا من بعد فُرقتِكم ... قضيتُ ، قبل قضائى ، بعضَ ما يجبُ
وليس موتى عجيبًا بعد فرقتِكم ... وإنما فى حياتى بعدكم عجبُ
وقائل : كيف طعمُ العيش بعدهُمُ ؟! ... أجبتُهُ ، وضلوعى لوعةٌ تجبُ (٣)
يا سائلى عن لذيذِ العيش منذ نأى ... سَلْ : مَنْ له فى حياةٍ بعدهم أربُ ؟
أعطى الزّمانُ نفيسًا ، ثم عاد به ... وهكذا يَستردُّ الدهرُ ما يهبُ
يا مالكًا عمَّت الدنيا مواهبُهُ ... كما تعمُّ إذا ما سحّت السُّحبُ (٤)
جُونٌ وليستْ بغير الماء سافحةً ... يومًا ، وأدنى عطايا كفِّهِ الذّهبُ (٥)
اجبُرْ بصُنْعِك قلبى ، فَهْوَ مُنكسِرٌ ... مثل الزّجاجةِ كسرًا ليس يَنْشَعِبُ (٦)
لا تتركُنَّ صُروفَ الدهر تلعبُ بى ... فعند مثلك لا يُستحسَنُ اللّعبُ
يا مالكَ الرِّقِّ خُذْها نَفثةً صَدَرتْ ... عن نازحٍ ، قلبُهُ بالودِّ مُقترِبُ
إذا رأى بُعدَه عن باب مالِكِه ... يَصيحُ : واحربًا ، لو ينفعُ الحرَبُ ! (٧)
وحالتى لو رآها حاسدٌ لَرثى ... وكان من رحمةٍ يبكى وينتحبُ
كلٌّ يفوزُ بعزٍّ منكُمُ أبدًا ... وما نصيبىَ إلا الذُّلُّ والنَّصَبُ
وما عجبتُ لدهرى : كيف يظلمنى ... وإنّما ظُلمُكمْ أنتمْ هو العجبُ ؟ !
يا خيرَ مَنْ سمح الدَّهرُ الضّنينُ به ... وخيرَ مَنْ يمّمتْهُ العُجمُ والعربُ (٨)
لأنت أكرمُ مَن لاذ الأنامُ به ... نفسًا ، وأعظمُ مَنْ تسمو به الرُّتبُ
لولاك ما كان لا مجدٌ ، ولا كرمٌ ... ولا وفاءٌ ، ولا فضلٌ ، ولا حَسَبُ

---

(٣) تجب : تخفق .
(٤) سحّت : صبّت الماء صبًّا متتابعًا كثيرا .
(٥) جُون : جمع جَون ، وهو الأسود .
(٦) ينشعب بمعنى يلتئم .
(٧) واحرّبا : يا مصيبتاه ، يشكو فقدًا لمال أو مصيبة حلّت به – الحَرَب : الهلاك .
(٨) الضنين : شديد البخل بالشىء النفيس – يمّمته : قصدته .

لــولاك مــا انتصـرالإســلام يــوم وغــى ولا دهــى الشِّــرْك لا وَيْــلٌ ولا حَــربُ
يــا مَــنْ تَــوقَّــدَ مــن علــمٍ ومعــرفــةٍ كمــا تــوقَّــدَ فى ظَلمــائهــا الشُّهــبُ
لأنــت كــالشمـس تنــأى رفعــةً وعُــلا ونــورُهــا فــى جميــع الأرضِ مُقتــرِبُ
كــالبحــر يقــذفُ للدّانــى جــواهــرَهُ جُــوادًا ، وتبعــثُ للنّــائى بــه السُّحُــبُ
لــولــم يكــن أيُّهــا المــولى ، أبــوك أبــى لقلــتُ : إنّــك لــى فــى الحــالتيــن أبُ
وفَــرْطُ حُبِّــك فيمــا بيننــا نســبٌ ثــانٍ ، ولــولــم يكــن مــا بيننــا نســبُ
يــا أكثــرَ النّــاسِ بــى علمًــا ومعــرفــةً متــى تُعبّــرُعــن أعــراقــه الــذّهــبُ ؟ (٩)
أحَــالَ رأيُــك عــن مــا كنــتُ أعهــدُهُ حتــى بــدا لك أنّ الــدُّرَّ مَخْشَلِــبُ ؟ ! (١٠)
يــا مَنْ أمــورى وأحــوالــى بــأجمعهــا إليــه فــى ســائر الأحــوال تنتســب
عطفًــا علــىَّ ، وإنعــامًــا ؛ فقــد عَلِقــتْ يــداى منــك بجبــلٍ ليــس ينقضِــبُ (١١)
إذا حُــرِمــتُ مُــرادى فــى زمــانكــمُ فمــا الــذى بعــده أرجــو وأرتقــبُ ؟ !
إن تظلمــوا ، فعليكــم مــا أستغيــثُ بكــمْ مُسْتَعْــدِيًــا ، وإليكــمْ منكــمُ الهــربُ (١٢)
رأيــتُ مــن فعلكــم مــا أستــريــبُ بــه وكــان أولــى بكــم أن تذهــبَ الــرِّيَــبُ (١٣)
حــاشــاكُــمُ أن تكــونــوا عَــوْنَ حــادثــةٍ أو تــرتمــى بــى علــى أيــديكُــمُ النُّــوَبُ
أفــديــك مــن مَلِــكٍ ، جَــمُّ الصّفــاتِ بــه تُطْــوَى الخُطــوبُ ، وفيــه تُنشَــرُ الخُطَــبُ
مــولاى لا خلَــتِ الــدّنيــا وســاكنهــا مــن ظــلِّ دولتكــم مــا دارت الحِقــبُ
فمــا بقيتُــمْ فــأيّــامــى بجــودِكــمُ كمــا أُحــبُّ ، وأحــوالــى كمــا يجــبُ

* * *

---

(٩) أعراقه يعنى أصوله الكريمة .
(١٠) المخشلبُ : قطع الزجاج .
(١١) ينقضب : ينقطع .
(١٢) المستعدى المستعين المستنصر .
(١٣) أستريب به : أرى فيه ما يريبنى ، ويجعلنى شاكًا .

وقال يمدح الملك العادل أخاه ، ويتشوّقه ، ويصف منذ خرج من مصر إلى أن وصل إلى دمشق ، [وبعثها إليه من دمشق إلى مصر رحمه الله تعالى] :

اليـوم جـاوزنـي مقـدارَهُ الكمَـدُ   شـوقًـا ، فـلا وجْـدَ إلّا دون مـا أجـدُ
قـل للمقيميـن فـي مصـرٍ ، وإن نـزحـوا :   إنّـي مُقيمٌ علـى العهـد الـذى عهـدوا
فمـا يُغيِّـرُنـي يـومًـا بعـادُهـمُ   بئـس الهـوى مـا يُسلِّـي أهلَـه البُعُـدُ
أحبـابَنَـا ، غيـرُ بـدْعٍ بعـد فُـرقتِكـمْ   ممّـا أُكـابِـدُه ، أن ذابـتِ الكبـدُ
إنّـا رحلنـا ، وفـي الأحشـاء بعـدكـمُ   حُـبٌّ لكـم ، لـم يُبِدْ أشجانَـه الأبـدُ (١٤)
جُـزْنـا البيـوتَ ، وعِيـسُ القـومِ صـادِرةٌ   عـن بِـرْكَـةِ الجُبِّ نـزْحًـا ، بعـد وَردُوا (١٥)
جـاءت مـراكـعَ موسـى ، فـاْستَمَرّ بهـا   ثـم استجـدَّ لهـا فـي سيْرهـا الجـدَدُ (١٦)
حتـى إذا وردتْ ، والشمـسُ مُصحِيَـةٌ   عيـونَ موسـى ، أحسَّتْ بـالذى تجـدُ (١٧)
واستقبلـتْ بصـدورٍ غيـر مُخْـرجـةٍ   صَـدْرًا ؛ لتَصْـدُرَ عنهـا بعـدمـا تـردُ
ثـم اْستقـامـتْ علـى سيـرٍ وطـولِ سرًى   إذْ لاح للـركـب فـي حصبـائه الثَّمَـدُ (١٨)
ثـم انتحـاهـا مـن بعـد المُقـامِ بهـا   بفـوت أيْلـةَ ، والـرمضـاءُ تتّقِـدُ (١٩)
وفـوّزَ القـومُ ، والظلمـاءُ داجيـةٌ   عـن نقـب أيلـةَ ليـلًا بعـدمـا هجـدوا (٢٠)
أمُّـوا شنـارًا ، وعيـنُ الشمـس قـد طلعـتْ   مقـدارَبـاعٍ ، فلمّـا صـوّبـتْ صعـدوا (٢١)

---

(١٤) لم يُبِد : لم يهلك – الأبد : الدهر.
(١٥) بركة الجب : مكان قرب القاهرة .
(١٦) مراكع موسى أو عيون موسى : مكان بسيناء شرقي السويس – الجدد : الأرض المستوية .
(١٧) يقال : أصحت السماء فهى مُصحية : انقشع عنها الغيم .
(١٨) السرى : السير ليلا – الحصباء : صغار الحجارة – الثمد : الماء القليل .
(١٩) أيلة : هى إيلات الحالية على رأس خليج العقبة (إيلات) – الرمضاء : شدّة الحرّ.
(٢٠) فوّز : دخل المفازة وهى الصحراء المهلكة – داجنة بمعنى ساترة مغطيّة – نقيب أيلة هى الصحراء الممتدة شمالا والمعروفة الآن بهذا الاسم (صحراء النقب) – هجدوا : ناموا أو صلوا بالليل .
(٢١) شنار : من أودية الصحراء .

واستقبلوا أصلًا أرض السَّراة على الـ (م) جُرْد الجيادِ ، وعُدَّتْ للوغى العُدَدُ

وأسْتَلأَمُوا حين حَلُّو القريتين ضُحًى وكلُّ لامةِ حربٍ تحتها حَيَدُ (٢٢)

فكان يومًا اشتدَّ الظلامُ به من العجاج أضاءَ البيضُ والزَّردُ (٢٣)

ويوم غارتنا لم أنْسَهُ أبدًا وقدْ تيقّظ قومٌ بعد ما رقدوا

وأقبل الشَّوْبَكُ الممنوعُ جانبُهُ وقد أطافت به الطعّانةُ النُّجُدُ (٢٤)

ثم اجتنينا ببيض الهندِ ما غرسوا والنارِ ما زرعوا فيه ، وما حصدُوا

ثم أرتحلنا ، وخلّفنا ديارَهمُ بلاقعًا ، ليس إلّا البُومُ والوتدُ (٢٥)

حتى إذا سمع الإفرنجُ غارَتنا وأنهم بالذى يخشَوْن قد قُصِدُوا

وأمّتِ العيسُ حَوْرَانًا ، وقدْ وردتْ وادى القطا ، وهْوَ لا بردٌ ولا صَرَدُ (٢٦)

وأستقْبلتْ آنَ بُصرى غيرَ وَانيةٍ شعارُها الوَخْدُ والإعناقُ والجيدُ (٢٧)

فحين هبَّتْ نسيمٌ من دمشق بها يُشفى العليلُ به منها ويبتردُ

تباشرَ القومُ ، وأنجابتْ غياهبُهُمْ وأُدْخِلوا جنّةً ما شابها نكد (٢٨)

جنّاتُ خُلدٍ مع الدّنيا مُعجّلةٌ فيها الملائكُ والولدانُ قد وُلدا

سُكانُها مثلُ سُكانِ الجنان بَهَا لو أنهم خلدوا فيها كما خلدوا

أمّا دِمشقُ فلا أرضٌ تُقاسُ بها ولا يُماثلُها فى طيبها بلدُ

فإنْ وجدْتَ لها شبْهًا يُقاربُها فمثلُ أخلاقِ سيف الدين ما تجدُ

---

(٢٢) استلأموا : لبسوا ما عندهم من عدّة - واللأمة : أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر ودرع - الجَيد : طول العنق ، دلالة على الكرم والإباء .

(٢٣) البيْض : جمع بيضة وهى الخوذة توضع على الرأس لحمايتها - الزرد : شبك الدرع .

(٢٤) الشوبك : قلعة من قلاع الصليبيين جنوبى الشام .

(٢٥) بلاقع : خالية من كل شىء - الوتد : ما أثبت فى الأرض أو الحائط من خشب .

(٢٦) الصَّرَد : البرد .

(٢٧) بصرى : بلد بالشام - الوخد والإعناق والجيد : ضروب من سير المطىّ .

(٢٨) الغياهب : جمع الغيهب وهو الظلمة .

هو الذى عمّتْ الدّنيا مواهبُهُ فلا خلا من عَطايا كَفِّه أحدُ
أفديه من ملكٍ فى دَسْته مَلَكٌ فى تاجه قمرٌ، فى درعه أسدُ
ملك إذا منَع الأملاكُ رفدَهُم أعطى ، ورغّبَ فى المعروف إنْ زهَدُوا
ويبذلُ المال إن صانوا ، ويقْدُمُ إنْ خاموا ، وينهضُ بالأثقال إن قعدُوا (٢٩)
أضحتْ دمشقُ عليه وهى حاسدةٌ مِصْرًا ، وما كان لولا النعمةُ الحسدُ
سُؤلى من الدهر لو قبّلْتُ منه يدًا لها على كل مَنْ فوق الأنام يدُ
ولو جلوتُ القذَى عن ناظرىَّ به فإنَّ طلعتَهُ يُشْفَى بها الرَّمدُ
فإنَّ شوقى إليك شوقُ ذى ظمأٍ بكلِّ ماءٍ يُمَنَّى ، وهْوَ لا يردُ
يا مَنْ أُقِرُّ بنُعماهُ ، وأشكرها إذا أُناسٌ بنُعمى ربِّهم جحدوا
شكرى لنعماك لم أنهض بأيْسرِهِ وهل يقومُ بشكرِ الوالدِ الولدُ ؟

* * *

وقال عند موته وهو مجروحٌ بظاهر حلبَ بعد رجوعه عن آمِدَ ، وهى آخرُ شعرٍ قاله :

أسُكّانَ مصرٍ لعلّ الزّمانَ علىَّ بقُربكمُ جائدُ
أما تذكرون فتًى شوقُهُ ، إلى وصلكم أبدًا ، زائدُ
جريحًا ، مريضًا ، يمَلُّ الطبيبَ ويسأمُ من فقده العائِدُ
مُحبًّا لكم ، كان يرجوكمُ بآمدَ ، لا سُقِيَتْ آمِدُ (٣٠)
فلمّا تهيَّا لقطع الفُراتِ وعاوَدَه قلبُهُ الشَّاردُ
وأصبح فى حَلَبٍ راجيًا زمانًا بكم ؛ ليته عائِدُ
رماهُ الزّمانُ بسهم المنونِ كأنّ الزّمانَ له قاصِدُ

* * *

(٢٩) خاموا جبنوا وتراجعوا عن القتال .
(٣٠) الجائد بمعنى السخى المُواتى - العائد : من يزور المريض - آمد : بلد بالعراق .

وقال أيضًا وهو فى الشام :

إنّــى ، وإن نــزحَـتْ عــن داركــم دارِى ... علـــى الـــوفـــاء مُقيـــمٌ غيـــرُ غـــدَّارِ
لاأستحـــلُّ مـــلالًا عــن عهـــودِكُـــمُ ... ولايحـــلُّ ســواكـــمْ بيـتَ إضْمـــارى (٣١)
يـا ســاكنى مصـرَ، هـلْ ركـبٌ يُعَلِّلُنى ... عنكـــمْ بطيـــب أحــاديـــثٍ وأخبـــارِ ؟
فــارقتكــمْ ، فقــرعــتُ السِّــنَّ عــن نــدمٍ ... إذْ كنــتُ للبيـــن عنكـــمْ غيـــرَ مُختــارِ
أقـــولُ إذ حـــالَ مـــا بينـــى وبينكُـــمُ ... دهـــرٌ خئـــونٌ وبَيْـــدا ذاتُ أخطـــارِ (٣٢)
أأجعـــلُ الشـــامَ لـــى دارًا أحُـــلُّ بهـــا ... ولـــى بمصـــرَ حبيـــبٌ نـــازحُ الـدَّارِ؟ !
هيهـــاتَ . لاوطـــنٌ فيـــه ، ولاطـــربٌ ... مـن بعـــد غـايـــةِ أوْطـانـــى وأوْطــارى ! !
أحبـــابَ قلبى ! وقلبـــى بعـــد فُـرقتكـــمْ ... مـأوى لـواعِـجَ مـــن همِّى وأفكـارى (٣٣)
يـــا حســـرةً ، أيـــن أيّـــامـــى بقـــربكُـــمُ ... إذْ أنتُـمُ الجـارُ، واشـوقـى إلـى الجـارِ؟ !
أيـــامَ ألْهُـــوبهـــا بيضـــاءَ ، نـــاهِـــدَةً ... تـرنـــو بطـرفٍ مـــريـضِ اللّحـظِ سحَّـارِ
صغيـــرةُ السِّـــنِّ ، لـى منْهـــا إذا خطـــرَتْ ... بمجْلـــسٍ طيِّـــبٍ ، رنَّـــاتُ أطْيـــارِ
هـــواكِ ، يـــا غـــايـــةَ الآمـــالِ ، أبـــردُهُ ... أحـــرُّمـــا بيـــن أحْشـــائِى مـــن النّـــارِ
لـــم يبْـــدُ وجهُـــكِ ، جَـــلَّ اللهُ خـــالقُـــهُ ... إلّاتبيَّنْـــتُ فيـــه قُـــدرةَ البـــارى
كـــأنّـــه البـــدرُ، لكنِّـــى ضلَلْـــتُ بـــه ... والبـــدرُ شيمتُـــهُ أنْ يَهْـــدِىَ السَّـــارِى
يـــا هـــذه ، لات ومـــا بينـــى وبينـكِ مـــن ... عهْـــدٍ ، وحفـــظٍ ، وميثـــاقٍ ، وأســـرارِ
مـــا اخْتـــرتُ يـــوم رحيلـــى عـــن ديـــاركُـــمُ ... لكنّهُـــنّ اللّيـــالـــى ذاتُ أقـــدارِ

---

(٣١) الملال : الفتور - إضمارى : إخفائى .
(٣٢) البيداء : الفلاة .
(٣٣) اللواعج : الهوى المحرق .
(٣٤) ضمن الشاعر بعض شطرات من قصيدة المتنبى على الوزن والقافية « ليالى بعد الظاعنين شكول » .

وقال أيضًا مُفتخرًا مُوازنًا لأبيات السَّموءل بن عادياء اليهودى ، التى أولها :

(إذا المرءُ لم يدْنس من اللّؤم عِرْضُهُ ... فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ)
طِلابُ المعالى ما إليه سبيلُ ... بغير العوالى ، والنّفوس تسيلُ
ويُبْذَلُ ما يُحْوى من المال دُونها ... إذا ضنَّ يومًا بالنّوال بخيلُ
وما يُدْرِكُ العلياءَ إلا مُمَجَّدٌ ... (قئولٌ لما قال الكرامُ فَعولُ)
تُدافِعُنى الأيّامُ عن كلِّ مطلبٍ ... فياهل لأيامى علىَّ دُخولُ ؟ !
ولَوْ نيلتِ الدنيا بفضلٍ لَنِلْتُها ... ولكنّ حظّ الأكرمين قليلُ
سأمنحُها صبْرَ الكرام تجمّلًا ... وصبرُ الفتى عند الخطوب جميلُ
إذا ما دعانَا للكريهة صارخٌ ... (من القوم لبَّتْهُ قَنًا ونُصولُ)[35]
(وخيلٌ كأمثال السَّعالى شوازبٌ) ... تكادُ بنا قبل المجال تجولُ
سوابقُ تكْبُو الرّيحُ قبل لحاقها ... (لها مرحٌ من تحتنا وصهيلُ)[36]
(وإنّا لنلقى الحادثاتِ بأنفسٍ ... كثيرُ الرّزايا عندهن قليلُ)
(يهونُ علينا أن تُصاب جسومُنا ... وتسلمَ أعراضٌ لنا وعقولُ)
نجودُ ، فيَغْنى مَنْ يُرَجّى نَوالَنا ... ونسْطو ، فيفْنى مَنْ عليه نصولُ
وإنْ نحنُ قُلنا ، فالوفاءُ شعارُنَا ... وكم مُخْلِفٍ للقول حين يقولُ
تُفلِّلُ قرعَ الدّارعين سيوفُنا ... ففيهنّ من طول القراعِ فُلولُ[37]

* * *

(٣٥) الكريهة : الحرب الشديدة - القنا : الرماح - النصول : جمع النصل وهو حديدة الرمح والسهم وغيرهما .
(٣٦) السّعالى : الغيلان - شوازب : ضوامر - مرح : نشاط .
(٣٧) تفلِّل بمعنى تثلهم وتضعفهم - الدارع الذى يلبس الدرع -القرْع : الضرب أو الرمى - القراع : المضاربة بالسيوف فى الحرب .

وقال – وقد عوتب على شرب الخمر والإدمان عليه – يمدح أخاه السلطان صلاح الدين:

حَيٌ من أسماءَ بالخَيْفِ خِياما ... وأقرها عنّى ومَنْ فيها السَّلاما (٣٨)
وإذا ما جِئتَ باناتِ الحِمى ... فادْعُ للإسْعَادِ هاتيك الحماما
قل : كلانا يا حماماتِ اللّوى ... يشتكى وجْدًا قديما وغراما
يا أعادَ اللهُ أياما مضت ... لم تكن إلّا خيالًا أو مناما
زمَن ، نِلْتُ المنى فى ظِلّه ... حبّذا عيْشى به ، لو كان داما !
بفتاةِ السِّنّ ، رُودٍ ، غادَةٍ ... كقضيب البان لِينًا وقَواما
هى فى إقبالها جاريةٌ ... وإذا ما أدبرَتْ كانت غلاما
أطلعتْ من وجهها شمسَ الضّحى ... حمّلتْها من دُجى الفرعِ ظلاما
زُخْرِفتْ من وجهها لى جنّةٌ ... كانتِ الرِّيقَةُ لى فيها مُداما
قيل : فى الجنّة خمرٌ حُلّلَتْ ... فلماذا ريقُها أضحى حراما ؟ !
هجرَتْ عينى الكرى فى حُبِّها ... وقبيحٌ من مُحِبٍّ أن يناما
ملأت جسمى سقامًا ، مثل ما ... مُلئتْ أجفانُ عينيها سقاما
لم تَدَعْ للصَّبِّ إلا كبِدًا ... بعدها حرَّى ، وقلبًا مُسْتهاما (٣٩)
ودموعًا أشبهت فى فيضها ... جُودَ مولانا ؛ همولًا وانسجاما
أوْضحَ الحقَّ ، وسنَّ العدْلَ من ... بعد ميْلٍ واعوجاجٍ ، فاستقاما
سبَقَ الخلقَ إلى شأوِ العُلا ... فسما فى مجده عن أن يُساما (٤٠)

---

(٣٨) الخيف : جانب الجبل ، أو ما انحدر ، واشهره خيف منى من مشاعر الحج وتكرر ذكره فى شعر الحجاز ييين ، ومن بينهم عمر بن أبى ربيعة .
(٣٩) المستهام : المشفوف حبًا .
(٤٠) يسامى : يُبارى .

قام بالأعباء بها ضامنَها … خيرةُ العالَمِ بالأمر، قِياما
فاق هذا النّاسَ بأسًا، وندًا … وعلى الأملاك عزمًا واْهتماما
ما صلاحُ الدين إلّانِعْمةٌ … بُسِطَتْ للخلق شرقًا وشآما
عمَّتِ الدّنيا عطايا كفِّهِ … كعموم الغيثِ هطّالًا رُكاما (٤١)
نِعمٌ، أصغرُها أكبرُها … وأيادٍ، لم تزل فينا جِساما
ملِكٌ، لم يبْدو إلّاعاينتْ … عينُ مَنْ يبْدُو له البدرَ التِّماما
وكأن البرقَ. يبدو لامعًا … فى السحاب الجُونِ، إن هزَّ حساما
يا مليكا عَلِقَتْ منه يدى … عُروَةً، لاأبتغى منها اْنفصاما
لاتَلُمْ فى شربها مُغْرًى بها … إنَّ طبعَ النّفس أن تَهْوَى الحراما
غلبَ الهمُّ على قلبى، فلم … أرَما يدْفعُهُ إلاالمُداما
لم يكن فى شرُبها مُسْتَوْجبًا … منكمُ التَّعْنيفَ فيها والمَلاما
أرى مَنْ لم قد يذقها منكمُ … يتّخذهُ حيث ما كان إماما
إنّ لى ربًّا كريمًا غافِرًا … يغْفر الذّنْبَ عظيمًا والأثاما
أنا لاأيأس من رحمته … بعد إقْرارى، وإن زدْتُ اْجتراما
وكذا عفْوُك لاأيْأسُهُ … يا مليكًا عمَّ بالعدل الأناما
أنت لى حِصْنٌ، وسيفٌ، ويدٌ … كلّما جدَّدَ لى الدَّهرُ خِصاما
أنت لى معقلُ عزٍّ مانِعٌ … لستُ أخشى فيه يومًا أن أُضاما (٤٢)
فأفِضْ من بحر إنْعامك لى … نائلًا، أُسْقِى به هذا الأُواما
لاتَلُمْ فى طلبى منك النّدى … إنّ مَنْ أمْحَلَ يستسقى الغماما (٤٣)
وأمَا، واللهِ، لاخابَ فتًى … أبدًا لايرتجى إلاالكراما

(٤١) ركام: مجتمع متراكم.
(٤٢) ضامه: ظلمه وأذله.
(٤٣) أمحل: أجدب واحتبس عنه المطر - يستسقى: يطلب السقيا.

سبط ابن التعاويذى

(٥١٩ - ٥٨٣ هـ / ١١٢٤ - ١١٨٧ م)

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب البغدادى كان أبوه مولى لأحد الأعيان العراقيين من بنى المظفّر، أما أمه فكانت ابنة أحد الزهاد وهو أبو محمد المبارك المشهور بابن التعويذى، وقد كفله هذا الجدّ صغيرا واعتنى بتربيته وتعليمه .

عمل سبط ابن التعاويذى فى دواوين الخلافة ببغداد، وكان كاتبا فى ديوان الإقطاع، له راتب يتقاضاه، وعطايا ينالها من الخلفاء وغيرهم، وذكر العماد الأصبهانى أنه لقيه ببغداد ووصفه مثنيا عليه، فقال : « هو شاب فيه فضل وآداب، ورياشة وكياسة، ومروّة وفتوّة، جمعنى وإياه صدق العقيدة فى عقد الصداقة، وقد كملتْ فيه أسباب الظرف واللطف واللياقة » .

وله ديوان شعرى جمعه بنفسه، وعمل له خطبة طريفة ورتّبه فى أربعة فصول، كل ما جدّده بعد ذلك سمّاه الزيادات، الفصل الأول فى مدائح الخلفاء، والثانى فى مدائح جماعة من الوزراء والأكابر والصدور الأماثل وغيرهم ممن تتفاوت منازلهم وحالاتهم، والثالث فى مدائح أولياء نعمته ممن تربى فى رعايتهم من بنى المظفر، قال : « لأننى نشأت فيهم، وكنت متّصلا بهم، وصحبتهم أنا وجدّى لأمى ... وكنت منقطعا إليهم، لا أتعرّض إلّا لنفحات عطاياهم رغبة ورهبة، وتثنية منهم ومحبّة، فنظمت فيهم جلّ شعرى، وأنفقت معهم طائفة من عمرى » ، أما الفصل الرابع فاشتمل على مراث وزهد وغزل وعتاب وهجاء .

وقد مدح من الخلفاء : المستجد (٥٥٥ -٥٦٦) ، وأكثر من مديح المستضىء (٥٦٦ - ٥٧٥) وابنة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢) ، ومدح من العظماء والأعيان : صلاح الدين الأيوبى ونور الدين محمود، وعماد الدين زنكى والقاضى الفاضل، ووصف بعض ما أحرزوه من فتوح وانتصارات فى مقاومة الصليبيين .

وقد عمى فى آخر عمره سنة ٥٧٩ ، وله فى عماه أشعار كثيرة يرثى بها عينيه، ويندب زمان شبابه وانقضاءه، ويلتمس من الخليفة الناصر أن ينقل راتبه بالديوان إلى أبنائه .

ويظهر من ديـوانه أن معظم شعره فى المديـح ، وأنه لـم يغفل النظم فـى أغراض أخرى كهجاء بعض من أساءوا إليه ، وشكوى الزمن ووصف الاحتياج والعوز.

ويقول ابن خلـكان فـى بيان منزلته : « كان أبو الفتـح المذكور شاعر وقته ، لـم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ، ورقّـة المعانى ودقتها ، وهو فى غاية الحسن والحلاوة ، وفيمـا أعتقده لم يكن بمـائتى سنة من يضـاهيه ... وأما قصائده المشتملـة على النسيب والمدح فإنها فى نهاية الحسن » .

* * *

وقال يمدح صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب ويعاتبهُ على تسويتهِ بغيرهِ من الشعراءِ فى العطاءِ وأنفذها إليهِ بمصر سنة ٥٧٤ :

سِـــرْبُ مَهًـــا أَمْ دُمًـــى مَحَـــارِيـــبِ ... أَمْ فَتَيَـــاتُ ٱلْحَـــيِّ ٱلْأَعَـــارِيـــبِ
هَيْهَـــاتَ أَيْـــنَ ٱلْمَهَـــا إِذَا ٱتَّصَـــفَ ٱلْـــ ... ـــحُسْنُ ٱلْخُـــرَّدِ ٱلـــرَّعَـــابِيـــبِ (١)
إِنْ شَـــابَهَتْهَـــا فَفِـــى ٱلْبَـــدَاوَةِ وعـــاْلأَخْـــ ... ـــلَاقِ لَا فِـــى ٱلْجَمَـــالِ وَٱلطِّيـــبِ
هُـــنَّ ٱللَّـــوَاتِـــى وَإِنْ أَرِقْـــنَ دَمِـــى ... يَعْـــذُبُ فِـــى حُبِّهِـــنَّ تَعْـــذِيبِـــى
مَـــا لِـــىَ وَٱلْغَـــانِيَـــاتِ أُخْـــدَعُ مِنْـــ ... ـــهُـــنَّ بِـــوَصْـــلٍ فِـــى ٱلطَّيْـــفِ مِكْـــذُوبِ
لَا وَهَـــوًى غَـــالِـــبٍ بِهِـــنَّ أُعَـــانِيـــهِ ... وَعَـــزْمٍ فِيهِـــنَّ مَغْلُـــوبِ
وَكَـــاْلأَسَـــارِيـــعِ مِـــنْ بَنَـــانٍ يَـــدٍ ... بِـــالـــدَّمِ لَا بِـــاْلحِنَّـــاءِ مَخْضُـــوبِ (٢)
لَقَـــدْ حَمَلْـــنَ ٱلْـــوِزْرَ ٱلثَّقِيـــلَ عَلَـــى ... لِيـــنِ قُـــدُودٍ وَضَعْـــفِ تَـــرْكِيـــبِ
وَعَـــاذِلٍ لَا يُنِيـــبُ عَـــنْ عَـــذَلٍ ... يُهْـــدِيهِ فِـــى ٱلْحُـــبِّ لِـــى وَتَـــأْنِيـــبِ (٣)
لَـــوْمُلْـــك لِلصَّـــبِّ فِـــى مُعَـــذِّبِـــهِ ... سَـــوْطُ عَـــذَابٍ عَلَيْـــهِ مَصْبُـــوبِ
يَـــا سَعْـــدُ إِلْمَـــامَـــةً عَلَـــى إِضَـــمٍ ... فَـــاْلهَضْـــبِ مِنْ رَاكِـــسٍ فَمَلْحُـــوبِ (٤)
وَاْسـْـأَلْ كَثِيبَـــىْ رِمَـــالَ عَـــنْ رَشَـــإٍ ... عَنَّـــا بِسُمْـــرِ ٱلـــرِّمَـــاحِ مَحْجُـــوبِ
وَٱعْجَـــبْ لِجِسْـــمٍ فِـــى جَنْـــبِ كَـــاظِمَـــةٍ ... ثَـــاوٍ وَقَلْـــبٍ فِـــى ٱلـــرَّكْـــبِ مَجْنُـــوبِ (٥)
رِيـــمُ نَقًـــا لَا يَـــرِيـــمُ ذَا شَـــرَكٍ ... مِـــنْ لَحْظِـــهِ لِـــلْأُسُـــودِ مَنْصُـــوبِ (٦)

---

(١) الخرّد : جمع الخرود وهى الحيية أو الفتاة البكر - الرعابيب : جمع رُعبوب وهى الغضة الطويلة الممتلئة الجسم.
(٢) الأساريع بمعنى الأصابع .
(٣) يُنيبُ : يمتنع .
(٤) إضم : جبل : - والهضب وراكس وملحوب : أسماء أماكن ترددت فى الشعر القديم .
(٥) كاظمة مكان بالمجاز.
(٦) الريم : الظباء الخالصة البياض .

يَجُولُ مَاءُ ٱلشَّبَابِ فِى ضَرَمٍ مِنْ خَدِّهِ فِى ٱلْقُلُوبِ مَشْبُوبِ (٧)
لَا تَطْلُلُوا عِنْدَهُ دَمِى فَدَمٌ أَرَاقَهُ ٱلْحِبُّ غَيْرُ مَطْلُوبِ
آهِ لِبَيْضَاءَ كَٱلنَّهَارِ بَدَتْ غَرِيبَةً فِى أَحَمَّ غِرْبِيبِ (٨)
وَفَارِطٍ مِنْ صِبًى حَنَنْتُ إِلَى أَيَّامِهِ ٱلْغِيدِ حَنَّةَ ٱلنِّيبِ (٩)
يَا شَيْبُ إِنْ تُودِ بِٱلشَّبَابِ فَقَدْ أَوْدَيْتَ مِنْهُ بِخَيْرِ مَصْحُوبِ
أَغْرَيْتَ بِٱلصَّدِّ مَنْ أُحِبُّ فَلَا غَرْوَ إِذَا كُنْتَ غَيْرَ مَحْبُوبِ
هَبْ لِى بَقَايَا شَبِيبَتِى وَٱرْتَجِعْ مَا أَكْسَبَتْنِى أَيْدِى ٱلتَّجَارِيبِ
فَٱلشَّيْبُ لَوْ لَمْ يُعَدَّ مَنْقَصَةً مَا زَهِدَ ٱلْبِيضُ فِى هَوَى ٱلشِّيبِ
يَا دَهْرُ خُذْنِى فِى غَيْرِ مَسْلَكِكَ ٱلْـ ـوَعْرِ وَعِدْنِى سِوَى ٱلْأَكَاذِيبِ
فِى كُلِّ يَوْمٍ يُجِدُّ لِى عَجَبًا صَرْفُكَ وَٱلدَّهْرُ ذُو أَعَاجِيبِ
مَا أَنَا رَاضٍ عَمَّا سَلَبْتَ بِمَا أَفَدْتَ مِنْ حُنْكَةٍ وَتَجْرِيبِ
كَمْ أَتَلَقَّى ٱلْمَكْرُوهَ مِنْكَ أَمَا تَغْلَطُ لِى مَرَّةً بِمَحْبُوبِ
قَدْ هَذَّبَتْنِى أَيْدِى ٱلْخُطُوبِ عَلَى شِمَاسِ عِطْفَىَّ أَىَّ تَهْذِيبِ (١٠)
فَلَيْتَهَا هَذَّبَتْ خَلَائِقَهَا وَآخَذَتْ نَفْسَهَا بِتَأْدِيبِ
أَوْ لُقِّنَتْ مُسْتَفِيدَةً كَرَمَ ٱلْأَخْلَاقِ مِنْ يُوسُفَ ٱبْنِ أَيُّوبِ
ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ ٱلَّذِى كَشَفَ ٱللهُ بِهِ هَمَّ كُلِّ مَكْرُوبِ
حَامِى ثُغُورِ ٱلْإِسْلَامِ بِٱلْهِنْدُوَانِيَّاتِ وَٱلضُّمَّرِ ٱلسَّرَاحِيبِ (١١)

---

(٧) ضرم : اشتعال وانقاد ، ومنه : أضرم النار أى أوقدها .
(٨) أحم غريب : أسود ، من لون الغراب الأسود ، ويقصد به الشعر .
(٩) فارط : ماض ومنقضى – النيب : النوق .
(١٠) الشماس : الإباء والاستعصاء .
(١١) السراحيب جمع سرحوب الفرس الطويلة المتناسبة الأعضاء .

بِكُـلِّ مَـاضِـى ٱلْغِـرَارِ مُنْصَلِـتٍ وَكُـلِّ سَـامِـى ٱلتَّلِيـلِ يَعْبُـوبِ (١٢)
رَبِّ ٱلْمَـذَاكِـى ٱلْجِيَـادِ مُقْـرَبَـةً وَٱلنَّصْـلُ عُـرْيَـانُ غَيْـرُ مَقْـرُوبِ (١٣)
خَـوَّاضِ مَـوْجِ ٱلْـوَغَـى وَقَـدْ أُخِـذَتْ أَبْطَـالُهَـا ٱلْحُمْـسُ بِـٱلتَّـلَابِيـبِ
تُنْكِـرُ أَغْمَـادَهَـا مَنَـاصِلُـهُ فِـى يَـوْمِ حَـلٍّ وَيَـوْمِ تَـأْوِيـبِ (١٤)
تُسَـلُّ فِـى ٱلْحَـرْبِ لِلْمَفَـارِقِ وَٱلْهَـامِ وَفِـى ٱلسِّلْـمِ لِلْعَـرَاقِيـبِ
سُلْطَـانِ أَرْضِ ٱللهِ ٱلَّـذِى ضَمِنَـتْ رِمَـاحُـهُ نَصْـرَ كُـلِّ مَحْـرُوبِ (١٥)
مَـدَّ عَلَـى ٱلْأَرْضِ ظِـلَّ مَعْـدِلَـةٍ تَجْمَـعُ بَيْـنَ ٱلْمَهَـاةِ وَٱلـذِّيـبِ
صَـوْبَ نَـدًى يُـرْتَجَـى مَـوَاطِـرُهُ وَحَـدَّ بَـأْسٍ كَـٱلْمَـوْتِ مَـرْهُـوبِ
فَـٱلنَّـاسُ مَـا بَيْـنَ آمِـلٍ جَـذِلٍ وَخَـائِفٍ مِـنْ سُطَـاهُ مَـرْعُـوبِ
أَلطَّـاهِـرُ ٱلْخِيـمِ وَٱلشَّمَـائِلِ وَٱلْأَعْـ ـرَاقِ وَٱلْجَيْـبِ وَٱلْجَـلَابِيـبِ (١٦)
نَحْـلُ أُسُـودِ ٱلشَّـرَى ٱلضَّـرَاغِـمِ وَٱلنَّجْـ ـبُ يُنْمَـى إِلَـى ٱلْمَنَـاجِيـبِ
مِـنْ كُـلِّ طَلْـقِ ٱلْجَبِيـنِ مُبْتَسِـمٍ بِـٱلتَّـاجِ يَـوْمَ ٱلسَّـلَامِ مَعْصُـوبِ
لَهُـمْ حُلُـومٌ إِذَا ٱنْتَـدَوْا رَجَحُـوا بِهَـا عَلَـى ٱلشُّمَّـخِ ٱلشَّنَـاخِيـبِ (١٧)
وَأَوْجُـهٌ يَسْجُـدُ ٱلْجَمَـالُ لَهَـا هِـىَ ٱلْقَنَـادِيـلُ فِـى ٱلْمَحَـارِيـبِ
يُخْصِـبُ وَجْـهُ ٱلثَّـرَى وَيَسْتَعِـرُ ٱلْحَـرْبُ لِبِشْـرٍ مِنْهُـمْ وَتَقْطِيـبِ
إِذَا دَجَـا لَيْـلُ مَـأْزِقٍ رَفَعُـوا لَـهُ ذُبَـالًا عَلَـى ٱلْأَنَـابِيـبِ
كَـمْ سَلَبُـوا أَنْفُـسَ ٱلْفَـوَارِسِ فِـى ٱلـرَّوْعِ وَعَفُـوا عَـنِ ٱلْأَسَـالِيـبِ

(١٢) غرار السيف حدّه – تليل الفرس : عنقه المنتصب – واليَعْبوبُ : الفرسُ السريع .
(١٣) المذاكى من الخيل : النجيب – المقْرَبة : المطرودة – المقروب : فى القراب وهو جفن السيف وغمده .
(١٤) تأويب : رجوع وامتناع ويقصد يوم سلام وامتناع عن القتال .
(١٥) المحروب : المنكوب .
(١٦) الخيم : الأصل أو السجيّة .
(١٧) الشناخيب : عِليةُ القوم .

وَٱرْتَجَعُوا بِٱلْقَنَا ٱلذَّوَابِلِ مِنْ … حَقٍّ لآلِ ٱلْعَبَّاسِ مَغْصُوبِ
فَكَمْ جَمِيلٍ لَهُمْ وَصُنْعِ يَدٍ … عَلَى جِبَاهِ ٱلأَنَامِ مَكْتُوبِ
عَلِقْتُ مِنْهُمْ بِذِمَّةٍ حَبْلُهَا … غَيْرُ سَحِيلٍ بِٱلْغَدْرِ مَقْضُوبِ (١٨)
يَا مَلِكًا ذَلَّلَ ٱلْمُلُوكَ بِتَّرْ … غِيبِ يَدٍ تَارَةً وَتَرْهِيبِ
رَأَبْتَ شَعْبَ ٱلدُّنْيَا وَكَانَ ثَأَى … ٱلإِسْلَامِ لَوْلَاكَ غَيْرَ مَشْعُوبِ (١٩)
رَوَّيْتَ آمَالَنَا ٱلْعِطَاشَ بِشُؤْ … بُوبِ عَطَاءٍ فِى إِثْرِ شُؤْبُوبِ (٢٠)
وَكَانَ يَا يُوسُفَ ٱلسَّمَاحِ بِنَا … إِلَى عَطَايَاكَ شَوْقُ يَعْقُوبِ
اَحشَاكَ أَنْ تُرْسِلَ ٱلصِّلَاتِ عَلَى … غَيْرِ نِظَامٍ وَغَيْرِ تَرْتِيبِ
سَوَّيْتَ بِى فِى ٱلْعَطَاءِ مَنْ لَايُجَا … رِينَى فِى مَذْهَبِى وَأُسْلُوبِى
وَغَيْرُ بِدْعٍ فَٱلسُّحْبُ مَا بَرِحَتْ … يَقِلُّ مِنْهَا حَظُّ ٱلأَهَاضِيبِ
وَٱلْحِذْقُ فِى مَا عَلِمْتُ مُكْتَسَبٌ … وَإِنَّمَا ٱلْحَظُّ غَيْرُ مَكْسُوبِ
وَلِى عَلَيْهِمْ فَضِيلَةُ ٱلسَّبْقِ فِى … مَدْحِكَ فَٱعْرِفْ سَبْقِى وَتَعْقِيبِى
شَأَوْتُهُمْ سَابِقًا وَصَلَّوْا فَمَنْ … أَوْلَى بِبِرٍّ مِنِّىَ وَتَقْرِيبِ (٢١)
وَلَسْتُ مِمَّنْ يَأْسَى لِمَا فَاتَ مِنْ … رِفْدٍ سَرِيعِ ٱلنَّفَادِ مَوْهُوبِ
لٰكِنَّهَا خُطَّةٌ يُضَامُ بِهَا … فَضْلِىَ وَٱلضَّيْمُ شَرُّ مَرْكُوبِ
شِعْرِىَ رَبُّ ٱلأَشْعَارِ قَاطِبَةً … وَهَلْ يُسَوَّى رَبٌّ بِمَرْبُوبِ
بِخَاطِرٍ كَٱلشِّهَابِ مُتَّقِدٍ … وَمِقْوَلٍ كَٱلْحُسَامِ مَذْرُوبِ (٢٢)

---

(١٨) سَحيل : الحبل الذى فتل فتلًا واحدًا ، وهو أضعف من المبرم .
(١٩) ثأى : فتق – مشعوب : مُفَرَّق أو مجموع ومكسور أو موصول من الأضداد – وهو هنا بمعنى مجموع ومجبور.
(٢٠) الشؤبوب : الدَّفعة من المطر.
(٢١) شَأَوتَهُمْ : سبقتهم ، والسابق الذى يأتى أولًا والمصلّى الثانى فى السباق .
(٢٢) مذروب : جادّ قوىّ .

أَمْسَتْ مُلُوكُ ٱلآفَاقِ تَخْطُبُهُ وَأَنْتَ دُونَ ٱلأَنَامِ مَخْطُوبِي
إِلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ ٱرْتَمَتْ بِبَنِي ٱلآمَالِ كُومُ ٱلْبُزْلِ ٱلْمَصَاعِيبِ (٢٣)
تَضْرِبُ أَكْبَادُهَا إِلَى مَشْرَفٍ رَحْبٍ بِأَعْلَى ٱلْفُسْطَاطِ مَضْرُوبِ
تَؤُمُّ بَحْرًا يَلْقَى مَوَارِدُهُ ٱلْوَفْدَ بِأَهْلٍ مِنْهَا وَتَرْحِيبِ
تَرْتَعُ مِنْ ظِلِّهِ وَنَائِلِهِ ٱلْعُفَاةُ فِي وَارِفٍ وَمَسْكُوبِ
تَسِيرُ مِنْ مَدْحِهِ خَوَاطِرُنَا فِي وَاضِحٍ بِٱلثَّنَاءِ مَلْحُوبِ (٢٤)
تَكْسُوهُ حَمْدًا تَبْقَى مَلَابِسُهُ وَٱلْحَمْدُ كَاسِيهِ غَيْرُ مَسْلُوبِ
سَحَابُ جُودٍ شِمْنَا بَوَارِقَهُ فَٱنْهَلَّ مُثْعَنْجِرَ ٱلشَّآبِيبِ (٢٥)
ذُو هَيْدَبٍ لِلْوَلِيِّ مُنْهَمِرٍ وَبَارِقٍ فِي ٱلْعَدْوِ أُلْهُوبِ (٢٦)
لَبَّى دُعَائِي مِنَ ٱلْعِرَاقِ وَقَدْ أُسْمِعُهُ بِٱلصَّعِيدِ تَثْوِيبِي (٢٧)
فَقَرَّبَ ٱلنَّازِحَ ٱلْبَعِيدَ وَلَمْ أُعْمِلْ إِلَيْهِ شَذِّي وَتَقْرِيبِي
يَقْرَعُ بَابِي عَفْوًا نَدَاهُ وَلَمْ أَقْرَعْ إِلَى بَابِهِ ظَنَابِيبِي (٢٨)
فَلَا عَدِمْنَا جَدْوَاكَ مِنْ هَتِنٍ مُجَلْجِلٍ بِٱلنَّوَالِ أُسْكُوبِ (٢٩)
وَلَا خَلَا جُودُكَ ٱلْمُؤَمَّلُ مِنْ وَفْدِ ثَنَاءٍ إِلَيْهِ مَجْلُوبِ

---

(٢٣) كومُ : القطعة أو الجماعة من الإبل ، البُزْل جمع بازِل ، وهو الفحل من الإبل ، والمصاعيب : جمع مُصْعَب وهو الفحل القوى .

(٢٤) ملحوب : ظاهر .

(٢٥) مُثعنْجِر : المثعنجرة من الجفان التى يفيض ما بها من الطَّعام ، وهى هنا بمعنى الفيَّاض – الشآبيب : دفعات المطر ورخّاته .

(٢٦) الهيدب : السحاب المنخفض الواليّ : المطر بعد المطر الأول « الوسْمِيّ – الألهوب : اجتهاد الفرس فى عدوه حتى يثير الغبار .

(٢٧) تثويبى : دُعَائى .

(٢٨) الظنبوبُ : عظمُ الساق ، وقرع ظنابيه : أتعب ساقيه فى السير .

(٢٩) هتِن : هطّال متتابع المطر – أسكوب مطر دائم السكوب .

وقال يمدح القاضى الفاضل أبا على عبد الرحيم وزير المملكة الصلاحية وأنفذها إليه بدمشق سنة ٥٧٢ :

عَسَى قَاعِدُ ٱلْحَظِّ يَوْمًا يَثِبْ ... فَيَسْفِرَ عَنْ وَجْهِهِ ٱلْمُنْتَقِبْ
وَيَفْرِجَ لِى عَنْ طَرِيقِ ٱلْعُلَى ... زِحَامَ ٱلْخُطُوبِ وَحَشْدَ ٱلنُّوَبْ
فَأُدْرِكَ أَبْعَدَ مَا يَرْتَمِى ... إِلَيْهِ مَرَامٌ وَيَسْمُو طَلَبْ
وَيُنْصِفَ جَائِرُ دَهْرٍ يُبَاعُ ... فِى سُوقِهِ ٱلدُّرُّ بِٱلْمَخْشَلَبْ (٣٠)
زَمَانِ نِفَاقٍ يُهَابُ ٱلثَّرَاءُ ... فِى أَهْلِهِ وَيُهَانُ ٱلْحَسَبْ
فَكَمْ لِىَ مِنْ بَتْرَةٍ عِنْدَهُ ... وَمِنْ طَىِّ أَيَّامِهِ مِنْ أُرَبْ
وَقَدْ غَرَّ أَبْنَاءَهُ أَنَّنِى ... ضَحِكْتُ وَمَا ضَحِكِى مِنْ عَجَبْ
فَظَنُّوا خُشُوعِى لَهُمْ ذِلَّةً ... وَتَحْتَ سُكُوتِىَ صِلٌّ يَثِبْ (٣١)
وَإِنَّ وَرَاءَ ٱبْتِسَامِى لَهُمْ ... فُؤَادًا بِأَشْجَانِهِ يَنْتَحِبْ
وَقَدْ يُرْعَدُ ٱلسَّيْفُ لَاخِيفَةً ... وَقَدْ يَنْثَنِى ٱلرُّمْحُ لَاعَنْ طَرَبْ
فَلِلَّهِ دَرُّ أَخِى عَزْمَةٍ ... رَأَى ٱلضَّيْمَ فِى مَوْطِنٍ فَٱغْتَرَبْ
فَمَا لِى رَضِيتُ بِدَارِ ٱلْهَوَانِ ... كَأَنْ لَيْسَ فِى ٱلْأَرْضِ لِى مُضْطَرَبْ
وَقَدْ حَدَّثَتْنِى مَعَالِى ٱلْأُمُورِ ... بِأَنِّى سَأُدْرِكُهَا عَنْ كَثَبْ
وَأَنِّى أَنَالُ إِذَا كُنْتُ جَارَ ... عَبْدِ ٱلرَّحِيمِ أَعَالِى ٱلرُّتَبْ
فَكَيْفَ وَأَحْبَبْتُهُ أَصْحَبُ ٱلْمَـ ... ـذَلَّةَ وَٱلْمَرْءُ مَعْ مَنْ أَحَبْ
هُوَ ٱلْمَرْءُ تَهْزَأُ أَقْلَامُهُ ... بِسُمْرِ ٱلْعَوَالِى وَبِيضِ ٱلْقُضُبْ

---

(٣٠) بالمَخشلَبِ : نوع من الخرز كان يصنع بالعراق .
(٣١) صل : الصِّل من خبيث الحيّات .

كَتَائِبُهُ فِي ٱلْوَغَى كُتْبُهُ   وَآرَاؤُهُ بَيْضُهُ وَالْيَلَبْ (٣٢)
كَرِيمُ ٱلْمَنَاسِبِ مُسْتَصْرَخٌ   لِسَتْرِ ٱلْعَوَارِ وَكَشْفِ ٱلْكُرَبْ
مِنَ ٱلْقَوْمِ لَا جَارُهُمْ مُسْلَمٌ   وَلَا حَبْلُ مِيثَاقِهِمْ مُنْقَضِبْ
تَذِلُّ لَهُمْ سَطَوَاتُ ٱلْأُسُودِ   وَتَشْقَى ٱلْبُدُورُ بِهِمْ وَٱلسُّحُبْ
بِهِمْ سَارَ ذِكْرِيَ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ   وَفَضْلِي إِلَى جُودِهِمْ مُنْتَسِبْ
وَلَمْ تَعْتَلِقْ حِينَ أَعْلَقْتُهَا   يَدِي مِنْهُمُ بِضَعِيفِ ٱلسَّبَبْ
وَصُلْتُ ٱلدَّهْرِ مِنْ بَأْسِهِمْ   بِعَضْبٍ إِذَا مَسَّ شَيْئًا قَضَبْ (٣٣)
وَعَوَّلْتُ مِنْهُمْ عَلَى مَاجِدٍ   إِذَا غَالَبَتْهُ ٱللَّيَالِي غَلَبْ
كَرِيمَ ٱلشَّمَائِلِ طَلْقِ ٱلْيَدَيْنِ   حُلْوِ ٱلْفُكَاهَةِ مُرِّ ٱلْغَضَبْ
هُوَ ٱلْغَيْثُ إِنْ عَمَّ جَدْبٌ أَنَابَ   وَٱللَّيْثُ إِنْ عَنَّ خَطْبٌ وَثَبْ
فَمُنْصُلُهُ مِنْ دِمَاءِ ٱلْعِشَارِ   أَوْ مِنْ دِمَاءِ ٱلْعِدَى مُخْتَضِبْ (٣٤)
جَوَادٌ تُزَمُّ مَطَايَا ٱلرَّجَاءِ   إِلَى بَابِهِ وَرِكَابُ ٱلطَّلَبْ (٣٥)
فَلَا ظِلُّ إِحْسَانِهِ قَالِصٌ   وَلَا شَمْسُ مَعْرُوفِهِ تَحْتَجِبْ
إِذَا قَالَ أَبْدَعَ فِيمَا يَقُولُ   وَإِنْ جَادَ أَجْزَلَ فِيمَا يَهَبْ
نَدًى يَسْتَمِيلُ فُؤَادَ ٱلْحَسُودِ   وَبَأْسًا يَرُدُّ ٱلْخَمِيسَ ٱللَّجِبْ (٣٦)
وَقَى عِرْضَهُ وَحَمَى جَارَهُ   وَأَمْوَالُهُ عُرْضَةٌ تُنْتَهَبْ
عَلَى ثِقَةٍ أَنَّهُ لَيْسَ بِالْمُحَـ   ـصَّلِ مِنْهَا سِوَى مَا ذَهَبْ
وَلَوْلَا ٱلْأَجَلُّ تَفَانَى ٱلْكِرَامُ   وَغِيضَ ٱلسَّمَاحُ وَضِيمَ ٱلْأَدَبْ

---

(٣٢) اليلب : الدرُوعَ .
(٣٣) قضَب : قَطَع .
(٣٤) منصله سيفه – العشار : الإبل .
(٣٥) تزمّ : تشدّ بالزمام .
(٣٦) الخميس : الجيش – اللجب : الذى ارتفعت فيه أصوات الأبطال واختلطت .

وَلَمَّا تَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلرِّجَالِ ... لَجَأْتُ إِلَى عِيصِهِ ٱلْمُؤْتَشِبْ (٣٧)
فَأَنْضَبَ مَاءَ ٱلْوُجُوهِ ٱلسُّؤَالُ ... وَوَجْهِي بِجِمَّتِهِ مَا نَضَبْ (٣٨)
إِذَا ٱلْفَاضِلُ ٱلْمَاجِدُ ٱلْأَرْيَحِيُّ ... وَجَلَّتْ مَنَاقِبُهُ عَنْ لَقَبْ (٣٩)
سقَتْنِي يَدَاهُ فَقُلْ لِلْغَمَامِ ... مَتَى شِئْتَ فَأَقْلِعْ وَإِنْ شِئْتَ صُبْ
كَفَانِي نَدَاهُ سُرَى ٱلْيَعْمَلَاتِ ... وَوَخْدَ ٱلْقِلَاصِ ٱلْمَهَارِي ٱلنُّجُبْ (٤٠)
وَرَاضَتْ عَطَايَاهُ حَظِّي ٱلْحَرُونَ ... فَأَصْحَبَ فِي كَفِّهِ وَٱنْجَذَبْ
وَرَفَّتْ غُصُونِيَ بَعْدَ ٱلذُّبُولِ ... بِهِ وَٱكْتَسَى ٱلْعُودُ بَعْدَ ٱلسَّلَبْ
فَبَانَجْمَ سَعْدِي ٱلَّذِي لَا يَغِيبُ ... وَيَا غَيْثَ أَرْضِي ٱلَّذِي لَا يَغِبْ
فَذَاكَ بَخِيلٌ عَلَى مَالِهِ ... يَعُدُّ ٱلْمَنَاقِبَ جَمْعَ ٱلذَّهَبْ
بَطِيءُ ٱلْمَسَاعِي عَنِ ٱلْمَكْرُمَاتِ ... سَرِيعٌ إِلَى مُوبِقَاتِ ٱلرُّتَبْ
إِذَا عَقَدَتْ كَفُّهُ مَوْعِدًا ... لَوَاهُ وَإِنْ قَالَ قَوْلًا كَذَبْ
يَرُدُّ مُؤَمِّلَهُ خَائِبًا ... يُرَدِّدُ « وَاسَوْأَةَ ٱلْمُنْقَلَبْ »
يُسِرُّ ٱلْعَدَاوَةَ فِي نَفْسِهِ ... وَشَرُّ ٱلْحَقِيبَةِ مَا يَحْتَقِبْ
يَرَاكَ فَتَبْسُرُ أَعْضَاؤُهُ ... وَفِي صَدْرِهِ جَذْوَةٌ تَلْتَهِبْ
فَخُذْ مِنْ ثَنَائِكَ مَا أَسْتَطِيعُ ... فَنُطْقِي يُقَصِّرُ عَمَّا يَجِبْ
وَدُونَكَ مِنِّي ثَنَاءَ ٱلْوَلِيِّ ... يُخَلِّصُهُ وَدُعَاءَ ٱلْمُحِبْ
عَرَائِسَ مَا كُنْتُ فِي نَظْمِهَا ... بِخَابِطِ لَيْلٍ وَلَا مُحْتَطِبْ (٤١)

---

(٣٧) العيص : الشجر الكثير الملتف – المؤتشب : المتجمّع المختلط .

(٣٨) جمّة البئر ونحوها : ما تراجع من مائها بعد الأخذ منه .

(٣٩) الأريحيّ : واسع الخلق النشيط إلى المعروف والندى .

(٤٠) اليعملات : جمع يعمله وهى الناقة السريعة – القلوص : جمع القلوص وهي الناقة – المهارى : نوق كريمة تنسب إلى قبيلة مهرة .

(٤١) خابط ليل أى يسير على غير هدى ، وحاطب ليل أى يتكلّم بالغث والسمين أو يجنى على نفسه لعدم تفقد أمره وكلامه .

مِــنَ ٱلْعَــرَبِيَّــاتِ لَمَّــا يُـزَنَّ وَالِــدُهُـــنَّ وَلَمَّــا يَخُــبْ
فَــأَضْحَــتْ بِهِــنَّ صُــدُورُ ٱلــرُّوَاةِ مَمْلُــوءَةً وَبُطُــونُ ٱلْكُتُــبْ
وَسِيــرَتُهَــا فِيـكَ تَطْــوِى ٱلْبِـلَادَ فَــأَىَّ حُــزُونٍ فَــلًا لَــمْ تَجُــبْ [٤٢]
وَجَــوَّدَهَــا فيــكَ أَنّــي بِهَــا مُــوَالٍ لِمَجْــدِكَ لَامُكْتَسِــبْ
فَــلَا زِلْــتَ وَارِثَ عُمْــرِ ٱلــزَّمَــانِ تُبْلِــى ثِيَــابَ ٱلْبَقَــاءِ ٱلْقُشُــبْ [٤٣]
تُبَشِّــرُ مُلْكَــكَ أَعْــوَمُــهُ بِكَــرِّ ٱلسِّنِيــنَ وَمَــرِّ ٱلْحِقَــبْ

* * *

وقال فى ذم الزمان :

وَا عَجَبِى وَحَادِثُ ٱلدَّهْرِ كَثِيرُ ٱلْعَجَبِ
لَمْ يُبْقِ لِى صُرُوفُهُ فِى لَذَّةٍ مِنْ أَرَبِ
قَدْ ذَهَبَتْ أَيَّامُ ٱلشَّبَابِ ٱلْمُذْهَبِ
وَأَخْلَقَتْ جِدَّةُ أَثْوَابِ ٱلشَّبَابِ ٱلْقُشُبِ
وَنَفَّرَ ٱلْبِيضَ ٱلدُّمى بَيَاضُ فَوْدَى ٱلْأَشْيَبِ
وَنَجَمَتْ فِى لِمَّتِى طَوَالِعٌ كَالشُّهُبِ [٤٤]
مُؤْذِنَةٌ أَنْ أَتَوَلَّى بَعْدَهَا عَنْ كَثَبِ
وَٱلطَّالِعُ ٱلشَّارِقُ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مَغْرِبِ [٤٥]

---

(٤٢) حُزُون : جمع حزْن وهو ما غلظ من الأرض – فلا : جمع فلاة ، وهى الصحراء الواسعة .
(٤٣) القشب : جمع القشيب وهو الجديد النظيف .
(٤٤) اللمّة : شعر الرأس المجاور شحمة الأذن .
(٤٥) الشارق : الشمس .

آهِ لِعُمْرِى مِـنْ يَـدَىْ مُخْتَطِـفٍ مُنْتَهِـبِ
يَنْهَبُـهُ كَـرُّ ٱللَّيَـالِــى وَٱخْتِـلَافُ ٱلْحِقَــبِ
هَـذَّبَنِــى دَهْـرِى وَمَـا دَهْـرِىَ بِـٱلْمُهَـذَّبِ
وأطلقـــت الأيـــام حـــد مَضـــربِــى
يـا سَعَـةَ ٱلْأَيَّـامِ مَا أَضْيَـقَ فِيـكِ مَـذْهَبِـى
وَيَـا لَيَـالِـى ٱسْفِـرِى بِـٱلْحَـظِّ أَوْ فَـٱنْتَقِبِـى
فَمَـا يَلِيـنُ لِـوُثُـوقِ ٱلْحَـادِثَـاتِ مَنْكِبِـى
وَصَاحِبٍ مُضطرِبِ ٱلرَّأْيِ غَرِيبِ ٱلْمَذْهَبِ
يَتْـرُكُنِـى مُـرَدَّدًا بَيْـنَ ٱلـرِّضَـا وَٱلْغَضَـبِ
لَاأَنَـا بِـٱلْمُبَعَّـدِ ٱلْأَقْصَـى وَلَا ٱلْمُقْتَـرِبِ
أَخْـدِمُـهُ بِـٱلْعُرْيِ وَٱلْجُـوعِ وَطُـولِ ٱلتَّعَـبِ
فَيَـا لَهَـا بَلِيَّـةً أَعُـــدُّهَــا فِـى ٱلنُّـوَبِ
لِى عِنْـدَهُ وِرْدُ ظمٍ ظَامٍ وَمَرْعَـى سَغِبِ (٤٦)
فَلَيْتَـهُ إِذْ كَـانَ لَايَسْمَـحُ لِـى يَسْمَــحُ بِـى

* * *

وقال أيضا فى سنة ٥٥٣ :

أَتَجْــزَعُ لِلْفِــرَاقِ وَهُــمْ جِــوَارُ ... فَكَيْــفَ إِذَا نَــأَتْ بِهِــمُ ٱلـدِّيَــارُ
وَرُحْــتَ وَفِــى ٱلْهَــوَادِجِ مِنْـكَ قَلْـبٌ ... يَسِيـرُ مَـعَ ٱلرَّكَـائِبِ حَيْـثُ سَـارُوا
وَقُطِّعَــتِ ٱلْمَــوَاثِــقُ مِــنْ سُلَيْمَــى ... وَشَـطَّ بِهَــا وَجِيـرَتِهَـا ٱلْمَـزَارُ

---

(٤٦) الورد : الماء الذى يورد - ظمِىء وظامىء : عطشان - سغِب : جائع .

وَأَضْحَـــتْ لَايَـــزُورُلِهَـــا خَيَـــالٌ عَلَـــى نَهْـــيِ ٱلْمُحِـــبِّ وَلَا يُـــزَارُ
فَيَـــا للهِ مَـــا تَنْفَـــكُّ صَبًّـــا يَشُـــوقُـــكَ مَنْـــزِلٌ أَقْـــوَى وَدَارُ(٤٧)
تَحِـــنُّ إِذَا بَـــدَا بِـــالْغَـــوْرِ وَهْنَـــا وَمِيـــضٌ أَوْ أَضَـــاءَتْ مِنْـــهُ نَـــارُ(٤٨)
سَقَـــى اللهُ الْعَقِيـــقَ وَإِنْ شَجَتْنِـــي صَبَـــابَـــاتٌ إِلَيْـــهِ وَادِّكَـــارُ
فَفِـــي عُقُـــدَاتِ ذَاكَ الـــرَّمْـــلِ ظَبْـــيٌ نَفُـــورٌمَـــا أَنِسَـــتْ بِـــهِ نَـــوَارُ(٤٩)
يَصِيـــدُ وَلَا يُصَـــادُ وَمُقْلَتَـــاهُ تُصِيـــبُ وَلَا يُصَـــابُ لَـــدَيْـــهِ ثَـــارُ
لَـــهُ خَصْـــرٌ يَجُـــولُ الْحُقْـــبُ فِيـــهِ وَأَرْدَافٌ يَضِيـــقُ بِهَـــا الْإِزَارُ(٥٠)
فَـــلَا عَطْـــفٌ لَـــدَيْـــهِ وَلَا وِصَـــالٌ وَلَا جَلَـــدٌ لَـــدَيَّ وَلَا اصْطِبَـــارُ
فَيَـــا لَمْيَـــاءُ مَـــنْ لِقَتِيـــلِ شَـــوْقٍ مُطَـــاحٍ فِـــي الْهَـــوَى دَمُـــهُ جُبَـــارُ(٥١)
وَدَاءٍ لَا يُصَـــابُ لَـــهُ دَوَاءٌ وَعَـــانٍ لَا يُفَـــكُّ لَـــهُ إِسَـــارُ
أَمِيـــلُ إِذَا ادَّكَـــرْتُ هَـــوًى وَشَـــوْقًـــا كَمَـــا مَـــالَـــتْ بِشَـــارِبِهَـــا الْعُقَـــارُ
وَأَطْـــرَبُ وَالْمَشُـــوقُ لَـــهُ انْتِشَـــاءٌ إِذَا ذُكِـــرَتْ لَيَـــالِيـــهِ الْقِصَـــارُ
وَلَائِمَـــةٍ تَعِيـــبُ عَلَـــيَّ فَقْـــرِي إِلَيْـــكَ فَمَـــا لِبَـــاسُ الْفَقْـــرِ عَـــارُ
وَمَـــا أَنَـــا مَـــنْ يُـــرَوِّعُـــهُ اغْتِـــرَابٌ وَلَا يَغْتَـــاقُـــهُ وَطَـــنٌ وَدَارُ
وَلٰكِنِّـــي أَعُـــدُّ لَهَـــا اللَّيَـــالِـــي وَعِنْـــدَ بُلُـــوغِهَـــا تَحْلُـــو الثِّمَـــارُ
وَلَسْـــتُ عَلَـــى الْخَصَـــاصَـــةِ مُسْتَكِينًـــا فَيُعْطِبَنِـــي لَـــدَى الْيُسْـــرِ الْيَسَـــارُ(٥٢)

(٤٧) أقوى : خلا .
(٤٨) وهنًا أى نحو نصف الليل .
(٤٩) عقدات الرمل : المتراكم منه .
(٥٠) الحقب : الحزام .
(٥١) دمه جبار أى هدر، لاقصاص فيه ولاغرم .
(٥٢) الخصاصة : الفقر والحاجة - يعطبنى : يهلكنى .

عَرَفْتُ ٱلدَّهْرَ عِرْفَانًا تَسَاوَى ... بِهِ عِنْدِى ثَرَاءٌ وَٱفْتِقَارُ
أَمَا لِحَوَامِلِ ٱلْآمَالِ عِنْدِى ... نِتَاجٌ وَهْىَ مُثْقَلَةٌ عِشَارُ
أَمَا لِلْبَدْرِ مَا يَبْدُو لِعَيْنِى ... مَطَالِعُهُ لَقَدْ طَالَ ٱلسِّرَارُ(٥٣)
وَأَمَا مَلَّتْ مَرَابِطَهَا ٱلْمَذَاكِى ... أَمَا سَئِمَتْ حَمَائِلَهَا ٱلشِّفَارُ(٥٤)
أَمَا ظَمِئَتْ فَتَسْتَسْقِى بَنَانِى ... رِقَاقُ ٱلْبِيضِ وَٱلْأَسَلُ ٱلْحِرَارُ(٥٥)
إِذَا لَمْ تَبْغِ مَجْدًا فِى شَبَابٍ ... أَتَطْلُبُهُ وَقَدْ شَابَ ٱلْعِذَارُ
عَلَامَ تَأَسُّفِى إِذْ حُمَّ بَيْنٌ ... وَلَا قُرْبٌ يَسُرُّ وَلَا جِوَارُ
عَلَى أَنِّى وَإِنْ جَرَّدْتُ عَزْمًا ... وَقَلْبًا لَا يُرَاعُ فَيُسْتَطَارُ
وَجُبْتُ ٱلْأَرْضَ تَلْفُظُنِى ٱلْمَرَامِى ... وَتُنْكِرُنِى ٱلسَّبَاسِبُ وَٱلْقِفَارُ(٥٦)
أُحَاوِلُ مِثْلَ مَجْدِ ٱلدِّينِ جَارًا ... بِهِ عِنْدَ ٱلْحَوَادِثِ يُسْتَجَارُ
وَأَنْدَى رَاحَةً مِنْهُ وَكَفًّا ... وَقَدْ جَمَدَتْ مِنَ ٱلسَّنَةِ ٱلْقِطَارُ(٥٧)
وَأَمْضَى مُقْدَمًا فِى ٱلرَّوْعِ مِنْهُ ... إِذَا ٱلْأَبْطَالَ أَعْجَلَهَا ٱلْفِرَارُ
وَأَرْحَبَ سَاحَةً مِنْهُ وَدَارًا ... إِذَا ضَاقَتْ بِسَاكِنِهَا ٱلدِّيَارُ
تَكَفَّلَ أَنْ يُرِى لِلْأَرْضِ جُودًا ... وَمَا كَفِلَتْ بِهِ ٱلسُّحْبُ ٱلْغِزَارُ
وَأَقْسَمَ أَنْ يُذَمَّ مِنَ ٱللَّيَالِى ... فَمَا يَخْشَى ٱلْخُطُوبَ لَدَيْهِ جَارُ
إِذَا ٱكْتَحَلَتْ بِهِ ٱلْأَبْصَارُ أَغْضَتْ ... وَفِيهَا مِنْ مَهَابَتِهِ ٱنْكِسَارُ

---

(٥٣) السرار : آخر الشهر أوان اختفاء القمر معظم الليل .
(٥٤) المذاكي : الخيل النجيبة – الشفار : جمع شفرة وهي حدّ السيف .
(٥٥) الأسل الحرار : الرماح العطشى .
(٥٦) السباسب : الصحراوات الشاسعة .
(٥٧) القطار : المطر .

فَيُرْجِعُهَا عَلَى ٱلأَعْقَابِ حَسْرَى بِهُدَّابِ ٱلْجُفُونِ لَهَا عِثَارُ
يَلِينُ تَوَاضُعًا وَبِهِ ٱعْتِلَاءٌ وَيُعْرِضُ صَافِحًا وَلَهُ ٱقْتِدَارُ
إِذَا أَمْسَى يُفَاخِرُهُ بِمَجْدٍ طَرِيفُ ٱلْمَجْدِ لَيْسَ لَهُ ٱفْتِخَارُ
تَذُبُّ ذَخَائِرُ ٱلأَمْوَالِ عَنْهُ وَيَخْذُلُهُ ٱلْخَلِيقَةُ وَٱلنِّجَارُ(٥٨)
يُسَمَّى ضَلَّةً بِٱلْمُلْكِ قَوْمٌ سِوَاكَ وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُسْتَعَارُ
أَكُفُّهُمُ وَإِنْ بَذَلُوا جُمُودٌ وَأَنْفُسُهُمْ وَإِنْ كَرُوا صِغَارُ
وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَمْسَوْا مُلُوكًا وَهُمْ أَهْلُ ٱلْبَضَائِعِ وَٱلتِّجَارُ
جَبِينٌ لَا يُضِيءُ عَلَيْهِ تَاجٌ وَكَفٌّ لَا يَلِيقُ بِهِ ٱلسِّوَارُ
وَكَمْ مِنْ غَارَةٍ شَعْوَاءَ تُمْسِي لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ أُوَارُ(٥٩)
تَجِيشُ بِهَا صُدُورُ ٱلْقَوْمِ حَتَّى تَكَادُ تَطِيرُ بَيْنَهُمُ ٱلشِّرَارُ
إِذَا حَسَرَ ٱلْكَمِيُّ بِهَا لِثَامًا غَدَا وَلِثَامُهُ ٱلنَّقْعُ ٱلْمُثَارُ
تَكَادُ تَطِيرُ مِنْ دَهَشٍ قُلُوبُ ٱلْفَوَارِسِ لَوْ يَكُونُ لَهَا مَطَارُ
تَلَقَّاهَا بِرَأْيٍ غَيْرِ نَابٍ وَعَزْمٍ لَا يُفَلُّ لَهُ غِرَارُ
فَقَادَ صِعَابَهَا وَبِهَا جِمَاحٌ وَأَخْمَدَ نَارَهَا وَلَهَا ٱسْتِعَارُ
أَقَائِدَهَا مُسَوَّمَةً عِرَابًا شَوَارِدَ لَا يُشَقُّ لَهَا غُبَارُ
أَلَسْتَ مِنَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ مَضَاءٌ إِذَا نَبَتِ ٱلصَّوَارِمُ وَٱلشِّفَارُ
إِذَا شَهِدُوا ٱلْوَغَى فَهُمُ لُيُوثٌ وَإِنْ سُئِلُوا ٱلنَّدَى فَهُمُ بِحَارُ

---

(٥٨) النجار: الأصل والحسب.
(٥٩) الأوار: حرّ الشمس والنار.

وَإِنْ ضَنَّتْ غَوَادِى ٱلْمُزْنِ صَابُوا حَيًّا وَإِذَا دَجَى خَطْبٌ أَنَارُوا[٦٠]
وَإِنْ أَوْمَوْا إِلَى غَرَضٍ بَعِيدٍ أَصَابُوهُ وَإِنْ شَهِدُوا أَغَارُوا
وَتَثْبُتُ فِى أَكُفِّهِمُ ٱلْعَوَالِى وَتَزْلُقُ فَوْقَهَا ٱلْبِدَرُ ٱلنِّضَارُ[٦١]
لَهُمْ لُطْفٌ عَلَى ٱلْجَانِى رَحِيبٌ لَهُمْ عُرْفٌ وَفِى ٱلْخَمْرِ ٱلْخُمَارُ
وُجُوهٌ كَٱلشُّمُوسِ لَهَا ضِيَاءٌ وَأَحْسَابٌ كَمَا ٱتَّضَحَ ٱلنَّهَارُ
وَأَحْلَامٌ إِذَا ٱلْأَطْوَادُ طَاشَتْ رَسَتْ وَلَهَا ٱلسَّكِينَةُ وَٱلْوَقَارُ
هُمُ ٱلنَّجْمُ ٱلَّذِى إِنْ ضَلَّ سَارٍ هَدَاهُ بِنُورِهِ وَهُمُ ٱلْمَنَارُ
يَدُلُّ عَلَيْهِمُ بِيضُ ٱلسَّجَايَا إِذَا دَلَّتْ عَلَى ٱلْكُرَمَاءِ نَارُ
أَبَا ٱلْفَرَجِ ٱسْتَمِعْ مِنِّى ثَنَاءً لِغَيْرِكَ لَا يُبَاعُ وَلَا يُعَارُ
لَكُمْ نُظِمَتْ قَلَائِدُهُ وَفِيهِ عَلَى أَجْيَادِ غَيْرِكُمُ نِفَارُ
يَظَلُّ لَدَى بُيُوتِكُمُ وَيُمْسِى بِهَا وَلَهُ طَوَافٌ وَٱعْتِمَارُ
يَسِيرُ إِلَى نَوَالِكُمُ وَفِيهِ عُدُولٌ عَنْ سِوَاكُمْ وَٱزْوِرَارُ
قَوَافٍ تَسْحَرُ ٱلْأَلْبَابَ حَتَّى يُخَالُ بِهَا فُتُورٌ وَٱحْوِرَارُ
هِىَ ٱلْبِكْرُ ٱلْحَصَانُ يَقِلُّ مَهْرًا لَهَا غُرَرُ ٱلْمَطَافِيلِ ٱلْبِكَارُ[٦٢]
بَقِيتَ عَلَى ٱلزَّمَانِ بَقَاءَ مَلْكٍ يَدُورُ بِأَمْرِكَ ٱلْفَلَكُ ٱلْمُدَارُ
تُطِيعُكَ فِى تَصَرُّفِهَا ٱللَّيَالِى إِلَيْكَ ٱلْحُكْمُ فِيهَا وَٱلْخِيَارُ
لَكَ ٱلْعُمْرُ ٱلْمَدِيدُ وَلِلْأَعَادِى وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُهُمُ ٱلْبَوَارُ

* * *

---

(٦٠) غوادى المزن : السحاب يحمل الماء ويمطر غدوة - صابوا : جادوا .
(٦١) العوالى : الرماح- البِدَر : أكياس المال تقدم فى العطايا - النضار : وهو الذهب .
(٦٢) الحصان : العفيفة - المطافيل : جمع المطفل ذات الطفل من النوق ، القريبة العهد بالنتاج .

وقال فى عدة فنون مختلفة منها رمى البندق :

حُيِّيتِ يَا دَارَ ٱلْهَوَى مِنْ دَارِ ... وَلَا عَدَتْكِ ٱلسُّحْبُ ٱلسَّوَارِى (٦٣)
مُثْقَلَةً كَٱلْإِبِلِ ٱلْعِشَارِ ... بَاكِيَةً بِأَدْمُعٍ غِزَارِ
عَلَى ثَرَى رُسُومِكِ ٱلْقِفَارِ ... فَرُبَّ لَيْلَاتِ هَوًى قِصَارِ
تَصَرَّمَتْ فِيكِ عَلَى إِيثَارِى ... نِلْتُ بِهَا مَا شِئْتُ مِنْ أَوْطَارِى
أَعْقُرُ فِيهَا ٱلْهَمَّ بِٱلْعُقَارِ ... أَشْرَبُهَا بِجَذْوَةٍ مِنْ نَارِ
تَرْمِى مِنَ ٱلْحَبَابِ بِٱلشَّرَارِ ... حَمْرَاءَ أَوْ صَفْرَاءَ كَٱلدِّينَارِ
كَأَنَّهَا ذَوْبُ ٱلنُّضَارِ ٱلْجَارِى ... رَقَّتْ فَمَا تُدْرَكُ بِٱلْإِبْصَارِ
تَخَالُهَا فِى كَأْسِهَا ٱلْمُدَارِ ... إِيمَاضَ بَرْقٍ فِى ٱلظَّلَامِ سَارِى
بَاتَ بِهَا ٱلْأَسْمَرُ مِنْ سُمَّارِى ... مُطَرَّزَ ٱلْخَدَّيْنِ بِٱلْعِذَارِ
يُدِيرُ لَحْظًا مُرْهَفَ ٱلْغِرَارِ ... ذَا كُحُلٍ فِى ٱلطَّرْفِ وَٱحْمِرَارِ
وَهَيَفٍ فِى ٱلْخَصْرِ وَٱخْتِصَارِ ... وَقَامَةٍ قَامَتْ بِهَا أَعْذَارِى
رِيقَتُهُ كَٱلْعَسَلِ ٱلْمُشَارِ ... وَرِدْفُهُ أَثْقَلُ مِنْ أَوْزَارِى (٦٤)
يِقِلُّ مِنْ حِمَالِهِ ٱصْطِبَارِى ... وَدُمْيَةٍ قَصِيرَةِ ٱلزُّنَّارِ
مُشْبَعَةِ ٱلْخَلْخَالِ وَٱلسِّوَارِ ... كَأَنَّهَا بَدْرُ ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّارِى
جَلَّتْ عَنِ ٱلْمُحَاقِ وَٱلسِّرَارِ ... تُشْرِقُ مِنْ مَطَالِعِ ٱلْأَزْرَارِ
عَلِقْتُهَا فِى حَانَةِ ٱلْخَمَّارِ ... خَلَعْتُ فِى ٱلْحُبِّ بِهَا عِذَارِى
مَا لِأَخِى ٱلصَّبْوَةِ وَٱلْوَقَارِ ... وَلَمْ أَزَلْ مُنْهَتِكَ ٱلْأَسْتَارِ
أَقُولُ بِٱللِّثَامِ وَٱلْخِمَارِ ... وَٱلشُّرْبِ فِى ٱلْحَانَاتِ وَٱلْقِمَارِ

(٦٣) السوارى : التى تجىء ليلًا .
(٦٤) المشار : من شار العسل استخرجه من الخليّة .

وَأَعْشَــقُ ٱلْغِلْمَــانَ وَٱلْجَــوَارِى		أَعِيشُ فِـى ٱلـدُّنْيَـا عَلَـى ٱخْتِبَارِى
مِــنْ قَبْـلِ أَنْ يُــرْتَجَـعَ ٱلْعَــوَارِى		وَقَلَّمَــا فَكَّــرْتُ فِــى ٱلْإِعْسَــارِ
أَوْ خِفْــتُ مِــنْ غَــوَائِلِ ٱلْخُمَــارِ		أَجُــودُ فِــى عُسْــرٍ وَفِــى يَسَــارِ(٦٥)
وَكَــانَ عَيْــنُ ٱلــرِّبْـحِ فِــى ٱلْخَسَارِ		وَرَوْضَــةٍ مُــؤْنِقَــةِ ٱلْأَزْهَــارِ

* * *

مِسْكِيَّــةٍ أَنْفَــاسُهَــا مِعْطَــارِ		وَرِيقَــةِ ٱلْأَغْصَــانِ وَٱلْأَشْجَــارِ
مِــنَ ٱلــرِّيَــاضِ ٱلْأُنُــفِ ٱلْأَبْكَــارِ		تُثْنِى عَلَـى صَوْبِ ٱلْحَيَـا ٱلْمِدْرَارِ(٦٦)
بِــأَلْسُــنِ ٱلْحِــوْذَانِ وَٱلْعَــرَارِ		تَضْحَــكُ عَــنْ مَبَــاسِمِ ٱلنُّــوَارِ(٦٧)
مِــنْ نَــرْجِــسٍ غَــضٍّ وَجُلَّنَــارِ		بَــاتَ بِهَــا جَــوْدٌ مِــنَ ٱلْأَمْطَــارِ
فَــأَصْبَحَــتْ مَــوْشِيَّــةَ ٱلْأَقْطَــارِ		فِــى حُلَــلِ ٱلشَّقِيــقِ وَٱلْبَهَــارِ
كَــأَنَّهَــا لَطِيمَــةُ ٱلْعَطَّــارِ		تَنَفَّسَــتْ مِــنْ مَنْــدَلٍ وَغَــارِ(٦٨)
يَشُقُّهَــا جَــدْوَلُ مَــاءٍ جَــارِ		عَــذْبٌ قَــرِيــبُ ٱلْعَهْــدِ بِــٱلْقِطَــارِ
صَــافٍ مِــنَ ٱلْأَقْــذَاءِ وَٱلْأَكْــدَارِ		أَرَقُّ مِــنْ دَمْعِــى وَمِــنْ أَشْعَــارِى
يَبُــوحُ لِلْــوَارِدِ بِــٱلْأَسْــرَارِ		حَتَّــى يَــرَى مَــا سَــاخَ فِـى ٱلْقَــرَارِ
بَــاكَــرْتُهَــا وَلِلْعُلَــى ٱبْتِكَــارِى		وَٱللَّيْــلُ قَــدْ وَلَّــى عَلَــى ٱلْأَدْبَــارِ
وَجَيْشُــهُ قَــدْ هَــمَّ بِــٱلْفِــرَارِ		فَغَــرَّنَــا بِــالْكَــوَاكِــبِ ٱلْغَــرَّارِ
وَٱلطَّيْــرُ مَــا بَــانَــتْ عَــنِ ٱلْأَوْكَــارِ		وَٱلصُّبْــحُ قَــدْ آذَنَ بِــٱلْإِنْفَــارِ

---

(٦٥) الخُمار : ما يصيب الشارب من ألم وصداع .
(٦٦) الأنف : التى لم ترع من قبل – الحيا المدرار : المطر الغزير المنصبّ .
(٦٧) الحواذن والعرار من ريحان البادية .
(٦٨) اللطيمة : وعاء المسك – الندل : عود طيب الرائحة – الغار : شجر برىّ دائم الخضرة .

بِفِتْيَةٍ غُرٍّ ذَوِى أَخْطَارِ ... أَمَاجِدٍ أَكَارِمٍ أَحْرَارِ
قَدْ عُرِفُوا بِالصِّدْقِ فِى الْأَخْبَارِ ... وَكُلِّ رَامٍ بَطَلٍ كَرَّارِ
أَغْلَبَ مَشَّاءٍ عَلَى الْأَخْطَارِ ... كَأَنَّهُ لَيْثُ عَرِينٍ ضَارِ
أَرْوَعَ لَا يَرْهَبُ غَيْرَ الْعَارِ ... زَاكِى الْفُرُوعِ طَاهِرَ النِّجَارِ
مُهَذَّبٍ مِنْ كُلِّ عَارٍ عَارِ ... حَتَّى وَرَى زَنْدُ النَّهَارِ الْوَارِى
فَجَلَّلَ الْآفَاقَ بِالْأَنْوَارِ ... وَأَقْبَلَتْ عَصَائِبُ الْأَطْيَارِ
فِى جَحْفَلٍ مِنْ جَيْشِهَا جَرَّارِ ... مُخْتَلِفَاتِ السَّمْتِ وَالْمَطَارِ
مُلَوَّنَاتِ الْقُمْصِ وَالْأَطْمَارِ ... مِنْ أَبْيَضٍ كَرِزَمِ الْقَصَّارِ(٦٩)
مُشْتَهِرٍ كَالْفَارِسِ الْمِغْوَارِ ... تخَالُهُ مِنْ وَضَحِ النَّهَارِ
مِنِ ابْيِضَاضٍ مِنْهُ وَاحْمِرَارِ ... مُؤَلَّفًا مِنْ بَرَدٍ وَنَارِ
وَأَبْلَقٍ مُشَمَّرِ الْإِزَارِ ... مِزَرَّهُ الْأَحْمَرُ كَالْعُقَارِ(٧٠)
فِى يَلْمَقٍ مُحَلَّلِ الْأَزْرَارِ ... أَلِفَ مِنْ لَيْلٍ وَمِنْ نَهَارِ(٧١)
وَنَازِحِ الْأَهْلِ بَعِيدِ الدَّارِ ... جَبْهَتُهُ صَفْرَاءُ كَالدِّينَارِ
كَأَنَّهُ الذِّمِّىُّ فِى الْغِيَارِ ... صَلْتِ الْجَبِينِ أَسْوَدِ الْعِذَارِ(٧٢)
كَأَنَّمَا شِفَارُهُ مِنْ قَارِ ... فَسَاقَهُ الْحَيْنُ إِلَى الْمِقْدَارِ
فَخَرَجَتْ لِلرَّعْىِ وَالْإِصْحَارِ ... مُوقِنَةً بِقِصَرِ الْأَعْمَارِ
عَلَى شَفًا مِنْ جُرُفٍ مُنْهَارِ ... وَهَاجَنَا شَوْقٌ إِلَى الْبِدَارِ(٧٣)

---

(٦٩) الأطمار بمعنى الثياب – الرِّزَم : جمع الرِّزمة وهى ما جمع فى شىء واحد كرزمة الثياب – القَصَّار : الذى يبيّض الثياب ويدقّها .

(٧٠) الأبلق : ما كان فيه سواد وبياض .

(٧١) اليلمق : القباء وهو ثوب يلبس فوق الثياب أو القمص ويتمنطق عليه .

(٧٢) صلت : واضح فى سعة وبريق .

(٧٣) الجُرُف : شق الوادى إذا حفر الماءُ فى أسفله .

مِلْنَـا إِلَـى سُحْـمٍ كَلَـوْنِ ٱلْقَـارِ   قَـدْ ظَهَـرَتْ بِـأَلْـذَّهَـبِ ٱلنُّضَـارِ(٧٤)
تُحَــلُّ عَنْهَــا عُقَــدُ ٱلْأَسْتَــارِ   يُطْلِقُهَــا مِــنْ رِبْقَــةِ ٱلْإِسَــارِ
كَــأَنَّهَــا ٱلْأَسَــاوِدُ ٱلضَّــوَارِى   مَنْسُــوبَــةً إِلَـى ٱلْقَنَــا ٱلْخَطَّــارِ(٧٥)
تُعْــزَى إِلَــى نَــارٍ وَأَىِّ نَــارِ   لَيْـسَ لَـهُ فِـى ٱلْحِـذْقِ مِـنْ مُبَـارِ
نَبِيضُهَــا فِــى ظُلَــمِ ٱلْأَسْحَــارِ   أَلَــذُّ لِــى مِــنْ نَغَــمِ ٱلْأَوْتَــارِ
نِعْــمَ ٱخْتِيَــارُ ٱلْحَــاذِقِ ٱلْمُخْتَــارِ   يَــرُوقُ حُسْنًــا أَعْيُــنَ ٱلنُّظَّــارِ
لٰكِنَّهَــا قَبِيحَــةُ ٱلْآثَــارِ   حَــذَارِ مِــنْ أَسْهُمِهَــا حَــذَارِ
فَــإِنَّهَــا أَمْضَــى مِــنَ ٱلشِّفَــارِ   وَمِــنْ صُــدُورِ ٱلْأَسَــلِ ٱلْحِــرَارِ
مُشْتَبِهَــاتِ ٱلْقَــدِّ وَٱلْمِقْــدَارِ   كَــأَنَّهَــا قُــذْفٌ مِــنَ ٱلْأَحْجَــارِ
صِغَــارُهَــا أَدْهَــى مِــنَ ٱلْكِبَــارِ   صَــاعِــدَةً فِــى الــرَّهَــجِ ٱلْمُثَــارِ
أَسْــرَعُ مِــنْ نَــوَازِلِ ٱلْأَقْــدَارِ   بِمِثْلِهَــا مِــنْ أَسْهُــمٍ عَــوَارِى
هِيــضَ جَنَــاحُ ٱلنَّــاظِــرِ ٱلطَّيَّــارِ   تُصْمِيــهِ قَبْــلَ ٱلنَّــزْعِ وَٱلْإِبْــدَارِ(٧٦)
تَغُــورُ مِــنْ جُــؤْجُــؤِهِ فِــى غَــارِ   تَــوَلُّــجَ ٱلثَّعْلَــبِ فِــى ٱلْــوِجَــارِ(٧٧)
بَــرْحًــا لِكُــلِّ مُحْصَــدٍ مُغَــارِ   أُحْكِــمَ بِــٱلْإِحْصَــافِ وَٱلْإِمْــرَارِ(٧٨)
أَصْفَــرَ لَا يُعَــابُ بِــٱصْفِــرَارِ   فِــى كَــفِّ نَقَّــاعٍ بِــهِ ضَــرَّارِ
قَــدْ عُضِــدَتْ يُمْنَــاهُ بِــٱلْيَسَــارِ   فَلَــمْ يَــزَلْ فِــى لُجَــجِ ٱلْغِمَــارِ
يُعْجِلُهَــا رَمْيًــا عَــنِ ٱلْغِــرَارِ   رَمْيًــا دِرَاكًــا كَلَهِيــبِ ٱلنَّــارِ(٧٩)

---

(٧٤) سُحْم : جمع أسحم وهو الأسود .
(٧٥) الخطار : أى الطعّان .
(٧٦) تصميه : تصيبه .
(٧٧) الجؤجؤ : مجتمع رءوس عظام الصدر – تولُّج : دخول – الوجار : الجحر .
(٧٨) محصد ومغار بمعنى مفتول فتلا محكمًا شديدا – الإحصاف والإمرار : الإحكام .
(٧٩) دراك : متلاحق متواصل .

أَخْفَــى مِــنَ ٱلْإِيمَــاءِ بِــاْلأَسْـرَارِ فَــاْنْتَشَــرَتْ بِقُــدْرَةِ ٱلْجَبَّــارِ
حَــوْلَ ٱلــرُّمَــاةِ أَيَّمَــا ٱنْتِشَــارِ كَــوَقْعَــةِ ٱلْكُــلَابِ أَوْذِى قَــارِ(٨٠)
فَلَــوْ تَــرَاهَــا فِــى ٱلــدَّمِ ٱلْمُمَــارِى خَــوَاضِــعَ ٱلْأَعْنَــاقِ وَٱلْأَبْصَــارِ
تَفْحَــصُ فِــى ٱلْوَعْــثِ وَفِــى ٱلْخَبَــارِ دَوَامِــىَ ٱلْأَطْــرَافِ وَٱلْأَعْشَــارِ(٨١)
قَــدْ رُمِيــتْ بِــاْلــذُّلِّ وَٱلصَّغَــارِ قَلِيلَــةَ ٱلْأَعْــوَانِ وَٱلْأَنْصَــارِ
حَسِبْتَهَــا نَحَــائِرَ ٱلْجَــزَّارِ فَكَــمْ أَرَقْنَــا مِــنْ دَمٍ جُبَــارِ
لَيْـسَ لَــهُ مِــنْ طَــالِــبٍ بِثَــارِ يَــا سَفْــرَةً وَافَــتْ عَــنِ ٱلْأَسْفَــارِ
وَبَــرْزَةً ثَــمَّ بِهَــا فِخَــارِى مُبَــارَكَ ٱلْإِيــرَادِ وَٱلْإِصْــدَارِ
قَضَيْــتُ فِــى ٱلــرَّمْــيِ بِهَــا أَوْطَــارِى وَفُقْــتُ بِــاْلحِــذْقِ عَلَــى ٱلنُّظَّــارِ
خَفَــرْتُ فِــى ٱلطَّيْــرِ بِهَــا ذِمَــارِى وَدَارُهَــا قَــرِيبَــةٌ مِــنْ دَارِى(٨٢)
وَكُنْــتُ لَا أُخْفِــرُ حَــقَّ ٱلْجَــارِ فَــزُرْتُهَــا بِــاْلحَتْــفِ وَٱلْبَــوَارِ
عَلَــى خِــلَافِ عَــادَةِ ٱلــزُّوَّارِ فَمَــا بَكَتْهَــا أَعْيُــنُ ٱلْأَوْتَــارِ
وَلَا رَعَتْهَــا حُــرْمَــةُ ٱلْجِــوَارِ وَعُــدْتُ عَــالِــى ٱلْجَــدِّ وَٱلْمَنَــارِ

بِــزَنْدِ إِقْبَــالٍ وَسَعْــدٍ وَارِى(٨٣)

* * *

(٨٠) الكلاب موضع أو ماء كانت عنده وقعة ، وللعرب بـه يومان مشهوران - يوم ذى قار : من أعظم أيام العرب ، وهو لبنى شيبان انتصروا فيه من العجم .
(٨١) الوعث : المكان السهل تغيب فيه الأقدام أو الطريق العسّير - الخبار : ما لان واسترخى من الأرض وساخت فيه قوائم الدواب .
(٨٢) خفرت ذمارى : نقضته وغدرت ، والذمار : ما ينبغى حياطته والذود عنه .
(٨٣) وارى : متّقد ، قد خرجت ناره .

وقال أيضًا :

يَـا زَمَـنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّـذِى مَسَّنِـى ... بِغَمْـرَةٍ لَيْـسَ لَهَـا كَـاشِـفُ (٨٤)
صَحِبْتُـهُ قِـدْمًـا فَمَـا سَـرَّنِـى ... سَـالِـفُ أَيَّـامِـى وَلَا ٱلْآنِـفُ
إِذَا كُلُـومُ ٱلْهَـمِّ دَاوَيْتُهَـا ... عَـادَ لَهَـا مِـنْ جَـوْرِهِ قَـارِفُ
وَكُلَّمَـا أَغْضَيْـتُ عَـنْ زَلَّـةٍ ... أَغْـرَاهُ عَفْـوِى بِـى فَيَسْتَـانِـفُ
يَخْضَـعُ مِنْـهُ لِلـدَّنَـايَـا عَلَـى ... غُـرَّتِهَـا ٱلْجَبْهَـةُ وَٱلسَّـالِـفُ (٨٥)
مَـا لَـكَ لَا يَنْفُـقُ فِـى سُـوقِ أَبْنَـا ... ئِكَ إِلَّا ٱلْبَهْـرَجُ ٱلـزَّائِفُ
فَكَـمْ أُدَاجِيهِـمْ عَلَـى أَنَّنِـى ... طَـبٌّ بِـأَدْوَائِهِـمُ عَـارِفُ (٨٦)
وَرُبَّ مَشَّـاءٍ عَلَـى عِلَّـةٍ ... وَهْـوَ إِذَا اسْتَثْبَتَّـهُ وَاقِـفُ
يَحْسُـدُنِـى ٱلنَّـاسُ عَلَـى مَـوْرِدٍ ... مُكَـدَّرٍ يَنْـزَحُـهُ ٱلـرَّاشِـفُ
وَصَـاحِـبٍ هَمِّـىَ مَـا سَـرَّهُ ... وَهْـوَ عَلَـى مَـا سَـاءَنِـى عَـاكِـفُ
إِذَا بَـدَتْ مِنِّـى لَـهُ هَفْـوَةٌ ... أَعْـرَضَ لَا يَعْطِفُـهُ عَـاطِـفُ
لَا يُـدْرِكُ ٱلْعَلْيَـاءَ إِلَّا فَتَـى ... آبٍ عَلَـى جَمْـلِ ٱلْإِسَـى عَـازِفُ
وَلَا يَنَـالُ ٱلْعِـزَّ حَتَّـى يُـرَى ... خَـابِـطَ لَيْـلٍ نَـوْؤُهُ وَاكِـفُ
فَـارْحَـلْ مَتَـى آنَسْـتَ ذُلًّا وَلَا ... يَعْتَـاقُـكَ ٱلتَّـالِـدُ وَٱلطَّـارِفُ
فَمَـا يَسُـومُ ٱلْخَسْـفَ إِلَّا هَـوًى ... أَوْ مَنْـزِلٌ أَنْـتَ بِـهِ آلِـفُ
لَا سَلِمَـتْ دَارٌ وَلَا خُلَّـةٌ ... أَنْـتَ عَلَـى آثَـارِهَـا تَـالِـفُ
يَـا دَوْلَـةً مَـا نَـالَنِـى خَيْـرُهَـا ... وَإِنَّنِـى مِـنْ شَـرِّهَـا خَـائِفُ

---

(٨٤) غمرة : شدّة .
(٨٥) السالفة : جانب العنق .
(٨٦) أداجى : أساتر بالعداوة ولا أبديها .

نَـاءَتْ صُـرُوفُ ٱلـدَّهْـرِ عَنْهَـا فَمَـا ... يَطُـوفُ لِلـذُّعْـرِ بِهَـا طَـائِفُ
فَـٱرْقُـبْ لَهَـا إِنْ رَقَـدَتْ فِتْنَـةً ... نَكْبَـاءَ شَـرٌّ رِيحِهَـا عَـاصِـفُ (٨٧)

* * *

وقال يهجو :

أَلَا مُنْصِـفٌ لِـيَ مِـنْ ظَـالِـمٍ ... تَمَلَّكَنِـي جَـوْرُهُ وَٱسْتَـرَقْ (٨٨)
وَأَصْبَحْـتُ مُـرْتَـزِقًـا رَاحَتَيْـهِ ... وَبِئْـسَ ٱلْمَعِيشَـةُ وَٱلْمُـرْتَـزَقْ
قَلِيـلُ ٱلصَّـوَابِ إِذَا مَـا ٱرْتَـأَى ... بَـذِيُّ ٱللِّسَـانِ إِذَا مَـا نَطَـقْ
كَثِيـرُ ٱلتَّحَيُّـفِ فِـي ظُلْمِـهِ ... إِذَا أَخَـذَ ٱللَّحْـمَ يَـوْمًـا عَـرَقْ (٨٩)
يَضِـنُّ عَلَـى ٱلنَّـاسِ مِـنْ بُخْلِـهِ ... بِـرُوحِ نَسِيـمِ ٱلصَّبَـا ٱلْمُتَنَشَّـقْ
وَلَـوْ كَـانَ يَقْـدِرُ مِـنْ لُـؤْمِـهِ ... حَمَـى ٱلطَّيْـرَ أَنْ يَسْتَظِـلَّ ٱلْـوَرَقْ
يُظَـاهِـرُ لِلنَّـاسِ يَـوْمَ ٱلسَّـلَامِ ... لِبَـاسًـا جَـدِيـدًا وَعِـرْضًـا خَلَـقْ (٩٠)
وَيَنْعَـرُ فِـي دَسْتِـهِ مُجْلِبًـا ... فَتُقْسِـمُ أَنَّ حِمَـارًا نَهَـقْ (٩١)
فَـلَا عِـرْضُـهُ قَـابِـلٌ لِلثَّنَـاءِ ... وَلَا عِطْفُـهُ بِـٱلْمَعَـالِـي عَبِـقْ
وَلَيْـسَ لَـهُ مِـنْ سَجَـايَـا ٱلْمُلُـوكِ ... غَيْـرُ ٱللَّجَـاجِ وَسُـوءِ ٱلْخُلُـقْ
يُحَـاسِـبُ ذَبَّـاحَـهُ بِـٱلْكُبُـودِ ... وَطَبَّـاخَـهُ بِكِسَـارِ ٱلطَّبَـقْ
وَإِنْ جِئْـتَ يَـوْمًـا إِلَـى بَـابِـهِ ... لِأَمْـرٍ عَـرَى أَوْ مُهِـمٍّ طَـرَقْ
يَقُـولُـونَ فِـي شُغُـلٍ شَـاغِـلٍ ... بِحِفْـظِ ٱلْقُـدُورِ وَكَيْـلِ ٱلْمَـرَقْ

---

(٨٧) النكباء : ريح .
(٨٨) استرقه : ملكه .
(٨٩) عرق أى أكل ما على العظم من اللحم نهشًا بأسنانه .
(٩٠) الخلق : البالى .
(٩١) ينعر : يصوّت ويصيح – دسته : مجلسه – مجلب : يحدث حوله جلبة وهى الصياح والصخب .

لَـــهُ مَنْظَــرٌ هَـــائِلٌ شَخْصُـــهُ تُعَــرُّ ٱلْــوُجُــوهُ بِـــهِ وَٱلْخِلَـــقْ
وَوَجْـــهٌ إِذَا أَنَـــا عَـــايَنْتُـــهُ تَعَـــوَّذْتُ مِنْـــهُ بِـــرَبِّ ٱلْفَلَـــقْ
تَجِيـــشُ إِذَا ذَكَـــرْتُـــهُ ٱلنُّفُـــوسُ وَتَنْبُـــو إِذَا نَظَـــرْتُـــهُ ٱلْحَـــدَقْ
وَيُكْسِبُـــهُ ظُلْمُـــهُ ظُلْمَـــةً تُعِيـــرُ ٱلنَّهَـــارَ سَـــوَادَ ٱلْغَسَـــقْ (٩٢)
فَلَيْـــتَ دُجَـــى وَجْهِـــهِ ٱلْمُـــدْلَهِـــمِّ مِـــنْ دَمِ أَوْدَاجِـــهِ فِـــى شَفَـــقْ (٩٣)
يَمُـــدُّ يَـــدًا قَـــطُّ مَـــا أَسْلَفَـــتْ يَـــدًا وفَمًـــا دَهْـــرَهُ مَـــا صَـــدَقْ
يَـــدًا أَغْلَقَـــتْ بَـــابَ آمَـــالِنَـــا بِـــوَدِّىَ لَـــوْ أَنَّهَـــا فِـــى غَلَـــقْ

* * *

وقال عقيب الحادثة التى نزلت ببصره :

أَتُـــرَى تَعُـــودُ لَنَـــا كَمَـــا سَلَفَـــتْ لَيَـــالِـــى ٱلْأَبْـــرَقَيْـــنِ
فَتَكُـــرُّ عَـــاطِفَـــةٌ بِـــوَصْـــ ـــلٍ وَٱجْتِمَـــاعٍ مِـــنْ لُبَيْـــنِ
وَتَضُمُّنَـــا بَعْـــدَ ٱلنَّـــوَى دَارٌ لَهُـــمْ بِـــٱلـــرَّقْمَتَيْـــنِ
هَيْهَـــاتَ صَـــاحَ بِشَمْـــلِ جِيـــ ـــرَتِكَ ٱلْجَمِيـــعِ غُـــرَابُ بَيْـــنِ
شَعْـــبٌ تَصَـــدَّعَ فَـــٱسْتَطَـــا رَلَـــهُ فُـــؤَادُكَ شُعْبَتَيْـــنِ
يَـــا دِيـــنَ قَلْبِـــكَ مِـــنْ ظِبَـــا ءٍ لَايَـــرَيْـــنَ قَضَـــاءَ دَيْـــنِ
الْمُخْلِفَـــاتُ كَـــأَنَّهُـــنَّ خُلِقْـــنَ مِـــنْ وَعْـــدٍ وَمَيْـــنِ
صَـــرَّحْـــنَ بِـــٱلْإِعْـــرَاضِ حيـــ ـــنَ رَأَيْـــنَ وَخْـــطَ ٱلْعَـــارِضَيْـــنِ
مَهْـــلًا فَمَـــا شَيْبِـــى بِـــأَ وَّلِ غَـــادِرٍ بَغَـــدِيـــرَتَيْـــنِ

---

(٩٢) الغسق : ظلمة الليل .
(٩٣) المدلهمّ : شديد الظلام - الأوداج : عروق فى العنق .

وَأَغَنَّ مَغْسُولِ ٱلرُّضَا … بِ جَنِيِّ وَرْدِ ٱلْوَجْنَتَيْنِ
أَمْسَى يُحَيِّينِى وَقَدْ … غَفَلَ ٱلرَّقِيبُ بِقَهْوَتَيْنِ
وَالَاهُمَا مِنْ خَمْرِ … عَيْنَيْهِ وَخَمْرَةِ رَأْسِ عَيْنِ
فَمُدَامَةٌ سِحْرِيَّةٌ … تَرْمِى ٱلْعُقُولَ بِسَكْرَتَيْنِ
وَمُدَامَةٌ كَالتِّبْرِ تَضْحَـ … ـكُ فِى قَوَارِيرِ ٱللُّجَيْنِ
فَٱلْيَوْمَ يَفْرَقُ إِنْ رَأَى … مِنِّى بَيَاضَ ٱلْمَفَرِقَيْنِ
أَنَا مِنْ هَوَى لُبْنَى وَمِنْ … فَوْدِى أَسِيرُ لُبَانَتَيْنِ
وَلَقَدْ نَضَا صِبْغُ ٱلشَّبَاب … وَكَانَ خَيْرَ ٱلصِبْغَتَيْنِ
فَسَقَى ٱلْحَيَا عَهْدَ ٱلصِّبَى … وَعُهُودَهُنَّ بِرَامَتَيْنِ
إِنْ حَالَتِ ٱلْأَيَّامُ بَيْـ … ـنَ مَآرِبِى مِنْهَا وَبَيْنِى
وَثَنَتْ صُدُورَ رَكَائِبِى … وَلَوَتْ عَلَى ٱلْعَلْيَاءِ دَيْنِى
وَمَضَتْ بِوَفْرٍ كَانَ مِنْ … أَرَبِ ٱلْحِسَانِ وَوَفْرَتَيْنِ
أَوْ فَلَّ مِنِّى ٱلدَّهْرُ ذَا … شُطَبٍ رَقِيقَ ٱلشَّفْرَتَيْنِ
وَرَمَى عَذَائِرَ لِمَّتِى ٱلـ … ـسَّوْدَاءِ مِنْ شَيْبٍ بِشَيْنِ
وَأُصِبْتُ فِى عَيْنِى ٱلَّتِى … كَانَتْ هِيَ ٱلدُّنْيَا بِعَيْنِ
عَيْنٍ جَنَيْتُ بِنُورِهَا … نُورَ ٱلْعُلُومِ وَأَىَّ عَيْنِ
حَالَانِ مَسَّتْنِى ٱلْحَوَا … دِثُ مِنْهُمَا بِفَجِيعَتَيْنِ
إِظْلَامُ عَيْنٍ فِى ضِيَا … ءِ مَشِيبِ رَأْسٍ سَرْمَدَيْنِ
صُبْحٌ وَإِمْسَاءٌ مَعًا … لَا خِلْفَةً فَٱعْجَبْ لِذَيْنِ
أَوْ رُحْتُ فِى ٱلدُّنْيَا مِنَ … ٱلسَّرَّاءِ صِفْرَ ٱلرَّاحَتَيْنِ

فِى بَرْزَخٍ مِنْهَا أَخَا ... كَمَدٍ حَلِيفَ كَآبَتَيْنِ
أَسْوَانُ لَا حَىٌّ وَلَا ... مَيْتٌ كَهَمْزَةِ بَيْنَ بَيْنِ
فَكَأَنَّنِى لَمْ أَسْعَ مِنْهَا ... فِى طَرِيقٍ مَرَّتَيْنِ
وَكَأَنَّنِى مُتِّعْتُ مِنْهَا ... نَظْرَةً أَوْ نَظْرَتَيْنِ
وَلَّتْ فَمَا لِىَ طَالِبًا ... أَثَرًا لَهَا مِنْ بَعْدِ عَيْنِ
أَوْبِتُّ شِلْوَ الْهَمِّ ... تَمْضُغُنِى الْخُطُوبُ بِمَاضِغَيْنِ
وَالدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ وَالنَّكَـ ... ـبَاتِ مَبْسُوطَ الْيَدَيْنِ
أَرْسَى عَلَى غُمْدَانَ وَا ... لْإِيوَانِ مِنْهُ بِكَلْكَلَيْنِ
وَأَبَادَ ذَا يَزَنٍ وَأَرْ ... دَى ذَا الْكُلَاعَ وَذَا رُعَيْنِ (٩٤)
أَرْدَاهُمُ بِرِمَاحِ خَطْـ ... ـبٍ مَا نُسِبْنَ إِلَى رُدَيْنِ (٩٥)
وَسَطَا عَلَى بَهْرَامَ جُو ... رَ وَأَرْدَشِيرَ الْعَادِلَيْنِ (٩٦)
لَمْ يَدْفَعِ الْحَدَثَانَ مَا ... جَمَعُوهُ مِنْ وَرِقٍ وَعَيْنِ
وَأَنَاخَ فِى آلِ النَّبِـ ... ـيِّ مُجَاهِرًا بِرَزِيَّتَيْنِ
فَبَدَا بِرُزْءٍ فِى أَبِى ... حَسَنٍ وَثَنَّى بِالْحُسَيْنِ
الطَّيِّبَيْنِ الطَّاهِرَيْـ ... ـنِ الْخَيِّرَيْنِ الْفَاضِلَيْنِ
الْمُدْلِيَيْنِ إِلَى النَّبِـ ... ـيِّ مُحَمَّدٍ بِقَرَابَتَيْنِ
وَلَرُبَّ أَغْلَبَ مِنْ أُسُو ... دِ خَفِيَّةٍ ذِى لِبْدَتَيْنِ

---

(٩٤) ذو رُعين : مَلِكٌ حميرى ، ورُعَينى : حصن باليمن .
(٩٥) تنسب إليه الرماح الردينية .
(٩٦) بهرام جور وأردشير من ملوك الفرس .

غَيْرَانَ جَهْمَ ٱلْوَجْهِ شَثْنِ (٩٧) ٱلْكَفِّ عَبْلِ ٱلسَّاعِدَيْنِ
طَرَقَتْ حَوَادِثُهُ وَأَيَّـ ـةُ غَايَةٍ تُرْدِى وَحَيْنِ
وَلَكَمْ رَمَى حَيًّا جَمِيعًـ ـا شَمْلُهُ بِنَوًى وَبَيْنِ
وَلَسَوْفَ يَرْقَى كَبْدُهُ فَيُشِتُّ شَمْلَ ٱلْفَرْقَدَيْنِ
وَلَرُبَّمَا نَالَتْ دَوَا ئِرُهُ مَدَارَ ٱلنَّيِّرَيْنِ
وَلَيَذْهَبَنَّ بِوَقْدَةِ ٱلشِّـ ـعْرَى وَوَدْقِ ٱلْمِرْزَمَيْنِ (٩٨)
وَلَيَنْسِفَنَّ حَرًّى وَهَضْـ ـبَ مَتَالِعٍ وَٱلْأَخْشَبَيْنِ (٩٩)
وَلَيُلْقِيَنَّ عَلَى أَبَانٍ (١٠٠) رُكْنَهُ وَعَلَى حُنَيْنِ (١٠١)
فَٱحْمِلْ شَدَائِدَهُ عَلَى ظَهْرٍ شَدِيدِ ٱلْمَنْكِبَيْنِ
وَٱطْرَحْ هُمُومًا أَنْتَ مِنْـ ـهَا ٱلدَّهْرَ فِى تَعَبٍ وَأَيْنِ
فَٱلنَّاسُ فِى كَفِّ ٱلْحَوَا دِثِ زُبْرَةٌ فِى كَفِّ قَيْنِ
وَٱصْبِرْ لِمَا طَرَقَتْ بِهِ ٱ لْأَحْدَاثُ مِنْ صَعْبٍ وَهَيْنِ
وَٱعْلَمْ بِأَنَّكَ تَسْتَجِدُّ غَدًا خِلَافَ ٱلْحَالَتَيْنِ

* * *

(٩٧) شثن : غليظ .
(٩٨) المرزمين : نَوْءان .
(٩٩) حرّى وهضب، متالع والأخشبان : أسماء أماكن ببلاد العرب .
(١٠٠) أبان اسم جبل بنجد - وهما أبانان أحمر وأسود .
(١٠١) اسم جبل كانت به غزوة نبوية مشهورة .

ابن زهر الحفيد

(٥٠٧ - ٥٩٥ هـ / ١١١٣ - ١١٩٩ م)

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الإيادىّ الإشبيلىّ ، ينتمى إلى أسرة إشبيليّة عريقة ، تردّدت فيها المراتب العالية ، واشتهر معظم أفرادها بالطبّ ، وإن كانت لهم مشاركة فى كثير من العلوم الأخرى ، وأخذ ابن زهر الحفيد صناعة الطب عن أبيه وعن جده زهر أبى العلاء بن عبد الملك ، فتفوق منذ شبابه فى هذه الصناعة ، وانفرد فيها بالإمامة ، ولم يقاربه أحد من أهل زمانه .

وكان وافر الحظ من الأدب واللغة وحفظ أشعار الجاهليين والمولّدين ، وذكر تلميذه ابن دحية أنه حفظ شعر ذى الرّمّة ، وهو ثلث لغة العرب ، وحدّث بمقامات الحريرى عن أبيه عن مؤلفها ، وحفظ القرآن الكريم وصحيح البخارى بأسانيده ومتونه ، ودرس مدوّنة سحنون فى الفقه ووعى مسائلها .

وخدم ابن زهر بالطبّ دولة الملثمين فى آخر عهدهم ، ثم دولة الموحّدين بنى عبد المؤمن ، وكان يعقوب المنصور بن يوسف سلطان الموحّدين يقرّبه ويحظيه ، ومن تصانيفه الطبية : « الترياق الخمسينى » ورسالة فى طبّ العيون .

وكان ابن زهر أيضًا شاعرًا مجيدًا ، له موشّحات مشهورة ، انفرد بإجادتها ، وفاق بها أهل المغرب على أهل المشرق ، فاحتذاه الأدباء النبهاء وتبعوه ، وقد طار فى الآفاق موشحته : « أيها الساقى إليك المشتكى » ، وقد نسبها بعض المصنّفين خطأً إلى ابن المعتزّ .

ومن المصادر التى تحدثت عنه وعن موشحاته : زاد المسافر لصفوان بن إدريس ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ، والتكملة لابن الأبّار ، والمغرب لابن سعيد ، ومعجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، والوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى ، والعبر للذهبى ، وشذرات الذهب لابن العماد ، ونفح الطيب للمقرى .

* * *

قال ابن زهر فى تذكار الأحبة :

يـا مـن يـذكّـرنـى بعهـد أحبّتـى ... طـاب الحـديـثُ بـذكـرهـم ويطيـبُ
أعِـدِ الحـديـثَ علىَّ مـن جَنَبـاتـه ... إنَّ الحـديـثَ عـن الحبيـب حبيـب
مـلأ الضلـوعَ وفـاض عـن أحنـائهـا ... قلـبٌ إذا ذكـر الحبيـبُ يـذوبُ
مـا زال يَضْـرِب خـافقًـا بجنـاحـه ... يـاليـتَ شعرى ، هـل تطيـر قلـوب ؟

* * *

فى الغـزل :

لله مـا صنـع الغـرام بقلبـه ... أودى بـه لمـا ألـمَّ بلبـه
لبـاه لمـا أن دعـاه وهكـذا ... مـن يـدعـه داعـى الغـرام يلبـه
بـأبـى الـذى لاتستطيـع لعجبـه ... رد السـلام وإن شكـت فعـج بـه
ظبـى مـن الأتـراك مـا تـرك الضنـى ... ألحـاظـه مـن سلـوة لمحبـه
إن كنـت تنكـر مـا جنـى بلحـاظـه ... فـى سلبـه يـوم الغـويـر فسـل بـه
إمـا أميلحـه وأعـذب ريقـه ... وأعـزه وأذلنـى فـى حبـه
أو مـا أليطـف ورده فـى خـده ... وأرقـه وأشـد قسـوة قلبـه
كـم مـن خمـار دون خمـرة ريقـه ... وعـذاب قلـب دون رائق عـذبـه

* * *

يتشوّق إلى ولد صغير له تخلّفه بإشبيلية وهو فى مراكش :

ولـى واحـدٌ مثـلُ فَـرْخ القطـا ... صغيـر تخلّفـت قلبـى لـديْـه (١)
نـأتْ عنـه دارى فيـاوَحْشتـى ... لـذاك الشُّخَيْـص وذاك الـوُجَيْـه

(١) القطا : جمع القطا ، وهى نوع من اليمام .

تشـــــوّقَنـــى وتشـــوّقْتُـــه   فيبكـــى علـــىّ وأبكـــى عليـــه
وقـــد تَعِـــبَ الشـــوقُ مـــا بيننـــا   فمِنْـــه إلـــىّ ومنّـــى إليـــه

* * *

فى طيب العيش :

مَغْنًى خصيـب وبـاب مُـرْبَـحٌ أبـدًا   والـــدَّن والـزِّق والإبـريـق والطــاس
هـذى الخـلاعـة لاشـىء سمعت بـه   فـاستغنـم اللهـو إن العمـر أنفــاس
ولـى حبيـب مليـح الـدلّ ذو غنـج   حلـو الشمـائل مـا فـى لثمـه بـاس
فــإن تعـذّر أو عـزّت مطـالبـه   فـالكـأس والكيس وسـواس وخنّـاس

* * *

فى الخمـر :

ومـوسـديـن على الأكُـف خـدودهـم   قـد غـالهـم نـوم الصبـاح وغـالنـى
مـا زلـت أسقيهـم وأشـرب فضلهـم   حتـى سكـرت ونـالهـم مـا نـالنـى
والخمـر تعـرف كيـف تطلـب ثـأرهـا   إنـى أملـت إنـاءهـا فـأمـالنـى

* * *

وقحط فصل الشتاء عام أربعة وتسعين وخمسمائة ، ثـم توالى المطر فى فصل الصيف ، فكثر الوباء فى الناس فقال :

أيقحــط مشتــانــا ويمطــر صيْفُنَــا   لقـد صارت البـؤسـى بـديلًا مـن النعمـى
أرى ديمـة فـى جمرة القيـظ أغـدقـت   كما يعرق المحموم من صالب الحمى (٢)

---

(٢) الديمة : المطر يطول زمانه – أغدق : كثر قَطره .

لقد جاد صوب المزن فى غير وقته | حرمناه درياقًا ونمنحه سما [3]
وما القطر إلا الصديق إذا انثنى | عدوا فلا بُقيا لديه ولا رُحمى
كذا تقتضى أعمالنا السوء إننى | لأخشى عقابًا شرّه يشمل الدُّهما [4]
فيا أيها الناس اتّقوا الله وافزعوا | إليه وإلا فاحذروا النقمة العظمى
وتوبوا له واستغفروه وأخلصوا | لما كان من تفريطكم توبة عزما
وأكثر تأنيبى لنفسى لأننى | قتلت الذى قد كان من شرها علما
فيا ربّنا صفحًا وعفوًا ورحمة | فقد طالما عوّدتنا المرفق والحلما
رجوناك لا نرجو سواك وحسبنا | رجاء وإخلاص نفز بهما قسما

* * *

وقال يندب نفسه حين بلغ التسع والثمانين سنة :

عمر قصير ودنيا كلّها غَرَر | والعيش فى مكد والموت منتظر [5]
وكلّ نفس لها من حتفها رَصَد | ليس الفرار بمنجها ولا الحذر [6]
والموت لا بدّ منه فاستعدّ له | وبعده جنّة الفردوس أو سقر
فاختر لنفسك ما ترجو النجاة به | وانظر لها قبل أن يفوتك النظر
دعْ فانيًا والتمس ما لا فناء له | إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر
ولا تغرّنك الدنيا وزخرفها | عن المعاد هناك الشأن والخبر
وهذه الدار دار لا خلاقَ لها | وجودها عدم وصفوها كدر
والناس منها على خوف وفى غَرَر | محبب الناس ذاك الخوف والحذر

(٣) صوب المزن : مطر السحاب - الدرياق : دواء السموم أو الخمر.
(٤) الدّهم : عامة الناس وسوادهم .
(٥) غرر : خطر وتعريض للهلكة .
(٦) رصد : رقيب .

وهم على غفلة مما له خلقوا — مثل البهائم إلا أنهم بشر
عموا وصموا عن الأمر المراد بهم — حتّى كأنْ ما لهم سمع ولا بصر
وما أبرّيء نفسى إذ ألومهمُ — فكلّنا وازرٌ وساء ما نزر(٧)
إنى لأعظمهم جُرمًا وأثقلهم — حملًا ، وما لى من عذر فأعتذر
لكن رجوت وأرجو عفو ذى كرمٍ — ورحمة فى يديه النفع والضرر
والعمر فى كلّ يوم قَطْع مَرْحلة — فى إثر مرحلة كأنه سفر
تحدو بنا سائقات غير وانية — إلى مصارعنا الآصال والبكر(٨)
وكلّ ذنب فإنّ الله يغفره — إن شاء والشرك ذنب ليس يغتفر
جزت الثمانين زادت تسعةً كَمَلًا — يا ليت شعرى ماذا بَعْدُ أنتظر(٩)
يا ويلتَا من ذنوب حبَّرها قدر — فلم أطق جرّ شىء جرّه القدر
يا ويلتَا من ذنوب إن تكن كثرت — فإنها عند ربّ العرش تحتقر
سبحان من هو لا تُحصى محامده — ولا تُحيط به الأوهام والفكر

فى وصف حاله إبان شيخوخته :

إذا ما شاخ إنسان — فإنّ وجوده عدم
وذاك لأنه أبدًا — زمين ما به سقم(١٠)
ويعزب عقله عنه — ولم يَلْمُم به لَمَم(١١)

---

(٧) الوازر: الأثيم .
(٨) غير وانية : غير ضعيفة .
(٩) كملًا : كاملة وافية .
(١٠) زمين : مريض .
(١١) يعزب : يبعد ويخفى - يلمُم : يأتى وينزل - اللَّمَم : الجنون أو طرف منه يُلمّ بالإنسان .

وتصـــف أصـــم نصـــف عـــم | وليـــس عمـــى ولا صمـــم
وتـــرعـــش كَفّـــه فيـــزلّ | عنهـــا السيـــف والقلـــم
وتعجـــز رجلـــه عـــن حمـــ | ـــله فقيـــامـــه ألـــم
علـــى المنســـاة عمـــدتـــه | يلـــوذ بهـــا ويعتصـــم [12]
فـــلا سمـــع ولا بصـــر | ولا كـــف ولا قـــدم
ولا عقـــل يعيـــش بـــه | كـــذلـــك يفعـــل الهـــرم
ألا يـــا معشـــر الشبـــا | نِ كنّـــا أمـــسِ مثلكـــم
ولكـــن نـــال منهـــا الـــدهـــ | ـــر مـــا يبقيـــه عنـــدكـــم
فـــإن عشتـــم كمـــا عشنـــا | سينـــزل مـــا بنـــا بكـــم
ويـــا شبـــان مـــن لكـــم | بســـن الشيـــب مـــن لكـــم
علـــى هـــذا مضـــت فـــى سبـــ | ـــلها الأيـــام والأمـــم
فيـــا أسفـــا علـــى عمـــر | مضـــى وكـــأنـــه حلـــم

* * *

قال حين شاخ وغلب عليه الشَّيب :

إنـى نظـرت إلـى المـرآة إذ جُلِيـت | فـأنكـرتْ مُقْلتـاى كـلّ مـا رأتـا [13]
رأيـتُ فيهـا شخصًـا لسـتُ أعـرفـه | وكنـتُ أعهـدُه مـن قبـل ذاك فتـى
فقلـت : « أين الـذى بالأمـس كان هُنـا ؟ | متى تَرَحَّـل عـن هـذا المكـان ؟ متـى ؟
فـاستضحكتْ ثـمّ قـالـتْ وهْى معجبـة : | « إنّ الـذى أنكـرتْـهُ مقلتـاك أتـى »
هَـوِّن عليـك فهـذا لا بقـاء لـه | أمـا تـرى العشـب يفنـى بعـدما نبتـا
كـانتْ سُلَيْمى تنـادِى : « يـا أُخيَّ » فقـد | صارتْ سليمـى تنادى اليـوم : « يا أبتـا » !

(١٢) المنساة : العصا الغليظة .
(١٣) جُليت : صُقِلت وكُشف صدؤها – المقلة : العين .

قال وأوصى أن تكتب على قبره :

تـــأمَّـــلْ بحقِّـــك يـــا واقفًـــا ولاحِـــظْ مكـــانًـــا دُفِعْنـــا إليـــه
تـــرابُ الضَّـــريـــحِ علـــى وجنتـــى كـــأنِّـــىَ لـــم أمْـــشِ يـــومًـــا عليـــه
أداوى الأنـــامَ حـــذارَ الحِمـــام فهـــا أنـــا قـــد صِـــرْتُ رهْنًـــا لـــديـــه

* * *

ومن موشحات ابن زهر :

أيُّهـــا الســـاقـــى إليـــك المشتكَـــى قـــد دعـــونـــاكَ وإنْ لـــم تسمـــعِ

* * *

ونـــديـــمٍ هِمْـــتُ فـــى غُـــرَّتـــهِ
وبشُـــرْبِ الـــراحِ مـــن راحتِـــهِ
كُلَّمـــا استيقـــظَ مـــن سَكْـــرتِـــهِ

جـــذبَ الـــزِّقَّ إليـــه واتَّكـــا وسقـــانـــى أربَعًـــا فـــى أربَـــعِ

* * *

مـــا لِعَيْنـــى عَشِيَـــتْ بـــالنظـــرِ؟ (١٤)
أنكـــرتْ بعـــدَك ضـــوءَ القمـــرِ
وإذا مـــا شئـــتَ فـــاسمـــعْ خبـــرى

عشِيَـــتْ عينـــاى مـــن طُـــولِ البُكـــا وَبكـــا بعضِـــى علـــى بعضِـــى معـــى !

* * *

(١٤) عشيت : ساء بصرها .

غُصْـنُ بـانٍ مـالَ مـن حيـثُ استـوَى
بـاتَ مَـن يهـواه من فَـرْط الجَـوى (١٥)
خَفِـقَ الأَحشـاءِ مَـوْهـونَ القُـوَى

كلَّمـا فكَّـرَ بـالبيـنِ بَكَـى   وَيْحَـه ، يَبْكـى لِمَـا لَـمْ يَقـعِ !

* * *

ليـس لـى صبـرٌ ولا لـى جَلَـدُ
يـا لَقَـومْـى عَـذَلُـوا واجتهـدُوا
أَنكَـروا شكـوايَ ممـا أَجِـدُ

مثـلُ حـالِـى حقُّـه أن يُشتكَـى   كَمَـدُ اليـأْسِ وذُلُّ الطَّمَـعِ

* * *

كَبِـدى حَـرَّى ودمعِـىَ يَكِـفُ (١٦)
يَعْـرِفُ الـذنـبَ ولا يَعْتَـرِفُ
أَيهـا المُعْـرِضُ عمَّـا أَصِـفُ

قـد نمـا حبُّـكَ عنـدى وزكَـا   لا تقـلْ فـى الحـبِّ إنـى مُـدَّعِ (١٧)

* * *

(١٥) استوى : استقام - الجوى : الحزن الشديد .
(١٦) كبد حرّى : يابسة من الحزن - يكف : يسيل .
(١٧) زكا : نما .

وله أيضًا هذه الموشحة :

مــا للمــولَّــه مِــنْ سُكــره لا يُفيــقْ بــالــه سكــرانْ (١٨)
مــن غيــر خمــرِ مــا للكئيــب المشــوقْ ينــدب الأوطــانْ

* * *

هــل تستعــادُ أيــامُنــا بــالخليــجْ وليــالينــا
أَويستفــادُ مــن النسيــم الأريــجْ مســكُ دارِينــا (١٩)
أَو هــل يكــادُ حســنُ المكــان البهيــجْ أَن يُحَيِّينــا
روضٌ أظلَّــهْ دوحٌ عليــه أنيــقْ مــورقُ الأفنــانْ
والمــاءُ يجرى وعــائمٌ وغــريقْ مِــنْ جَنَــى الريحــانْ

* * *

أَو هــلْ أَديــبْ يُحيى لنا بــالغُــروس مــا كــانَ أَحْلــى
مــع الحبيــبْ وصــافياتِ الكــؤوسْ فــاسقنــى وامْــلا
عيــشٌ بطيــبْ ومَنْــزَهٌ كــالعــروسْ عنــدمــا تُجْلَــى
عيــشٌ لعلَّــهْ يعــودُ منه فــريــقْ كــالــذى قد كــانْ
أَضغــاثُ فِكْــرِ تحــدُو بــه وتســوقْ هــذه الألحــانْ (٢٠)

* * *

---

(١٨) المولّه : الذى حيّره الوجد أو الحزن وأذهب عقله .
(١٩) الأرِيج : الذى انتشرت رائحته الطيّبة – دارين : بلد بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ، ويباع بها ؛ فصار ينسب إليها .
(٢٠) الأضغاث من الفكر : الملتبس المضطرب .

يــا صــاحبيَّــا إلــى متى تعــذلانــى أَقْصِــرا شيَّــا (٢١)
قَــدْمِــتُّ حيًّــا والمُبْتَلَى بــالغوانــى مَيِّـــتٌ حيَّـــا
جَنَـــى عليَّـــا عذبُ اللَّمَى والمعانى عـــاطــــرٌ رَيَّـــا
هـــلالُ كِلَّـــهُ غـزالُ أُنْـسٍ يفُـوقْ ســائرَ الغـــزلانْ
يــا ليــتَ شعــرِى هـل لـى إليـهِ طـريـقْ أوإلـى السُّلْـوانْ ؟

* * *

ومن موشحاته :

سَلِّـــمِ الأمْــرَ للقضــا فهـــو للنفـــس أنفـــعُ

واغتنـــم حيـــن أقبـــلا * وجـــه بـــدرٍ تهلّـــلا * لاتقُـــلْ بـــالهمـــوم لا(٢٢)

كــلُّ مــا فــات وانقضــى ليــس بــالحُـزْنِ يـرجـعُ

واصطبـحْ بـــابنتــةِ الكُـــروم * مـــن يَــدَى شَـــادنٍ رخيـــم * حيـن يفتَـرُّعـن نَظيـم

فيـــه بـــرقٌ قـــد أومضـــا ورحيـــقٌ مشعشـــع (٢٣)

أنــا أفـــديــه مــن رشـــا * أهيــفِ القَـــدِّ والحشـــا * سُقِــى الحســنَ فـــانتشــى

مــذ تـــولــى وأعــرضــا ففـــــؤادى يُقطَّـــــعُ

مــن لصـبٍّ غــدا مشـوقْ * ظـلَّ فــى دمعــهِ فــريـق * حيــن أمُّــوا حِمـى العقيــق

واستقلُّـــوا بـذِى الغضـــا أسفِـــى يـــوم ودّعـــوا (٢٤)

مــا تــرى حيــن أظعنــا * وســرى الــركــبُ مَــوْهِنَــا * واكتســى الليــل بــالسَّنَــا

نــورهـــم ذا الـــذى أضــا أم مــع الـركــبِ يُـوشَـعُ (٢٥)

* * *

---

(٢١) تعذل : تلوم – أقصر عن الشيء : كفّ ونزع عنه . (٢٢) تهلّـل : تلألأ .

(٢٣) يفترّعن نظيم : يبتسم فيظهر ثغره الذى يشبه اللؤلؤ المنظوم – رحيق : خمر – مشعشع : ممزوج بالماء .

(٢٤) أمّوا : قصدوا – استقلّوا : مضوا وارتحلوا .

(٢٥) قوله « أظعن » لعله يريد به « ظعن » بمعنى سار وارتحل ، وأظعنه : سيّره – الموهن : نحو من نصف الليل ، أو بعد ساعة منه – يوشع بن نون : هو النبى الذى أمر الشمس ألا تغيب حتى يتمكن من هزيمة أعدائه .

ومن موشحاته :

يــا صــاحِبَــيَّ - نــداءَ مغتبــطٍ - بصــاحــبْ

لله مــــا يَلقــــاه مــــن فقـــدِ الحبـــائب

قلــبٌ أحــاط بــه الهــوى مــن كــل جــانــب

أيَّ - قلـــبٍ - هـــائمِ لا يستفيــق مــن اللَّـــواحِ

أنحـى علـى رشـدى وأعــدمنـى صـلاحـى (٢٦)

ثغـــرٌ ثنـــى الأبصـــارَعـــن نَـــوْرِ الأقـــاح

يُسقَــى بمختلطيـــن - مـــن مســـكٍ وراح

كـــالحبَـــابِ - العـــائم فى صفحةِ المـاء القرَاح (٢٧)

مــن لــى بــه - بـدرًا تجلَّـى فــى الظـلام

عُلِّقْـــتُ مـــن وَجنَـــاتـــه بـــدرَ التمـــام

وعَلِقْـــتُ مـــن أعطـــافـــه لَـــدْنَ القـــوام (٢٨)

كـالقضيـــبِ - النـاعِــمِ - لـم يستطـعْ حَمْل الـوِشـاح

يــــا مــــن أعـــانقــه - بـــأحنـــاء الضلـــوع

وأقيمُــه بـــدلًا مــنَ القلـــب الصَّـــدِيـــع (٢٩)

أنـــا للغـــرام وأنـــتَ للحســـن البـــديـــع

---

(٢٦) اللواحى : اللائمون - أنحى عليه : أقبل ، يقال : أنحى عليه بالضرب أو باللوم .

(٢٧) الحباب : الفقاقيع على وجه الماء ، يشبه بها الثغر - القراح : الخالص .

(٢٨) يقال : علِقها أى تمكن حبها من قلبه ، ويقال أيضا : عُلِّقَ بالتشديد والبناء للمجهول » فلان امرأة أى أحبّها .

(٢٩) الصديع : المكسور أو المشقوق .

وكـــلام الــــلائم - شــيء يمــر مــع الــريــاح
حمَّلتنـــى فـــى الحـــب مـــا لايستطـــاع
وَجْـــدا يُـــراعُ بـــذكـــره مـــن لايُـــراع
ولأنـــت أجْـــورُمـــن لـــه أمـــر مطـــاع
ومـــع أنَّـــكْ ظـــالـــمِ - أنتـــهُ منـــاىِ واقتـــراحـــى

* * *

وقال :

حَـــىٍّ الـــوجـوه المِـــلاحـــا وحـــىٍّ نُجْـــلَ العُيـــونِ (٣٠)
هـــل فـــى الهـــوى كـــم جُنـــاحِ
أوفـــــى نـــــديـــــمِ وراحِ
رام النصيـــــحُ صـــــلاحـــــى
وكيـــف أرجـــو صَـــلاحـــا بيـــن الهـــوى والمجُـــون
أبكَـــى العيـــون البـــواكـــى
تَـــذكـــارُ أخـــت السِّمـــاكِ (٣١)
حتـــــــى حمـــــــامُ الأراكِ
بكـــى شُجـــونـــى ونـــاحـــا علـــى فـــروعِ الغصـــون
ألقـــى إليهـــا زمـــامَـــه
صـــبٌّ يـــدارى غـــرامـــه
ولا يطيـــقُ اكتتـــامـــه
غـــدا بشـــوقٍ وراحـــا مـــا بيـــن شَتَّـــى الفنـــون

---

(٣٠) نجل : جمع نجلاء وهى المتسعة العين .
(٣١) السماك : نجم فى السماء ، وصفها بهذا لرفعتها وسموها وبعدها .

يـــا غـــائبـــا لا يغيـــبُ
أنـــت البعيـــدُ القـــريـــبُ
كـــم تشتكيـــكَ القلـــوب
أثخنتهـــن جـــراحًـــا فـاترك سهـام الجفـون (٣٢)
يـــا راحـــلًا لـــم يُـــوَدّعْ
رحلـــتَ بـــالأنـــسِ أَجْمَـــع
والفجـــرُ يُعطِـــى وَيمْنـــع
مَـــرَّت عينـــاك المـــلاحـــا سَحَـــرًا فمـــا ودَّعُـــونـــى

* * *

وقال :

شمـــسٌ قـــارنـــت بـــدرا راحٌ ونـــــديـــــم
أدرْ أكـــــؤسَ الخمـــــرِ
عبقـــــريـــــة النشـــــر
إن الكـــــون ذو بشـــــر
وقـــــد درّع النهـــــرا هبـــــوبُ النسيـــــم
وسلّـــت علـــى الأفـــقِ
يـــدُ الغـــرب والشـــرقِ
سيـــوفًـــا مـــن البـــرقِ

(٣٢) أثخن فى الأمر أى بالغ فيه ، وأثخنتهن جراحا بمعنى جرحتهنّ حتى ضعفن من أثر الجروح .

وقـد أضحـك الـزهـرا بُكـــاءُ الغيـــوم

ألا إن لـــى مـــولـــى
تحكـــم واستـــولـــى
أمـــا أنـــه لـــولا

دمْـــعٌ يفضَـــحُ السِّـــرّا لكنـــتُ كتـــوم

أنّـــى لـــى كتمـــان
ودمعـــى طُـــوفـــان
شبـــت فيـــه نيـــران

فمـــن أبصـــرا الجمـــرا فـــى لُـــجٍّ يعـــوم

إذا لامنـــــى فيــــــه
مـــن رأى تجنّيــــــه
شـــدوت أغنيــــــه

لعـــلّ لـــه عـــذرا وأنـــت تلـــوم

العماد الأصبهانى

(٥١٩ - ٥٩٧ هـ / ١١٢٥ - ١٢٠١ م)

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله بن على ، ولد بأصبهان ، وقدم بغداد وهو فى العشرين من عمره ، والتحق بالمدرسة النظاميّة ، وتلقّى الحديث والفقه وغيرهما من معارف عصره عن أساتذتها ، مثل : سعيد بن محمد الرزاز وأبى بكر الأشقر وعلى ابن عبد السلام وابن خيرون .

عاد إلى أصبهان سنة ٥٥٢ ، وأخذ العلم عن بعض علمائها ، ثم غادرها مرة أخرى إلى بغداد ، حيث اشتغل بصناعة الكتابة ، وقد مكّنه ذلك من أن يتّصل بالوزير ابن هبيرة ، فولّاه النظر بالبصرة ثـمّ . واسط ، وتوفّى هذا الوزير سنة ٥٦٠ ، فترك العماد بغداد ورحل إلى دمشق سنة ٥٦٢ ، واستقبله قاضى قضاتها محمد بن الشهرزورى أحسن استقبال ، وأوصله إلى السلطان نور الدين الذى أعجب بعلمه وأدبه ، فبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، وفوّض إليه سنة ٥٦٧ التدريس فى المدرسة النوريّة ، وسماها من أجله تكريمًا له « المدرسة العماديّة » ، وولّاه رئاسة ديوان الإنشاء .

وتوفّى نور الدين سنة ٥٦٩ ، فخلفه ابنه الملك الصالح ، ولم تكن علاقته بالعماد طيّبة ، فرحل حين دخلها صلاح الدين الأيوبى فاتحًا ، ومدحه بأشعار كثيرة أشاد فيها بشجاعته وبلائه فى الجهاد المقدّس ضدّ الصليبيين وأثنى على نبله وعدالته وحسن معاملته لرعيّته .

وتوفّى صلاح الدين سنة ٥٨٩ فكتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، وأعفى من عمله حين استوزر ضياء الدين بن الأثير، فلزم بيته وتفرّغ للتأليف والتصنيف ، إلى أن توفّى .

ومن مؤلّفاته : « خريدة القصر وجريدة العصر » فى عشرة مجلدات ، ويشتمل على تراجم لشعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس فى الفترة ما بين ٥٠٠ - ٥٧٠ وكتاب « البرق الشامى » فى سبعة مجلّدات تحدّث فيه عن حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق ، وفى أثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتهما ، وكتاب « الفتح القسى

فى الفتح القدسى » ويقع فى مجلّد كبير ومعظم موادّه تاريخيّة يصف فيها فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب « السيل على الذيل » فى ثلاث مجلدات ، جعله ذيلًا على ذيل ابن السمعانى على تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وكتاب « نصرة الفترة وعصرة الفطرة » وهو فى أخبار الدولة السلجوقية ووزرائها ، وقد اختصره الفتح بن على البندارى فى جزء سمّاه : « تاريخ دولة آل سلجوق » ، وكتاب « نحلة الرحلة » وصف فيه رحلته إلى مصر واختلال الأحوال بعد وفاة صلاح الدين .

وللعماد ديوان شعرىّ ورسائل ديوانيّة كثيرة ، أجاد فيها ، كما أجاد الكتابة بالفارسيّة ، فصار ندًّا للقاضى الفاضل أشهر كاتب فى عصره .

* * *

قال العماد الأصفهانى فى مدح صلاح الدين الأيوبى ، وقد استهلّ هذه المدحة بالتعبير عن شوقه إلى دمشق وأهلها حين تركهم ورحل إلى مصر :

هَجَرْتكمُ لا عن مَلال ولا غَدرِ ... ولكنْ لمقدورٍ أُتيحَ من الأمرِ
وما كنتُ أدرى أنْ يُتاح فراقُكم ... ومَن يعلمُ الأمرَ المقدَّرَ أو يدْرى ؟
وأعلمُ أنّى مُخطىءٌ فى فِراقكم ... وعُذرىَ فى ذَنْبى ، وذَنْبى فى عُذْرى
أرى نُوَبًا للدَّهر تُحْصَى وما أرى ... أشدَّ من الهِجران فى نُوب الدهر
بعَيْنى إلى لُقيا سواكمْ غشاوةٌ ... وسَمْعى إلى نَجْوى سِواكم لذو وَقْر[1]
وقَلْبى وصَدْرى فارَقانى لبُعْدكم ... فلا صَدْرَ فى قَلْبى ، ولا قَلْب فى صَدْرى
وإنّى على العَهْدِ الذى تَعْهَدُونه ... وسِرِّى لكمْ سِرِّى ، وجَهْرى لكم جَهْرى
تَجَرَّعْتُ صِرْفَ الهمِّ من كأسِ شَوْقكم ... فها أنا فى صَحْوى نَزيفٌ مِن السُّكر[2]
وإنَّ زَمانًا ليس يَغْمرُ مَوْطنى ... بسُكْناكم فيه فليس من العُمْر
وأُقْسِمُ لوْ يَقْسِمِ البينُ بيننا ... جَوَى الهمِّ ما أَمْسَيتُ مُنْقَسِمَ الفكر
أسيرُ على مِصْرٍ وقَلْبى أَسِيرُكمْ ... ومِن عَجَبٍ أَسْرِى ، وقَلْبى فى أَسْرِ
أخِلَّاىَ قد شَطَّ المزارُ فأرْسِلوا ... الخيالَ ، وزُوروا فى الكَرَى ، وارْبحَوا أَجْرى
تَذَكَّرْتُ أَحْبابى بجلَّقَ بعد ما ... ترحَّلْتُ ، والمشتاقُ يأنسُ بالذِّكْر
أخلَّاى فَقْرى فى التنائِى إليكمُ ... بحقِّ غِناكمْ بالتدانى ارحَمُوا فَقْرى

(١) الوقر : الثقل فى الأذن أو الصمم .
(٢) نزيف : ذاهب العقل .

ومنها فى وصف المنازل :

ولما قَصَدْنا من دِمَشْق غَباغبًا وبتْنا من الشَّوْق الممِضِّ على الجمْر(٣)
نزلْنا بصَحْراءِ الفقيع وغُودرت فواقعُ من فَيْضِ المدامعِ فى الغُدْرِ(٤)
ونَهْنَهْتُ بالفُوّارِ فَوْر مَدامعى ففاضتْ وباحتْ بالمكتَّم من سِرِّى(٥)
سَرَيْنا إلى الزَّرْقاء منها ومن يُصِب أومًا يسرّ حتّى الوردَ أو يسر(٦)
أعادتْك يا زرقاء حمراء أدْمُعى فقد مزجتْ زُرْق الموارِدِ بالحُمْر
وسُودُ هُمومِى سوَّدتْ بيضَ أزْمُنى فيوْمى بلا نُورٍ، وليلِى بلا فَجْر
أيا لَيْلُ زِدْ ما شِئْتَ طُولًا وظُلْمةً فقد أذْهَبَتْ مِنك السَّنا ظُلمةُ الهجْرِ
تذكّرْتُ حمّام القصيرِ وأهلهُ وقد جُزْتُ بالحمّامِ فى البلدِ القَفْر(٧)
وردْنا من الزيتون حسمى وأيلة ولم نسترحْ حتّى صدرْنا إلى صدرٍ(٨)
عَشينا الغواشى وهْى يابِسةُ الثّرى بعيدةُ عَهْدِ القُطر بالعَهْدِ والقَطْر(٩)
وضَنَّ علينا بالنَّدى ثمدُ الحصى ومَن يَرْتَجِى رِيًّا من الثمد النَّزْر(١٠)
فقلتُ اشْرَحى بالخمْسِ صَدْرًا مطيّتى بصَدْرٍ وإلّا جادك النيلُ للعشْر

---

(٣) غباغب : قرية فى نواحى دمشق بينهما ستة فراسخ – الممض : المؤلم المحزن .

(٤) لم نجد لهذه الصحراء ذكر فيما بين أيدينا من مراجع وواضح من الشعر أنها فى الطريق إلى شرق الأردن – الغدْر: جمع غدير، وهو القطعة من الماء يغادرها السّيل .

(٥) نهنهت : كففت وزجرت – الفوار : اسم ماء .

(٦) الزرقاء : نهير بشرق الأردن – أوام : عطش .

(٧) القصير : غيضة بالقرب من دمشق .

(٨) الزيتون : جبل بالقدس – حسمى : موضع بين منازل عذرة والعقبة – أيلة : العقبة الآن – صدر: قلعة فى الطريق من العقبة إلى مصر.

(٩) الغواشى : بعض منازل لعذرة – العهد : الزمان ، والعهد : المطر الأوّل – القطر، بضم القاف : الناحية ، وبالفتح : المطر.

(١٠) الثمد : أرض قريبة من مدائن صالح .

رأينـا بهـا عيـنَ المـواسـاةِ أنّنـا
إلى عَيْـن موسى نَبْـذُلُ الـزاد للسَّفْـر(١١)

ومـا جَسَـرَتْ عَيْنى علـى فَيْـضِ عَبْـرةٍ
أُكَفْكِفهـا حتّى عَبَرْنـا علـى الجسْـر(١٢)

ومِلْــتُ إلــى أرضِ السَّــديـر وجَنَّـــةٍ
هنـالـك مـن طَلْحٍ نضيـدٍ ومـن سِـدْر(١٣)

وجُبنـا الفَــلا حتـى أتَيْنـا مبـارَكـا
علـى بـركـة الجبّ المبشّر بـالقصرِ(١٤)

ولمـا بــدا الفسطــاطُ بشّـرت نـاقَتـى
بمَـنْ يتلقّـى الـوفْـدَ بـالـوَفْـر والبِشْـر

ولـم أنـسَ يـومَ البيْـن بـالمرجِ نَشْـرَنـا
مَطَـاوىَ سِـرّ فــى الهـوَى أرِجَ النشـرِ

وقـد أَقبلــتْ نُعْـمٌ وأتــرابُهــا كمــا
تطلّــع بــدْرُ التِّـمّ فــى الأَنْجُـم الـزُّهْـرِ

وَقَفْنــا وحــادِينـا يَحُـثُّ ونـاقتــى
تَـزِمُّ ولاحينـا لمغـرمنـا مُغـرِ(١٥)

وكـلُّ بَنـانٍ فـوقَ سـنٍّ لنـادوٍ
وكـلُّ يـدٍ فـوق التَّـربيـة والنَّحْـر(١٦)

وبيـعَ فـؤادى فـى مُنـاداة شَـوْقهـم
فسُمتُهُـمُ أنْ يـأخُـذوا الـرُّوحَ بـالسّعـرِ

بَكَـتْ أمُّ عمـروٍ مـن وَشيـكِ تَـرَحُّلـى
فيـا خَجْلتـا مـن أمّ عمـرو ومـن عَمْـرو

تقــولُ إلـى مصـرٍ تسيـرُ ! تعجّبًـا
ومـا الـذى تَبْغـى ومَـنْ لـكَ فـى مصـر ؟

تُبَـدِّدُ فـى سَهـلٍ مـن العيـش شَمْلَنـا
وتَنْظِم سلـكَ العيشِ فى المسلكِ الـوعرِ ؟

فقـل أيّمـا عُـرْفٍ حَـداكَ علـى النَّوى ؟
ومـن ضَلَّـةٍ أن تطلـب العُـرْفَ بـالنُّكـرِ

ومـن فـارق الأحبـابَ مُسْتَبـدلًا بهـم
سِـواهـمْ فقـد بـاعَ المـرابحَ بـالخُسْـرِ

---

(١١) عين موسى : عين بواد كثير الزيتون بالقرب من بتراء .

(١٢) الجسر: مدينة القلزم وكانت تقع بالقرب من السويس الآن .

(١٣) السدير : أول مـا يلقى القادم من الشام إلى مصر من جنات وزروع - الطلح : شجر الموز - السدر : شجر النبق .

(١٤) بركة الجب : هى الآن قرية فى مديرية القليوبية تسمى البركة ، وهى شرقى المرج - القصر : قصر السلطان صلاح الدين وكان قصر الفاطميين قبله .

(١٥) حادينا : الحادى الذى يسوق الإبل بالحُداء - تزمّ : ترفع رأسها لتهمّ بالسير - لاحينا : لائمنا .

(١٦) يقال : قرع فلان سنّه ندمًا أى صَكّها - التّربية : موضع القلادة فى الصدر.

فقلتُ : مَلاذِى الناصرُ الملكُ الذى حصلتُ بجَدْواه على المُلْكِ والنصْر(١٧)
فقالت : أقِمْ لاتَعْدَمِ الخيرَ عِندنا فقلت : وهل تُغْنِى السَّوَاقى عن البَحْر
فقالت : صلاح الدين ؟ قلت : هو الذى به صارَ فَضْلى عالىَ الحظِّ والقدْر
ثِقِى برجوع يَضْمَن الله نُجْحهُ ولاتَقْنَطى أن نُبْدِلَ العسرَ باليُسرِ
وإنَّ صلاح الدين إنْ راح مُعدَمٌ إليه غَدَا من فَيْضِ نائلهِ مُثْرى
نعزٌّ بأفضالِ العزيزِ وفَضْله ونحسب نَفْعًا كلَّ ما مَسَّ من ضُرٍّ
عطيّته قد ضاعفتْ مُنَّةَ الرَّجا ومِنَّتُه قد أَضْعَفَتْ مُنَّةَ الشكر(١٨)
وماذا يَحُدّ المدْحُ منه فإنّما مناقبُهُ جَلَّتْ عن الحدِّ والحصرِ

وقال فى مدح الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى سنة خمس وستين وخمسمائة ، واستهلّها بالغزل :

يَروقُنى فى المَهَا مُهَفْهَفُهَا ومِن قُدودِ الحِسَانِ أَهْيفُها(١٩)
ومن عُيون الظباء أفْتَرُهَا ومن خُصورِ المِلاحِ أنْحَفُها
ما سَقَمى غيرُ سُقْمِ أعيُنِها ثُمَّ شِفائى الشفاهُ أرشُفُها
يُسْكِرنى قَرْقَفٌ يُشَعْشِعها لحظُ الطَّلا لا الطِّلا وقَرْقفها(٢٠)
يا ضَعْفَ قلبى من أَعْينٍ نُجْل أَقْتَلُها بالقُلوب أَضْعفُها
ومن عِذارٍ كأنّهُ حِلَقٌ أَحْكَمَ فى سَرْدِهِ مضعفها(٢١)

---

(١٧) جدواه : عطيّته .
(١٨) المُنّة ، بالضم : القوة ، وبالكسر : النّعمة .
(١٩) المها : جمع المهاة ، وهى البقرة الوحشية ، تشبه بها المرأة فى سعة العينين - المهفهف والأهيف : كلاهما بمعنى دقيق الخصر ضامر البطن .
(٢٠) القرقف : الخمر - الطلا ، بكسر الطاء : الخمر ، وبفتحها : ولد الظبية .
(٢١) السرد : الخرز فى أديم وهو هنا يشبه العذار بحلق أحكم خرزها .

ومِن خُدودٍ حُمرٍ مُورَّدةٍ … أدْوَمها للحياءِ أطْرفُها

فى سَلْبِ لُبِّى تَلَطَّفَتْ فأتى … نَحْوِى بِخطِّ الصِّبا مُلَطِّفُها [٢٢]

يا مُنْكِرًا منْ هوىً بُليتُ به … عَلاقةً ما يكادُ يَعْرِفُها

دعْ سِرَّ وجْدى فما أبوح به … وخلِّ حالى فلستُ أكشفها

واصرفْ كؤوسَ الملامِ عن فِئةٍ … عن شِرْعةِ الحبِّ لستَ تَصْرِفها

مِنْ شَرفِ الحبّ حلَّ فى مُهجٍ … أقْبَلُها للغرام أشرفُها [٢٣]

لا يستطيبُ السُّلُوَّ مُغْرَمُها … ولا يَلَذُّ الشِّفاءَ مُدنفُها

فالقلبُ فى لَوْعةٍ أُعالجها … والعينُ فى عَبْرةٍ أُكَفْكِفُها [٢٤]

كأنَّ قلبى وحُبَّ مالِكُه … مِصْرٌ وفيها المليك يُوسُفُها

هذا بسَلْبِ الفؤاد يَظْلِمُنى … وهو بقَتْلِ الأعدتء يُنْصِفُها

الملكُ الناصرُ الذى أبدًا … بعِزِّ سُلطانِه يُشرِّفها

بعدْلِه والصَّلاحِ يعمُرُها … وبالنَّدَى والجميل يَكْنُفُها

وإنَّ مِصْرًا بملْكِ يوسفها … جَنّةُ خُلْدٍ يَروقُ زُخرُفُها

وإنّهُ فى السماح حاتمُها … وإنهِ فى الوقارِ أَحْنفُها [٢٥]

كم أَمَلٍ بالندى يُحققهُ … ومُنْيةٍ بالنجاح يُسْعِفُها

وليس يُوليك وَعْدَ عارِفَةٍ … إلَّا وعندَ النّجازِ يُضْعِفُها [٢٦]

---

(٢٢) الصبا : الصبوة إلى الحبيب والغرام .

(٢٣) شرف البناء : أعاليه ، وقد عاد يتحدث عن هواه .

(٢٤) المدنف : الذى براه المرضى حتى أشرف على الموت - إكفكف الدمع : أمسحة مرّة بعد مرّة ليجفّ .

(٢٥) حاتمها : إشارة إلى حاتم طىء جواد العرب المشهور - أحنفها : هو الأحنف بن قيس زعيم تميم فى الإسلام وأحملها وأحكمها .

(٢٦) العارقة : الصنيعة والمعروف .

حكّـمَ فـى مـالــهِ العُفَـاةَ فمـا	يَنفُـــذُ فيـــه إلّا تصـــرّفُهـــا
وإنّ شَمْـــلَ اللُّهـــا يُفَـــرّقُـــهُ	لمَكْـــرُمَـــاتٍ لـــه يُـــؤلّفُهـــا (٢٧)
ذو شَـــرَفٍ مَكْـــرُمـــاتـــهُ سَـــرَفٌ	ويَسْتحـــقُّ الثنـــاءَ مُســـرِفُهـــا
وعَـــزْمـــةٍ بـــالهـــدى تكَفَّلهـــا	وهِمّـــــةٍ للعُلـــــى تكَلّفُهـــا
يـــوسـفُ مصـرَ التـى مَـلاحِمِهـا	جـــاءتْ بـــأوْصـــافـــهِ تُعـرّفُهـــا
كُتْـــبُ التـــواريـــخ لايُـــزَيّنهـــا	إلّا بـــأوْصـــافـــهِ مُصنّفُهـــا
ومـــن يَميـــرُ العُفـــاةَ فـــى سَنَـــةٍ	أَسْمَنُهـــا للجَـــذُوب أعْجَفُهـــا (٢٨)
آيـــاتُ ديـــنِ الإلـــهِ ظـــاهـــرةٌ	فيـــكَ ويُثنـــى عليـــك مُصْحَفِهـــا

ومنها قوله مشيدًا بشجاعته فى الجهاد ضدّ الصليبيين :

كـــمْ جَحْفَـــلٍ بـــالعَـــراء ذى لَجَـــبٍ	بـــالصّـــفِّ منـــه يَضيـــقُ صَفْصَفُهـــا
كـــالبحْـــر طـــامـــى العُبـــابِ لاعبـــةٌ	بمَـــوجِـــه للـــرِّيَـــاح أعْصَفُهـــا
كَتيبَـــة مُنتضـــىً مُهَنَّـــدُهـــا	إلـــى الـــرّدَى مُشْـــرَعٌ مُثقّفُهـــا (٢٩)
غـــادرْتَهـــا للنُّسُـــور مَـــأكَلـــةً	حيـــثُ بـــأشْـــلائهـــا تُضيّفُهـــا
مُنْتَصِفًـــا مِـــن رءوسٍ طـــاعتـــةٍ	بيـــاتـــراتِ الظُّبـــا تُنَصّفُهـــا
وحُطْـــتَ دميـــاطَ إذْ أحـــاط بهـــا	مَـــنْ بِـــرُجُـــومِ البَـــلاءِ يَقْـــذِفُهـــا (٣٠)
لاقـــتْ غُـــواةُ الفِـــرِنْـــج خَيْبَتهـــا	فـــزادَ مِـــن حَسْـــرةٍ تَـــأَسُّفُهـــا

---

(٢٧) اللها : جمع لهوة وهى العطية .
(٢٨) يمير : يأتى بالميرة وهى الطعام – سنة : جدب وقحط .
(٢٩) الصفصف : المستوى من الأرض – طامى العباب : مرتفع الموج غزير الماء – المهنّد : السيف المثقّف : الرمح .
(٣٠) يشير إلى نزول الفرنج دمياط سنة خمس وستين وخمسمائة ومقاومة صلاح الدين لهم حتى رحلوا عنها بعد خمسين يومًا – الرجوم : جمع الرّجْم ، وهو ما يرجم به من حجارة وغيرها .

فــــرَّ فــــريــــرِيُّهـــا وأزعجهـــا ... نـــــداء داويهـــا تلهّفهـــا (٣١)

يُمْطِـــرُ مُطْـــرَانُهـــا العـــذابَ كمـــا ... يُـــرْدى بهـــدِّ السُّقُـــوفِ أسْقُفُهـــا

تكسِـــرُ صُلبَـــانَهـــا وتَنكُسُهـــا ... لقَضْـــمِ أَضْـــلابهـــا وتَقْصِفهـــا

أوْرَدْتَ قُلْـــبَ القلـــوب أرْشِيـــةً ... مِـــن القَنـــا للـــدِّمـــاء تَنْـــزِفُهـــا (٣٢)

وَلِيتَهـــا سَفْكَهـــا ، فعـــاملُهـــا ... عـــامِلُهـــا والسِّنـــانُ مُشْـــرِفُهـــا (٣٣)

تعسَّفـــتْ نحـــوَك الطـــريـــقَ فمـــا ... أجْـــدى سِـــوى هُلْكِهـــا تعسُّفُهـــا

وحَسْبُهـــا فـــى العَمَـــى تهـــافُتُهـــا ... بـــلْ لسِهـــامِ الـــرَّدَى تَهَـــدُّفُهـــا

يُمْضِـــى لـــك اللهُ فـــى قِتـــالهـــمُ ... عَـــزِيمـــةً للجهـــادِ تُـــزْهِفُهـــا

إنْ أظْلمـــتْ سُـــدْفـــةٌ أنـــرْتَ لهـــا ... أبْهَـــى لَيـــالـــى البُـــدُورِ مُســـدَفُهـــا (٣٤)

بشـــائرُ الـــديـــن فـــى إزالتـــه ... مَـــواعـــدُ الله ليـــس يُخْلِفُهـــا

أدركْـــتَ مـــا أعْجَـــزَ الملُـــوكَ وقـــد ... بـــات إلـــى بَعضِـــهِ تَشَـــوّفُهـــا (٣٥)

جـــاوزْتَ غـــايـــاتِ كـــلّ مَنْقَبـــةٍ ... يعِـــزّ إلّا عليـــك مَـــوْقفهـــا

وإنَّ طُـــرْقَ العَـــلاءِ واضحـــةٌ ... آمِنُهـــا فـــى السُّلُـــوك أَخْـــوفُهـــا

صـــلاحُ ديـــنِ الهُـــدى لقـــد سَعِـــدتْ ... مَمْلكـــةٌ بـــالصـــلاحِ تُتْحِفُهـــا

عِنـــدى بشُكـــرِ النُّعمَـــى ثمـــارُ يـــدٍ ... زاكيـــةُ الغَـــرْسِ أنْـــتَ تَقْطفهـــا

فـــاقبـــلْ نُقُـــودًا مـــن الفضـــائلِ لا ... يُصـــابُ إلّا لـــديـــكَ مَصْـــرِفُهـــا

---

(٣١) الداوية : فرقة من فرسان الصليبيين ، وتسمى أيضًا باسم الهيكليين Templars وهى جمعية تأسست سنة ١١١٨ م من بضعة أشراف من الفرنسيين الذين صحبوا جودفرى إلى القدس ، وكانت جمعية أخوية رهبانية عسكرية . وكذلك الفريرية جمعية أخوية رهبانية من جمعيات الصليبيين ، وهى تطلق على فرق كثيرة .

(٣٢) القلب : جمع قليب ، وهو البئر - والأرشية : الجبال ، جمع رشاء .

(٣٣)عامل الرمح : صدره ، والعامل : الوالى - مشرف الشىء : الذى يعلوه ، والمشرف أيضًا : القائم على الأمر.

(٣٤) السدفة : الظلمة .

(٣٥) التشوف : التطاول والتطلع .

أصـــدافُ دُرِّى إليـــك أَحْمِلُهـــا   وعـن جميـعِ الملُـوك أَصْـدِفُهـا (٣٦)
إنْ لـم تُصِـخْ لـى فهـذه دُرَرِى   لأىِّ ملْـــكٍ ســـواكَ أرْصُفُهـــا
وهــل لآمــالِنـــا ســوى مَلِـكٍ   يَنْقُـــدُهـــا بِــرّهُ ويُسلِفُهـــا (٣٧)
دُنْيـا مـن الفَضْـل قـد خَلَتْ وبـدا   للنَّقْـص فـى أَهْلـخ تعيُّفُهـا (٣٨)
وكـلّ سُـوقٍ للفضـل كـاسـدةٍ   بـانَ لأَعْـدائِه تحيُّفُهـا (٣٩)
وهـل يَـرْوجُ الـرجـاءُ فـى نَفَـرٍ   كُلّهُـمُ فـى العُـلا مُـزيِّفُهـا
قـد عَطَفَتْ لـى فَضـائلى ووَفَـت   لكـنْ حُظـوظـى أَعْيـا تعَطُّفُهـا
وفَضْلـىَ الشمـسُ فـى مطـالعهـا   لكـنَّ جَهْـلَ الـزمـان يكْسِفُهـا
قـد أَعْـرَبَتْ فيـك بـالثَّنا كَلِمـى   وحـاسِـدى ضلّـةً يُحَـرّفُهـا (٤٠)
أَسْـدى لنـا شِيـرَكُـوهُ عـارفـةً   يـوسـفُ مـن بعـدِهـا سيَخْلُفُهـا (٤١)
أنـتَ قَمِيـنٌ بكـلِّ تـالـدةٍ   إنّـكَ يـا ابـنَ الكِـرامِ تُطْـرِفُهـا (٤٢)

ومن مدائحه فى صلاح الدين التى استهلها بالحديث عن مجونه مقلّدًا فى ذلك أبا نواس نواس إلى حد بعيد :

سَكـارن بـاللحْـظِ صـاحِ   نَشْـوانُ مِـن غَيْـرِ رَاحِ
بـوجْنَـةِ الـوَرْدِ يفْتَـرّ   عـن ثَنَـايـا الأَقَـاحِ

(٣٦) أصدافها : أصرفها ، يريد أنه يخص صلاح الدين بها .
(٣٧) يسلفها : يعطيها يلفًا ، وهى عكس ينقدها أى بعطيها توًّا .
(٣٨) تعيّفها : من عافت الإبل الماء أى لم تشربه .
(٣٩) تحيّفها : تنقصها من حافاتها ونواحيها .
(٤٠) أعربت : أفصحت - صلّة : من ضلّ عن الطريق وعن القصد .
(٤١) هو أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الذى أرسله نور الدين صاحب الشام إلى مصر حين استجد به شاور سنة تسع وخمسين وكذلك سنة اثنتين وستين ، ولما استغاثه العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بنور الدين ضد الصليبيين أرسله إليه واستمر بمصر وقتل شاور وولى الوزارة للعاضد من بعده سنة أربع وستين ، ولم تطل مدته فقد توفى بعد شهرين ، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين ولم يلبث أن أزال الخلافة الفاطمية .
(٤٢) قمين : جدير - التاليد : القديم الأصلى الموروث - تُطرفها أى تأتيها بكلّ عجيب مستحدث طريف .

وقـــامـــةِ الغُصْـــنِ يَهْتَـــزّ فـــى مَـــراحِ المُـــراح
وعـــارضِ المِسْك مثـل الـــ مســـاء فـــوْق الصبـــاح (٤٣)
نَـــمَّ العِـــذارُ عليـــهِ فتَـــمَّ فيـــه افْتِضـــاحـــى
وَرْدُ الحيَـــاء جَنِـــيٌّ فـــى ذلـــك التفـــاح
والـريـق كـالـراح شُجّـت بعـــذبِ مـــاء قـــراحِ (٤٤)
مِـن كـأسِ فيـه اغْتبـاقـى مُنَعَّمًـــا واصطبـــاحـــى
وفـــى الأمـــورِ اختتَـــامـــى علـــى اسمِـــه وافتتـــاحـــى
أَهْـــوَى طُلـــوعَ صَبـــاحـــى علـــى وجـــوهِ صِبـــاح
ولثْـــم أحْـــورَ أَحْـــوى وضَـــمَّ رُودٍ رَداح
وريَّ قلبـــى الصَّـــدَى مـــن عِنـــاق ظـامـــى الـوشـــاح (٤٥)
وفِتْنَتَـــى مـــن عيـــونٍ حُـــورٍ مِـــراضٍ صِحـــاح
يـــا صـــاحِ إنّـــى نـــزيـــفٌ سُكْـــرًا وإنـــك صـــاح
وبَـــرْحُ وَجْـــدى مُقيـــمٌ فمـــا لـــهُ مـــن بَـــرَاح
دَعْنـــى فمـــا أنـــت يَـــوْمًـــا مُـــؤَاخَـــذٌ بجُنـــاح
ومـــا أَطَعْـــتُ غـــرامـــى حَتَّـى عَصَيْتُ اللَّـــواحـى (٤٦)
وَفَـــى الحبيـــبُ وتَمَّـــتْ بـــوَصْلـــهِ أَفْـــراحـــى

---

(٤٣) المراح ، بالفتح : شدة الفرح أو النشاط ، وبالضم : مكان السرور - العراض : صفحة الخد .
(٤٤) الجنى : على وزن فعيل الناضج - الماء القراح : الماء الصافى الخالى من كل شائبة .
(٤٥) الأحوى : ذو الشفة الحمراء إلى السواد ، والأحوى أيضًا : الأسود - الرود : الشابة الحسنة - رداح : ضخمة كينة - ضلنى الوشاح : ناحل الوشاح .
(٤٦) اللواحى : اللاحى ، وهو اللائم .

وزاد قـــذحـــى ودارتْ　　بمُنْيتـــى أَقْـــداحـــى [٤٧]
أَعْطَـــى الكُـــؤوس مـــلاءً　　علـــى أكُـــفٍّ المـــلاح
ورُضْـــتُ بـــالصَّبْـــر دَهْـــرى　　وكـــان صَعْـــبَ الجِمـــاح
قـــد استقـــرّت أُمـــورى　　فيـــه بحسْـــبِ اقتـــراحـــى
كمـــا استقـــرّ صـــلاحُ الـــ　　دُنْيـــا بمُلْـــك الصَّـــلاح
تُنيـــرُ شَمْـــسُ مَســـاعيـــ　　ـــه مِـــن سَمـــاء الصَّبـــاح
وأَمْـــــرُهُ مُسْتفـــــادٌ　　مِـــن القَضـــاء المتـــاح
ذو المفْخَـــر المُتعـــالـــى　　والنـــائلِ المسْتَمـــاح [٤٨]
وللْحَقيقـــــة حَـــــامٍ　　وللـــدَّنِيَّـــة مَـــاح
غَيْـــثُ السَّمـــاحـــةِ طَـــوْد الـــ　　وَقـــار ليْـــثُ الكِفـــاح
صـــدرٌ بجَـــذْواه صـــدْرى　　مُـــذ لـــمْ يَـــزَلْ فـــى انشِـــراح
مـــن قَـــدْح زنَـــدْ الأَمـــانـــى　　بـــه وَقُـــودُ القِـــداح
أَمَّلْتُـــــهُ لِمُلِمَّـــــى　　فـــلاحَ وَجْـــهُ فـــلاحـــى
آمـــالنـــا بُلهـــاهُ الـــ　　أَجْســـام بـــالأرْواح
نَـــدَى كَـــرِيـــمٍ حَيـــيٍّ　　وبـــأس ذِمْـــرٍ وَقـــاح
يَفْـــديـــكَ أهْـــلُ اجتـــراء　　علـــى رُكـــوب اجْتِـــراح [٤٩]
بـــالمـــالِ غَيْـــر كِـــرامٍ　　بـــالعِـــرضِ غَيْـــرُ شِحَـــاحِ
رأيْـــتَ صَـــوْنَ المعـــالـــى　　فـــى بَـــذْلِ مـــالٍ مُبـــاح
إنْ طـــال لَيْـــلُ مُلـــمٍّ　　وافيْـــتُ بـــالإِصْبـــاح

---

(٤٧) القدح : السهم ,
(٤٩) الذمر : الشجاع - يقال هو وَقَاح الذَّنَب بمعنى صبور على الركوب - الاجتراع : الاكتساب .

ومنها :

مُلّيتَ يوسفُ مصرا ... جِدًّا بغَيْر مزاح [50]

مُلْكًا بغَيْر انتزاعٍ ... عِزًّا بغيرِ انتزاح

يا مَن أياديه تُبْدِى ... بالخصر عِىَّ الفِصَاحِ

ومنْ مُرجَّى نداهُ ... مُبَشِّرٌ بالنَّجاح

عَدُوّه فى اتّضاعٍ ... ومَجْدُه فى اتِّضاح

ومنها :

صَريحُ مَدْحى لِعَلْيا ... كَ عن وَلاء صُراح

يقَيْد شُكْرى عَطايا ... كَ مُطلقَاتُ السَّراح

(٥٠) ملّيت : متعت .

أبو حفص السلمى

(٥٣٠ - ٦٠٣ هـ / ١١٣٦ - ١٢٠٦ م)

هو القاضى أبو حفص عمربن القاضى أبى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عمر السُّلمى . أصله من جزيرة شقر ، وولد بأغمات ، وسكن مدينة فاس .

روى عن جده لأمه أبى محمد بن عبد الله اللخمى ، وعن أبى مروان بن مرة ، وأخذ عن أبى بكر بن طاهر كتاب سيبويه ، وكان من أهل المعرفة واليقين ، أديبا شاعرًا مجيدا ، غلب عليه الأدب ، حتى عرف به وشهر ، مع جودة الخط ، وبراعة الأدوات .

دولى قضاء تلمسان . ثم نقل إلى قضاء فاس ، ونال قضاء إشبيلية وغيرها ، ونال دنيا عريضة .

توفى بإشبيلية فجأة فى الخامس من ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة ، ومولده فى حدود الثلاثين وخمسمائة ، وفى تاريخ مولده ووفاته خلاف .

* * *

قال أبو حفص السلمي يمدح أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الموحدي :

اللهُ حسْبُك والسبعُ الحواميم ... تغزو بها سبعة وهي الأقاليمُ (١)
سبْعُ المَثاني التِي لله قمتَ بها ... عليك من نصرها نصٌّ وتقديم (٢)
وأنت بالسور السبع الطُّوال على ... كل الوَرَى حاكم بالله محكوم (٣)
والدّهر سَبْعَته وسبعة جعلت ... جواد مالك والمنصور مخدوم
وسبعةُ الشُّهب لم تَخْفِل بها ثقةً ... بوعد ربّكَ هَيهَاتَ التناجيمُ (٤)
تسمو بنفس على السَّبْع الشِّداد سمتْ ... فينا وثَمَّ لها زُلْفَى وتكريم (٥)
أنوار عدلك في الآفاق داعية ... هل في البسيطة ظَلَّام ومظلوم (٦)
أعلى بك الله أعلاما هدَيتَ بها ... فأنت فيهنّ إكمال وتتميم
عليك أهلُ الهدى والحقُّ متفق ... وحبل من فارق الإجماع مصروم (٧)

ومنها أيضا :

فؤاده بضياء العلم منشرح ... ووجهه بجمال النور موسوم
وكفُّهُ بالخير منهمِر ... وظهرُها لعهود الله مَلثوم

---

(١) السبع الحواميم : يريد السور ذوات « حم » في القرآن الكريم - كان أهل الحساب يزعمون أن الدنيا سبعة أقاليم.
(٢) سبع المثاني : قيل هي الفاتحة لأنها سبع آيات .
(٣) السور الطوال : من البقرة إلى التوبة ، على أن تحسب التوبة والأنفال سورة واحدة .
(٤) سبعة الشهب هي النجوم المعروفة بالدراري .
(٥) قال تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » - سورة النبأ ١٢
(٦) البسيطة : الأرض .
(٧) مصروم : مقطوع .

العلم قيمته والحلم شيمته ... طابت أرومته والنفس والخِيم (8)

لطالبى العلم ما شاءوا بخدمته ... غِنًى وعز وإرشاد وتعليم

سُحب العلوم عليهم من سماحته ... تَهمِى ففى بحرها هِمْ شُرَّعٌ هِيمُ (9)

العَيْنُ من نَظَرٍ والأذن من خَبَر ... لاتشبَعان وباغى العلم منهوم (10)

يُغْضِى أناةً وحلما علما له ... فى موضع الحق إقدامٌ وتصميم

تشتد فيمن عصَى أو خان وطأتُه ... وفى الثِّقافِ لذات الزيغ تقويم (11)

إرادةٌ فوقَ إدراكِ العقول لها ... فحسبها منه إيماء وتسليم

حتى إذا ما بدا منها النجاح بدت ... كالشمس ما دونها فى الجو تَغْييم

انظر خواتمها تفهم مبادئها ... بالشرح ما ليس بالمفهوم مفهوم

والحظ سماء عُلاها عِبرةً وكفى ... من يسترِقْ سمَعها بالشهب مرجوم (12)

إنّ الخليفَة سِرُّ اللهِ ظاهرةٌ ... آياتُه وهو عند الله معلوم

فسلّموا واخلعوا الآراء واتبعوا ... حكم الإمام فما فى الدين تحكيم

الشرق والغرب من عُرب ومن عَجَم ... فى كفّه عُودهم بالقبض معجوم

والبحر والبرّ من سهل ومن جَبَل ... جميعُها بزِمام الرأيِ مخطوم (13)

---

(8) شيمته : خلقه – أرومته : أصله .

(9) شُرّع : يتناولون الماء بأفواههم – هيم : جمع أهيم وهو العطشان أشد العطش .

(10) باغى : طالب – منهوم : مولَع مفرط فى الرغبة فيه .

(11) الثِّقاف : المخاصمة والمجالدة .

(12) قال تعالى : « إلّا مَن استَرَقَ السَّمْع فأتبعه شهابٌ مُبين » – سورة الحجر 18

(13) معجوم : ممتحَن مختَبر – مخطوم : عليه الخطام أو الزمام .

ومنها أيضا :

وكل جَدٍّ مُفادٍ من علائك مِنْ نَسيمِه نَفَسُ العلياء مشموم
للمسلمين أميرُ المؤمنين حِمًى يُحله من صروف الدهر تحريم
الدهرُ فى أَنْفه مِن حكمه بُرَةٌ بها الزمانُ على الأبرار مَخْزوم (١٤)
العلمُ والدِّين والدنيا وساكنها فى سلك رأيك يا وُسْطاه منظوم
جزاءُ سعيك عند الله مُدَّخَر هذا كتابك فى الأبرار مرقوم (١٥)
عطفًا على حُسْن أمداحى وإن عجزَتْ إنّ الجمالَ على العِلاّت مرحوم
ما عَلَّقوا لو رأوا هذا قِفا وألا هُبّى ولو جاءهم حُجْر وكُلثوم (١٦)
إذًا لقال لرواية عُليقمةٌ : «هلْ ما عَلِمْتَ وما اسْتُودِعْتَ مكتوم»؟ (١٧)
يا سامعين أماديح الإمام ألا فاجثوا على الركب الإعظامَ أو قوموا
خذ كأسَ لفظى دِهاقًا من مدائحه فيها الحقائق لا لَغْوٌ وتأثيم (١٨)
ندعو له بَدَلًا من مدحه لقصور المدح عنه وفيه العُذْر معلوم
عَزَّ الإمامُ فلا تضرب به مثلا من ذا يُقاسُ به والمِثْلُ معدوم
أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقُه عليهِ من ربِّه بُشْرَى وتسليم
صِل بالصَّلاة عليه صدق مِدْحته ذاك الرحيق بهذا المسك مختوم (١٩)

---

(١٤) البُرَة : الحلقة فى أنف البعير - مخزوم أى فى جانب منخره الخزامة وهى حلقة من شعر توضع فى ثقب أنف البعير يشدّ به الزمام .
(١٥) مرقوم : مكتوب مبيَّن .
(١٦) قوله « قفا » إشارة إلى معلقة امرئ القيس بن حجر، الشاعر الجاهلى ، أما « ألا هُبّى » فهو مطلع معلقة عمرو بن كلثوم .
(١٧) الشطر الثانى مطلع قصيدة لعلقمة بن عبدة ، وهى فى المفضليات .
(١٨) دهاق : مترعة ممتلئة .
(١٩) الرحيق : الخمر أو الخالص الصافى منها .

ومن غزليّاته قوله :

هـمُ نظـروا لـواحظَهـا فهـامـوا ... وتشـربُ عقـلَ شـاربهـا المـدامُ
يخـاف النـاس مُقْلَتَهـا سِـواهـا ... أيَـذْعَـر قلـبَ حـامِلِـه الحُسـام
سمـا طـرفـى إليهـا وهْـوَ بـاكٍ ... وتحـت الشمـس يَنْسكِـب الغمـام
وأذكـر قـدّهـا فـأنـوح شـوقـا ... علـى الأغصـان تَنْتَـدِبُ الحَمـام
وأعقـبَ بَيْنُهـا فـى الصـدر غمًّـا ... إذا اغتـربـتْ ذُكـاءُ أتـى الظـلام (٢٠)

وقوله أيضا :

مهـا القفـرِ لا دُميـةُ المـرْمَـرِ ... وفـى العُـرْب لا فـى بنـى الأصفَـر (٢١)
بنفسـى يعـافيـرُ تلـك الخِيـامِ ... ومَسـرَحُهـا فـى النقـا الأعفـر (٢٢)
مـلاعـب يصبـو إليهـا الحكيـم ... ويُسْلَـب فيهـا فـؤادُ الجَـرِى
وفيهـا الظبـاء بنـات الأُسـود ... غَيـارَى متـى بَغَمـت تَـزْأَر (٢٣)
فِخيـسُ الهِـزَبْـر كِنـاسُ الغَـزال ... بـه الشِّبـل نـاشٍ مـع الجُـؤْذَر (٢٤)
تخـالُسُهـا نَظـرا تحتـهُ ... غـرامٌ بـه الحـىُّ لـم يَشْعُـر
وبـاللحـظ يُقْـدَح زَنْـدُ الهـوى ... فطـرفٌ غَـرٍ وفـؤادٌ بَـرِى

---

(٢٠) بَيْنها : بُعْدها وانفصالها - ذكاء : الشمس .
(٢١) الدُّمى : جمع الدُّمية وهى الصورة المثّلة ، يضرب بها المثل فى الحسن ، ويكنى بها عن المرأة .
(٢٢) اليعافير : الظباء أو أولاد البقر الوحشى سبق عند ظافر .
(٢٣) بغمت الظبية : صوّتت إلى ولدها بألين صوتها .
(٢٤) خيس الهزبر : موضع الأسد - كناس الغزال : مستترة فى الشجر - ناش أى ناشئ - الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .

وكفّرها بقوله :

بقلبك يا غافلًا فانظر ... وعَيْنَيْك غمِّضْهما تُبْصر
إذا أُرسِل الطرفُ هام الفؤاد ... وبعض المرائى عَمَى المبصِرِ
وآفة قلب الفتى عينُه ... فإن تَرْعَ قلبَك لا تنظر

ومن قوله :

أغارَ على الصَّبِّ من أنَّبَهْ ... هو الحبُّ مَنْ يُطْفِه ألهَبهْ
نأى القلبُ عنى وشوقِى معى ... فللّه أمرِي ما أعجبَه !
يَحِنّ فؤادى إلى قاتلى ... كذاك الهوى عند من جَرّبه
تَرِقُّ شمائلُ من ذاقه ... وتَلْطُفُ شَمْأَلُ مَنْ هذّبه (٢٥)
يَجود لمُسْخِطه بالرضا ... ويطلبُ راحةَ من أتعبه
إذا شفَّ قلبى غرامُ الهوى ... دعا بالنعيم لمن عَذّبه

* * *

(٢٥) شمائل : خلق شمأل : التى تهبّ من جهة الشمال .

أبو الفضل الجلياني الأندلسيّ

(٥٣١ - ٦٠٣ هـ / ١١٣٦ - ١٠٢٦ م)

هـو عبد المنعم بن عمر الغساني ، ويعرف بـالجلياني ، نسبة إلى جِليانة ، وهى من أعمال وادى آش ، رحل من الأندلس إلى المشرق ومدح الملك صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب .

ومن قصائده فى مدحه : « القدسية الكبرى » فى فتح القدس سنة ٥٨٣ ، وهى فى ١٥٢ بيتًا ، لم يحتفظ منها أبو شامة فى « الروضيتين » إلا على ٢٥ بيتًا :

* * *

تَصاريفُ دهْرٍ أَعْرَبَتْ لمنِ اهْتدى ... وبَسْطَةُ أمرٍ أَغْرَبَتْ من تَمَرَّدا (١)

لسُرعةِ فتحِ القدس سِرٌّ مُغَيَّبٌ ... وفى صَرْعةِ الإِفْرنج مُعْتَبَرٌ بَدا

أَتَوا بحبالٍ أُبْرِمَتْ لإِسارِنا ... فسُقْناهُمُ فيها قَطِينًا مُجَدَّدا (٢)

وساموا تِجارًا تَشْترينا غَواليًا ... فبِعْناهم بالرخْص جَهْرًا على الندا

وَجرُّوا جُيوشًا كالسُّيول على الصوى ... فآضتْ غُثاءً فى البِطاح مُمَدَّدا (٣)

وقالوا : ملوكُ الأرض طَوْعَ قيادِنا ... إذا الكلُّ منهم فى القُيود معبَّدا

وقد أقطع الكُنْدُ العراق موقّعا ... فأُودِعَ سِجْنًا وسْطَ جِلَّق مُؤْصدا (٤)

وأُقْسِم أنْ يسقى بدجلة خيله ... فما ورد الأردن إلا مُصَفَّدا (٥)

---

(١) أعربت : أبانت وأفصحت - أغربت : نحّتْ وأبعدتْ .
(٢) أُبرمت : فُتِلت - قطين : خدم وأتباع .
(٣) الصوى : جمع صُوَّة ، وهى ما ارتفع وغلظ من الأرض - آضتْ : تحولت إلى - الغثاء : الزَّبَد أو الوسَخ والقذر.
(٤) جلّق : اسم دمشق - مؤصد : مغلق .
(٥) مُصَفَّد : مُقيَّد .

فكــم واثــقٍ خَجْــلانَ قَهْقَــهَ خِصْمُــه ولــم ســائقٍ عَجْــلان قَهْقَــرَ مُقْعــدا
أتــى الكُنــدُ مــن إسْبــانَ تَحْمِــى قمــامــة فكــان تقضَّــى مُلْكِــه قَبْــلَ يُبْتَــدا
فمــا عَقَّــدَ الــرايــاتِ إلّا محلّــلا ولا حَلَّــل الــرايــاتِ إلَّا مُعَقَّــدا
ووَقْعــة يــومِ التَّــلِّ إذ قُبِضَــتْ بــه جَبــابــرةُ الإفْــرنــج حَيْــرَى وشُــرَّدا
عليهــمْ مــن التلْــوى سُــرادقُ ذِلَّــةٍ ومَــنْ زَلَّ مــاتــتْ نفسُــه فتَقَيَّــدا
تــرى المنســر الــديــوى يُلْقِــى سِــلاَمَ وينســاقُ مــا بيْــن السَّبــايــا مُلَهَّــدا (٦)
يُبــاعــون أســرابًــا شــرائحَ أَحْبُــل كشَلَّــة عصفــور مــن الــريشــق جُــرَّدا
فتلْقــى نَصَــارى جِلَّــقٍ فــى مــآتــمٍ يُسِــرُّونَهــا إلَّا شَجــن وتَنَهُّــدا
ألــمْ تــر للسلطــان صَــدَّقَ نَــذْرَهُ دَمُ الغــادرِ الإبْــرنْــس فــاقْتِيد أَرْبــدا (٧)
وبــاشــرَه بــالقَتْــل وسْــطَ جَنــابــه وعَــايَنَــه الكُنْــد المليــكُ فــأرعــدا (٨)
وضـافـت بنفس القمـص الأرض مهربـا فــأدركــه المــوْتُ المفَــاجِــئ مُكمَــدا
ومــا طَــرَقَ الأسمــاعَ مــن عهــدِ آدمٍ كملْحَــة التَّــلِّ التــى تلَّــتِ العِــدى (٩)
أَتَــوْا واديًــا مــا زال يَنْفــى خبــائثًــا ويُصْفــى يعُقْبى الــدارِ طــائفةَ الهُــدى (١٠)
بــه جَثَمَــتْ أصحــابُ الأَيْــكِ وهْــى فــى ذَراه وذافيــه شعيــب تَــأَيَّــدا (١١)
أرى اللهَ فيــه معجــز النصــر مخلصــا لأمــرِ صــلاح الــديــنِ فــى النــاس مخلــدا
وأعــدى جنــود الــرعــب يــردى عــداتــه وسلَّــم جَمْــعَ المسلميــن مُجَنَّــدا

(٦) مُلَهّد : مستضعف ذليل مدفَّع عن الأبواب .
(٧) أربد بمعنى محبوس .
(٨) أرعد : أصابته رعدة من الفزع .
(٩) تَلّت : صرعتْ .
(١٠) يُصفى بكذا : يختصّه ويؤثره به .
(١١) تأيَّد : تقوَّى .

ومِـن عَجَبٍ خَمْسـون ألـفَ مُقَاتـلٍ ... سَبَتْهـم جيـوشٌ ليس فيها مَـنِ ارْتَـدى
عَجَبْـتُ مـن الأيـام تطـوى كمـائنًـا ... إذا انتشـرت أَغْيَـتْ نَجِيـًّا ومُنْجِـدا
وكنـتُ أرى ذا الفتْحَ من قسم يـوسُفٍ ... فلِلَّـهِ ذاك القَسْـم مـا كـان أسْعـدا
ولِلهِ يـومٌ هَـلَّ فيـه ولادة ... لقـد طـابَ مـولُـودًا وبُـورك مَـوْلِـدا
كفى مطهرًا من طهر القدس واحتوى ... بنـى أصفـر سَبْيًـا وقَتْـلا تَعَمَّـدا
هو المسجدُ الأقصى وهم شَوْكَة الوغى ... فمـا كـان لـوْلا اللهُ يخلُّـصُ مَعْبـدا
هنيئًـا لبيـتِ المقْـدِس الآن طهـره ... وللنّـاصـرِ المنصـورِ غِبْطَتُـه غـدا
فيـا خَيْـرِ ممـدوحٍ وأطْهَـرِ مُجْتَبَـى ... وأَسْعَـدَ ممنـوحٍ وأبْهَـرَ مُجْتَـدى (١٢)
مديحُك أحْلَى فى فمى من صَبَى المنى ... ومن طَعْم برد الماء عَذْبًا على الصَّدى (١٣)
وأشْهى سَمـاعًا من حديث حبائبٍ ... يـذكِّـرهـا عَهْـدَ الصِّبـا مُتَجـدِّدا
أُسـامِـر فيك الشِّعْـرَ مُسْتمتعًـا بـه ... فـأَبْسُطُـه بَسْطَ الخميلـةِ فـى النـدى
أَوَدُّ لـو أن البيـتَ أَلْـفُ قصيـدةٍ ... وكـلُّ قصيـدٍ ألـفُ حِـزْبٍ تَـرَدَّدا
وكيـف اقتصـادٌ فى مـدائحِ يـوسـفٍ ... وقـد بَذَّ غـايـاتِ السوابقِ فى المـدى (١٤)
سـرى وهْـو نـورٌ قـاهـرٌ بلطـافـةٍ ... وحَـلَّ بنـا صَـوْتُ العُـلا فتجَسَّـدا
ولـولـم يلـح للنـاس مـا علمـوا فتـى ... سمـا كـل عـال وهـو يـرتـاد مصعـدا
فكـلُّ ابتـداء فـى مسـاعيـه منتهـى ... وكـلُّ انتهـاءٍ فـى معَـاليـه مُبْتَـدا

* * *

(١٢) مجتبَى : مختار مصطفى – المجتدَى : مَن يطلب منه الجدوى أى العطيّة .
(١٣) الجنى : العَسَل وكل ما يجنى من الشجر – الصدى العطش الشديد .
(١٤) بذّ : غلب وفاق .

ومن شعره :

فأبْغَضُ شيءٍ حكمةٌ عند جاهلٍ ... وأَهْوَنُ شَخْصٍ فاضِلٌ عند ظالمِ
فلو زُفَّت الحسناءُ للذِئب كم يكنْ ... يَرَى قُرْبها إلَّا لأكل المعاصم

* * *

وله :

عَجَبًا من احْبابنا وانْقِيادى ... طوعَهم إنْ شَفَوْا و إنْ أَمْرَضُونى
ما رِضَاهُمْ إلَّا لسُخْط سواهم ... فى هَواهم وحبَّذا إنْ رَضُونى

* * *

وله :

وله أُؤمِّل لُقْياكم وإنْ شَطَّبتِ النَّوى ... وإنْ جَرَّ قُرْبًا فى مُرور السَّوانحِ
ويُذْكى اشتياقى زَنْدَ تَذْكِارِ عَهْدكم ... وما الشَّوْقُ إلا بعضُ نارِ الجَوانِح

* * *

ابن سناء الملك

(٥٥٠ - ٦٠٨ هـ / ١١٥٥ - ١٢١٢ م)

أبو القاسم القاضى السعيد هبة الله بن القاضى الرشيد جعفر بن المعتمد سناء الملك السعدى .

تضاربت أقوال المؤرخين فى تاريخ ميلاده . فجعله ابن خلكان سنة ٥٥٠ / ١١٥٥ ، والصفدى ٥٤٥ / ١١٥٠ ، ومحمد عبد الحق الهندى ٥٥١ / ١١٥٦ . وتابع أكثر المؤرخين قول ابن خلكان .

أما وفاته فلم يقع خلاف ، وكانت فى يوم الأربعاء ٤ رمضان ٦٠٨ / ١٢١٢

ولما كان من أسرة موسرة ، رفيعة الشأن كما تدل الألقاب التى أُغدقت على رجالها ، فقد أُتيح له أمران :

أولهما : أن يتلقى علوم الحديث والفقه واللغة والفلك على كبار علماء عصره . بل يدل أحد موشحاته على أنه كان على معرفة باللغة الفارسية أيضا .

الأمر الثانى: أن يعمل - منذ وقت مبكر - مع أبيه ، فى دواوين القاضى الفاضل ، فيجد فيه الراعى الأدبى ، الذى ينقد أعماله ويقومها ، ويشيد بذكره ، ويذيع صيته فى كل مكان ، ويصله بالسلطان صلاح الدين الأيوبى .

فكان - كما علق ابن خلكان - سعيد الحظ ، كا يدل لقبه .

وجمع ابن سناء الملك بين التأليف والكتابة والشعر .

فخلف لنا الآثار التالية :

- روح الحيوان : لخص فيه كتاب الحيوان للجاحظ ، الكاتب الذى كان يعجب به إعجابا شديدا .

- مختارات من شعر ابن رشيق القيروانى مع التعليق عليها . وقد بلغ من إعجاب القاضى الفاضل بها أن طلب إليه يقدم مختارات مماثلة من شعر ابن الرومى ، غير أنه - فيما يبدو - لم يفعل .

- فصوص الفصول وعقود العقول : جعله قسمين :

الأول : لرسائل المؤلف إلى الفاضل وردوده عليها .

والثاني : لرسائل القاضى الفاضل التى كتبها عن الشاعر وأرسلها إلى والده .

- مصايد الشوارد : وضع فيه بعض رسائله .

- دار الطراز : أهم كتب المؤلف ، لأنه كان أول كتاب يسجل قواعد فن التوشيح ، وما زال إلى اليوم من أهم الكتب فى هذا الفن .

- وأعطانا ديوانه الذى حشاه بالمدح والغزل والرثاء والهجاء والوصف ، وتطرق فيه للفخر والزهد والاعتذار والاستعطاف والحكمة . وقد بالغ فى مدائحه ، واغترف من الشعر الفاطمى صفات خلعها على ممدوحيه دون أن يأبه لمدلولها الشيعى ، مما جعل ابن سعيد المغربى يصفه بالتشيع . والحق أن أكثر ما أجاد فى الغزل والوصف .

وقد لقى فى حياته بعض خصومات، أدارت حوله معارك أدبية ، ولكن هذه الخصومات لاتعد شيئا إذا ما وضعت إلى جوار الثناء الذى أغدقه عليه الكتاب القدماء والمحدثون .

فمما أغدقه عليه القاضى الفاضل : لو أن البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان فارسها .

وعلق ابن حجة الحموى على قصيدته التى مطلعها :

سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

فقال : وممن افتن فى قصيدة كاملة وتفنن ، وخلص من تفخيم الحماسة والفخر إلى رقة الغزل وأحسن ، القاضى السعيد . . . فإنه قسم القصيدة شطرين ، وتلاعب فى ميدان البلاغة بالفنين . وهذه القصيدة تقف دونها فرسان الحماسة ، ويكبو الجواد من فحولها ، وينثنى من لطائف غزلها من لعبت بلطف شمائله خمر لطف شمولها .

وفى العصر الحديث جعله محققو « خريدة القصر » أكبر شعراء مصر وأبرعهم فى العصر الأيوبى ، ووصفه د . محمد زغلول سلام بالشاعر الرقيق المفتن ، وقال عنه : «شعره رقيق تغلب عليه الصنعة ، ولكنها صنعة قد تروق أحيانا ، فتكون حفيفة مقبولة حسنة الوقع فى النفس . وقد تثقل بعض الأحيان فتبدو سمجة متكلفة » .

ومن أجل هذه الصنعة هاجمه بعض النقاد . فذكر الأستاذ عمر الدسوقى أن الشعر العربى كان قد تحول عن قوته وروعته القديمة ، وأصبح تكرارا مملا لمعان محفوظة . ولم يعد الشاعر الكبير - مثل ابن سناء الملك - إلا أن يخرج هذه المعانى والصور إخراجا جديدًا فإذا هو لا يصل إلا إلى ضروب من التكلف الواضح .

وجعله د . عبد العزيز الأهوانى نموذجا للعقم الذى أصاب الشعر العربى فى تلك العصور .

* * *

قال يمدح الملك الناصر، ويهنئه بكسر الفرنج وملك بلاد الشام : (١)

لستُ أدرى بأىِّ فتحٍ تُهنَّا ... يا مُنيلَ الإسلامِ ما قد تمنَّى
كلُّ فتحٍ يقول إنِّى أَولى ... وهْوَ أولى لأنَّه كان أَهْنا
أَنُهنِّيكَ إذ تملَّكتَ شامًا ... أم نهنِّيك إذ تملكت عَدْنا
قد ملكتَ الجِنان قصرًا فقَصْرا ... إذ فتحتَ الشآمَ حِصنا فحِصْنا
إنّ دِينَ الإسلام مَنَّ على الخلـ ... ـق وأنتَ الذى على الدِّين منَّا
أنت أَحيَيْتَه وقد كان ميْتًا ... ثم أَعتقتَه وقد كان قِنًّا (٢)
شكر اللهُ ما صنعتَ على العر ... ش وفى عَرْصَةِ الملائك أَثنَى
لك مدحٌ فوق السموات يُنشا ... ومحلٌّ فوق الأَسِنَّة يُبنى
شاق جبريلَ بيتُه بيت جبريـ ... ـلَ فوافى إليه شوقًا وحَنّا (٣)
تُخْرِجُ السَّاكنين منه وربُّ الـ ... ـبيتِ فى بَيْتِه أحقُّ بسُكْنَى
شَهِدَ النَّاسُ أنهم شاهدوا جبـ ... ـريلَ ردّ الأَقرانَ قِرْنا فَقِرنا
فَلكَمْ ضَرْبةٍ ولم ترَ ضَرْبا ... ولكم طعنةٍ ولم ترَ طَعْنا
مَلِكٌ جُندُه ملائكةُ الله ... فُرادى جاءَت إليه ومَثْنى
كم تأنَّى النصرُ العزيزعن الشا ... م ولما نهضتَ لم يتأَنَّ
قد تعنَّيتَ حين أحببتَ وجهَ الله ... بالحرب والمحبُّ مُعنَّى

---

(١) قال ابن سناء هذه القصيدة سنة ٥٨٣ هـ قبل فتح المقدس، وقد أشار فيها إلى الانتصارات العظيمة التى أحرزها السلطان صلاح الدين كانتصاره العظيم فى حطين، واستيلائه على كثير من المعاقل والحصون كفتح طبرية. ونابلس وحصون عسقلان، وبيت جبريل، وتبنين، والنطرون وغيرها من مدن الشام وقلاعها.

(٢) القِنّ : العبد.

(٣) بيت جبريل : هو بيت جبرين بليد بين بيت المقدس وغزة، بينه وبين القدس مرحلتان وبين غزة أقل من ذلك، وكانت فيه قلعة حصينة ضربها صلاح الدين لما استنقذها من الفرنج.

ولَعَمْــرِى مـــن حـــازفتحًـــا جليـــلا	وتعنَّـــى فـــإنَّـــه مـــا تعنَّـــى
قمــتَ فــى ظُلمــةِ الكــريهــة كــالبــد	ر سَنًـــا والبـــدرُيطلـــعُ وَهْنَـــا (٤)
لـــم تقـــفْ قـــطُّ فـــى المعـــارِك إلَّا	كنـــت يـــا يـــوسفُ كيـــوسـفَ حُسْنـا
تجْتَنـــى النَّصــر مــن ظُبـــاكَ كــأنَّ الـــ	ـغَضْبَ قد صَحَّفــوه أو صَــار غُصنا (٥)
قصـــدَتْ نحـــوك الأعـــادى فـــردَّ الله	مـــا أمَّلُـــوه عنـــك وعنَّـــا
حملـــوا كـــالجبـــال عِظْمًـــا ولكـــن	جعلَتْهـــا حَمْـلاتُ خيلـــك عِنْهَـــا (٦)
جمعـــوا كيـــدَهـــم وجـــاءُوك أركـــا	نًـــا فمـــن قـــدَّ فـــارسًـــا هـــدَّ رُكنـــا
لـــم تُـــلاقِ الجيـــوشَ منهـــم ولكنـــ	ـنَّكَ لاقيتَهُـــم بـــلادًا ومُـــدْنـــا
كُـــلُّ مـــن يَجْعَـــل الحـــديـــدَ لـــه ثَـــوْ	بًـــا وتَـــاجًـــا وطَيْلَسَـــانًـــا ورُدْنـــا (٧)
يـــدَّعـــون الغنـــى مـــن النـــاس لكـــن	أنْـــتَ بـــالنَّصـــر كنـــتَ أغْنَـــى وأقْنَـــى (٨)
خـــانهـــم ذلـــك الســـلاحُ فـــلا الـــرُّمـــ	ـــح تَثَنَّـــى ولاالمهنَّـــدُ طنَّـــا
وتـــولَّـــت تلـــك الخيـــولُ فكـــم يُثْـــ	ـــنَى عليهـــا بـــأنَّهـــا ليـــس تُثْنـــى
واسْتَحـــالَـــت شَقـــاشِـــقُ الكُفْـــرِ صمْتًـــا	حيـــنَ عـــادتْ تِلْـــكَ الشَّجـاعـــةُ جُبْنًـا (٩)
أشجـــعُ القـــوم فيهـــمُ جـــاعـــلُ الـــدِّرْ	عِ هُـــروبـــا أو الفـــرارِ مجَنَّـــا
لـــم يُطِيقُـــوا الهُـــروبَ ضَعْفًـــا وعَجْـــزًا	هـــل يُطيقـــوا الهـــروبَ عَقْـــرى وزَمْنـــى (١٠)
وتصيَّـــــداتهـــــم بحلقـــــةِ صيـــــدِ	تجمـــعُ الليـــثَ والغـــزال الأغَنَّـــا (١١)

(٤) الكريهة : الحرب - الوهن : نحو نصف الليل أو بعد ساعة منه .
(٥) الظبا : جمع الظبة وهى حدّ السيف - العضب : السيف القاطع .
(٦) فى البيت اقتباس من قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ، والعهن : الصوف .
(٧) الردن بالضم أصل الكم والجمع أردان والمعنى : أن هؤلاء المحاربين ارتدوا الحديد فاختفوا فيه تماما .
(٨) أقنى بمعنى أغنى وأرضى .
(٩) الشقاشق : جمع الشقشقة وهى شيء كالرئة يخرجها البعير من فمه إذا هاج وثار .
(١٠) عقرى : جرحى - زمنى : مرضى .
(١١) الأغن : له غنّة أى صوت يخرجه من الخيشوم .

وجَـرَتْ مِنْهُـم الـدِّمـاءُ بِحـارا ... فجَـرَتْ فـوْقَهـا الخـزائرُ سُفنـا (١٢)

صُنِّعَـت منهـمُ وليمـةُ وحـش ... رقَـصَ المَشـرَفِـيُّ فيهـا وغنَّـى

ظَـلّ معبـودُهـم لـديـك أَسيـرًا ... مُسْتَضَـامًـا فـاجعـل لـه النـارَ سِجْنـا (١٣)

صلبـوا ربّهـم فلـم يُغـن عنهـم ... مـن رَأَى بعـد صلبـه قَـطُّ أَغْنَـى ؟

وحـوى الأَسْـرُ كُـلَّ مَلْـك يظـن الـدّ ... هـرَ يَفْنـى وملكُـه ليـس يفنـى

والمليـكُ العظيـم فيهـمْ أَسيـرٌ ... يتثَنَّـى فـى أدهـمٍ يتثنَّـى

يَحْسِـبُ النَّـومَ يقْظَـةً ويظـن ... الشَّخص طـودًا ويُبصرُ الشَّمْس دَجْنا (١٤)

كـم تمنَّـى اللقـاءَ حتـى رآهُ ... فتمنَّـى لـو أَنَّـه مـا تَمنَّـى

ظَـن ظنًّـا وكُنْـتَ أَصْـدقَ فـى الله ... يَقينًـا وكـان أكـذَبَ ظَنَّـا

رقَّ مـن رحمـةٍ لـه القيـدُ والغُـلّ ... عليـه فكلَّمـا أَنَّ أَنَّـا

واللَّعيـن والإبْـرَنْـس أَصبـح مـذبـو ... حـا تمنَّـى لـم يَعْـدِمِ اليـومَ يُمنـا (١٥)

أَنـت ذكَّيْتَـه فـوفَّيـتَ نـذرًا ... كنـت قـدَّمتـه فجـوزيـتَ حُسْنـا

وتهـادَتْ عـرائِسُ المـدْنِ تُجْلَـى ... وثِمَـارُ الأَمْـوالِ مِنْهُـنَّ تُجْنـى

لاتُخـصُّ الشـآمُ فيـك التَّهـانـى ... كـلُّ صُقـع وكُـلُّ قُطْـرٍ مهنَّـى

قـد ملْـكت البـلادَ شـرقـا وغـربـا ... وحـويـت الآفـاق سهـلا وحَـزْنـا

وتفـرّدتَ بـالـذى هـو أَسمـى ... وتـوحـدت بـالَّـذى هـو أَسْنَـى

---

(١٢) الخريـر والخريـرة : شبه عصيدة بلحـم وبلا لحـم عصيدة ، والمـراد أنه طحنهم حتـى اختلطت عظـامهم بلحومهم .

(١٣) قد أشـار إلى صليـب الصلبوت الـذى سلب بعـد كسرة حطيـن ، وأسر الملـك والإبرنـس صـاحـب الكرك وغيرهما من أعاظم الفرنج وأما اسم الإبرنس فهو(Renaud - disherillon) .

(١٤) الأدهم : القيد - الدجن : إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء .

(١٥) أما البرنس أرناط فكان من ملوك الفرنج الذين غدروا بالمعاهدة ، وقتل بعض المسلمين فى الهدنة . وسب الدين الإسلامى ، فنذر صلاح الدين إن ظفر به ليقطعن عنقه . وقد ظفر به وقتله .

واغْتدى الوصفُ فى عُلاك حسيرًا ... أَىُّ لفظٍ يُقال أو أَىُّ مَعْنى
وسَمِعْنا الإلَه قال أطيعُو ... هُ سَمِعْنا لربنا وأطَعْنَا

* * *

وقال أيضًا :

يا ويح نفسٍ عَشِقَت ... مصرية تدمْشَقت [16]
ساذَجةً لكنَّها ... بالحُسْنِ قد تَزوَّقت
كالشَّمْسِ الغنَّاء حين ... والشَّمْسِ حينَ أَشْرَقت
والرَّوضةِ الغنَّاءِ ... حين أَزْهَرت وأَوْرَقتْ
وتَبَّعتْ بدرَ الدُّجى ... فَلَحَّقتْ وسَبَّقتْ
كأَنَّها من جَنَّةِ الـ ... ـخُلدِ إلينا طَرَّقَتْ
أو غَفِل الحارسُ فى الـ ... ـجنَّة حتى سُرِّقَتْ
كم وعدت وكذَّبتْ ... وأوعَدَتْ وصَدَّقتْ
وعاقَبتْ وما ارْعَوَتْ ... وقَتَّلتْ وما اتَّقت
وسوَّفَتْ وما وَفتْ ... وأعْطَشَتْ وما سَقَتْ
وسدَّدت أَسْهُمَ عَتْـ ... ـبٍ بالتجنىء فَوَّقتْ [17]
وأمْطَرتْ دمْعَ لآلٍ ... كاللآلى نُسِّقَتْ
فبالعِتابِ أَرْعَدَتْ ... وبالثَّنايا أبْرَقَتْ
فكم لها من تائِبٍ ... تَوْبَتُه قَدْ أبقتْ

(١٦) تدمشقت، أى سكنت بدمشق .
(١٧) يقال : فوّق السهمَ أى عمل له الفُوقَ الذى يثبّت الوتر منه .

وكم لها من مُقْلَةٍ … بِدَمْعِها قد شَرِقَتْ
وكم لها من مُهجةٍ … بنارها قد حُرِّقَتْ
وكم لها من عاشِقٍ … لِحَيْنِه قد خُلِقَتْ
هويتُ منها عُلقةً … من نَظْرةٍ تَعَلَّقَتْ
تقنَّعتْ تعمَّمتْ … تسوَّرتْ تَمَنْطَقَتْ
ظبيٌ إذا ما سَكَتَتْ … وظبيةٌ إن نَطَقَتْ
وزوّدَتْ لحيةَ مسـ … ـك نفحتْ وعَبِّقَتْ
وما اكتفتْ بِكَتْبِ نُو … ن الصُّدْغِ حتى مَشَقَتْ (١٨)
قد عَلِقَتْ نفسي بها … وهي بنفْسي عَلِقَتْ
ولم تَدعْ لي رَمَقًا … بالطَّرْفِ حين رَمَقَتْ
قد خُلِقَتْ لِمِحْنَتي … يا ليتَها ما خُلِقَتْ

* * *

وقال يرثى أُمّه :

صحَّ من دهرِنا وفاةُ الحَياءِ … فليَطُلْ منكما بُكاءُ الوَفاءِ
وليَبِنْ ما عقدتُماه من الصبرِ … بأَن تَحْلُلا وِكاءَ البُكاءِ (١٩)
وأَهِينَا الدُّمُوعَ سَكْبًا وهَطْلًا … وهَبا أنهن مِثْلُ الهَباءِ (٢٠)
وامْنحا النَّوْمَ ملَّ صبٌّ ينادى … من يُعيرُ الكَرَى ولَوْ بالكِرَاءِ
ليست العينُ منكما لى بِعَيْنٍ … أوتعاني حَمْلًا لبَعْضِ عنائى

---

(١٨) المشق فى الكتابة : مد حروفها أى أنها حسنت نون الصدغ أى جعلت شعر العذار مزخرفا .
(١٩) الوكاء : رباط القربة ونحوها وكل ما شد رأسه من وعاء ونحوه والجمع أوكية .
(٢٠) الهباء : التراب الذى تطيّره الريح ويلزق بالأشياء .

قـد رمـانـى الـزَّمـانُ منـه بخطـبٍ أُفْحِمَـت عنـه أَلْسُـنُ الخُطَبـاءِ
ودهـانـى بمـا أُعـزَّى فيـه عـن ثبـاتِـى لـه وحُسْـنِ عَـزائى
صـار منـه يـرى الغِنَـاءَ نُـواحًـا مسْمَعِـى والنـواحَ مِثْـلَ الغِنَـاءِ
وأَرَانِـى حَـالـيِ الأَنيقـةَ قـد قـلَّ بعينـىَّ مـا بهـا مـن بهـاءِ
وقضـى لـى بطـولِ عُمْـرى نَحيبـى مـذ قَضـى نَحْبَـه لـدىَّ رجـائى
وأنـاخـت ركـائِبُ الهـمِّ فـى قَلْـبلى ولـم تَحْتَشِـمْ لطـول الثَّـواءِ
ثـم آلـت أَلَّا تُفـارِقَ رَبْعِـى وفِنـائى إلا عقيـبَ فَنـائِى
صـادَفَـتْ منهـلا يَصُـبُّ مـن العيـن ونـارًا تُشـبُّ فـى الأَحْشَـاءِ
وأَلُـوفًـا لـو فـارقتْـه لأَرْوَى جفْنُـه الأَرضَ مـن سمـاءِ الـدِّمـاءِ
وإذا كـان يشتكـى فُـرْقَـةَ البَلْـوى فمـاذا يقـولُ فـى النَّعْمَـاءِ
أَىُّ عـذرٍ لـدهـرنـا إِذْ دَهَـانـى بِمُصَـابٍ أَلَـمَّ فِيـهِ دَهَـائِى
وأَرانِـى البـلاءَ قـد حـلَّ منـه بـالَّتـى لـم تَـزَلْ تُـزِيـلُ بـلائى
والتـى بعـضُ جُـودِهـا لـيِ وُجُـودِى والتـى مـن حِبـائِهـا حَـوْبَـائِى (٢١)
قَـدْ تَيقَّنْـتُ مُـذْ غَـدَتْ لِـىَ أَصـلًا أَنَّنـى مُثْمِـرٌ فُنَـونَ العـلاءِ
يعـذرُ النـاس مـن تكـونُ لـه أُمًّـا إِذا مـا ازْدَهَـى علـى الأبنـاءِ
ويَـرَوْنَ الصـوابَ أن تنسـب الأَو لادُ لا للـرجـال بـلْ للنِّسـاءِ
هـى مـن قـدّمـت لهـا حسنـاتٍ تقتضـى غَـرْسَهـا رجـاءَ الحِبـاءِ
أَتعبـتْ كـاتِـبَ اليميـنِ فكـم أَغْـفَل إِثْبـاتَهـا مـن الإِعْيَـاءِ

---

(٢١) الحباء : العطاء والإكرام - الحوباء : النفس .

تُنفِقُ العُمْرَ في اكتسابِ ثوابٍ ... لمَلّبِ لا لاقتِناءِ ثناءِ
وترى مُشْتَرى العلاءِ رخيصًا ... ولَو انَّ العُلا بأغلى الغلاءِ
ولقد خلَّفت أحاديثَ تُغْني الأ ... أنْفَ عن نَشْرِ روضةٍ غنَّاءِ
خَفَرٌ معْ ديانةٍ وذكاءٌ ... في زكاةٍ وعفةٌ مَعْ سخاءِ
كم تمنت قُربَ المنيةِ دَهْرًا ... رغبةً في الخباءِ والإختباءِ
وأرادت حجبَ الصَّرى ليتَ شِعْرِي ... مَنْ دَعَا للثَّرى بهذا الثَّراءِ
إن علِمي بِمَا حوَتهُ من المجْـ ... ـدِ قَضَى لي بِبَسْطِ عُذْرِ القَضاءِ (٢٢)
غيرَ أنِّي لا أستقِل من الوَجْـ ... ـدِ ولَا أسْتَقِيلُ مِنْ بُرَحائي (٢٣)
وإذا أعْرَضَ التصبُّرُ للقلـ ... ـب أبَى منَّةً عليَّ إبائِي
وإذا أبْطأتْ ركائبُ دمْعِي ... فأنيني في حَثِّها كالْحُداءِ (٢٤)
ليتَها بالوَفاةِ أعْدَتْ حَيَاتِي ... حينَ لمْ أعْدِها بِنزْرِ بَقَائي
كنتُ أرجُو إنفَاقَ مالِي عليْها ... فغَدتْ أدْمُعِي لها كالفِدَاءِ
لهْف نفسي عليكِ يا مَا بقلبي ... منكِ يا طُولَ حسْرَتِي وعَنائِي
ليتَ شِعْرِي هل تعلمينَ بأنَّ ابـ ... ـنكِ بينَ الورَى قليلُ الرُّوَاءِ
ذو نحيبٍ قاضٍ وحُزْنٍ غريمٍ ... وسَقَامٍ عَذْلٍ وبِشْرٍ مُرَائِي
وفؤادٍ ما بيْن هَاءٍ وميمٍ ... لم يَكُفَّا عنهُ بميمٍ وهَاءِ
شغلت قلبَه همومٌ عظامٌ ... وخَلَا سرُّه من السَّرَّاءِ
ليس ينفكُّ ساكبًا عبرةً حمـ ... ـراءَ في ذكرِ منَّةٍ بيْضَاءِ

---

(٢٢) بسط عذر القضاء : أي قبوله .
(٢٣) البرحاء : الشدة والأذى والشر .
(٢٤) الحداء : صوت الحادي وهو الذي يتبع الإبل يستنهضها على السير .

فهـوَ فـى الميِّتيـن يُحْسَـبُ حَقًّـا ومَجـازًا يُعَـدُّ فـى الأَحْيَـاءِ
حلـفَ الصَبْـرُ للفـؤادِ يمينًـا أَنَّـهُ لَالِقـاءَ حتَّـى اللِّقـاءِ
فَتَحَقَّـقْتُ أَنَّ أَصْـداً الصـدّ مـن القلـبِ مـالَـهُ مِـن جِـلاءِ
وتعـذَّبـتُ بيـنَ يـأْسٍ فَسِيـحٍ ورَجَـاءٍ مُضَيـقِ الأَرْجَـاءِ
فمسـائِى مـن السُّهَـادِ صَبـاحـى وصبَـاحـى مـن السَّـوَادِ مَسَـائِى
وصـديقـى لِعـذْلـهِ كعَـدُوِّى وَعَـدُوِّى قـد صـار مِـن أَصـدقـائى
كـلُّ مَـنْ فـارق النَّعيـم عليـمُ أَن لَابُـدّ مِـنْ لِقَـاءِ الشَّقـاءِ
كنـتُ فـى جنـةٍ فـأُخـرجـتُ منهـا واستعـادَ العطـاءَ ربُّ العَطـاءِ
أَتُـرَانـى أَطعـتُ إِبليـسَ فـى الأَكْـلَةِ مَـعْ آدمٍ ومـعْ حـواءِ
ليـسَ إِلَّاالسكـوتُ والصبْـرُ كُـرْهًـا فـى أُمـورٍ أَعْيَـتْ علَـى العُقَـلاءِ
إِنَّ غَيْظِـى عَلَـى الـزمـانِ لَجَهْـلٌ هُـوَ مثلِـى يُصـابُ بـالأَرْزَاءِ
قـد دَهَـاهُ مـن فقـدِهـا مـا غـدا منـه قليـلَ البهَـا قليـلَ الضِّيـاءِ
أَنـتِ عِنْـدِى أَجَـلُّ مِـنْ كُـلِّ تـأْبيـنِ ولـو صُغْـتُ بـالثُّـريَّـا رثـائى
فـى ضَمِيـرِى مـا ليـسَ يُبْـرِزُ شِعْـرى لا ولـو كنـتُ أَشْعَـرَ الشُّعَـراءِ
أِىّ عُـذْرٍ فـى تـركِ نفسـي وقـدْ عيَّـتْ ، أَبَـا قُبْـح قَسْـوَتـى وجَفَـائِى
وإِذا مـا دعـوتُ قبـرَكِ شـوقًـا فبحقِّـى أَلَّاتُجيبـى نِـدَائى
هـل دَرَى القبـرُ مـا حَـواهُ ومـا أُخْـفاهُ مـن ذلِـكَ السَّنـى والسَّنَـاءِ
فلكـمْ شَـفَّ بـاهـرُ النـورِ منْـهُ فـرأَيـتُ الإِغْضـاءَ فـى إِغْضَـائِى
فـاحتفـظْ أَيُّهَـا الضـريـحُ ببـدرٍ صـرتَ مـن أَجْلـهِ كمثـلِ السَّمَـاءِ
وتـرفَّـقْ بـهِ فـإِنـكَ تُسْـدِى مِنَّـةً جَمَّـةً إِلَـى العَلْيـاءِ

أَنتَ عنْدِى لما حويتَ من الطُّهْـ ـــرِ يُحَاكيكَ مسجدٌ بِقُبَاءِ
لَكَ حَجِّى وهِجْرتى ولمنْ فيـ ـــكَ ثنائى ومدْحَتى ودُعَائِى
وسلامٌ منى لَهُ النَّدُّ نِدٌّ وتُرى مِنهُ كبوةٌ لِلْكِبَاءِ (٢٥)
أُذْكُرينى يومَ القيامة يا أُمّ لِئلَّا أُعَدَّ فى الأَشْقِياءِ
واشفِعى لى فجنَّتى تحتَ أَقْدا مِكِ من غيرِ شُبْهةٍ وامْتِرَاءِ
فقريبًا لَا شكَّ يأْتيك عَنِّى بقُدُومى عليكِ وفدُ الهَنَاءِ
عجّل الله راحتى مِنْ حَيَاتى إِنَّها فِى الزَّمانِ أعظمُ دَائِى
وإذا ما الحياةُ كانَتْ الدا ءِ كانَ المماتُ مثلَ الدَّوَاءِ

* * *

وقال أَيضًا فى الفخر: (٢٦)

سِوَاىَ يَخافُ الدَّهْرَ أَويَرْهَبُ الرَّدى وغيرِىَ يَهْوَى أَنْ يَكونَ مخلَّدَا
ولكنَّنى لاأَرْهَبُ الدهرَإِنْ سَطَا ولاأَحْذَرُالموتَ الزُؤَامَ إِذَا عَدا (٢٧)
ولو مدَّ نحوى حادِثُ الدهرِ طَرْفه لحدَّثت نَفْسى أَنْ أَمُدَّ لَهُ يَدا
توقُّد عَزْمِى يتركُ الماءَ جَمْرَةً وحِلْيَةُ حِلْمى تَتْرُكُ السَيْفَ مبْرَدَا
وفرْطُ احْتَقارِى للأَنامِ لأَنَّنى أَرَى كل عارٍمن خلا سُؤْدُدِى سُدَى (٢٨)
ويَأْبَىَ إِبائِى أَن يَرانىَ قاعدًا وَأَلَّا أَرَى كُلَّ البَرِيَّةِ مُقْعَدَا

(٢٥) النّد - بالفتح : ضرب من النبات يتبخّر بعودة ، وبالكسر : المثل والنظير - الكباء : عود البخور، والكُبوة : المجمرة يتبخّربها .

(٢٦) لفت هذه القصيدة نظر النقاد وعلق عليها ابن حجة الحموى فى كتابه خزانة الأدب مقرظا ووصفها « ياقوت الحموى » فى كتابه إرشاد الأريب بأنها من شعره الذى سارت به الركبان ... والقصيدة طويلة ، كل بيت منها فريدة فى عقد ، وشعره كثير وأكثره جيد .

(٢٧) سطا : بطش وقهر - الزؤام : العاجل - عدا : وثب أو تجاوز الحدّ .

(٢٨) الأنام : الخلق - السؤدد : السيادة والمجد - سُدَى : مهمَل .

وأَظمــأُ إن أَبْــدَى لــي المــاءُ مِنَّــةً ... ولــو كــانَ لــى نَهْــرُ المجــرَّة مَــوْرِدَا

ولــو كــان إدراكُ الهُــدى بتــذلُّــلٍ ... رأيــتُ الهُــدَى أَلَّا أَمِيــلَ إلــىَ الهُــدىَ

وقِــدْمًا بغيــرى أَصْبَح الــدَّهرُ أَشْيَبًــا ... وبــِي بل بِفَضْلــى أَصْبَح الــدَّهرُ أَمْرَدَا (٢٩)

وإنَّــك عبــدى يــا زَمَــانُ وإنَّنــي ... علــى الكُــرْهِ منــىِّ أَنْ أُرَى لَــكَ سَيِّــدَا

ولِــمْ أَنــا راض أَن أُرَى وَاطِــىءَ الثَّــرى ... ولــى هِمَّــةٌ لاتــرتضــى الْأُفْــقَ مَقْعَــدا

ولــوعَلِمَــتْ زُهْــرُ النجــومِ مَكــانَتــي ... لخــرَّتْ جميعًــا نَحْــوَوَجْهِــىَ سجــدًا

أَرى الخَلْــقَ دُونــي إذ أَرَانــيَ فَــوْقَهُــم ... ذَكــاءً وعلمًــا واعتــلاءً وسُــؤْدُدًا

وبــذْلُ نــوالــي زاد حتَّــى لقــد غَــدَا ... مــن الغيظِ مِنْــه ساكــنُ البَحرِ مُــزْبِدًا (٣٠)

وكــم ســائلٍ لــى قَــدْ مَضــى وَهْــوَقــائِلٌ ... فِــداك بخيــلٌ نــدَّ عــن كَفِّــه النَّــدَى (٣١)

ولــى قَلَــمٌ فــى أَنْمُلــي إن هَــزَزْتُــه ... فمــا ضــرَّنــى أَلَّا أَهُــزَّ المُهنَّــدا (٣٢)

إذا صــال فــوقَ الطِّــرْسِ وقــعُ صَريــرِهِ ... فــإنَّ صَلِيــلَ المشــرفــيِّ لَــهُ صَــدَى (٣٣)

ومحــرابُ طِــرْسٍ وهْــو داودُ ســاجــدًا ... وإن شــاءَ حَــاكَ الطِرْسَ دِرْعًــا مُســرَّدًا (٣٤)

وإنَ رَفَــعَ المقــدارُأو وَضَــعَ النَّــدى ... فمنــه يرجَّــى الجــدُّ أَو يُــرْتَجى الجَــدا (٣٥)

ومــن كلِّ شَــىْءٍ قد صَحَــوتُ سِوَى هَــوىً ... أَقَــامَ عــذولــى بــالمَــلامِ وأَقْعَــدَا

إذا وَصْــلُ مــن أَهْــوَاهُ لــم يَــكُ مُسْعِدِى ... فليــت عَــذُولــِي كَــانَ بــالصَمْــتِ مُسْعِدَا

يَلــومُ ومــا يَــدْرِى بكــونِ وِصَــالِــه ... مــن النَّجْــمِ أَعْلَــى أَومِــنَ الْأُفْــقِ أَبْعَــدَا

---

(٢٩) الأشيب : ذو الشيب وهو بياض الشعر - الأمرد بمعنى صغير السن .
(٣٠) النوال : النصيب والعطاء - أزبد البحر : دفع بزبده أى رغوته ، فهو مزبد .
(٣١) ندّ عنه : غاب ونفر - الندى : الجود والسخاء .
(٣٢) الأنملة : المفصل الأعلى الذى فيه الظفر من الإصبع ، وجمعه : أنامل .
(٣٣) الطرس : الصحيفة - الصرير : صوت القلم - الصليل : صوت السيف .
(٣٤) المسرّد : المنسوج نسجًا قويًا .
(٣٥) الجدا : العطاء والنفع .

يُحِـبُّ حَبيبِـي مَـنْ يَكُـونُ مفنِّـدي فيـالَيْتَنِـي كُنْتُ العـذُول المُفنَّـدا (٣٦)
وقـالـوا لقـد آنَسْـتَ نـارًا بِخَـدِّه فقلـت وإنِـيِّ قـد وَجَـدْتُ بِهَـا هُـدَى
وإنِّـي لأَهْـوَى مِنْـهُ ثغـرًا مُفَضَّضَـا وإنِّي لأَهْـوى منه خـدًّا مُعَسْجدَا (٣٧)
ولـم أُدْهـمِ ذَاكَ الخـدَّ بـاللحظ إنَّمـا عَمِلْتُ خَلُوقًا حين أَبْصَرْتُ عَسْجدًا (٣٨)
وكـم لـى إلـى دَارِ الحبيـبِ التفـاتـةٌ تُـذَكِّـرُنـي عَهْـدًا قَـدِيمًـا ومَعْهَـدًا
لقـد كنـت فِيهَـا أُبصِـرُ الليـلَ أَبيضًـا فقـد صِـرْتُ فيهـا أُبْصِـرُ الصُّبـحَ أَسْـوَدَا
يُـرَاقِـبِ طَـرْفـى أَنْ يَلُـوحَ هِـلَالُهـا فقـد طَـال مـا قـد صَـامَ حتـيَّ يُعَيِّـدا
عَبْـرتُ عَلَيْهـا واعْتَبَـرْتُ تَجَلُّـدى فيـا خَجَلـى حيـن اعْتَبَـرتُ التجَلُّـدَا
كَـأَنَّ بطـرفـى مـا بِقَلْبـي صَبـابـةً فلـم يَـرَ تِلْـك الـدَّارَ إِلَّا تَقيَّـدا
وكـم لجـوادِى وقعـةً فـى عِـرَاصِهـا تَعـوَّدَ منهـا جِيـدُه مـا تَعَـوَّدَا (٣٩)
تعـوَّدَ ذاكَ الجيـدُ مِنِّـيَ أَنَّنِـي أُصَيِّـرُه مـن دُرِّ دَمْعِـى مُقَلَّـدا
ومـا تِلْـكَ دَارٌ بـالعقيـق ولا الحِمـى ولكـنْ سَمَـاءٌ إِذْ حَـوَتْ مِنْـه فَـرْقَـدا
ويـا رُبَّ ليـلٍ بِـتُّ فيـه وبَيْنَنَـا عِنَـاقٌ أعـاد العِقْـدَ عِقْـدًا مبـدَّدَا
فـأَصبـح ذَاك العِقْـدُ منـيِّ مُحَسَّـرًا وقـد طـال مـا قـد كـان منيِّ مُحسَّـدا
ولـم أَجعـلِ الكـفَّ الشِّمـالَ وِسَـادَةً فبـاتَ علـى كـفِّ اليميـنِ مُـوَسَّـدَا
وجـرَّدْتُـه مـن ثَـوْبِـه وأَعَـدْتُـه بثـوبِ عِنَـاقـي كَـاسِيًـا مُتَجـرِّدا
وقـرَّبنـى حتـى طَـرِبْـتُ إِلى النَّـوى وأَوْرَدَنِى حتَّـى صَدِيتُ إِلـى الصَّـدَى

(٣٦) فنّده : خطّأ رأيه وأبطله .
(٣٧) مفضّض : محلّى أو مطليّ بالفضة – معسجد أي في لون العسجد ، وهو الذهب .
(٣٨) الخلوق : ضرب من الطِّيب ، أعظم أجزائه الزعفران .
(٣٩) العراص : جمع العرصة وهي ساحة الدار – الجيد : العنق .

شَهِدْتُ بأَنَّ الشَّهدَ والمسكَ ريقُه ... وما كُنْتُ لَوْ لَمْ أختبِرْه لأَشْهَدا

وأَنَّ السُّلافَ البابليةَ لَحْظُهُ ... وإلَّا سَلُوا إنْسانَه كَيْفَ عَرْبَدا(٤٠)

مليءٌ بكَسْرِ الجفنِ ، والجفنُ قَوْسُه ... فكيف رَمَى للقلبِ سَهْمًا مُسَدَّدا

فَتِهْ وتَسلَّطْ كيف شِئْتَ فإنَّما ... خُلِقتَ لأَشْقَى إذ خُلِقْتُ لِتَسْعَدا

* * *

وقال فى الخمر :

عمَّمُوها طِينًا وآدَمُ طِينُ ... شيخةٌ فى حَشا الزَمان جَنِينُ

قبل أن تُغْرَس الكرومُ وتَلْتَـ ... ـفُّ عليها الأوراقُ والزَّرَجُون

قبل أن يُخْلَقَ الظلامُ ولا النو ... رُ ولم يُعْرفَ الدُّجى والدُّجُون

وثُرَيَّا السماءِ ما هى عُنْقُو ... دٌ ولا آيةُ الدُّجى عرْجُونُ

شَيْخَةٌ لم تَشِبْ قرونًا إلى أن ... هلكتْ أُمَّةٌ وبادتْ قُرُونُ

فهى سِرٌّ فى خاطِر الدَّهر مكتو ... مٌ وعِلْمٌ فى صدرِهِ مَكْنُون

تبصِر الهمَّ فى الأقاصِى فتنفِيـ ... ـهِ ولا غرْوَ فالحَبَابُ عُيُون

كُلُّ هَمٍّ إذا جَلَوْها عليه ... وهى بِكْرٌ فإنَّه عِنِّين

إنَّ مَنْ لام فى المُدام وإن عزَّ ... مَهِينٌ ولا يكادُ يَبِينُ

إنْ هِى إلَّا الحياةُ والرُّوحُ والرَّا ... حَةُ واللَّهْوُ والصِّبا والمجونُ

ليس فيها إذا رَجَعْنا إلى الحقِّ ... عُذُولٌ ولا عَليها أَمِينُ

والذى قد يَلُومُ إمَّا ضنينٌ ... مُسْتبِدٌّ بها وإمَّا ظَنِينُ

مَنْ رَأَى كأسَها فقد فَتَنَتْـ ... ـهُ إنَّكُمْ كُلُّكُم بها المفتُونُ

---

(٤٠) السلاف البابليّة : الخمر المنسوبة إلى بابل - عربد : ساء خلقه ، وآذى غيره فى سكره .

لـم يَـدع شُـرْبَهـا الأَمينُ وإن كـا ... نَ إمَـام الهُـدَى ولا المـأمُـونُ

وبهـا كَـانَ يستعينُ علـى الأَحْـ ... ـزان مـن بعـد خَلْعِـه المُستَعِينُ

فـانهَضُـوا واقْصِـدُوا بنـا قَصْـدَ دَارِيـ ... ـنَ جميعًـا فـدارُهـا دَارِيـنُ (٤١)

واشْتَـرُوهَـا بكـل مـا عـزَّ أوهـا ... نَ فـإنَّ العـزيـزَ فيهَـا يَهُـونُ

واطْلِقُـوهـا : إن الـزمـانَ حَبُـوسٌ ... واخـرجُـوهـا إنَّ الـدِّنَـان سُجُـون

إنَّمـا الـدَّنُّ سِجْنُهـا فلِهَـذا ... ضَحِكَـتْ إذْ رَأَتْـه وهْـوَ طَعِيـنُ

إن فَقْـرِي علـى المُـدامِ ثَـرَاءٌ ... أَو يَسَـارِي والكَـأسُ فِيهَـا يَمِيـنُ

تلـك نِعْـمَ المُعِينُ إن قَـارَن الهـمُّ ... فـؤادِي والهـمُّ بِئْـسَ القَـرِيـنُ

وإذَا مـا رَجَّـتْ ليـالّـى أَحْـوَا ... لـي جَـلاهـا مِنْـه صَبـاحٌ مُبِيـنُ

فبهـا أَستـريـحُ مـن حِـرْفـةِ العَقْـ ... ـلِ فـإن الحِـرافَ مِنْـه يَكُـونُ

واتْـرُكِ العقـلَ جـانِبًـا تُـدْرِكْ الحـظَّ ... يقسنًـا مـا الحـظُّ إلَّا الجُنُـونُ

كُـلُّ مَنْ أبصـرتْـه عَيْنَـاكَ فـي الخَلْـ ... ـقِ سعيـدًا فـإنَّـه مَجْنُـونُ

* * *

وقال يستدعى صديقا له إلى مجلس أُنس :

حضـر الحبيـبُ وأنـتَ أشْـ ... ـهى للفـؤادِ مـنَ الحبيـبِ

فلئـن حضـرتَ مُسـارِعًـا ... فـلأصفحـنَّ عـن الـذُّنـوب

ولأمـدحنَّـك بـالفتـوَّ ... ةِ فـى الحضـورِ وفـى المغيـبِ

ولئـن قعـدت لأهجـونَّـك ... فـى البعيـد وفـى القـريـب

وأقـولُ هَـذا فـى النُّهـا ... رِ قَـدِ اسْتَـرَحْنَـا مِـنْ رَقيـبِ

(٤١) دارين : بلد اشتهر بالخمر.

موشحة لابن سناء الملك :

كلِّلى　　يا سحبُ تيجانَ الرُّبى بالحلِى　　واجعلى　　سوارَها منعطفَ الجدولِ

يا سما　　فيكِ وفى الأرضِ نجومٌ وما[42]
كلَّما　　أغربتِ نَجْمًا أطْلَعَتْ أنْجُما
وهى ما　　تَهْطِل إلَّا بالطِّلَى والدُّمَى

فاهطلى　　على قطوفِ الكرْمِ كى تمتلى　　وانقلى　　للدَّنِّ طعمَ الشهدِ والقَرَنْفُل

تَتَّقِدْ　　كالكوكب الدرىّ للمرتصِدْ
يعتقدْ　　فيها المجوسىُّ بما يعتقدْ
فاتَّئِدْ　　يا ساقىَ الراح بها واعتمدْ

وامْلَ لى　　حتى ترانى منك فى معزِلِ　　قَلِّلِ　　فالراح كالعشق إن يَزْد يَقْتُل

لا أليمْ　　فى شُرْبِ صهباءَ وفى عشْقِ رِيمْ
فالنعيمْ　　عيشٌ جديدٌ ومدامٌ قديم
لا أهيمْ　　إلَّا بهذين فقُمْ يا نديم

واجْلُ لى　　من أكؤسٍ صُيِّرتْ من قَوْفَلِ　　ألَذَّ لى　　مِن نكهةِ العَنْبرِ والمَنْدَل[43]

خُذْ هَنِى　　واعطنى كاسَكَ مثلَ كاسى هِنى
واسقِنى　　على رضابِ الفطنِ المُلْسِن
والهِنِى　　ببعضِ ما صِيغ من الألْسُن

---

(٤٢) نجوم الأرض : يقصد بها الشاعر الأزهار – ما : يعنى ماء .
(٤٣) القوفل : ثمر طيب الرائحة والنكهة يمضغ فيحدث نشوة – المندل : عود هندىّ طيّب الرائحة .

لـوتُلـى مـدحُ سنـاهُ مْـع رشًـا أكَحَـلِ لَـذَّلـى علـى سنـى الصهبـاءِ والسَّلْسَـلِ

أزهـــرتْ لَيْلَتُنَــا بــالـوَصْــل مــذْ أسفَـرَتْ
أصْــدرتْ بـــزوْرةِ المحبـــوبِ إذ بَشَّـــرَتْ
أخَّـــرتْ فقلـــتُ للظلمِـــاء إذْ قصّـــرت

طَـوِّلـى يـاليلـةَ الـوصْـلِ ولاتنجلـى واسِلـى سْرَك فـالمحبـوبُ فـى منـزلـى

مَـنْ ظَلَـمْ فـى دولــةِ الحُسْـنِ إذا مــا حكـمْ
فـــالألــمْ يجـــولُ فـــى بـــاطنِـــه والنَّـــدَمْ
والقلـــمْ يكتُــبُ فيــه عــن لســانِ الأمـــمْ :

مَـنْ وَلــيِ فـى دولــةِ الحُسْـنِ ولـم يَعْــدِل يعـذُلِ أَلْحــاظَ الـرشَــا الأكْحـل

* * *

ومن موشحاته :

بـى فاتـنٌ فاتـكْ * بحسنـه هاتـكْ * سترَ الخلِـى
فكيــف بــالهــائم * بــالله يــا لائمْ * لاتعـــذلِ
إياكَ عــن لَومــى * رضيت بـالوجـد * مع الضنـى
واعتضت عن نـومى * وراحتى سهدى * مـع العنا
قُتلــت يـا قـــومـــى * لابظبــا الهنـد * ولاالقنــا
وإنمــا ذلــك * بيـــاتـــربـــاتـــك * لـــلأجـــل
مـن نـاظـرعـارم * يُسَلُّ كـالصـارم * مـن كَحَـل
معذب القلب * قد جلّ مع لطفك * خطبُ هواك

أُبرُزْ من الحُجْب * واعبر على إلفك * حتى يراك
حسبُك أو حسبى * قد حرتُ فى وصفك * وفى حُلاك
يا فتنة النّاسكْ * هل طيب أنفاسكْ * الممندلِ(٤٤)
وثغرك الباسم * هل جاد للآثم * بالسلسلِ
وصلت للعليا * وزال ما كانا * من كل بُوس
وجدتُ لى مَحْيا * وجدت سلطانا * يحيى النفوس
أشرَقَتِ الدنيا * بوجه مولانا * بعد العبوس
وما لها مالِكْ * وما لها سامكْ * غير على
الملك قد أرسل * منه لنا أوّاهْ * يُحيى الهدى(٤٥)
يسميه بالأفضْل * من ربما سماه * بحرِ الندى
عدوه مُجهل * لأنّ من يشناه * من العدى(٤٦)
بسيفه هالكْ * ورمحُه سالك * فى البطل
وبأسه قاصمُ * وذكرُه هازم * للجحفل
ملكٌ هو فى البحرُ * جار على الأموال * منه السماحْ
وأنه البدرُ * يجلو دجى الأحوال * مثل الصباح
تشيع الدهرُ * فيه إلى أن قال * قولًا صُراح
ما أنا بالفاركْ * ولستُ بالتارك * ولا خلى
وليس يالسالم * وليس بالغانم * إلا ولى(٤٧)

---

(٤٤) الممندل : الذى يماثل المندل فى طيب الرائحة ، والمندل هو العود .
(٤٥) السامك : الرافع – الأوّاه : الخاشع الكثير الدعاء .
(٤٦) يشناه : يشنؤه ، بعد تسهيل همزته أى يبغضه .
(٤٧) الفارك : الكاره المبغض – الولى : التابع المحبّ ، والمعنى أنه لا يسلم ولا يغنم إلّا من أحبّه ووالاه وصار تابعًا له .

ابن النبيه المصرى

(ت : ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م)

كمال الدين أبو الحسن على بن محمد بن يوسف ، ولد فى مصر سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م تقريبا ، ولم يصل إلينا من شعر صباه إلا بعض المطارحات التى جرت بينه وبين معاصريه من الشعراء ، وأثبتها على بن ظافر الأزدى فى كتابه « بدائع البدائه » . وحاول أن يتقرّب إلى صلاح الدين الأيوبى فمدحه ومدح وزيره القاضى الفاضل ، ومن ذلك قصيدة أراد أن يبرهن فيها على قدرته البيانية ، فاقتبس كلماتها وقوافيها من سورة المزمّل ، منها قوله :

قمتُ ليلَ الصدود إلّا قليلا   ثم رتّلتُ ذكركم ترتيلا

ووصلتُ السهاد أقبحَ وصلٍ   وهجرتُ الرقادَ هجرًا جميلا

ولكنه أخفق ، ثم غادر مصر إلى الشام ، وقدّر له النجاح فى عهد الملك العادل أبى بكر الأيوبىّ ووزيره الصفىّ بن شُكْر ، ولمّا تولّى الأشرف موسى بن العادل الرُّها سنة ٥٩٨ ، اصطحب معه ابن النبيه وعيّنه رئيسًا لديوان رسائله ، فظل بقيّة حياته يتمتّع بنعيمه المتزايد ، وينعم بصداقته ويتنقّل معه فى بلدان مملكته التى اتسّعت فضمت معظم بلاد الجزيرة وغيرها ، ويدلّ ديوانه على أنه زار حرّان سنة ٦١٣ ، وألقى فيها قصيدة رثى بها ولدًا للخليفة الناصر العباسى ، وزار حلب فى السنة نفسها ، وألقى فيها قصيدة عزّى فيها الملك الأشرف بوفاة ابن عمّه صاحبها .

وأكثر ما تبقّى من شعره فى مدح الحكام والثناء على بطولاتهم وتسجيل ما قاموا به فى المناسبات والأحداث ، ولا يحتوى الديوان الصغير الذى وصل إلينا على كل شعره ، بل تدلّ كلّ الدلائل على أنه مختارات منه ، وهم مقسّم إلى ثلاثة أجزاء ، جعل لكلّ منها عنوانا خاصّا ، فالجزء الأول للخليفيّات ، التى تتألّف من ثلاث قصائد ، مدح بها الخليفة العباسى الناصر لدين الله أحمد بن الحسن ، ورثى ابنه عليّا فى رابعة ، والجزء الثانى للعادليّات التى تتألّف من قصيدتين مدح بهما الملك العادل سيف الدين أبا بكر محمد

ابن أيوب ، أخا صلاح الدين ، والجزء الثالث الأشرفيّات ، وهو الجزء الرئيسى ، ودوّن فيه مدائحه فى الملك الأشرف ، غير أنه وضع فيه بعض القصائد التى مدح فيها آخرين من رجال الدولة الأيوبيّة ، وبعض المقطّعات التى نظمها فى الوصف والغزل وغيرهما من الموضوعات الشعرية .

وشاب مدائحه المبالغات الشديدة والإكثار من ذِكر الصفات التى كان شعراء العصر الفاطمى يخلعونها على الخلفاء ، باعتبارهم أئمة المذهب الإسماعيلى ، وقد دفعت هذه المبالغة بعض المؤرخين إلى وصفه بفساد الدين .

واتّسم شعره بسهولة اللغة وعذوبة التعبير وقرب الأفكار وقلّة الإقبال على المحسّنات البديعية ، فحدا المغنين فى كثير من الأقطار العربية إلى التغنّى بقصائده ، وجعل بعض النقاد يرون أنه مثّل الروح المصريّة فى عصره « بكل ما عرف عنها من الدماثة والرقّة وخفّة الظلّ ، لا فى موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضا فى تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه » ، وبلغ من إعجاب الشعراء بقصيدته التى مطلعها :

يا ساكنى السفحِ كم عينٍ بكم سَفَحَتْ

نَزَحْتُمُ فهْى بعدَ البعدِ قد نَزَحت

أنْ عارضها جماعة ، منهم ابن نباتة وصلاح الدين الصفدى .

* * * *

قال ابن النبيه يمدح الملك الأشرف موسى لما حضر مع أخيه المعظّم إلى دمياط :

لِلَــــذَّةِ العَيْــــشِ وَالْأَفْــــراحِ أَوْقَـــاتُ
فَــانْشُــرْ لِــواءَ لَــهُ بِــالنَّصْــرِ عــاداتُ

أَمَـــامَ جَيْشِـــكَ أَنَّـــى سَــارَ أَرْبَعَـــةٌ
نَصْــــلٌ وَنَصْــــرٌ وَآراءٌ ورَايـــاتُ

وَتَحْــتَ غِيْــلِ القَنَــا فُــرْسَــانُ مَعْـرَكَــةٍ
لهَــا ثبــاتٌ وَفِـــي الهَيْجــاءِ وَثْبــاتُ

أَهِلَّـــةٌ فِـــي سَمــاءٍ مِــنْ مَغَــافِــرِهــا
لهَـــا التَّـــرائِكُ أَفْـــلاكٌ وَهــــالاتُ (١)

تَهْتَـــزُّ أَعْطَـــافُهُـــمْ يَــوْمَ الجِــلادِ إِذا
غَنَّــتْ لَهُــمْ مِــنْ بَنَــاتِ القَيْــنِ قَيْنــاتُ

صَفَــائِحٌ هِـــيَ إِذْ دَبَّ الفِـــرِنْـــدُ بِهـــا
صَحَـــائِفٌ كُتِبَـــتْ فِيْهَـــا المَنِيَّـــاتُ

إِنْ مَـــسَّ شَمْـــسَ الضُّحــى مِــنْ لَمْعِهــا رَمَـدُ
كَحَلْنَهَـــا بِـــالعَجَــاجِ الْأَعْــوَجِيَّـــاتُ (٢)

---

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتفّ – المغفر : ما يكون على قدر الرأس يلبس تحت بيضة الحديد – الترائك : جمع التريكة ، وهي بيضة الحديد للرأس ، وهي على التشبيه بالتريكة التي هي البيضة .

(٢) الفرند : السيف – العجاج : الغبار – الأعوجيّات : نوع من الخيول تنسب إلى حصان لبني هلال يقال له أعوَج .

جُـرْدٌ كَـرائِمُ تَلْقَـى عَـنْ فَـوارِسِهـا
شَبـا الأَسِنَّـةِ أَعْنـاقٌ وَهـامـاتُ

مُشْتَشْـرِفـاتٌ بِـآذانٍ مُـؤَلَّلَـةٍ
لَهـا إِلَـى الثَّغْـرِ مِـنْ دِمْيـاطَ حـاجـاتُ (٣)

الـوَيْـلُ لِلْـرّومِ وَالإِبْـرِنْـسِ مِـنْ مَلِـكٍ
لَـهُ مِـنَ النَّصْـرِ وَالتَّـأْيِيْـدِ عـاداتُ

أَيْـنَ المَفَـرُّ لِسِـرْبِ الـرُّومِ مِـنْ أَسَـدٍ
ضـارٍ لَـهُ مِـنْ رِمـاحِ الخَـطِّ غـابـاتُ

دِمْيـاطُ طُـورٌ وَنـارُ الحَـرْبِ مُـوقَـدَةٌ
وَأَنْـتَ مـوسـى وَهَـذَا اليَـوْمُ مِيقـاتُ

أَنْـتَ الصَّبـاحُ فَمَـزِّقْ لَيْـلَ كُفْـرِهِـمُ
وَاصْبِـرْ وَرابِـطْ فَلِلأَعْمـالِ نِيّـاتُ

أَلْـقِ العَصـا تَتَلَقَّـفْ كُـلَّ مـا أَفِكُـوا
وَلا تَخَـفْ مـا حِبـالُ القَـوْمِ حَيّـاتُ

طَـأْهُـمْ بِجَيْشِـكَ لا تَحْفِـلْ بِكَثْـرَتِهِـمْ
فَـإِنَّهُـمْ لِبُغـاثِ الطَّيْـرِ أَقْـواتُ (٤)

---

(٣) مؤللة : منصوبة محددة .
(٤) بغاث الطير : كل طائر ليس من الجوارح .

أَصَبْتَهُـــمْ بِسِهـــامِ الــرَّأْيِ مِـــنْ حَلَـــبٍ
وَلِلْمَكَـــائِدِ مِـــنْ بُعْـــدٍ إِصـــابـــاتُ

فَطَهَّـــرَ اللهُ ذَاكَ الثَّغْـــرَ مِـــنْ قَلَـــحٍ
أَصـــابَـــهُ وَانْجَلَـــتْ تِلْـــكَ الثَّنِيَّـــاتُ (٥)

تَـــذَكَّـــرُوا يَـــوْمَ صـــافِيْثَـــا ومَـــا لَقِيَـــتْ
مِـــنْ حَـــدِّ سَيْفِـــكَ عَـــرْقَـــا وَالقُلَيْعَـــاتُ (٦)

قَتْـــلًا وَأَسْـــرًا وَسَبْيًـــا وَانْتِهـــابَ ثَـــرًى
للهِ كَـــمْ أَحْسَنَـــتْ تِلْـــكَ الإِســـاءَاتُ

شَنَنْتَهـــا غـــارَةً كَـــالنَّـــارِ مُحْـــرِقَـــةً
لِلْكُفْـــرِ وَهْـــيَ عَلَـــى الإِسْـــلامِ جَنَّـــاتُ

أَثْلَجْـــتَ صَـــدْرَ رَسُـــولِ اللهِ وَانْكَشَفَـــتْ
عَـــنْ سَـــرْحَـــةِ الـــدِّيـــنِ وَالـــدُّنْيَـــا غَمـــامـــاتُ

للهِ مِـــنْ ثَغْـــرِ دِمْيـــاطٍ وَبَـــرْزَخِهـــا
فَتْـــحٌ لَـــهُ تُفْتَـــحُ السَّبْـــعُ السَّمـــاواتُ

يَـــوْمٌ عَلَـــى الـــرُّومِ تُنْشِـــي رِيحُـــهُ سُحُبًـــا
أَمْطـــارُهُـــنَّ مُصِيبـــاتٌ مُصِيبـــاتُ

---

(٥) القلح : صفرة تعلو الأسنان تغلظ ، ثم تسودّ أو تخضرّ .
(٦) القليعات وصافيثا بعض قلاع من حصن الأكراد - وعرقة بلدة فى شرقى طرابلس ، بينهما أربعة فراسخ ، على جبلها قلعة .

رَأَوْا جُيُـــوشَ بَنِـــى أَيُّـــوبَ يَقْــدُمُهـــا
لَيْـثٌ لَـهُ فـى جُيـوشِ الشـرْكِ هَجْمـاتُ
فللـــرِّمـــاحِ كُـــلاهُـــمْ أَوْ صُـــدورُهُـــمُ
وَلِلصَّـــــوارِمِ أَعْنـــــاقٌ وَلَبَّـــــاتُ (٧)
تَخَلَّــقَ البَحْــرُ ذاكَ اليَــوْمَ مِــنْ دَمِهِــمْ
وَالمَــوْجُ تُــرْقِصُــهُ فِيــهِ المَسَــرَّاتُ (٨)
تَفــاءَلُــوا أَنَّ عِيســى نُصْــرَةٌ لَهُــمُ
فَقُلْــتُ بَيْنَهُمــا فَــرْقٌ وَأَشْتــاتُ
هــذا تَمــوتُ بِــهِ أَحْيــاؤُكُــمْ أَبَــدًا
وَذاكَ يَحْيــا بِــهِ فــى التُّــرْبِ أَمْــواتُ
بَــوادِرٌ وَهَنُــوا مِــنْ مَــسِّ صَــدْمَتِهــا
فَكَيْــفَ لَــوْ قَــدْ أَتَــتْ مِنْهــا النِّهــايــاتُ
ثِــقْ يــا أَبــا الفَتْـحِ بِــالْفَتْـحِ المُبِيــنِ فَلَـمْ
تُخْلَــقْ لِغَيْــرِ أَبِيهِــنَّ الفُتُــوحــاتُ
عَكّــا وَصُـــورُ إِلَـــى رُؤْيــاكَ عــاطِشَـــةٌ
فَــانْهَـضْ فَقَــدْ أَمْكَنَــتْ مِنْهُــنَّ خَلْــواتُ

---

(٧) اللبّة : موضع القلادة من العنق .
(٨) تخلّق : طُلِى بالخَلُوق ، وهو ضرب من الطيب ، يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة .

وَاسْتَخْبِرِ الرِّيحَ مِنْهَا إِذْ تُسَيِّرُهُ
إِلَيْكَ فَهْوَ سَلامٌ أَوْ تَحِيّاتُ
اللهُ أَكْرَمُ أَنْ تُمْسِي مَزامِرُهُمْ
تُتْلَى وَتُنْسَى مِنَ القُرْآنِ آياتُ (٩)
وَأَنْ يخورَعَلى القُرْبانِ عِجْلُهُمْ
جَهْرًا وَيَخْفَى أَذانٌ أَوْ تِلاواتُ
زَلْزِلْ بِغارَتِكَ الشَّعْواءِ دارَهُمُ
فَشِيمَةُ النُّجُبِ الغُرِّ الإِغاراتُ
ما كُلُّ مَنْ طَلَبَ العَلْياءَ أَدْرَكَها
وَوافَقَتْ سَعْيَهُ فِيها سَعاداتُ

* * *

وقال يمدح الأشراف موسى :

إِنَّ عَيْنًا مِنْكُمُ قَدْ ظَمِئَتْ
قَدْ سَقاها الدَّمْعُ حَتَّى رَوِيَتْ
آهِ مِنْ وَجْدٍ حَديدٍ لَمْ يَزَلْ
وَعِظامٍ ناحِلاتٍ بَلِيَتْ

---

(٩) مزامير داود ما كان يتغنى به من الزبور وضروب الدعاء ، واحدها مزمار ومزمور (أنظر : لسان العرب ، مادة « زمر ») .

أنـــا وَالأظْعـــانُ مِـــنْ شَـــوْقٍ لَكُـــمْ
نَحْـــوَكُـــمْ أَعْنـــاقُنَـــا قَـــدْ ثُنِيَـــتْ (١٠)
أَنْتُـــمُ الْأَنْجُـــمُ مُـــذْ غُيِّبْتُـــمُ
بِسِـــوَى أَنْـــوارِكُـــمْ مَـــا هُـــدِيَـــتْ
ســـاكِنِـــى اَلْفُسْطـــاطِ لَـــو أَبْصَـــرْتُكُـــمْ
جُلِيَـــتْ مِـــرْآةُ عَيْـــنٍ صَـــدِيَـــتْ
أَوْ أَعـــادَ اللهُ شَمْلـــي بِكُـــمُ
سَعِـــدَتْ آمـــالُ نَفْـــسٍ شَقِيَـــتْ
إِنَّ أَرْضَـــا أَنْتُـــمُ سُكّـــانُهـــا
غَنِيَـــتْ عَـــنْ أَنْ أَقـــولَ : سُقِيَـــتْ
فَـــوُجُـــوهٌ كَـــرِيـــاضٍ أَزْهَـــرَتْ
وَرِيـــاضٌ كَـــوُجُـــوهٍ جُلِيَـــتْ
بِـــأَبِـــى مِنْكُـــمْ غَـــزالٌ ، مُهْجَتـــى
بِظُبَـــى أَلْحـــاظِـــهِ قَـــدْ غُـــزِيَـــتْ
ســـاحِـــرُ الأجْفـــانِ أَلْـــوَىٰ وَعْـــدَهُ
فَهْـــوَ كَـــالأَصْـــداغِ لَمَّـــا لُـــوِيَـــتْ (١١)

(١٠) الأظعان : جمع الظعنية ، وهى الراحلة يرتحل عليها .
(١١) لوى وعده بمعنى جحده أو مطله أو أخلفه .

بَلِّغيـهِ يـا نَسيـمَ الـرِّيـحِ عَـنْ
مُهْجَـةِ ٱلْمُشْتـاقِ مـاذا لَقِيَـتْ
إِنَّ أَسْـرارَ ٱلْهَـوَى مـا نُشِـرَتْ
وَمَـلابِـسَ الضَّنـى مـا طُـوِيَـتْ
وَلَقَـدْ كـانَ لِنَفْسـى جَلَـدٌ
وَأَراهـا اليَـوْمَ فيـهِ ذُهِبَـتْ
لِـىَ عُـذْرٌ فـى النَّـوَى عَـنْ أَرْضِكُـمْ
فَسَقَتْهـا أَدْمُعـى إِنْ رَضِيَـتْ
إِنَّمـا خِـدْمَـةُ مُـوسـى جَنَّـةٌ
عِنْـدَهـا أَوْطـانُنـا قَـدْ نُسِيَـتْ
مَلِـكٌ مُـذْ جُـرِّدَتْ هَيْبَتُـهُ
أَغْمَـدَ الأَسيـافَ حَتَّـى صَـدِيَـتْ
هُـوَ فـى ٱلْهَيْجـاءِ نـارٌ تَلْتَظِـى
وَهْـوَ فـى السِّلْـمِ جِنـانٌ جُنِيَـتْ
لا يُبـالـى أَنْ خَلَـتْ أَكْيـاسُـهُ
وَلَـهُ الأَرْضُ بِشُكْـرٍ مُلِئَـتْ
خُـذْ أَحـاديـثَ عُـلاهُ إِنَّهـا
بِـأَسـانيـدِ مَـديحـى رُوِيَـتْ

قـــامَ بِـــالـــدُّنْيـــا وَبِـــالْأُخــرَى مَعًـــا
فَهْـــىَ ضَـــرَّاتٌ بِـــهِ قَـــد رَضِيَـــتْ

حَسَـــنُ الظَّـــاهِـــرِ لِلنَّـــاسِ وَلِلَّـــهِ
مِنْـــــهُ حَسَنـــــاتٌ خَفِيَـــــتْ

يَخْضَـــعُ الجَبَّـــارُ مِـــنْ هَيْبَتِـــهِ
وَالـــرَّعَـــايَـــا فـــى حِمًـــى قَـــدْ رُعِيَـــتْ

يَـــا مَلِيـــكَ الـــدِّيـــنِ وَالـــدُّنْيـــا وَيـــا
صَفْـــوَةَ المَجْـــدِ الّتـــى قَـــد بَقِيَـــتْ

وَيْـــحَ أَعْـــدائِكَ بَـــل وَيْـــلٌ لَهُـــمْ
مَعْشَـــرٌ أَبْصَـــارُهُـــمْ قَـــد عَمِيَـــتْ

كُـــلَّ يَـــوْمٍ لَـــكَ فـــى أَكْبَـــادِهِـــمْ
بِمعـــالِيـــكَ جِـــراحٌ دَمِيَـــتْ

* * *

وقال يمدحه أيضًا :

أَمـــانًـــا أَيُّهـــا الْقَمَـــرُ الْمُطِـــلُّ
عَلَـــى جَفْنَيْـــكَ أَسْيـــافٌ تُسَـــلُّ

يَـــزِيـــدُ جَمـــالُ وَجْهِـــكَ كُـــلَّ يَـــوْمٍ
وَلِـــى جَسَـــدٌ يَـــذُوبُ وَيَضْمَحِـــلُّ

وَمـا عَـرَفَ السَّقـامُ طَـريـقَ جِسْمـي

وَلٰكِـنْ دَلَّ مَـنْ أَهْـوى يَـدُلُّ

يمَيـلُ بِطَـرْفِـهِ التُّـرْكِـيِّ عَنِّـي

صَـدَقْتُـمْ إِنَّ ضِيـقَ ٱلْعيْـنِ بُخْـلُ

إِذا نُشِـرَتْ ذَوائِبُـهُ عَلَيْـهِ

تَـرى مـاءً يَـرِفُّ عَلَيْـهِ ظِـلُّ (١٢)

وَقَـدْ يَهْـدى صَبـاحُ ٱلْخَـدِّ قَـوْمًـا

بِلَيْـلِ الشَّعْـرِ قَـد تَـاهُـوا وَضُلُّـوا

أَيَـا مَلِـكَ ٱلْقُلـوبِ فَتَكْـتَ فيهـا

وَفَتْكُـكَ فـي الـرَّعِيَّـةِ لايَحِـلُّ

قَليـلُ ٱلْـوصْـلِ يُقْنِعُهـا فَـإِنْ لَـمْ

يُصِبْهـا وابِـلٌ مِنْـهُ فَطَـلُّ (١٣)

أَدِرْ كـأْسَ الْمُـدامِ عَلـى النَّـدامَـى

فَفـي خَـدَّيْـكَ لـي راحٌ وَنُقْـلُ (١٤)

فَنيـرانـي بِغَيْـرِكَ لَيْـسَ تُطْفـا

وَأَشْـواقِـي لِغَيْـرِكَ لاتُبَـلُّ

---

(١٢) الذوائب : ضفائر الشعر.

(١٣) أخذ من الآية الكريمة : « فإن لم يصبها وابل فطلٌّ » سورة البقرة ٢٦٥

(١٤) الندامى : المسامرون المصاحبون على الشراب - النُّقل : ما يتنقّل به على الشراب من فواكه وغيرها.

بمنظـــرك البــديـــع تـــدل تيهـــا
ولـــي مَلِـــكٌ بِـــدَوْلَتِـــهِ أُدِلُّ
أبـــو الفَتْـــحِ الْكَـــرِيـــمُ الطَّلْـــقُ مـــوســى
فتًـــى يُعْطـــى الكَثيـــرَ وَيَسْتَقِـــلُّ
بِـــهِ اخْضَـــرَّتْ فِجـــاجُ الأَرْضِ خِصْبًـــا
فَمـــا لِلْمَحْـــلِ فـــى بَلَـــدٍ مَحَـــلُّ
أَغَـــرُّ عَلَـــى سَـــرِيـــرِ الْمُلْـــكِ مِنْـــهُ
سُلَيْمـــانٌ وَأَهْـــلُ الأَرْضِ نَمْـــلُ
وَيَمْـــلأُ غَيْـــرُهُ كِيسًـــا فَكيسًـــا
وَمِلْـــئُ زَمـــانِـــهِ كَـــرَمٌ وَعَـــدْلُ
وَقَـــالُـــوا حِفْـــظُ هـــذا المـــالِ عَقْـــلٌ
فَقـــالَ نَعَـــمْ وَبَعْـــضُ الْعَقْـــلِ جَهْـــلُ
فَلَيْـــسَ يَـــذُمُّـــهُ إِلَّا مَطـــايَـــا
إلـــى أَبْـــوابِـــهِ تَنْضـــى وَسُبْـــلُ
تُمَلِّكُـــهُ الْبِـــلادَ قَنـــا وَجُـــرْدٌ
وَبُتْـــرٌ مَـــنْ يُطـــاوِلُهـــا يَـــذِلُّ
إِذا انْبَثَّـــتْ عَســـاكِـــرُهُ اتِّســـاعًـــا
تَضـــايَـــقَ دونَهـــا حَـــزْنٌ وَسَهْـــلُ

بَــــوارِقُهـــا لِعَيْـــنِ الشَّمْـــسِ داءٌ
وَعِثْيَــرُهـــا لِعَيْـــنِ الشَّمْـــسِ كُحْــلُ (١٥)

لِمَـــوْلانـــا الْخَليفَــــةِ فيــــهِ رَأْىٌ
حَــــديــــدٌ لايَفِيــــلُ وَلايُفَــــلُّ

تَــأَمَّــلَ فــى الْكِنــانَــةِ مِنْــهُ سَهْمًــا
سَــديــدًا لايَطيــشُ وَلايَــزِلُّ (١٦)

فَقَتَّــــاهُ وَراسَلَــــهُ اخْتِصــــاصًــــا
وَرَوَّاهُ الْحَــــديــــثَ وذاكَ فَضْــــلُ

فَــــزادَتْ هَــــذِهِ النُّعْمــــى وَدامَــــتْ
عَلَيْــــهِ فَــــإِنَّــــهُ لِلْخَيْــــرِ أَهْــلُ

* * *

وقال يستعطف الملك الأشرف ، وقد وجد عليه لما كـان كاتبًا بين يديه ، وقـد غنت أمّ كلثوم أبياتًا منها : (١٧)

أُفْــديــهِ إِنْ حَفِــظَ الهَــوى أَوضَيَّعــا
مَلَــكَ الفُــؤادَ فَمَــا عَسَــى أَنْ أَصْنَعــا

(١٥) الحَزْن من الأرض : ما غلظ – العثير : الغبار .
(١٦) يفيل رأيُه : يضعـف ويخطىء – يفلّه أى يثلمه ويكسره فى حـدّه – الكنانة : وعاء صغير مـن الجلد للنبال والسهام .
(١٧) هو مظفر الديـن أبو الفتح موسى بن العاد ل ، وكان العـادل ينوب عن أخيه صلاح الدين الأيـوبى فى حكم مصر فترات تغيبه فى الشام ، وكان أكثر إقامة الأشراف فى الرقة ، وحكم دمشق ، وشـارك الكامل فى حروبه ، وكان يميل إلى الأدب ويوقر أهله ، توفى سنة ٦٣٥

مَـنْ لَـمْ يَـذُقْ ظُلْـمَ الحَبِيـبِ كَظَلْمِـهِ
حُلْـوًا فَقَـدْ جَهِـلَ الْمَحَبَّـةَ وَدَّعَـى (١٨)

يـا أَيُّهـا الْـوَجْـهُ الْجَميـلُ تَـدارَكِ الصَّـبَّ
النَّحيـلَ فَقَـد عَفـا وَتَضَعْضَعـا

هَـلْ فـى فُـؤادِكَ رَحْمَـةٌ لِمُتَيَّـمٍ
ضَمَّـتْ جـوانِحُـهُ فُـؤادًا مُـوجَعـا

فَتِّشْ حَشـاىَ فَـأَنْـتَ فِيـهِ حـاضِـرٌ
تَجِـدِ الحَسـودَ بِضِـدِّ مـا فيـهِ سَعـى

هَـلْ مِـن سَبيـلٍ أَنْ أَبُـثَّ صَبابَتـى
أَوْ أَشْتَكـى بَلْـواىَ أَوْ أَتَضَـرَّعـا

إِنّـى لَأَسْتَحْيِـى كَمـا عَـوَّدْتَنـى
بِسِـوَى رِضـاكَ إِلَيـكَ أَنْ أَتَشَفَّعـا

يـا عَيْـنُ عُـذْرُكِ فـى حَبيبِـكِ واضِـحٌ
سِحِّـىَ لِـوَحْشَتِـهِ دَمًـا أَو أَدْمُعـا

الله أَبْـدَى الْبَـدْرَ مِـنْ أَزرارِهِ
وَالشَّمْسَ مِـنْ قَسَمـاتِ مـوسـى أَطْلَعـا

(١٨) الظلم، بفتح الظاء : ريق الثغر وبريقه .

الأشْـرَفِ المَلِـكِ الّـذى سـادَ الْـوَرى

كَهْـلًا وَمُكْتَمِـلَ الشَّبـابِ وَمُـرْضَعـا

رُدَّتْ بِـهِ شَمْـسُ السَّمـاحِ عَلـى الـورى

فَـاسْتَبْشَـروا وَرَأَوا بِمـوسـى يُـوشَعـا

سَهْـلٌ إذا لَمَـسَ الصَّفـا سـالَ النَّـدى

صَعْـبٌ إِذا لَمَـسَ الأشَـمَّ تَصَـدَّعـا(١٩)

دانٍ وَلكِـنْ مِـنْ سُـؤالِ عُفـاتِـهِ

سَـامٍ عَلـى سَمْـكِ السَّمـاءِ تَـرَفَّعَـا(٢٠)

يـا بَـرْقُ هـذا مِنْـكَ أصْـدَقُ شيمَـةً

يـا غَيْـثُ هـذا مِنْـكَ أحْسَـنُ مَـوْقِعـا

يـا رَوْضُ هـذا مِنْـكَ أَبْهَـجُ مَنْظَـرًا

يـا بَحْـرُ هـذا مِنْـكَ أَعْـذَبُ مَشْـرَعـا

يـا سَهْـمُ هـذا مِنْـكَ أَصْـوَبُ مَقْصِـدًا

يـا سَيْـفُ هـذا مِنْـكَ أَسْـرَعُ مَقْطَعـا

يـا صُبْـحُ هـذا مِنْـكَ أَسْفَـرُ غُـرَّةً

يـا نَجْـمُ هـذا مِنـكَ أَهْـدى مَطْلَعـا

---

(١٩) الصفا : الحجارة العريضة الملساء – جبل أشمّ : مرتفع عال .
(٢٠) العفاة : طالبوا العطاء .

حَمَلَتْ أنامِلُهُ السُّيوفَ فَلَمْ تَزَلْ
شُكْرًا لِذلِكَ سُجَّدًا أو رُكَّعا

حَلَّتْ فَلا بَرِحَتْ مَكانًا لَمْ يَزَلْ
مِنْ دُرِّ أَفْواهِ ٱلْمُلُوكِ مُرَصَّعا

أَمُظَفَّرَ الدِّينِ اسْتَمِعْ قَوْلي وَقُلْ
لِعِثارِ عَبْدٍ أَنْتَ مالِكُهُ : لَعا (٢١)

أَيَضِيقُ بي حَرَمُ اصْطِناعِكَ بَعْدَما
قَدْ كانَ مُنْفَرِجًا عَلَيَّ مُوَسَّعا

هذا وَقَدْ طَرَّزْتُ بِاسْمِكَ مَدْحَةً
لا تَرْتَضي شَنْفَ الثُّرَيَّا مَسْمَعا (٢٢)

عَذْراءَ ما قَعَدَ الزَّمانُ بِرَبِّها
إلّا وَقامَ بِها خَطيبًا مِصْقَعا

وَعَلى كِلا ٱلْحالَيْنِ إنّي شاكِرٌ
داعٍ لِأَنَّ يَسْمَعُ مَنْ دَعا

* * *

(٢١) لعا : كلمة تقال لمن يعثر، دعاءً له .
(٢٢) الشنف : القرط .

وقال يرثى الأمير عليّ ابن أمير المؤمنين ، وأنشدها بالإيوان الكبير من دار العافية بحرّان سنة ٦١٣

النّاسُ لِلْمَوتِ كَخَيْلِ الطِّرَادْ
فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنها الجَوادْ (٢٣)

وَاللهُ لا يَدْعو إلى دارِهِ
إلّا مَنِ اسْتَصْلَحَ مِن ذِي العِبادْ

وَالمَوْتُ نَقّادٌ عَلى كَفِّهِ
جَواهِرٌ يَخْتارُ مِنْها الجِيادْ

وَالمَرْءُ كَالظِّلِّ وَلا بُدَّ أنْ
يَزولَ ذاكَ الظِّلُّ بَعْدَ امْتِدادْ

لا تَصْلُحُ الأرْواحُ إلّا إذا
سَرى إلى الأجْسادِ هذا الفَسادْ

أرْغَمْتَ يا مَوْتُ أُنوفَ القَنا
وَدُسْتَ أعْناقَ السُّيوفِ الحِدادْ

كَيْفَ تَخَرَّمْتَ عَلِيّاً وَما
أنْجَدَهُ كُلُّ طَويلِ النِّجادْ (٢٤)

نَجْلَ أميرِ المُؤْمِنينَ الّذى
مِن خَوْفِهِ يُرْعَدُ قَلْبُ الجَمادْ

(٢٣) فرسان الطِّراد : هم الذين يحمل بعضهم على بعض فى الحرب ونحوها .
(٢٤) تخرّمت : أخذت واستأصلت – النجاد : حمائل السيف .

مُصيبَــــةٌ أَذْكَــتْ قُلــوبَ الــوَرى
كَــأَنَّمــا فــى كُــلِّ قَلْــبٍ زِنــادْ
نــازِلَـــةٌ جَلَّــتْ فَمِــنْ أَجْلِهــا
سَــنَّ بَنــو الْعَبَّــاسِ لُبْــسَ السَّــواد
مَــأْتَمُـــهُ فـــى الأَرْضِ لٰكِــنْ لَــهُ
عُــرْسٌ عَلــى السَّبْــعِ الطِّبــاقِ الشِّــدادْ
فَــالخَــودُ فــى المَسْــحِ لَهــا رَنَّــةٌ
وَالحُــورُ تُجْلــى فــى المُــرُوطِ الجِســادْ (٢٥)
طَــرَقْــتَ يــا مَــوْنُ كَــريمَــا فَلَــمْ
يَقْنَــعْ بِغَيْــرِ النَّفْــسِ للضَّيْــفِ زادْ
قَصَفْتَــــهُ مِــــن سِــــدْرَةِ المُنْتَهَــــى
غُصْنَــا فَضُلَّــتْ يَــدُ أَهْــلِ الفَســادْ
يــا ثــالِــثَ السِّبْطَيْــنِ خَلَّفْتَنــى
أَهِيــمُ مِــن هَمِّــىَ فــى كُــلِّ وادْ
يــا نــائِمــاً فــى غَمَــراتِ الــرَّدى
كَحَلَــتَ أَجفــانــى بِمِيــلِ السُّهــادْ (٢٦)

---

(٢٥) الخود : الشابة الحسنة – المسح : كساء من شعر – المروط : جمع مِرط ، وهو كساء من خزّ أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفّع به المرأة .
(٢٦) الميل : ما يُجعل به الكحل فى العين .

وَيـــا ضَجيـــعَ التُّــرْبِ أَقْلَقْتَنِـــى
كَــأَنَّمــا فَــرْشِــىَ شَــوكُ القَتَــادْ(٢٧)

دُفِنْــتَ فــى التُّــرْبِ وَلَــو أَنْصَفُــوا
مــا كُنْــتَ إلَّا فــى ضَميــرِ الفُــؤادْ

لَــوْلَــمْ تَكُــنْ أَسْخَنْــتَ عَيْنِــىْ سَقَــتْ
مَثْــواكَ عَيْنَــاىَ كَصَــوْبِ العِهَــادْ(٢٨)

خَليفَــــةَ اللهِ اصْطَبِــــرْ وَاحْتَسِـــبْ
فَمــا وَهــى البَيْــتُ وَأَنــتَ الْعِمــادْ

فــى الْعِلْــمِ وَالحِلْــم بِكُــمْ يُقْتَــدى
إذا دَجَــا الْخَطْــبُ وَضَــلَّ الــرَّشَــادْ

أنْــتَ سَمــاءُ طَلَعَــتْ زُهْــرُهــا
لا يُنْقِــصُ الآفِــلُ مِنْهــا عِــدادْ

وَأنــتَ لُــجُّ الْبَحْــرِ مــا ضَــرَّهُ
أَنْ ســالَ مِ بَعْــضِ نَــواحِيــهِ وَادْ

حُبُّــكَ فَــرْضٌ فــى قُلــوبِ الْــوَرى
وابْــنُ الــولا يُعْــدَلُ بِــابْــنِ الْــوِلادْ

يــا نُــوحُ رِثْ أعمــارَنــا وَاحْتَكِــمْ
مَلَّكَــكَ اللهُ رِقــابَ الْعِبــادْ

* * *

(٢٧) القتاد : نبات صلب له شوك كالإبر.
(٢٨) الصوب : المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذى - العهاد : مطر أول السنة ، أو مكان نزوله .

وقال متغزلًا:

وَحَقِّ مَن بَدَّلَ نَومِى بِالسَّهَرْ
وَعَذَّبَ القَلْبَ بِأَنْوَاعِ الفِكَرْ

وَأَسقَمَ الجَفْنَ بِسُقْمِ جَفْنِهِ
وَأَسْهَرَ الطَّرْفَ وَلِلْقَلْبِ أَسَرْ

ما خِلْتُ ذاكَ الوَجْهَ لمَّا أَنْ بَدا
فى جُنْحِ لَيْلِ شَعْرِهِ إِلَّا قَمَرْ

وَهْوَ فَما ظَنَّ دُموعَ مُقْلَتِى
بِما جَرَى مِن فَيْضِها إِلَّا مَطَرْ

أَحْوَرُ وَالفُتورِ حَشْوُ جَفْنِهِ
يا حَبَّذا ذَاكَ الفُتورُ وَالحَوَرْ

مَرَّبِنا يَخْطُرُ فى مَشْيَتِهِ
وَالقَلْبُ مِن خَطْرَتِهِ عَلى خَطَرْ

هَزَّلَنا مِن قَدِّهِ رُمْحًا وَمِن
أَلْحاظِهِ يا عاذِلى سَيْفًا شَهَرْ

مُخالِفٌ إِنْ قُلْتُ دَعْ زِيارَتِى
زارَوَإِنْ قُلْتُ لَهُ صِلْنِى هَجَرْ

وَاللهِ ما عاتَبْتُهُ إِلَّا وَفَى
وَلا وَفَيْتُ عَهْدَهُ إِلا غَدَرْ

ابن مَرْج الكُحْل

(٥٥٤ - ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م)

هو أبو عبدا الله محمد بن إدريس بن على بن إبراهيم بن القاسم، من أهل جزيرة شقر، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن مرج الكحل . كان شاعرا مفلقا غزِلا، بارع التوليد، رقيق الغزل، وقالوا عنه : « كان مطبوعا حسن الكفاية ذاكرل للأدب، متصرّفا فيه، وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها إجادته »، وكان مبتذل اللّباس، على هيئة أهل البادية، ويقال إنه كان أمِّيًّا .

* * *

قال ابن مرج الكحل من قصيدة يصف فيها الطبيعة :

عَـرِّج بمُنْعَـرج الكثَيـب الأعْفـر ... بيـن الفُـرات وبيـن شَـطِّ الكـوثـر
ولنَغْتَبقهـا قَهْـوةً ذَهبيَّـةً ... مـن راحَتَىْ أحْـوى المراشِف أحـور
وعُشَيَّـةٌ قـد كنـت أرقـبُ وقتَهـا ... سَمَحـت بهـا الأيـامُ بعـد تعـذُّر
نِلْنـا بهـا آمـالَنـا فـى روْضـةٍ ... تُهـدى لنـا بشقِهـا شَمِيـمَ العنبـر
والدهـرُ مـن نـدمٍ يسَفِّـه رأيـه ... فيمـا مَضَـى منـه بغيـر تكُّـدر
والـوُرْق تشـدو والأراكـةُ تنْثَنـى ... والشمسُ تَـرْفُـل فـى قميـص أصفـر[1]
والـرَّوضُ بيـن مُفَضَّـضٍ ومُـذَهَّـب ... والـزهـرُ بيـن مُـدَرْهـم ومُـدَنـرَّ
والنهـرُ مَـرْقـومُ الأبـاطـح والـرُّبـى ... بمُصَنْـدَلٍ مـن زَهْـرِه ومُعَصْفـر[2]
وكـأنَّـه وكـأنَّ خُضْـرة شطِّـه ... سيـفٌ يُسَـلُّ علـى بِسـاط أخضـر

---

(١) الأراكة شجرة طويلة تتخذ منها المساويك .

(٢) مرقوم بمعنى منقوش موشى - مُصَندل : له رائحة طيبة والصندل : شجر طيب الريح - المعصفر : المصبوغ بالعُصفر، وهو نبات يستخرج منه صبغ أحمر.

وكـــأنَّمـــا ذاك الحَبـــابُ فِـــرنْـــدُه ... مهمـــا طفـــا فـــى صفَحـــةٍ كـــاجـــوهـــر
وكـــأنَّـــه وجِهـــاتُـــه مَحْفـــوفـــةٌ ... بـــالأسِ والنُّعمـــان خَـــدٌّ مُعَـــذَّر[3]
نَهْـــرٌيهيـــم بحُسْنِـــه مـــن لـــم يَهِـــمْ ... ويُجيـــد فيـــه الشِّعـــرَ مَـــنْ لـــم يَشْعُـــر
مـــا اصفـــرَّوجـــهُ الشمـــسِ عنـــد غُـــروبهـــا ... إلا لفُـــرْقـــة حُسْـــن ذاك المنظـــر

وقال أيضا :

أَرَأَتْ جفـــونَـــك مِثْلَـــه مـــن مَنْظـــر ... ظِـــلٌّ وشمـــسٌ مثـــلُ خـــدٍّ مُعَـــذَّر

ثم قال منها :

وقـــراره كـــالعَشْـــر بيـــن خَميلـــةٍ ... ســـالـــتْ مـــذانبُهـــا بهـــا كـــالأسْطُـــر[4]
فكـــأنَّهـــا مَشْكُـــولـــة بمُصَنْـــدل ... مـــن يـــانـــعِ الأزهـــارِ أو بمُعَصْفـــر
أمـــلٌّ بَلَغْنـــاه يهَضْـــب حـــديقـــةٍ ... قـــد طَـــرَّزَتْـــه يَـــدُ الغَمـــامِ المُمْطـــر[5]
فكـــأنـــه والـــزَّهـــرُ تـــاجٌ فـــوقـــه ... مُلْـــكٌ تجلَّـــى فـــى بِســـاطٍ أخضـــر
راق النَّـــواظـــرَ منـــه رائقُ مَنْظـــر ... يَصِـــفُ النَّضـــارةَ عـــن جِنـــان الكـــوثـــر
كـــم قـــادَ خـــاطـــرَ خـــاطـــرٍ مُسْتَـــوفـــرٍ ... وكـــم استفَـــزَّ جمـــالَـــه مـــن مُبْصـــر
لَـــوْلاحَ لـــى فيمـــا تقـــدَّم أقْـــلٌ ... عَـــرِّجْ بمُنْعَـــرجِ الكثيـــبِ الأعفْـــرَ

* * *

---

(٣) حباب الماء : موجه أو طرائقه التى تشبه الوشى - الفرند : وشى السيف - الآس وشقائق النعمان : ضربان من الزهور - المعذّر : الذى نبت شعر عذاره ، وهو جانب اللحية .
(٤) القرارة : الروضة أو المكان المنخفض يستقر فيه الماء - مذانب : مسايل .
(٥) هضبت : مطر .

قال أبو الحسن الرُّعينى ، وأنشدنى لنفسه :

وعُشَيَّةٌ كانت قَنِيصةَ فِتْيةٍ ... أَلِفوا من الأدبِ الصَّريح شُيوخا (٦)

فكأنّما العنقاءُ قد نَصَبوا لها ... من الانحناءِ إلى الوُقوع فُخوخا

شَمَلتهمُ آدابُهم فتجاذَبوا ... سرَّ السُّرور مُحَدِّثًا ومُصِيخا (٧)

والوُرْق تَقْرأ سيرةَ الطَّرَبِ التى ... يُنْسِيك منها ناسخًا مَنْسوخا

والنهرُ قد صَفِحت به نارَنْجةٌ ... فتيمَّمتْ مَنْ كانَ فيه مُنِيخا (٨)

فتَخالُهم حُطل السَّماء كواكبا ... قد قارنتْ بسُعُودها المِرِّيخا (٩)

خَرقَ العوائدُ فى السرُّور نهارُهم ... فجَعَلْتُ أَبياتى لهم تاريخا

* * *

ومن أبياته فى البديهة :

وعندى من مَراشِفها حديثٌ ... يُخبِّر أن ريقَتها مُدامُ

وفى أجفانِها السَّكْرى دَلِيلٌ ... وما ذُقْنا ولا زَعَم الهُمام

تعالى الله ما أجْرَى دُموعى ... إذا عنَّتْ لمُقْلتى الخيام

وأشْجانى إذا لاحتْ بروق ... وأطْربنى إذا غنَّت حَمام

* * *

---

(٦) القنيصة : ما اقتنص من المصيد .
(٧) مصيخ : مستمع .
(٨) صفحت بمعنى انبسطت – نارنجة : شجرة مثمرة – تيممت : قصدت – منيخ : مقيم .
(٩) المريخ : كوكب .

ومن قصيدة :

عـذيـرى مـن الآمـال خـابـت قُصـودهـا — ونـالـت جـزيل الحِّـظ منهـا الأخابـث (١٠)
وقـالـوا ذكَّـرنـا بـالغنـى فـأجبتُهـم — خمـولًا ومـا ذ كـرُمع البُخْـل مـاكـث
يهـونُ علينـا أنْ يَبيـد أثـاثُنـا — وَتبقـى علينـا المَكْـرُمـات الأثـابـت
ومـا ضَـرَّ أصـلا طيِّبـا عـدمُ الغِنـى — إذا لـم يغيِّـره مِـن الـدهْـرِ حـادث

* * *

وله يتشوق إلى أبى عمرو بن أبى غياث :

أبـا عمـرو متـى تُقْضـى الليـالـى — بلقيـاكـم وهُـنَّ قَصَصْـنَ ريشـى
أبَـتْ نفسـى هـوًى إلّا شـريشًا — ومـا بعـد الجَـزيـرة مـن شَـرِيـش

* * *

وله من قصيدة :

طَفَـل المسـاءُ والنسيـم تضُـوعُ — والأنْـسُ يَنْظِـم شمبَنـا ويجمـع (١١)
والـزهْـرُ يضحـكُ مـن بُكَـاء غمـامـةٍ — رِيعَـتْ لِشيـمْ سُيـوفِ بـرقٍ تلمـع
والنَّهـرُ مـن طَـرَب يُصَفِّـق مَـوْجـه — والغصـنُ يـرقُـص والحَمـامـة تَسْجَـع
فـانعـمْ أبـا عمـران والْـهُ بـروضـةٍ — حَسُـن المصيـف بهـا وطـاب المَرْبـع
يـا شـادنَ البـان الـذى دون النقـا — حيـث الْتَقـى وادى الحِمـى والأَجْـرع
الشمـسُ يغـربُ نـورُهـا ولـربمَّـا — كَسَفـت ونـورُك كـلَّ حيـنٍ يَسْطَـع

---

(١٠) يقال : عذيرى أى من يعذرنى .
(١١) الطَّفَل : إقبال الليل على النهار بظلمته ، ويقال طَفَلَت الشمس إذا دنت للغروب ، ومنه طفَّل الليلُ أى دنا وأقبل بظلامه .

إن غـابَ نـورُ الشمـس بِتْنـا نَتَّقـى — بِسنَـاك ليـلَ تفـرّق يَتَطَلَّـع
أفَلَتْ فنـاب سنـاك عـن إشـراقهـا — وَجِـلًا مـن الظَّلمـاء مـا يُتَـوَقّـع
فـأمنْتُ يـا موسـى الغروب ولـم أقُلْ — فَـوَددتُ يـا مـوسى لـو أنَّـك يـوشـع

* * *

وقال :

ألا يشِّـروا بـالصبـح منـى بـاكيًـا — أضـرَّ بـه الليـل الطـويـل مـع البكـا
ففـى الصبـح للصَّـب المُتَيَّـم راحـة — إذا الليـل أجْـرَى دمعـه وإذا شكـا
ولا عجـب أن يُمسك الصبـح عَبرتـى — فلـم يـزل الكـافـور للـدَّم مُمْسكـا

* * *

ومن بديع مقطوعاته قوله :

مَثَـلُ الـرِّزقِ الـذى تَطْلُبـه — مَثَـلُ الظِّـل الـذى يَمْشـى مَعَـك
أنـتَ لا تُـدْرِكـه مُتَّبِعـا — فـإذا ولَّيـت عنـه أتْبَعَـك

* * *

وقال :

دَخَلْتُم فـأفْسَدْتم قُلوبًـا بمُلْكـك — فـأنتمْ علـى مـا جاء فـى سُورة النمَّـل
وبـالعـدْل والإحسـانِ لـم تتَخَلّقـوا — فـأنتمْ علـى مـا جـاءَ فـى سُورة النحـل

* * *

وقال أبو بكر محمد بن محمد جَهُور : رأيت لابن مرج الكحل مَرْجًا أحمر قد أجهد نفسه فى خدمته فلم يُنْجب ، فقلت :

يا مَرْج كُحْل وَمنْ هذى المروج له ... ما كان أحوجَ هذا المرج للكَحَل
يا حُمرةَ الأَرْض من طيبٍ ومن كَرَم ... فلا تكن طَمِعًا فى رِزْقها العَجِل
فإنّ مِن شأنِها إخلافَ آمِلها ... فما تُفارقهُا كيفيَّةَ الخجل

فقال مجيبًا بما نصه :

يا قائلًا إذْ رأى مَرْجى وحُمْرته ... ما كان أحوج هذا المرج للكَحَل
هو احمرارُ دماءِ الرُّوم سَيَّبها ... بالبيض من مَرَّ من آبائى الأُول
أحبتُه إنّ مَنْ فُتنت به ... فى حُمْرة الخدِّ أو إخْلافه أملى

* * *

ثانيا

الــنــثــر

ابن خفاجة (١)

كتب ابن خفاجة فى رثاء والدة قاضى القضاة أبى أميّة :

كَتَبْتُهُ ، وَالنَّفْسُ تَتَفَجَّعُ ، وَحَصَاةُ (٢) الْقَلْبِ تَتَصَدَّعُ ، عِنْدَمَا طَرَأَ النَّبَأُ الْأَشْنَعُ ، وَطَرَقَ الْحَادِثُ الْأَهْوَلُ الْأَفْظَعُ ، بِمَا سَفَرَ عَنْهُ الدَّهْرُ مِنْ وَجْهِ الدَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ ، وَاجْتَثَّهُ بِسَاحَتِكَ مِنْ دَوْحَةِ الْعلْياءِ الْغَيْنَاءِ ، الَّتِى كُنْتَ تَتَمَتَّعُ بِبَرْدِ أَفْيَائِهَا وَتَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهَا ، أَلْحَفَهَا اللهُ جَنَاحَ عَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ ! وَتَغَمَّدَهَا بِنَفْحَةِ رَوْحِهِ وَرَيْحَانِهِ ! فَلَقَدْ كَانَتْ نَسِيجَةَ وَحْدِهَا فَضْلاً وَنُبْلاً ، (٣) وَدِيَانَةً وَعَقْلاً . وَلاَ غَرْوَ أَنْ يَذِيعَ عَمَلُ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ ، وإِنْ كَانَ مِنْ مَصُونَةٍ وَرَاءَ الْحِجَابِ وَالسِّتْرِ ، فَالْبَدْرُ يُضِىءُ خِلاَلَ غَمَامِهِ ، وَالْمِسْكُ يَنِمُّ وَرَاءِ خِتَامِهِ . وَمَا قَضَتْ - وَكُلُّنَا سَيَقْضِى ، وَيَحْتَثُّ رَاحِلَةَ عُمْرِهِ فَيُنْضِى (٤)- إِلا زَاكِيَةَ الْمَسَاعِى وَالْأَعْمَالِ، حَائِزَةً بِكَ وَفِيكَ غَايَةَ الْأَمَانِى وَالْآمَالِ . فَسَقَى اللهُ ذٰلِكَ الْأَصْلَ كُلَّ هَامِرٍ ، مِنْ غَمَامِ الرَّحْمَةِ هَامِلٍ (٥) ! وَوَقَى هٰذَا الْفَرْعَ كُل عَاصِفٍ ، مِنْ رِيَاحِ الْحوَادِثِ قَاصِفٍ ! وَأَمْتَعَنَا بِكَرِيمِ ظِلِّهِ وَثَمَرَتِهِ ، كَمَا أَمْتَعَهُ بِطِيبِ مَغْرِسِهِ وَتُرْبَتِهِ ! وَبَعْدُ ، فَإِنْ جَزِعْتَ لِهٰذَا الْحَادِثِ الْكَارِثِ ، فَبِحُكْمِ الْبُنُوَّةِ وَالْفَضْلِ ، وَإِنْ صَبَرْتَ ، فَبِمُقْتَضَى الشَّرِيعَةِ وَالْعَقْلِ . فَأَيًّا أَتَيْتَ ، فَلاَ مَلاَمَةٌ تَتَعَلَّقُ بِكَ ، وَلاَ حُجَّةٌ تَتَوَجَّهُ عَلَيْكَ ، فَخَطْبُكَ أَشْنَعُ ، وَعُذْرُكَ أَوْسَعُ . غَيْرَ أَنَّ الصَّبْرَ أَخْلَقُ بِمِثْلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجزَالَةِ ، وَأُولِى الرَّجَاحَةِ وَالْجَلاَلَةِ . وَمَا كَتَبْتُ - أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكَ ! - أُذَكِّرُ وَأُبَصِّرُ، فَأَنْتَ بِمَا مَنَحَكَ اللهُ أَذْكَى ، وَأَحْضَرُ فَهْمًا وَأَزْكَى ، وَلٰكِنِّى لَمَّا قَامَ بِى فَادِحُ الرُّزْءِ يُحَرِّكُنِى ، ثُمَّ قَعَدَ بِى اسْتِيلاَءُ الضَّعْفِ يُمْسِكُنِى ، كَتَبْتُ أُجْلِى وَجْهَ الْعُذْرِ فِى التَّوَقُّفِ ، وَأَشْرَحُ سَبَبَ التَّأَخُّرِ وَالتَّخَلُّفِ . وَمِثْلُكَ - وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَكَ ! - مَنْ تَصَفَّحَهُ وَتَأَمَّلَهُ ، وَأَنْعَمَ عَلَى عَادَتِهِ فَتَقَبَّلَهُ . وَجُمْلَةُ ذٰلِكَ أَنِّى لاَ أَكَادُ أُفْلِتُ مِنْ إِسَارِ شَكْوَى ، إِلَّا رَسَفْتَ فِى قَيْدِ أُخْرَى . وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ

---

(١) سبق التعريف به فيما سبق من المختار من شعره .

(٢) الحصاة : من معانيها الرزانة والتعقل .

(٣) داهية دهياء أو دهواء : شديدة - اجتثّه : قطعه - شجرة غينـاء : ملتفة الأغصان كثيرة الورق - أفيائها : ظلالها ألحفها أى ألبسها أو آثرها - نسيجة وحدها أى لا نظير لها .

(٤) يحتثّ : يعجل إعجالاً متصلاً - يُنضى : تهزل دوابّه وتتعب .

(٥) هامر : منصبّ - هامل : دائم المطر مع سكون وضعف .

اللهِ نُعْمى ، وَتَذْكِرَةٌ مِـنْ غَفْلَةٍ وَرُحمى . وَقَدْ حَمَّلْتُ مِنْ ذٰلِكَ فُلَانًـا - أَعَزَّهُ اللهُ ! - مَا سَيَبْسُطُهُ مُجْمِلاً ، وَتَعِيهِ مُنْعَمًا مُتَطَوِّلًا .

حَفِظَ اللهُ عَلَيْنَـا بِكَ مَـا عَرَّفْنَـاهُ مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَأَوْسَعْنَـاهُ مِنْ رَحْمَتِـهِ ، وَأَعْلَقْنَاهُ مِـنْ حَبْلِ كِلَاءَتِهِ (٦) وَعِصْمَتِهِ ! وَلَا زِلْـتَ تَبْقَى وَتَـرْقَى ، وَتَلَقَّـى كُلَّ أُمْنِيَّـةٍ وَتُـوَقَّى ، وَعِقْـدُ مَجْدِكَ فِـي انْتِظَامِهِ ، وَبَدْرُ سَعْدِكَ فِي تَمَامِهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ ، عَزَّ وَجَلَّ !

* * *

وكتب إلى الوزير الفقيه ، أَبِي مَرْوَانَ بْنِ أَبِي الْخِصَالِ ، بعقب التقائهما بحضرة شَاطِبَة :

يَاسَيِّدِي الْأَعْلَى ، وَقِدْحِي الْمُعَلَّى ، وَعِلْقِي الْأَخْطَـرَ الْأَغْلَى - لَازِلْتَ بَيْنَ شَفَاعَةٍ مَقْبُولَةٍ ، وَطَاعَةٍ للهِ مَوْصُولَةٍ ! - كَتَبْتُهُ وَالنَّفْسُ تُفَدِّيكَ ، وَتَتَمَنَّـى فَلَا تَعْتَدِيكَ ، وَتَتَشَكَّرُ مَا اسْتَشْعَرْتَهُ مِنْ تَحَفِّيكَ (٧) ، وَتَهِيمُ بِالْجَـانِبِ الْغِرْبِيِّ فِيكَ ، كَلَفًـا بِمَا تَتَنَشَّقُهُ مِنْ رَوْحِ شِيَمِكَ ، وَتَتَشَـوَّقُهُ مِنْ مَرَاقِي هِمَمِـكَ . لَازِلْتَ تَبْقَى ، وَتَرْقَـى ، وَالسَّعْدُ مِنْ خَدَمِـكَ ، وَالنَّجْمُ مِنْ مَوَاطِـىءِ قَدَمِكَ ، بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى !

وَبَعْدُ ، فَقَـدْ كَانَ انْفِصالُنَـا عَمَّا لَمْ يُتَحَصَّلْ فَهْمًـا ، وَلَمْ يُعْطِ عِلْمًـا ، ثُمَّ تلاهُ ، مَـا كَشَفَهُ وَجَلَاهُ ، فَشَكَـرْتُ الْيَدَ الْجَسِيمَـةَ ، وَالْمَبَرَّةَ الْـوَسِيمَةَ ، تَشَكُّرَ مَلِـيءٍ بِالثَّنَـاءِ عَلَى ذٰلِـكَ السَّرْوِ وَالسَّنَاءِ ، وَتَمَلَّكَنِي صُنْـعُ أَبَاتَنِي بِلَيْلَةِ السَّـرَّاءِ ، وَهَزَّنِي هَزَّ الصَّعْـدَةِ السَّمْرَاءِ (٨) . وَكُنْتُ قَلِـقَ الْحَشَايَا خَفَّـاقَ الْأَحْشَاءِ ، أَتَأَلَّمُ لِإِلْحَـاحِي وَإِلْحَافِي ، وَأَتَمَلْمَـلُ لِتَوَقُّفِ الدَّهْـرِ عَنْ إِسْعَادِي وَإِسْعَافِـي ، مَعَ مُوَاتَـاتِهِ فِي بَعْـضِ الْأَزْمِنَةِ ، وَأَكْثَرِ الْأَمْكِنَـةِ ، لِنَفَرٍ لَا يُوَافِـقُ هٰذَا الاسْمُ هُنَـالِكَ مُسَمَّاهُ ، وَلَا يَنْطَبِقُ لَفْظُـهُ عَلَى مَعْنَاهُ ، فَمَا عَلَيْكَ مِـنْ بَأْسٍ أَنْ تَعْدِلَ عَنْ قِرَاءَتِـهِ « نَفَرًا » ، إِلَى قِرَاءَتِهِ « بَقَـرًا » ، فَالتَّهَمُّمُ (٩) بِذَاتِ الْمَعْنَى ، آكَـدُ مِنَ التَّهَمُّمِ بِاللَّفْظِ وَأَوْلَـى . وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ

---

(٦) كلاءته : حفظه ورعايته .
(٧) تعتديك بمعنى تجاوزك - التحفّي : الاحتفال .
(٨) الوسيمة : الحسنة الجميلة - السّرو : الشرف - السَّرَّاء : المسرّة والنعمة - الصعدة : القناة المستوية .
(٩) التهمّم : التحسّس .

خطَلِ الْقَوْلِ ، وَأَسْتَمْنِحُهُ الْمَعْهُودَ مِنَ الطَّوْلِ ، فَهُوَ الْمَلِيءُ بِهِ (١٠) ، عَزَّ وَجْهُهُ ! وَمِنْ بَدِيعِ الْبَدِيعِ ، الْكَلاَمُ مَعْجُونٌ ، وَالْحديثُ شُجُونٌ . وَإِنَّهُ اتَّفَقَ أَنْ فَصَلْتُ تِلكَ الْعَشِيَّةَ ، وَالأُفُقُ قَدْ أَضْحَى ، وَأَبَلَّ مِنْ ثَمَلِهِ (١١) وَصَحَا ، وَصَفْحَةُ الشَّمْسِ مَخْطُوطَةُ الْقِنَاعِ ، مَصْقُولَةٌ كَمِرْآةِ الصَّنَاعِ . فَمَا هَمَمْتُ أَجْزَعُ وَادِي الْحَضْرَةِ (١٢) ، حَتَّى طَفِقَ جَفْنُ الْجَوِّ يَنْدَى ، وَمِطْرَفُ الْغَمَامِ يُنَارُ وَيُسْدَى . فَسُمْتُ الْمَطِيَّ أَنْ تَجِفَ ، وَتَسْبِقَ السَّمَاءَ أَنْ تَكِفَ . فَمَا لَبَّى فَأَهْطَعَ (١٣) ، وَتَسَنَّمَ بِي الْمَقْطَعَ ، حَتَّى آلَ حِلْمُ ذَلِكَ الْهَوَاءِ طَيْشًا ، وَرَذَاذُ ذَلِكَ الرَّبَابِ طَشًّا (١٤) . فَقُلْتُ : اللَّهمَّ حَوَالَيْنَا ، وَلاَ عَلَيْنَا ! فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ عَدَلَ عَنَّا ، وَضَرَبَ بِكَلْكَلِهِ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَّا ، وَأَرْعَدَ فَنَفَثَ وَرَقَى (١٥) ، ثُمَّ غَنَّى مَا شَاءَ وَسَقَى . وَأَفْضَى بِنَا الرَّكْضُ إِلَى مَصَابِ سَمَائِهِ ، وَمُهَرَاقِ عَزَالِي مَائِهِ ، وَقَدْ صَبَحَهُ لَثَقٌ ، وَغَبَقَهُ غَدَقٌ ، فَصُعُودُهُ زَلَقٌ ، وَهُبُوطُهُ غَرَقٌ (١٦) . وَحَسْبُكَ مِنْ وَحْلٍ يُقَيِّدُ مَطَايَا الرُّكْبَانِ ، وَيَكُبُّ آوِنَةً عَلَى الأَذْقَانِ ، فَلاَ تَرَى إِلاَّ خُدُودًا ، تُعَفَّرُ سُجُودًا ، وَبُرُودًا ، (١٧) ، تُصْبَغُ حُمْرًا وَسُودًا ، فَمَا شِئْتَ مِنْ مُمَسَّكٍ وَمُعَنْبَرٍ ، وَمُصَنْدَلٍ وَمُعَصْفَرٍ :

وَسَوَاءٌ نَجْدٌ هُنَاكَ وَوَهْدٌ ... وَسَبِيلٌ خَبَطْتَهُ وَمَسِيلُ

وقَدِ اعْتَلَّ بَيْنَ طَلٍّ وَصَحْوٍ ... نَشْرُ تِلْكَ الصَّبَا وَذَاكَ الأَصِيلُ

وَانْتَشَى رِيًّا كُلُّ قُطْرٍ فَلَوْلاَ ... هُضْبُ تِلْكَ الْعُلَى لَكَانَ يَمِيلُ

(١٠) المليء : المضطلع .
(١١) فصلت : خرجت - أبلّ : برأ - ثمله بمعنى سكره ، وثمل فلان أى أخذ منه الشراب .
(١٢) الصَّنَاع الماهر فى الصناعة - أجزع الوادى : أقطعه عرضًا .
(١٣) المطرف : ثوب من خزّ - يُنار : يجعل له علامة تميزّه - يُسْدى : يُمدّ سُداه ، والسُّدى : خيوط نسيجه التى تمدّ طولاً - تجف : تسرع - تكف : تسيل وتمطر قليلا قليلا - أهطع فى سيره : أسرع .
(١٤) الرباب : السحاب الأبيض - الطّش : المطر الضعيف .
(١٥) كلكله : صدره - نفث : نفخ ، يقال : نفث فلانًا سحره - رَقَى المريضَ : عَوّذه .
(١٦) مهراق : مصبوب - أرسلت السماء عزاليها أى انهمرت بالمطر - صَبَحه : سقاه شراب الصباح - غَبَقَهُ : سقاه شراب العشىّ - اللثق : كثرة الندى - الغرَق : الخصب وكثرة الماء - زلق : زلل .
(١٧) بُرُود : جمع بُرد ، وهو ثوب فيه خيوط ، وخصّ بعضهم به الوشى .

فَسِرْنَا ، وَمَا كِـدْنَا ، بَيْنَ سِبَاحَةٍ ، وَمِسَاحَـةٍ ، حَتَّى شَارَفْنَا الدِّيَارَوَقَـدْ عَبَسَ وَجْهُ السَّمَاءِ ، وَأَدْرَكَ بِنَا كُمَيْتُ الْمَسَاءِ (١٨) ، يَسمُو النَّشَاطُ بِطَرْفِهِ ، وَيَسِيلُ غَدَقُ النَّدَى عَلَى عِطْفِهِ ، وَأَشْقَرُ الشَّفَقِ قَدْ نَبَذَ الْمَعْمُـورَةَ خَلْفَهُ ، وَنَفَضَ عَلَى مَسْقَطِ الشَّمْسِ عُرْفَهُ ، يَمْـرحُ عِزَّةً بِسَبْقِهِ ، وَيَجُرُّ مِنْ نَخْوَةٍ عِنَانَ بَـرْقِهِ ، وَذِكْرُ اللهِ – تَعَالَى ! – مِلْءُ الصُّدُورِ وَالْأَفْـوَاهِ ، وَشِعَارُ الْأَلْسِنَةِ وَالشِّفَاهِ . وَمَا كُنَّا لِنَعْبُـرَ مَسَافَةَ تِلْكَ الْمَجَـابَةِ ، إِلَّا بِدَعْوَةٍ اتَّفَقَـتْ هُنَاكَ مُجَابَةٍ ، وَعَطْفَـةٍ لِحَلِيمٍ حَكِيمٍ ، وَنَظْرَةٍ مِنْ رَحِيمٍ كَـرِيمٍ . وَتَلَافَانَا اللهُ بِحَافِـلِ نُعْمَاهُ ، وَشَامِلِ رُحْمَاهُ ، فَأَدْرَكْنَـا عَلَى سَيْرٍ بَطِيٍّ ، وَإِعْيَاءِ مَطِـيٍّ ، وَخُلُقٍ غَيْرِ وَطِـيٍّ . وَلَحِقَ بِلَحَاقِنَـا أَدْهَم الظَّلْمَـاءِ يَخُبُّ ، وِيَتَنَفَّس عَـنْ شَمَالٍ تَهُبُّ ، فَمَا اجْتَلَيْـتُ وَجْهَ الْأُنْسِ إِلَّا بِشُعْلَةِ مِصْبَـاحٍ ، أَزْهَرَ لَيَاحٍ (١٩) ، طَلْقِ الْأَسِـرَّةِ وَضَّـاحٍ ، يَنُـوبُ عَـنْ غُـرَّةِ صَبَاحٍ وَيَخْفِقُ خُفُـوقَ ارْتِيَاحٍ ، فَكَـأَنَّمَا كَرَعَ فِي مُجَاجَةِ رَاحٍ (٢٠) أَوْ تَطَلَّعَ إِلَى بَارِقَةِ سَمَاحٍ :

تَحَلَّـتْ بِـهِ مِـنْ كَـوْكَـبٍ لَبَّـةُ الـدُّجَـى ... فَـأَوْجَفَ بِـي طِـرْفٌ مِـنَ اللَّيْلِ أَبْلَـقُ (٢١)

وَبِـــتُّ وَعَنْـــدَى لِلصَّبَـــاحِ مُـــلَاءَةٌ ... تَـــرُوقُ وَجَيْـــبٌ لِلظَّـــلَامِ يُمَـــزَّقُ

يُشَـــافِهُنِـي مِنْـــهُ لِسَـــانُ ابْـــنِ رَمْلَـــةٍ ... يَبُـــوحُ بِسِـــرِّ اللَّيْـــلِ وَاللَّيْـــلُ مُطْـــرِقُ

وَيَنْحَـــرُ دُونِـــي جُنْـــحَ كُـــلِّ دُجُنَّـــةٍ ... سِنَـــانٌ صَقِيـــلٌ لِلـــذُّبَـالَـــةِ أَزْرَقُ (٢٢)

وَاقْتَضَى فَصْـلُ الشِّتَاءِ ، وَبَرْدُ الْهَـوَاءِ ، أَنْ أَسْتَظْهِرَ إِلَى ضِيَـاءٍ ، بِصَلَاءٍ (٢٣) فَشَفَعْتُ نُورَ السِّرَاجِ ، بِأَبْيَـضَ وَهَّـاجٍ ، فِي أَسْـوَدَ دَاجٍ ، كَأَنَّـمَا رُكِّبَ مِـنْ عَـاجٍ وَسَـاجٍ (٢٤) فَـلَـمْ أَلْـبَثْ أَنْ جَمَعْتُ إِلَى بَصَرٍ سَمْعًا ، وَأَطْلَعْتُ وِتْرَ الْأُنْسِ شَفْعًا :

---

(١٨) الكميت : ما كان لونه بين الأسود والأحمر.
(١٩) أبيض لياح : أى ناصع .
(٢٠) كرع بمعنى تناول الماء بفمه فى موضعه من غير أن يشرب بكفّيه ولا بإناء – مجاجة : عصارة – راح خمر .
(٢١) اللبة : موضع القلادة من العنق – أوجف : أسرع فى سيره – الأبلق : فى لونه سواد وبياض .
(٢٢) الذبالة : الفتيلة التى تسرج .
(٣٢) صلاء : نار أو وقود .
(٢٤) الساج : شجر خشبه صلب وورقه كبير.

بِــأَحَــمَّ مُسْــودِّ الأَدِيـــمِ كَــأَنَّمَــا خُلِعَــتْ عَلَى عِطْفَيْـهِ جِلْـدَةُ حَـامِ (٢٥)
ذَاكِــى لِسَــانِ النَّــارِ تَحْسَــبُ أَنَّــهُ بَــرْقٌ تَمَــزَّقَ عَنْــهُ جَيْــبُ غَمَــامِ
وَكَــأَنَّ بَــدْءَ النَّــارِ فِــى أَطْــرَافِــهِ شَفَــقٌ لَــوَى يَــدَهُ بِــذَيْــلِ ظَــلَامِ

وَلَمَّا قُمْتُ لأَدَاءِ الْمَكْتُوبَةِ ، فَتَلَقَّيْتُ بِوَجْهِى الْأَرْضَ ، وَقَضَيْتُ الْفَرْضَ ، ثُمَّ نِلْتُ مِنَ الزَّادِ وَمِلْتُ إِلى الرُّقَـادِ ، فَجَمَعْتُ بَيْنَ جَنْبِى وَالْفِرَاشِ ، وَدَبَّ فِيَّ رُوحُ الِانْتِعَـاشِ ، مَسَحْتُ جَفْنِى مِنْ ذَلِـكَ الْوَسَنِ ، وَتَفَـرَّغْتُ لِمَلَامَـةِ الزَّمَنِ ، فَجَعَلْـتُ أَتَكَلَّمُ عَنْ إِحَنِـهِ ، وَأَتَأَلَّمُ مِـنْ مِحَنِهِ ، فَرَاطَلَ عِنْدَ ذَلِـكَ بَيْنَ مُنَّتِهِ وَهَنْتِه (٢٦) ، وَعَادَلَ بَيْـنَ سَيِّئَتِهِ وَحَسَنَتِهِ ، وَأَشَـارَ إِلَى مَا أَتَـاحَ مِنْ لُقْيَاكَ ، ثُـمَّ قَالَ لِى : هَـٰذَا بِذَاكَ ، وَهَـلْ يُؤْكَلُ الشُّهْـدُ إِلَّا بِسُمّ ؟ فَاسْتَسَغْـتُ هُنَالِـكَ خُطْبَانَ خُطُوبِـهِ ، وَكَفَأْتُ عِنْدَ ذَلِـكَ ذَنُوبِـهِ ، وَأَلْقَيْتُ بِيَدِ السِّلْـمِ وَكُنْتُ لَهُ حَـرْبًا ، وَعَلَيْـهِ إِلْبًا (٢٧) . وَحَاوَلْتُ أَنْ نَلْتَقِى فَنَتَحَـدَّثَ ، وَنَتَجَاذَبَ ذِكْرَ مَا حَدَثَ ، وَمِنْ مُنَى الْمَصْـدُورِ لَوْ نَفَثَ ، فَعَاقَ عَنِ اللِّقَـاءِ وَقْتٌ ، أَكْثَرُهُ مَقْتٌ ، وَبَخْتُ ، أَوْفَـرُهُ شَخْتٌ ، مَـعَ مَا اتَّفَقَ مِـنْ غَيْثٍ مُتَـوَاصِلٍ ، وَعَيْثٍ مُسْتَأْصِلٍ (٢٨) ، وَاسْتِشْـرَافِ أَعْنَاقِ سُيُـولٍ ، تُلْحِقُ الحُـزُونَ بِالسُّهُـولِ ، وَتَلْتَطِمُ فِـى أَعَالِى مَرَاقِى الْوُعُولِ ، وَتُنْفَضُ بِهَا أَعْرَافُ شُقْرِ الْخُيُولِ :

فَسُمْـــتُ الْبَـــرَاعَـــةَ أَنْ تَنْكَفِـــى وَذَلْـــقَ الْيَـــرَاعَـــةِ أَنْ يَكْتُبَـــا (٢٩)
وَأَجْـــرَيْـــتُ مِـــنْ مَـــدَّةٍ أَدْهَمًـــا وَحَلَّيْـــتُ مِـــنْ مُهْـــرَقٍ أَشْهَبَـــا
تَـــرَكْـــتُ الْقُلُـــوبَ لَـــهُ مَـــرْبِطًـــا وَصَـــدْرَ النَّـــدِيِّ بِـــهِ مَلْعَبَـــا

(٢٥) أحمّ : أسود أو محترق ساخن .
(٢٦) إحنه : حقده وضغنه - يقال : راطل أى باع بالرطل - المُنّة : القوة - الهنت : الشرّ والإفساد .
(٢٧) كفأت الإناء : كبيته وقلبته - الذنوب : الدلو العظيمة - إلب أى مجتمع على عداوته .
(٢٨) مقت : بغض - بخت : حظ - شَخت : قليل - عيث : إفساد .
(٢٩) ذلق : فصاحة - البراعة : القلم .

لَابرِحْتَ فِى دَعَةٍ وَسَعَةٍ ، وَلاَزَالَ مَكانُكَ مِنَ الْمَعَالِى مُمَهَّدًا ، وَسُلْطَانُكَ مِنَ اللَّيَالِى مُؤَيَّدًا ، تَحْمِلُ كَمَالَ الْبَدْرِ ، وَجَلاَلَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، بِمَشِيئَةِ اللهِ ، تَعَالَى ! وَالسَّلاَمُ .

وكتب فى استدعاء مغنٍّ :

إِنَّ لِلطَّرَبِ - أَعَزَّكَ اللهُ ! - جِسْمًا وَنَفْسًا ، يُسَمَّيان سَمَاعًا وَكَأْسًا وَقَدْ حَضَرَتْنَا خَمْرَةٌ ، كَأَنَّهَا جَمْرَةٌ ، قَدْ تَنَاسَبَتْ سَوْرَتُهُمَا ، كَمَا تَضَارَعَتْ فِى الْخَطِّ صُورَتُهُمَا :

لَوْ تَرَى الشَّرْبَ حَوْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ ... قُلْتَ قَوْمٌ مِنْ قِرَّةٍ يَصْطَلُونَا (٣٠)

فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْنِسَ ، وَتُطْرِبَ الْمَجْلِسَ ، فَتُجْرِىَ فِى ذَلِكَ الْجِسْمِ الْكَرِيمِ رُوحَهُ ، وَتُحْضِرَهُ مِنْكَ مَسِيحَهُ ، وَصَلْتَ ، وَأَجْمَلْتَ .

* * *

وكتب فى صفة متنزَّه :

وَلَمَّا أَكَبَّ الْغَمَامُ إِكْبَابًا ، لَمْ نَجِدْ مَعَهُ إِغْبَابًا (٣١) ، وَاتَّصَلَ الْمَطَرُ اتِّصَالًا ، لَمْ نُلْفِ مَعَهُ انْفِصَالًا ، ثُمَّ أَذِنَ اللهُ - تَعَالَى ! - لِلصَّحْوِ أَنْ يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ ، وَيَنْشُرَ صَحِيفَتَهُ ، فَقَشَعَتْ الرِّيحُ السَّحَابَ ، كَمَا طَوَى السِّجِلُّ الْكِتَابَ ، وَطَفِقَتِ السَّمَاءُ تَخْلَعُ جِلْبَابَهَا ، وَالشَّمْسُ تَحُطُّ نِقَابَهَا ، وَتَطَّلَعَتِ الدُّنْيَا تَبْتَهِجُ كَأَنَّهَا عَرُوسٌ تَجَلَّتْ ، وَقَدْ تَحَلَّتْ - ذَهَبْتُ فِى لُمَّةٍ مِنْ إِخْوَانِى نَسْتَبِقُ إِلَى الرَّاحَةِ رَكْضًا ، وَنَطْوِى لِلتَّفَرُّجِ أَرْضًا ، وَنَنْشُرُ أَرْضًا ، فَلاَ نُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ ، نَمِيرٍ ، قَدِ اسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِى كُلِّ قَرَارَةٍ سَمَاءٌ ، سَحَائِبُهَا غَمَّاءُ ، وَانْسَابَ فِى كُلِّ تَلْعَةٍ (٣٢) حُبَابٌ ، جِلْدَتُهُ حَبَابٌ . فَتَرَدَّدْنَا بِتِلْكَ الْأَبَاطِحِ ، نَتَهَادَى تَهَادِىَ أَغْصَانِهَا ، وَنَتَضَاحَكُ تَضَاحُكَ أُقْحُوَانِهَا ، وَلِلنَّسِيمِ ، أَثْنَاءَ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْوَسِيمِ ، تَرَاسُلُ مَشْيٍ ، عَلَى بِسَاطِ وَشْيٍ ، فَإِذَا مَرَّ بِغَدِيرٍ نَسَجَهُ دِرْعًا ، وَأَحْكَمَهُ صُنْعًا ، وَإِنْ عَثَرَ بِجَدْوَلٍ شَطَبَ (٣٣) مِنْهُ نَصْلًا ، وَأَخْلَصَهُ صَقْلًا ،

---

(٣٠) القرة : البرد .

(٣١) أكبّ بمعنى أقبل - الإغباب : هو المجيء يوما والترك يوما .

(٣٢) القرارة : المكان المنخفض - التلعة : ما ارتفع من الأرض .

(٣٣) شطب : شقّ .

فَلا تَرَى إِلَّا بِطَاحًا ، مَمْلُوءَةً سِلاَحًا ، كَانَّمَا انهزَمَتْ هُنَالِكَ كَتَائِبُ ، فَأَلْقَتْ بِمَا لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَصْقُولٍ ، وَسَيْفٍ مَسْلُولٍ .

وفى فصل منها :

فَاحْتَلَلْنَا فِيهِ خَضْرَاءَ ، مَمْدُودَةَ أَشْطَانِ (٣٤) ، الْأَغْصَانِ ، سُنْدُسِيَّةَ رِوَاق ، الْأَوْرَاقِ . وَمَا زِلْنَا نَلْتَحِفُ مِنْهُ بِبَرْدِ ظِلٍّ ظَلِيلٍ ، وَنَشْتَمِلُ عَلَيْهِ بِرِدَاءِ نَسِيمٍ عَلِيلٍ ، وَنُجِيلُ النَّظَرَ فِى نَهْرٍ صَقِيلٍ ، صَافِى لُجَيْنِ الْمَاءِ ، كَأَنَّهُ مَجَرَّةُ السَّمَاءِ ، مُؤْتَلِقِ جَوْهَرِ الْحَبَابِ ، كَأَنَّهُ مِنْ ثُغُورِ الْأَحْبَابِ . وَقَدْ حَضَرَنَا مُسْمِعٌ يَجْرِى مَعَ النُّفُوسِ لَطَافَةً ، فَهُوَ يَعْلَمُ غَرَضَهَا وَهَوَاهَا ، وَيُغَنِّى لَهَا مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا ، فَصِيحُ لِسَانِ النَّقْرِ ، يَشْفِى مِنَ الْوَقْرِ (٣٥) ، كَأَنَّهُ كَاتِبٌ ، حَاسِبٌ ، تَمْشُقُ يُمْنَاهُ ، وَتَعْقِدُ يُسْرَاهُ :

يُحَرِّكُ حِينَ يَشْدُو سَاكِنَاتٍ وَيَبْتَعِثُ الطَّبَائِعَ لِلسُّكُونِ

* * *

وكتب فى استدعاء عُود غِناء :

انْتَظَمَ مِنْ إِخْوَانِكَ - أَعَزَّكَ اللهُ ! - عِقْدُ شَرْبٍ يَتَسَاقَوْنَ فِى وُدِّكَ ، وَيَتَعَاطَوْنَ رَيْحَانَةَ شُكْرِكَ وَحَمْدِكَ . وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا شَرِهُ الْمَسَامِعِ إِلَى رَنَّةِ حَمَامَةِ نَادٍ ، لَا حَمَامَةِ بَطْنِ وَادٍ . وَالطَّوْلُ لَكَ فِى صِلَتِنَا بِجَمَادٍ نَاطِقٍ ، قَدِ اسْتَعَارَ مِنْ بَنَانٍ لِسَانًا ، وَصَارَ لِضَمِيرِ حَامِلِهِ تَرْجُمَانًا ، وَهُوَ عَلَى الْإِسَاءَةِ وَالْإِحْسَانِ لَا يَنْفَكُّ مِنْ إِيقَاعٍ بِهِ ، فِى غَيْرِ إِيجَاعٍ لَهُ ، فَإِنْ هَفَا عُرِكَتْ أُذُنُهُ وَأُدِّبَ ، وَإِنْ تَأَتَّى وَاسْتَوَى بُعِجَ بَطْنُهُ وَضُرِبَ (٣٦) . لَا زِلْتَ مُنْتَظِمَ الْجَذَلِ ، مُلْتَئِمَ الْأَمَلِ !

* * *

---

(٣٤) أشطان : حبال .

(٣٥) النقر : الضرب بالدفّ أو العود - الوقر : الصمم وثقل الأذن .

(٣٦) بُعج : شُقّ .

جار الله الزمخشرى

(٤٦٧ - ٥٣٨ هـ / ١٠٧٥ - ١١٤٤م)

أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، ولد بزَمَخْشر من إقليم خوارزم الفارسى ، وكان حنفيًّا معتزليًّا قويًّا فى مذهبه مجاهرًا بـه ، كثير الفضل ، غاية فى الذكاء وجودة القريحة متفننًا فـى كلّ علـم مقبلًا علـى دراسة العلـوم اللغويـة والدينيـة ، ذا ذوق أدبى دقيـق يقيس الجمال البلاغى ويكشف جوانبه .

أخذ الأدب عن أبى الحسـن المظفر النيسابورى ، وأبى مضر الأصبهـانى ، ورحل كثيرا ، فأقام ببغـداد مدة ، وجاور بمكة وتلقّب بجـار الله وبفخر خوارزم أيضا ، وقد أصيـب فى رحلة فقطعها ، وصنع عوضها رجْـلًا من خشب ، يلقى عليها ثيابه الطوال إذا مشـى ، فيظنّ من يراه أنه أعرج ، وكان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطّلعوا على حقيقة ذلك ، خوفا من أن يُظنّ به أنها قطعت لريبة .

وأشهر تصـانيفه " الكشاف عـن حقائق غوامـض التنزيل ، وعيـون الأقاويل فـى وجوه التأويل " نحـا فيه منحى ظاهـرا إلى التفسير العقلى الـذى يُكبر العقل ويرفـض الاعتقاد فى الكهانة مع توجيه الآيات القرآنية توجيهًا اعتزاليًا يعتمد على فكرة القدر والجبر والإرادة الحرة فى أفعال العباد وتنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ، وهو فى هذا التفسير يبذّ الأوائل والأواخر - كما يقول بعض الدارسيـن - حتى لنرى أهل السنة يشهدون به على رغـم من مخالفتهم له فى آرائه الاعتزالية .

ومن تصنيفـاته : "المفصّل " فـى النحو ، وقد نـال عنايـة كثير من الشـراح ، و" أساس البلاغة " وهـو معجم لغوى أورد فيه الزمخشـرى معانى الكلمات فى سيـاق بعض العبارات مع ذكر معـانيها المجازية ، وله أيضًا " الغـائق فى غريب الحديث " و " أطـواق الذهب " وهو يشبـه فى أسـاليبه المقـامات ، والمستقصَى فـى الأمثال ، وربيـع الأبرار ، وشـرح أبيات الكتاب ، والأنموذج فى النحو ، والرائض فـى الفرائض ، وشرح مشكلات المفصل ، والكلم النوابغ ، والمستقصى ، والقسطاس (وكلاهما فى العروض) ، وله شعر كثير .

* * *

١ – من مقدمة كتاب : " الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل " ، للزمخشرى :

الحمدُ لله الذى أَنْزل القرآن كلامًا مؤلّفًا منظّمًا ، ونزّله بحسب المصالح منجّمًا (١) ، وجعله بالتحميد مفتتحًا ، وبالاستعاذة مختتمًا ، وأَوْحاه على قسمين مُتشابهًا ومُحكمًا ، وفصّله سورًا ، وسوّره آيات ، وميّز بينهن بفصول وغايات ، وما هى إلا صفات مبتدىء مبتدع ، وسمات منشىء مخترع ، فسبحان من استأثر بالأوّلية والقدم ، ووسم كّل شىء سواه بالحدوث عن العدم ، أنشأ كتابا ساطعًا تبيانه ، قاطعًا برهانه ، وحيًّا ناطقًا ببيّنات وحجج ، قرآنًا عربيًا غير ذى عوج ، مفتاحًا للمنافع الدينيّة والدنيوية ، مصداقًا لما بين يديْه من الكتب السماويّة ، مُعْجزًا باقيًا دون كلّ مُعْجز على وجه كل زمان ، دائرًا من بين سائر الكتب على كلّ لسان فى كلّ مكان ، أَفْحم به من طُولب بمعارضته من العرب العَرْباء (٢) ، وأَبْكم به مَن تَحَدّى به من مَصاقع الخطباء ، فلم يتصدّ للإتيان بما يُوازيه أو يُدانيه واحد من فصحائهم ، ولم ينهض لمقدار أَقصْر سورة منه ناهضٌ من بلغائهم ، على أنهم كانوا أكثر من حَصِى البطحاء ، وأَوْفر عددًا من رمال الدَّهْناء ، ولم ينبض (٣) منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط فى المضادّة والمضارّة ، وإلقائهم الشَّراشر على المُعازّة والمُعارّة (٤) ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطَط ، وركوبهم فى كّل ما يرومونه الشَّطَط ، إنْ أتاهم أحد بمَفْخَرة أَتَوْه بمفاخر ، وإن رماهم بمأْثُرة رَمَوْه بمآثر ، وقد جرّد لهم الحجّة أوّلا ، والسيف آخرًا ، فلم يعارضوا إلاّ السيف وحده ، على أنّ السيف القاضب مخراق (٥) لاعب إن لم تمض الحجّة حدّه ، فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلاّ لعِلْمهم أنّ البحر قد زَخَر فطَمّ على الكواكب (٦) ، وأنّ الشمس قد أَشْرقت فطمست نور الكواكب .

---

(١) منجّما : أى نزّل مفرّقا في أوقات متتابعة .

(٢) عرب عَرْباء : صرحاء خلّص .

(٣) الدّهناء : موضع كلّه رمل – ينبض : يتحرّك .

(٤) ألقى عليه شرارة : أى أعباءه وهمومه ، أو ألقى عليه نفسه حرصًا ومحبّة – المعازّة : المغالبة – المعارّة : المقاتلة والإيذاء .

(٥) المخراق : السيف النافذ .

(٦) زخر : طما وفاض – طمّ على الكوكب : أى غمر الجبال أو الأودية الطلقة ، والكواكب أيضا بمعنى أنوار الرياض.

والصــلاة علــى خيـر من أُوحـى إليـه حبيب الله أبـى القــاسم ، محمـد بن عبد الله ابن عــبـد المطلب بن هــاشم ، ذى اللـواء المرفـوع فـى بنى لُؤىّ ، وذى الفرع المنيـف فى عبـد مناف بـن قُصَى ، المثبّـت بالعصمـة ، المؤيّـد بالحكمـة ، الشادخ الغُـرّة (٧) الواضح التحجيل ، النبـىّ الأمىّ المكتـوب فى التـوراة والإنجيل ، وعلـى آله الأطهـار ، وخلفائه مـن الأَخْتان والأَصْهار (٨) ، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

اعلم أنّ مَتْن كلّ عِلمْ وعَمود كلّ صِناعة طبقاتُ العلماء فيه مُتدانية ، وأَقدام الصُّنَّاع فيه مُتقاربة أو متساوية ، إن سَبَق العالمُ العالمَ لم يسبقْه إلاّ بخُطًا يَسيره ، أو تَقَدّم الصانعُ الصانعَ لم يتقدّمه إلاّ بمسافة قصيرة ، وإنّما الـذى تباينتْ فيه الرُّتب ، وتَحاكّت (٩) فيه الرُّكَب ، ووَقَع فيه الاستباق والتناضُل ، وعَظُـم فيه التفاوُت والتفاضُل ، حتى انتهى الأمر إلـى أمدٍ من الوهم مُتبـاعد ، وتَـرَقّى إلى أنْ عُـدّ أَلـف بواحد - مـا فى العلوم والصنـاعات من محاسـن النُّكَت والفِقَر (١٠)، ومن لطائف معانٍ يـدقّ فيها مباحث للفِكَر ، ومن غـوامض أسرار ، مُحتجبة وراء أستارٍ لا يكشف عنها من الخاصّة إلا أوْحدهم ، وأَخَصّهم ، وإلاّ واسطتهن وفَصّهم ، وعامّتهم عُمـاة عن إدراك حقـائقها بـأحـداقهم ، عُنـاة فـى يد التقليـد لا يمنّ عليهـم بجَـزّ نواصيهـم وإطلاقهم (١١) .

ثم إن أَمْـلأ العلوم بمـا يَغْمر القرائح ، وأَنْهضهـا بما يَبْهر الأَلْبـاب القَوارح ، مـن غرائب نُكَت يَلْطُـف مَسْلَكُها ، ومُستودعات أسـرارٍ يَدِقّ سلكُها : عِلْـمُ التفسير الذى لا يَتمّ لتعـاطيه وإجالة النظر فيه كلُّ ذى علم ، كما ذكر الجاحظُ فى كتاب نَظْم القرآن ، فالفقيهُ وإنْ بَرز على الأقران فـى علم الفَتـاوى والأَحْكام ، والمتكلّـم وإن بزّ (١٢) أهل الـدنيا فى صناعـة الكلام ، وحافِظُ القصص والأخبار وإن كاَن مـن ابن القرّية أَحْفـظ ، والواعظ وإنْ كان : مِـن الحسن

(٧) شدخت الغُرّة : اتّسعت فى الوجه .
(٨) الأختان : جمع الختن ، وهو كلّ من كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها وزوج البنت أو زوج الأخت .
(٩) تحاكّت : اتّصلتْ فحكّ أحدهما الآخر .
(١٠) النكت والفقر بمعنى المسائل العلمية الدقيقة أو الأفكار اللطيفة المؤثّرة فى النفس .
(١١) عناة : أسرى ، مفرده : أسير - النواصى : شعر مقدّم الرأس إذا طال .
(١٢) بزّ : غلب .

البصريّ أوْعظ ، والنحويّ وإن كان أَنْحى من سيبوية (١٣) ، واللُّغويّ وإن عللك اللغات بقوّة لحييه (١٤) ، لايتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، إلاّ رجل قد برع فى علمين مختصّين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهّل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبّع مظانّهما همّة فى معرفة لطائف حجّة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذًا من سائر العلوم بحظّ ، جامعًا بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زمانًا ورجع إليه ، وَرَدَّ ورُدَّ عليه ، فارسًا فى علم الإعراب ، مقدمًّا فى حملة الكتاب ، وكان مع ذلك مُسترسل الطبيعة مُنقادها ، مُشتعل القريحة وَقّادها ، يَقْظان النفس درّاكًا لِلَّمْحة وإن لَطُف شأنُها ، مُنتبهًا على الرمزة وإن خفى مكانها ، لاكَزًّا جاسيًا (١٥) ، ولا غليظًا جافيًا ، مُتصرّفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، مُرتاضًا غير ريّض (١٦) بتلقيح بنات الفكر ، قد علم كيف يرتّب الكلام ويؤلّف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقة ووقع فى مداحضه ومزالقه (١٧) .

ولقد رأيتُ إخوانَنَا فى الدين من أفاضل الفِئة الناجية العدلية (١٨) ، الجامعينَ بين علم العربيّة والأصول الدينيّة ، كلّما رَجعوا إلىّ فى تفسير آية فأبرزْتُ لهم بعضَ الحقائق من الحُجُب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعَجّب ، واستُطِيروا شَوْقًا إلى مُصَنَّف يَضُمّ أطرافًا من ذلك حتى اجتمعوا إلىّ مقترحين أنْ أُمْلى عليهم (الكشف عن حقائق التنزيل ، وعيون

---

(١٣) ابن القِرِّيّة : هو أبو سليمان أيوب بن زيد ، من الخطباء المشهورين ، (ت ٨٤ هـ) – الحسن البصرى ، كان خطيبًا ووعّاظًا بليغًا (ت ١١٠ هـ) – سيبويه ، هو عمرو بن عثمان بن قنبر مؤلف أقدم مصنف جمع مسائل النحو العربى كافة ، (ت ١٨٠ هـ) .

(١٤) علل الشيء كاللّبان وغيره : مضغه وأداره فى فمه – اللحيان : حائط الفم وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم .

(١٥) الرّمزة : الايماءة والاشارة – كزّ : ضيّق قليل النفع – الجاسى : الخشن غير اللطيف .

(١٦) مرتاض : مروض مذلّل – الريّض : حديث العهد بالرياضة ولم يمهر فى المشية ، ولم يذّل بعد لراكبه .

(١٧) المداحض والمزالق كلاهما بمعنى المواضع التى لاتثبت عليها الأقدام .

(١٨) الفئة الناجية هى التى سماها أهل السُّنَّة بالمعتزلة ، فقوله " إخواننا فى الدين " يقتضى أنه من المعتزلة . ولذا تراه فى مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة يقول بقول المعتزلة ، فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبقاها على ظاهرها ، وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم .

الأقاويل فى وجوه التأويل) فاستَعْفَيْتُ فـأَبَوا إلاّ المراجعة والاستشفاع بعُظماء الدين وعلماء العَدْل والتوحيد (١٩)، والذى حَدانـى على الاستعفاء على علمـى أنهم طلبوا ما الإجـابة إليه علىّ واجهـة ، لأن الخَوْض فيه كفـرْض العينِ ما أرى عليـه الزمـان منْ رثاثـة أحواله ورَكـاكة رِجاله وتقـاصُرِ هِممهم عن أَدْنـى عُدَد (٢٠) هذا العلم فضـلاً أنْ تترقّى إلى الكـلام المؤسَّس على عِلْمَىْ المعانى والبيان ، فأمليتُ عليهم مسألة فى الفواتح وطائفة من الكلام فى حقائق سُورة البقـرة ، وكان كلامًـا مبسوطًا كثير السـؤال والجواب طويـل الذُّيول والأَذْنـاب ، وإنما حاولتُ بـه التنبيه على غزارة نُكَـت هذا العلم وأن يكون لهـم منارًا ينتحونه ومثـالاً يحتذونه ، فلما صَمّم العزم (٢١) على معاودة جِـوار الله والإناخة بحرم الله فتوجّهت تِلقـاء مكّة ، وجدتُ فى مُجْتازى بكل بلدٍ من فيه مُسْكَة (٢٢) من أهلها - وقليلٌ ما هم - عَطْشى الأكباد إلى العُثور على ذلـك المُمْلى متطلّعين إلى إينـاسه ، حِراصًـا على اقتباسـه ، فهزّما رأيتُ مـن عِطْفى ، وحرّك الساكنَ من نَشاطى . . .

* * *

٢ - مقدّمة كتاب " الفائق فى غريب الحديث " :

الحمـد لله الـذى فَتَقَ لسـانَ الـذَّبيح (٢٣) بالعـربية البينـة والخِطَاب الفصيـح ، وتولاّه بأَثَرة (٢٤) التقدم فـى النطقِ باللغـة التى هى أفصـح اللغات ، وجعله أبـا عُذْر (٢٥) التصدّى للبلاغـة التى هـى أتمُّ البـلاغات ، واستلَّ من سُـلاَلته عَـدْنان وأبنـاءَه ، واشتّق مـن دَوْحته قَحْطان وأحْيَاءه ، وقسم لكل من هؤلاء من البَيَانِ قِسْطا ، وضرب له من الإبداع سَهْما ، وأفرزَ له من الإعراب كِفْلا (٢٦) ؛ فلم يُخْلِ شعبًـا من شعوبهم ، ولا قبيلةً مـن قبـائلهم ، ولا عِمـارةً

(١٩) العدل والتوحيد : هما أصلان من أصول التعاليم لدى المعتزلة .
(٢٠) عُدَد : جمع عُدَّة وهى الاستعداد ، وما أُعِدّ لأمرٍ يحدث .
(٢١) صَمَّم : مَضَى .
(٢٢) مُسكة : أثر وبقيّة .
(٢٣) الذبيح : يعنى به إسماعيل عليه السلام .
(٢٤) أثَرة : منزلة .
(٢٥) جعله أبا عُذْره بمعنى جعله أول من تصدّى .
(٢٦) كِفل : نصيب .

من عمـائرهم ، ولا بَطْنًا من بطونهـم ، ولا فَخِذًا من أفخاذهم ، ولا فصيلةً مـن فصائلهم ، من شعراء مُفْلِقين ، وخطباء مَصَـاقِع ، يرمون فى حدَقِ البيان عنـد هَدْر الشقاشق (٢٧)، ويصيبون الأغراض بـالكَلِم الرواشق ، ويتنـافثون من السحر فـى مناظم قـريضهم ورَجَزهم وقصيـدِهم وَمُقطَّعـاتهم ، وَخطبهـم ومقامـاتهم ؛ ومـا يتصرفـون عليـه فيها ، مـن الكنايـة والتعريـض ، والاستعارة والتمثيل ، وأصناف البدِيع ، وضرُوب المجـاز والافتنان فى الإشباع والإيجاز، مالو عثَر عليه السَّحَرَةُ فى زمن موسـى عليه الصلاة والسلام والمؤَخِّذون(٢٨) ، واطّلع طِلْعـه أولٰئك المُشْعوذون ، لقعدوا مقْمورين (٢٩) مَقْهورين ، ولبقُوا مبهوتين مبهورين ، ولاسْتكانوا وأذعنوا ، وأَسهبوا فـى الاستعجاب (٣٠) وأمعنُـوا ، ولعلموا أن نفثـاتِ العرب بـألسنتها أحـقُّ بالتسميـة بالسِّحْر وأنَّهـم فى ضَحْضَـاح منه ، وهؤلاء لجَّجوا (٣١) فى البحر . ثم إن هـذا البيانَ العربى كأن الله عـزّتْ قـدرته مَخَضـه وألقى زُبْـدته (٣٢) على لسـان محمد عليه أفضل صـلاة وأوفر سلام ؛ فما مـن خطيب يقاومه إلا انكَص متفكـك الرجل (٣٣) ، وما من مِصْقع يُنـاهزه إلا رجع فارغ السَّجْل (٣٤) ، وما قُرِن بمنطقه منطقٌ إلا كان كالبِرذَون مع الحصان المُطَهَّم (٣٥)، ولا وقع من كلامـه شىءٌ فى كلام النـاس إلا أشبه الوَضَح فـى نُقْبة الأدْهم. قال عليـه السلام : أُوتيت جوامعَ الكلم. وقال : أنا أفصحُ العرب بَيْدأنى من قريش ، واستُرضعت فى بنى سَعْدِبن بكر.

وقد صَنف العلماء رحمهم الله فى كشف ما غَرُب من ألفاظه واسَتبْهم ، وبيانِ ما اعتاص من أغـراضه واستعجـم ، كُتُبًا تَنـوَّقوا فى تصـنيفهـا ، وَتَجَوَّدوا ، واحـاطوا ولـم يتجوَّزُوا (٣٦) ،

---

(٢٧) مصاقع : فصحاء – الحدق : جمع حَدَقة وهى السواد المستـدير وسط العين ، يقال هو من رماة الحدق أى حاذق مـاهر فى النضال – الهـدر : ترديد الصوت فـى الحنجرة ، الشقاشق : المـراد بها الضجّة ، والشقشقة هـى لهاة البعير يخرجها من فمه إذا هاج وهدر.

(٢٨) التأخيذ : نوع من السحر، من الأخذة وهى رقية كالسحر أو خرزة يؤخذ بها .

(٢٩) معَمور: مغلوب فى مفاخرة أو مباراه .

(٣٠) استعجبت منه كعجبت منه .

(٣١) ماء ضحضاح : قليل لاعمق فيه – لججّوا : ركبوا اللجّة وخاضوها .

(٣٢) مخض اللبن : أخرج زبدته .

(٣٣) متفكك الرجل كناية عن العىّ والعجز عن المقاومة .

(٣٤) السجل : الدلو.

(٣٥) البرذون : غير العربى من الخيل والبغال – مطهّم : متناهى الحسن كريم الحسب .

(٣٦) اعتاص : التوى فخفى وصعب – تنوّق : بالغ فى التجويد – لم يتجوّز: لم يتساهل .

وعكفوا الهمم على ذلك وحَرِصُوا ، واغتنموا الاقتدار عليه وافْتَرصوا ، حتى أحكموا ما شاءُوا وأتْرَصوا (٣٧) ، وما منهم إلا من بطش فيما انتحى بباع بسيط ، ولم يزل عن موقف الصواب مقدار فَسِيط (٣٨) ، ولم يَدَع المتقدمُ للمتأخر خصاصةً يَستظهر به على سدّها ، ولا أُنْشوطة (٣٩) يستنهضه لِشَدّها ، ولكن لا يكاد يجد بدًّا من نَبَغَ فى فن من العلم ، وصبغ به يده ، وعانى فيه وُكْدَه (٤٠) وكَدَّه ، مِنَ استِحباب أن يكون له فيه أثر يُكْسبه فى الناس لسانَ الصدق وجمال الذكر ، ويخزُن له عند الله جزيل الأجر وسَنِيَّ الذُّخر .

وفى صَوْب هذين الغرضين ذهبتُ عند صَنْعة هذا الكتاب غيرَ آلٍ جُهدًا ، ولا مقصّر عن مَدًى ، فيما يعود لِمُقْتَبِسِه بالنُّصح ، ويرجع إلى الراغبين فيه بالنُّجح ، من اقتضاب ترتيب سَلِمت فيه كلمات الأحاديث نسقًا ونَضَدا ، ولم تذهب بَدَدا ، ولا أيدى سَبَا ، وطرائِقَ قِدَدًا (٤١) ، ومن اعتماد فَسْرٍ مُوضِح ، وكشف مُفْصح ، اطلعت به على حَاقِّ المعنى وفَصِّ (٤٢) الحقيقة اطلاعًا مُؤدَّاه طمأنينة النفس ، وثَلَجَ الصدر ، مع الاشتقاق غير المستكره ، والتصريف غير المتعسّف ، والإعراب المحقق البَصْرى ، الناظر فى نص سيبويه وتقرير الفَسَوِىّ (٤٣) ، فأيّة نفس كريمة ، ونَسمة زاكية ، نوّر الله قلبها بالإيمان والإيقان ، مرّت على هذا التبيان والإتقان ، فلا يذهبن عليها أن تدعو لى بأن يجعله اللهُ فى موازينى ثِقَلاً ورُجحَانا ، ويُثيبنى عليه رَوحًا وريحانا . والله عزّ سلطانه المرغوبُ إليه فى أن يُوزِعنا الشكر على طَوْله وفضله ، وألا نُقْدم إلا على أعمال الخير خالصةً لوجهه ومن أجله ؛ إنه المنعم المنّان .

* * *

---

(٣٧) أترص : سوّى وعدل .

(٣٨) فسيط : قلامة ظفر .

(٣٩) أنشوطه : عقدة يسهل انحلالها .

(٤٠) الوكد : السعى والجهد .

(٤١) أيدى سبا : ضرب بهم المثل فى التفرق ، لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جنّاتهم تبدّدوا فى البلاد فأخذت كلّ طائفة منهم طريقا - القِدد : جمع القِدّة وهى الفرقة من الناس تختلف آراء أفرادها .

(٤٢) فسْر : بيان - حاقّ : صادق - فَصّ : مفصل .

(٤٣) الفسوىّ : هو أبو على الفارسى ، نسبة إلى فسا ، وهى قرية بفارس (ت ٣٧٧ هـ) .

مختارات من « الفائق » :

الحاء مع الصاد .

حصد :

النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - قال لمُعَاذ بن جَبَل : اكْفُفْ عليك لسانَك ! فقال : يا رسول الله ؛ أوَإنا لمأخوذون بما نتكلَّم ؟ فقال : ثَكلتْك أُمك يا مُعَاذ ! وهل يكُبُّ الناس على مَنَاخِرِهم إلا حَصَائِد أَلْسِنتهم .

جمع حصيدة ، وهى ما يحصد من الزَّرْع ، شبّه اللسان وما يقتطعُ به من القول بحدِّ المنجل ، وما يُقْطَع به من النبات .

* * *

حصى :

اسْتَقِيمُوا ولن تُحْصوا ، واعْلَمُوا أنَّ خير أعمالكم الصَّلاة ، ولن يحافِظَ على الوضوء إلا مُؤْمن .

أى لن تطيقوا الاستقامةَ فى كلّ شىء ، حتى لا تميلوا ؛ من قوله تعالى : ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوه﴾ . (سورة المزمل ٢٠) .

ومعنى التركيب الضبط ، فاعادّ يضبط ما يعدّه ويحصره ، وكذلك المُطيق للشىء ضَابطٌ له . ومنه الحَصْو ، وهو المنع . يقال : حَصَوْتَنى حقّى .

* * *

نهى ﷺ عن بَيْعِ الحَصَاة .

هو أن يقول : إذا نَبَذْتُ إليك الحَصَاةَ فقد وجب البَيْعُ ؛ وهو من بُيُوع الجاهلية .

حصب :

عمر - رضى الله عنه - لما حَصَّبَ المسجدَ قال له فلان : لِمَ فعلتَ هذا ؟ قال : هو أغفر للنُّخَامة ، وألين فى المَوْطِيء .

هو تغطية سَطْحِهِ بالحَصْبَاء ، وهى الحصى الصِّغار.

أَغْفَر : أستر، وهى رخصة فى البُزَاق فى المسجد إذا ادَّفن .

* * *

يا لخُزَيمَةَ حَصِّبوا(٤٤) .

التَّحْصِيب : إذا نفر الرَّجُل من مِنى إلى مكة للتوديع أن يقيم بالأبطح حتى يَهْجَع به ساعةً من الليل ثم يدخل مكة - وروى : أصبحوا ، أراد أن يقيموا بالأبطح إلى أن يُصْبِحُوا .

وعن عائشة - رضى الله عنها - : ليس التَّحْصِيب بشيء ؛ إنما كان منزلًا نزله رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؛ لأنه كان أسمح للخروج .

* * *

عثمان - رضى الله تعالى عنه - فى حديث مَقْتَله : تحاصَبُوا فى المسجد حتى ما أُبْصِر أَدِيم السماء .

هو التَّرامى بالحصباء .

* * *

حصحص :

علىّ - عليه السلام - لأَنْ أُحَصْحِصَ فى يَدَىَّ جَمْرَتين أَحَبُّ إلىَّ مِنْ أَنْ أُحَصْحِصَ كَعْبَتَيْن .

(٤٤) خزيمة : هم قريش وكنانة ، وليس فيهم أسد .

الحصحصة : تحريكُ الشيء ، أو تحرّكه حتى يستقرَّ ويتمكّن .

ومنه حديث سَمُرة - رضى الله عنه - : إنه أُتِي برجل عِنّين ، فكتب فيه إلى معاوية ، فكتب إليه : أن اشتَرِ له جارِيةً من بيت المال ، وأَدْخِلْهَا معه ليلةً ، ثم سَلْهَا عنه ، ففعل ، فلما أصبح قال : ما صنعتَ ؟ قال : فعلتُ حتى حَصْحَصَ فيه ؛ فسأل الجارية ، فقالت : لم يَصْنَع شيئًا . فقال : خَلِّ سبيلَها يا مُحَصْحِص !

* * *

حصر:

ابن مسعود - رضى الله عنه - لُدِغ رجل وهو مُحْرِم بالعمرة فأُحْصِرَ، فقال عبد الله : ابعثُوا بالهدْى ، واجعلوا بينكم وبينه يَوْمَ أَمار، فإذا ذبح الهَدْى بمكة حلّ هذا .

أى منع بسبب اللّدغ ؛ من قوله تعالى : ﴿ فإنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ . (سورة البقرة ١٩٦) .

الأماروالأَمارة : العلامة . يقال : أَمارما بينى وبينك كذا . والمعنى : اجعلُوا بينكم وبينه يومًا تَعْرِفونه .

* * *

حصص :

أبو هريرة - رضى الله تعالى عنه - إن الشيطانَ إذا سمع الأذان خَرَج وله حُصَاص . هو حدّةُ العَدْو، وقيل : هو أنْ يَمصَع بذَنَبه ، ويصُرّ بأُذُنيه ويَعْدُو. وقال :

عجرّدٌ كالذّئب ذى الحُصَاص ‏ ‏ ‏ يُوضع تحت القمر الوَبَّاص (٤٥)

وقيل هو الضُّرَاط .

* * *

(٤٥) عجرّد : شديد - يوضع : يسرع - الوبّاص : البراق .

ابن عمر – رضى الله عنهما – أَتَتْهُ امرأةٌ فقالت : إنَّ ابنتى عُرَيِّس ، وقد تمعَّطَ شَعْرُها ، وأَمَرُونى أن أُرَجِّلها بالخمر(٤٦) . فقال : إن فَعَلْتِ ذَاكِ فأَلقى الله تعالى فى رأسها الحاصَّة .

هى العلّة التى تحُصُّ الشَّعْر ، أى تنتره وتَذْهب به .

ويقال : بينهم رَحِم حَاصّة ، إذا قَطَعُوها ، بمعنى محصوصة ، والتحقيق ذَات حَصّ .

عُرَيِّس : تصغير عروس ، ولم تدخله تاء التأنيث لقيام الحرفِ الرابع مقامها ، ومثلُه قُلَيّص وعُقَيْرِب ، وقد شذّ قُدَيدِمَة ووُرَيَّة (٤٧) .

* * *

معاوية – رضى الله عنه – أُفِلتَ وانحصَّ الذَّنَبُ (٤٨) .

هو مثلٌ فيمن أشفى ثم نجا .

الحاء مع الضاد .

حضض :

النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – أُهْدى له هديّة فلم يجد شيئًا يضَعها عليه فقال : ضَعْه بالحَضيض ، فإنما أنا عبد آكُل كما يأكل العبد .

هو قَرَار الأرض بعد منقطع الجبل ، قال امرؤ القيس :

فلما أجنّ الشمسَ منى غُؤورها ... نزلتُ إليه قائما بالحضيضِ (٤٩)

* * *

(٤٦) تمَعّط : تساقط من داءٍ ونحو ذلك – أرجّل : أسوى الشعر وأزيّنه .

(٤٧) قُدَيدمة ووُرَيّة : تصغير قدّام ووراء ، وهما يؤنثان ويصغران بالهاء شذوذا .

(٤٨) يروى المثل عن معاوية أنه كان أرسل رسولا من غسان إلى ملك الروم ، وجعل له ثلاث ديات على أن يبادر بالأذان إذا دخل مجلسه ، ففعل الغسانى ذلك ، وعند الملك بطارقته ، فوثبوا ليقتلوه ، فنهاهم الملك ، وقال : " إنما أراد معاوية أن أقتل هذا غدرًا ، وهو رسول ، فيفعل مثل ذلك من كلّ مستأمن منا " ، ولم يقتله وجهّزه وردّه . فلما رآه معاوية قال : " أفلت والخصّ الذنب " ، أى انقطع ، فقال : كلاّ إنه لبهلبه " ، أى بشعره ، ثم حدّثه الحديث ، فقال معاوية : " لقد أصاب ما أردت " ، يضرب مثلًا لمن أشفى على الهلاك ثمّ نجا .

(٤٩) أجنّ : ستر – غئورها : غيابها – الحضيض : أسفل الجبل .

حضن :

قال صلى الله عليه وسلم لعامر بن الطُّفَيل : أَسْلِمْ تَسْلَم ، فقال : عَلَى أن تجعلَ لى نِصْفَ ثِمار المدينة ، وتجعلنى وَالِيَ الأمر من بَعْدك . فقال له أُسَيد بن حُضَير : اخْرُجْ بِذِمَّتِك لأُنْفِذَ حِضْنَيْك بالرّمح ، فوالله لو سَأَلْتَنا سَيابَةً ما أعطيناكها .

هما الجنبان ، وأحْضَان كلّ شىء : جَوَانبه . السَّيَابة : البَلَحة .

* * *

حضج :

إنَّ بَغْلته - صلى الله عليه وآله وسلم - لما تناوَلَ الحصى ليَرْمى به يَوْم حُنَين فَهِمَت ما أراد ، فانحَضَجَتْ .

أى انبَسطت ، ويقال : انحَضَج بَطْنُه : إذا اتَّسع وتفتَّق سِمَنا . قال :

* وقَلَّصَ بُدْنَه بَعْدَ انحضَاجِ *

وانحَضَج من الغيظ : انقدّ وانشقّ .

ومنه حديث أبى الدَّرداء - رضى الله عنه - : إنه قال فى الركعتين بَعْدَ العصر : أما أنا فلا أدعهما ، فمن شاء أن يَنْحَضِج فلْيَنْحَضِج . وثبل معناه : من شاء أن يسترخى فى أدائهما ويقصِّر فشأنه (٥٠).

* * *

حضن :

عمر - رضى الله تعالى عنه - قال يوم أتى سَقِيفة بنى ساعدة للبَيْعة : فإذا إخواننا من الأنصار يريدون أن يَخْتَزِلوا الأمر دوننا ويَحْضُنُونَا عنه .

---

(٥٠) أى فليلتزم شأنه .

أي يحجُبونا ويجعلونا في حضْن ، أي في ناحية .

ومنه حديث ابن مسعود – رضى الله عنه – : إنه أوصى إلى الزُّبير وإلى ابنه عبد الله ابن الزُّبير ، وقال في وصيته : إنه لاتزوّج امرأةٌ من بناته بإذنها ، ولاتُحْضَن زَيْنَب امرأة عبد الله عنْ ذلك(٥١) .

* * *

حضر:

عثمان – رضى الله عنه – قال كَعْب بن عُجْرَة : ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم – فتنة فقرَّبها وعظّمها ، ثم مرَّرجل مُتقنّع في مِلحفه ، فقال : هذا يومئذ على الحقّ . فانطَلَقْت مُحْضِرا فأخذت بَضَبُعِه ، فقلت : أهذا هو يا رسول الله ؟ قال : هذا . فإذا هو عثمان ابنُ عفَّان .

أيْ مسرعا .

* * *

حضن :

عمران – رضى الله تعالى عنه – أقسمُ لأنْ أكُونَ عبْدًا حَبَشِيًّا في أعْنز حَضَنِيَّات أرْعاهنَّ حتى يُدْرِكني أجَلي أحبّ إلّي من أن أرْمِي في أحد الصَّفين بسَهْم أصبت أو أخطأتُ .

نسبها إلى حضَن ، وهو جَبَل في أول حُدود نجْد . ومنه قولهم : أنجَد مَنْ رَأى حضَنًا(٥٢) . يعني أن ذلك أحبّ إليّ من أن أشهدَ حربا في فِتنة .

* * *

---

(٥١) قيل معنى " لاتحضن " : لاتحجب عنه ولايقطع أمر دونها .
(٥٢) رأى حضناً أى من عاين هذا الجبل فقد دخل فى ناحية نجد .

٣ - مقدّمة كتاب " المستصفَى فى الأمثال " ، للزمخشرى :

الحمدُ للهِ على ما أثْلج به صدورَنا من بَـرْد اليقين ، وكساه أعْطافَنا من تشريف الإسلام ، وأثْبَتَ عليه أقـدامَنا من صِراطه المستقيم ، والصـلاةُ على مُصطفاه من خَلْقه محمـد وعِترته الأبرار؛ التصنيفُ مِضمارٌ تنصبُّ إليه خيلُ السباق مـن كلّ أوْب ثم تتجارى ؛ فمن شاطٌ بعيد الشَّأو وَسَاع الخَطْو (٥٣) ، تَشْخَص الخيـل وراءه ، إلى مطهّـم سبّاق إلـى الحلْبة مِيفـاءٍ على القَصَبة(٥٤) ، ومن لاحق بالأُخـريات مطّرح خلف الأعقاب ، ملطوم عن شـق الغبار ، موسوم بالسُّكَّيْت المُخلَّفِ (٥٥) ، ومـن آخـذٍ فـى القَصْـد مُتنزّل سطـه ما بينهمـا قـد انحرف عـن الرَجْوَينِ (٥٦)، وجال بين القطرين ، فليس بالسابق المُفرِط ولا اللاحق المفرَّط ؛ وقد تصدّيت للانصباب فى هـذا المضمار تصدّى القاصد بذَرْعه الـرابع على ظَلْعه (٥٧) ، فتدبّرت شعب الفنّ الـذى أنا كائن بَصـدده وقائم بإزائه ، فصـادفت الشعبةَ التـى هى أمثال العـرب خليقة بالميل فى صغـو الاعتناء بها (٥٨)، والكدْح فى تقويـم عنادِها ، وإعطاء بَداهة الـوكْد وعُلالته إياها ، لِما آنسْتُ من تناهِى فاقة(٥٩) الأفاضل عن آخرهم إلى استكشاف غوامضها والغوْص على مُشكلاتهـا ، ولا سّيما من انتدب منهـم لتدريس قوانيـن العربية وإقراء الكُتـبِ الكِبار ، فناطَ به الـرغبةَ كلُّ طالب ، وغَشِى ضـوءَ ناره كلُّ مُقتبس ، ووجّه إليه النجعـة كل رائد ، وكم يتلقّاك فى هذا العصر الذى قرِع فيه فناء الأدب وصفـر إناؤه ، اللّهم إلاّ عن صِرمة لا يُسئرُ منها

---

(٥٣) أوب : ناحية - شاطّ : بعيد - الشأو : الهمّة - وَساع : متّسع .

(٥٤) ميفاء : أى من ديدنه أن يشرف على قصبة السبق .

(٥٥) ملطوم : أى نُفض ما عليه من الغبار - السُّكَّيْت : آخر مـا يجىء من الخيل فى الحلبة ، ويقال فلان سُكَّيْت الحلبة للمتخلّف فى صناعته .

(٥٦) سطة : من وَسَطه سِطةً : أى صار فـى وسطه - الرجا : الناحية ، وخصّ به بعضهم ناحيـة البئر ، يقال رُمِى به الرجوان أى طرح فى المهالك .

(٥٧) ذرعه : طاقته ووسعه - ويقـال فى المثـل : " اربَـعْ عـلى ظلعك " أى إنك ضعيف فـارفق على نفسك ، ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق .

(٥٨) صَغْو : مَيْل .

(٥٩) فاقة : حاجة .

القابض ، وصُبابةٍ لا تفضُلُ عن التبرّض من دهماء المتحلّين (٦٠) بما لم يحسنوه ، المتشبّعين بما لم يملكوه ، مَن لو رجعت إليه فى معنى أَشْيَرَ مثل لفتل أصابعه سدرا ، ولا حمرّت ديباجتاه نشورًا ، أو توقّح فأساء جابةً فافتضح وتكشّف عُواره (٦١) ؛ وأَيْم الله ! إنها لمدْحَضة الأرجل ومَخْبرة الرجال، بها يتخلّص الخَبث عن الإبريز، وينماز الناكصون عن ذوى التَّبْرِيز(٦٢) ؛ ثم هى قُصارى فُصاحة العرب العَرباء ، وجوامع كَلِمِها ، ونوادر حِكَمها ، وبَيْضة مَنْطقها(٦٣) ، وزُبْدة حِوارها ، وبلاغتها التى أَعْربت بها عن القرائح السليمة والركن البديع إلى ذَرابة اللسان وغَرابة اللَّسَن (٦٤)، حيث أوجزت اللفظ فأشبعتِ المعنى ، وقَصرت العبارة فأطالت المغْزى ، ولوّحت فأغرقت فى التصْريح ، وكَنَتْ فأغْنَتْ عن الإفصاح ، بَلْه الاستظهار بمكانها والتمنّع بجانبها عند الانتظام فى سلك التذاكُر ، وإفاضة أزلام التناظُر (٦٥) وتذاوُق بعض أهل الأدب بعضًا ؛ وإنها للمحافل إذا حوضر بهاء . وللأفاضل متى أوردوها أُبّهة ، وللنثر أنّى سلكت أثناءه طَلاَوة ، وللشعر كيف انساقت فى تضاعيفه متانة ، ولأَمْرٍ ما سبقت أراعيل الرياح(٦٦) ، وتركتها كالراسفة فى القيود بتدارك سيرها فى البلاد مُصْعِدَة ومُصَوِّبة (٦٧) ، واختراقها الآفاق مشرقة ومغربة ، حتى شَبّهوا بها كلَّ سائرٍ أمعنوا فى وَصْفه ، وشاردٍ لم يألوا فى نَعْته ، فقيدّت من أوابدها ما أعرض ، وأقتنصت من شواردها ما أكثب(٦٨)، ثم ربطتُها فى قَرَنَ ترتيب حروف المعجم ارتباطًا جَنَحْت فيه إلى وِطاءِ مِنهاجٍ أَبْيَنَ من عَمود الصبح غير مُتجانِف للتطويل عن

---

(٦٠) النجعة : طلب الكلأ ومساقط الغيث – قرع : خلا من الساكنين والزوّار – صفِر: خلا – صرمة بمعنى قطعه – لا يُسْئر: لا يبقى بقيّة ، والسُّؤر هو بقيّة الشىء – الصبابة : البقية القليلة من الماء ونحو – التبرّض : ترشّف الماء واغترافه كلما اجتمع منه شىء .

(٦١) سدرًا : متحيرًا غير متثبت فى كلامه – ديباجة الوجه : حسن بشرته – توقّح : اجترأ وقل حياؤه – الجابة : الجواب – عواره : عيبه .

(٦٢) مدحضة : مزلقة – المخبرة أى المخبر، خلاف المنظر – الإبريز: الذهب الخالص – التبّريز: الإظهار والتبيين والتفوّق على الأصحاب .

(٦٣) بيضة : أساس .

(٦٤) الذرابة واللَّسَن : الفصاحة والبلاغة .

(٦٥) الأزلام : السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ، والإفاضة بالقِداح أى رميه والضرب به .

(٦٦) أراعيل الرياح : أوائلها أو دُفَعها إذا تتابعت .

(٦٧) مُصْعِدة : مرتقية – مُصَوِّبة : مخفوضة مائلة .

(٦٨) أوابد الكلام : غرائبه وعجائبه – أكثب : قَرُب .

الإيجاز(٦٩) ؛ وذلك أني بَوّبتها فأوردتُ ما في أوله الهمزُ، ثم قَفّيت على أثره بما في أوّله الباء وهَلُمَّ جَرّا(٧٠) ، إلى منتهى أبواب الكتاب ، وفصّلت كل باب فقدّمت في باب الهمز إياه مع الألف عليه مع الباء ، وفي باب الباء إياها مع الألف على السائر وهَلُم جَرّا ، إلى مُنتهى فصول الأبواب ؛ وقد استمررتُ على مُراعاة هذا النمط في أوساط الكَلِم وأواخرها ، ومتى تساوتْ صُدور الأمثال وجاءت شَرَعًا(٧١) لا يُدْلي بعضُها بفضل التقدّم على بعض عَدَلْتُ بالنظر إلى أَعْجازها فقدّمت الأحقّ فالأحقّ ، وكلّ كلمة وجدتُها متكرّرة سطرتها كَرّة واحدة ، ثم لم أتعرّض لها في سائر مواقعها إلى أن انتهيت إلى أُختها التي تطأ عَقِبها إلاّ إذا استكره ذلك وغَمُض ، وقد عُنِيت في شرحها بإيراد قصصها ، وذكر النُكت والروايات فيها ، والكَشف عن معانيها والإنباه على مَضاربها ، والتقاط أبياتِ الشواهد لها ، على أني اشترطتُ تحرّى الاختصار وتجريد الألفاظ عن الفضلات التي يستغنى عنها في حطّ اللثام عن وجه المعنى ، ولارتفاع الكتاب محيطًا بهذا النعوت كلّها سميته « المُستَقْصَى في أمثال العرب » ، وكأني بالعالم المنصف قد اطّلع عليه فارتضاه ، وأجال فيه نظرة ذي عَلَق(٧٢) ، ولم يلتفت إلى حُدوث عهده وقُرب ميلاده لأنه إنّما يَستجيد الشيء ويسترذله لجودته ورداءته في ذاته لا لقدمه وحدوثه ، وبالجاهل المشطّ قد سمع به فسارع إلى تمزيق فَرْوته(٧٣) ، وتوجيه المعاب إليه ، ولمّا يعرفْ نبعَه من غَرَبه ، ولا صقرَه من خَربَه ، ولا عجَم عُودَه ولا نفَض تهائمَه ونُجودَه(٧٤) ، والذى غرّه منه أنه عملٌ مُحْدَثٌ لا عملٌ قديم ، وحَسِب أن الأشياء تُنْقَد أو تُبْهَرج لأنها تليدةٌ أو طارفة(٧٥) ، ولله درُّ مَنْ يقول :

إذا رَضِيَتْ عَنّي كِرامُ عَشيرتي فلا زالَ غَضْبانًا عَلَيَّ لِئامُها

---

(٦٩) القَرَن : الحبل يقرن به البعيران – الوطاء : المهاد الوطيء – متجانف : مائل .
(٧٠) قفّيت : أتبعت – هَلُمّ جَرّا : تعبير يقال لاستدامة الأمر واتّصاله – فَصَّلْت : بيّنت .
(٧١) شِرعًا : سوا .
(٧٢) : عَلَق : حبّ وهوى .
(٧٣) المُشِطّ : الذى جار وأبْعد – الفروة : الجلدة ذات الشعر ، يقال : فروة الرأس .
(٧٤) النبع : شجر صلب ينبت في رءوس الجبال وتتّخذ منه القِسيّ – والغرب : ذكر الحبارى وهو طائر طويل العنق على شكل الإوزة – عجم عوده أى اختبره – التهائم : أرض منخفضة – والنجود : الأرض الصلبة المرتفعة .
(٧٥) التليد : المال الأصلى القديم – والطارف : المستحدث .

والأمثال يُتَكَلّم بها كما هى ، فليس لك أن تَطرح شيئًا من علامات التأنيث فى « أطرِّى فإنّك ناعِلَة » (٧٦) ولا فى « رَمَتْنى بدائِها وانسَلَّت » (٧٧) وإنْ كان المضروب لـه مُذكّرا ، ولا أن تبدل اسم المخاطب من عقيل وعمرو فى « أُشِئْتَ عُقَيْل إلى عَقْلك » (٧٨) و « هذه بتلك فهلَ جَزَيْتُك يا عمرو ؟ (٧٩) ، والتمثل تطلُّب : المماثلة كالتعهّد والتوقّع والتوكّف بمعنى تطلُّب العهد والوقوع والوكيف ، ولهذا تمثلت حاتما أجود من تمثلت به كتعهدته وتوقعته وتوكفته . والضرب البيان من قولك : ضرب له موعدا ، أى بيّنه .

* * *

مختارات من " المستقصى " .

١ - أَبْصَرُ مِنَ الزَّرْقَاءِ : هى من بنات لقمان بن عاد ملكة اليمامة ، واليمامة اسمها ، فسُمّيت به البلدة كما قيل فى حِمْير ، وقيل : اسمها عَنْز ، وهى إحدى الزُّرْق الثلاث : أعنيها ، والزبّاء ، والبَسُوسُ ؛ وكانت جَديسيّة ، وحين قتلت جَدِيس طَسْما استجاش (٨٠) رجل طَسْميّ حسّان بن تُبّع إلى اليمامة فلما صاروا من جَوّ على مسيرة ثلاث صعدت الأُطُم (٨١) الذى يقال له الكلب ، فنظرت اليهم وقد استتر كلٌّ بشجرة تلبيسًا عليها ، فارتجزتْ بقولها :

---

(٧٦) أصل هذا المثل أن رجلا قال لراعيةٍ كانت له ترعى فى السهولة وتَدَع الحزونة : " أطِرِّى " ، أى خذى طرر الوادى ، وهى نواحيه ، فإن عليك نعلين ، قال : أحسبه عَنَى بالنعلين غِلَظ جلد قدميها . يضرب لمن يؤمر بارتكاب الأمر الشديد لاقتداره عليه .

(٧٧) هذا المثل لإحدى ضرائر رُهْم بنت الخزرج امرأة سعد بن زيد مَنَاة ، رَمَتْها دهم بعيب كان فيها ، فقالت الضَّرّة : رمتنى . . . إلخ .
يضرب لمنْ يُعَيّر صاحبه بعيبٍ هو فيه .

(٧٨) عقيل : اسم رجل ، وأُشِئْت : أُلْجِئْت ، يريد لما ألجئت إلى عقلك ووُكِلْت إلى رأيك جَلَبا إليك ما تكره ، قال أبو عمرو : أشئت إلى عَقَلك يا عُقَيل ، قال : والعَقَل العَرَج ، وكان عُقَيل أعرج . يضرب هذا للرجل يقع فى أمرٍ يهتمّ للخروج منه فيقال : اضطُرِرْت إلى نفسك فاجتهد ، فإنك وإن كنت عليلا إذا اجتهدت كنت قمِنًا أن تنجو .

(٧٩) رأى عمرو بن الأحوص يزيد بن المنذر ، وهما من بنى نهشل ، يداعب امرأته ، فطلّقها عمرو ، ولم يتنكّر ليزيد ، وكان يزيد يستحى منه مدّة ، ثم إنهما خرجا فى غَزَاة ، فاعْتَوَر قوم عَمرًا فطعنوه ، وأخذوا فرسه ، فحمل عليهم يزيد واستنقذه ، وردّ عليه فرسه ، فلما ركب ونجا ، قال يزيد : هذه بتلك فهل جزيتك ؟

(٨٠) جديس : حىّ كانت منازله فى اليمامة - طسم : قبيلة من عاد - استجاشه : طلب منه جيشًا .

(٨١) جوّ : اسم اليمامة ، وفى بلاد العرب أجوية كثيرة ، كلّ جوّ منها يعرف بما نسب إليه - الأطم : حصن مبنىّ بالحجارة .

أُقْسِمُ بـالله لقـد دَبَّ الشَّجَـر   أو حِمْيَـرٌ قـد أخَـذَتْ شيئًـا يُجَـرْ

فكذّبها قومها ، فقالت : والله لقد أرى رجلاً ينهَسُ كتفا أو يَخْصِفُ نَعْلًا (٨٢) ، فما تأهّبوا حتى صَبَّحهم الجيش ؛ وقال الأعشى يقصّ ذلك :

مـا نظـرتْ ذاتُ أشْفـارٍ كَنظْـرتهـا   حَقًّا كما صَدَقَ الذئبىُّ إذْ سَجَعـا (٨٣)

إذْ قَلَّبَـتْ مُقْلَـةً لَيْسَـتْ بمُقْـرِفَـةٍ   إنْسانَ عَيْنٍ ومَأْقًا لـم يكـنْ قَمِعـا (٨٤)

فنظَـرت نَظْـرَةً ليسـتْ بكـاذبـةٍ   ورفَـع الآلُ رأسَ الكَلْب فـارْتفعـا (٨٥)

قـالـتْ أرى رجـلاً فـى كَفِّـه كَتِـفٌ   أو يَخْصِـف النعْـلَ لهَفْـى أيَّـةً صنعـا

فكـذّبـوهـا بمـا قـالـتْ فَصبَّحهـم   ذو آل حسان يـزجـىُ الموتَ والشـرعـا

فـاستنـزلـوا أهـلَ جَوٍّ مـن مساكِنِهم   وهـدَّموا شـاخـصَ البُنْيـان فـاتَّضعـا

وقال لها حسان : ما كانَ طعامُك ؟ فقالت : درمكة فى كلّ يوم بمخّ عَنُوق (٨٦) ، وقال : فيم كنت تَكْتحلين ؟ قالت : بغَبوق من صَبِرٍ وصَبُوحٍ من إثْمد (٨٧) ، وشقّ عينها ، فرأى عروقا سودًا من الإثمد ، وهى أوّل مَن اكتحل بالإثمد من العرب ، وقصة الحمام مشهورة ، وهى القائلة :

ليـتَ الحمـامَ ليـه ، إلـى حَمـامتيـه   ونصفُـه قـديـه ، ثُـمَّ الحمـامُ مـايـه

---

(٨٢) ينهس اللحم : يأخذه بمقدّم أسنانه وينتفه للأكل – يخصف : يخرّز .

(٨٣) الأشفار : منابت الأهداب من الجفون – الذئبيّ : نسبة إلى بنى الذئب وهم بطن من الأزد ، منهم سطح الكاهن .

(٨٤) مقلة : عينٌ – مُقْرِفة : مُعْدية – المأق : طرف العين مما يلى الأنف ، وهو مجرى الدمع – قمِع : وارم محمرّ .

(٨٥) الآل : السراب .

(٨٦) الدّرْمك : الدقيق الأبيض – العنوق : جمع العناق وهى الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام حَوْل .

(٨٧) الغبوق : شراب العشىّ – الصبوح : شراب الصباح – الصبر : عصارة شجر مرّ – الإثمد : ضرب من الكحل .

وقال النابغة :

واحكمْ كحكْمِ فتاة الحيِّ إذْ نَظَرَتْ ... إلى حمام سِراعٍ واردِ الثَّمَدِ[88]
يَحُفُّه جانِبَا نِيقٍ وتُتْبِعه ... مثلُ الزجاجةِ لم تكحلْ من الرمَد
قالتْ ألاليْتَما هذا الحمام لنا ... إلى حَمامتنا أو نصْفه فَقَد
فحسبوه فألفوه كما حسِبت ... تِسْعًا وتسعين لم يَنْقُصْ ولم يَزِدِ
فَأكْمَلَتْ مائةً فيها حَمامتُها ... وأَسْرَعَتْ حسبةً في ذلك العدد

٢ - أَبْصر مِنَ الْوَطْوَاطِ : وهو الخفاش ، ويروى : أبصر ليلاً ، وأبصر بالليل .

٣ - أبصر من بازٍ[89] .

٤ - أبصر من حَيَّةٍ .

٥ - أبصر من عُقَابِ مَلاع : ويروى : من عقابِ ملاعٍ بالاضافة ، وملاع كقَطامِ : الصحراء ، وعقابُها أَبْصَر من عقاب الجبل ؛ قال امرؤ القيس :

كُنْ دِثارًا حَلَّقَتْ بَلبُونِهِ ... عُقَابُ مَلاعٍ لاعُقَابُ القَوَاعِلِ[90]

هى رءوس الجبال ، وقيل : ملاع صفة لها من الملع وهو السرعة ، وليس بوجه فى البيت لقوله « لاعقاب القواعل » ، ويجوز أن تكون غير منصرفة ، وعلى هذا ينوّن فى البيت ، لأن غير المنصرف سائغ صرفه فى الشعر ، ولا يستحسن إيثار منع الصرف مع القبض على سلامة الجزء مع الصرف ههنا . وبَصَرُ العقاب أنها تعرف من سُكَاك[91] الجوّ أنثى الأرانب من ذكرها فتخطفها لأن الذكر يتلوى على عنقها فيقتلها. ومدح أعرابيّ رجلاً فقال : هو أصحّ بصرًا من العُقاب ، وأيقظ عينًا من الغراب ، وأصدق حسًّا من الأعراب .

---

(٨٨) الثمد : الماء القليل الذى ليس له مدد - النيق : الطويل من الجبال .
(٨٩) الباز : جنس من الصقور الصغيرة .
(٩٠) دثار : اسم راعى امرىء القيس - القواعل : الجبال القصار الصغار .
(٩١) السُّكاك : الهواء بين السماء والأرض .

٦ - أبصر من غرَابٍ : يغمض إحدى عينيه اجتزاء بالواحدة ، والعرب تدعوه لذلك أعور أو على طريق القلب ، كأن حِدّة بصره تناهتْ حتى انتقلت إلى العكس . قال ابن ميَّادة :

أَلاَ طَرَقَتْنَا أُمُّ أوسٍ ودُونها ... حِراجٌ من الظَّلْماء يُعْشى غُرابها

فبتْنا كأنّا بيّتَتْنا لَطِيمةٌ ... من المِسْكِ أو دارِيّة وعِيابها (٩٢)

أى إذا عَشِى فيها الغراب فما الظنّ بغيره ، قال أبو الطَّمحان القينى :

إذا شاءَ راعيها اسْتَقى من وَقِيعة ... كعَيْن الغُراب صَفْوُها لم يُكدَّر (٩٣)

٧ - أبصر مِنْ فَرَسٍ : ويروى : من فرس فى ظلماء ليل وغلس ، ويروى : بَهْماءِ غلس ؛ تزعم الفرس أنه ليس فى الدواب أبصر من الفرس ، وأنه لو أجرى فى الضباب الكثيف ومدت فى طريقه شعرة لوقف عند انتهائه إليها .

٨ - أبصر مِنْ كَلْب : قال مُرّة بن مِحكان :

يا رَبّةَ البيتِ قُومى غيرَ صاغرةٍ ... ضُمِّى إليك رِحالَ القومِ والقُرُبا

فى ليلةٍ مِن جُمادى ذات أَنْدية ... لا يُبْصِر الكلبُ من طَخْيائها الطنبا (٩٤)

٩ - أبصر مِنْ نَسرٍ : ليس فى الطير أبصر منه ، تزعم الفرس أنه إذا حلّق أبصر الجِيفة من مسافة أربعمائة فَرْسَخ .

١٠ - أجْوَدُ مِنَ الجَوَادِ المُبِرِّ : يضرب للفرس السابق ، وأجود أى أبلغ جودة ، يقال : جاد الفرس يجود إذا صار جوادًا ، فهو بيِّن الجَودة والجُودة ، والمبرّ الغالب فى الجرى .

---

(٩٢) الحراج : جمع الحرَج وهو حِبالة الصائد - اللطيمة : وعاء المسك ، أو العير التى تحمله للتجارة - الدارىّ : العطّار ، نسبة إلى دارين بالبحرين ، فيها سوق كان يحمل إليها المسك من ناحية الهند - العياب : أوعية من خوص ونحوه .

(٩٣) الوقيعة من الأرض : التى لا تنشّف الماء لصلابتها .

(٩٤) القُرُب : جمع القراب ، وهو غمد السيف ونحوه - الطخياء : الليلة الشديدة الظلمة - الطنب : حبل يشدّ به الخباء ونحوه .

١١ - أجود مِنْ حَاتِم : كـان إذا قاتل غَلَـب ، وإذا غَنِم نَهَب ، وإذا سُئِـل وَهَب ، وإذا ضَرَب بالقِداح سَبَـق ، وإذا أَسَر أَطْلَق ، وإذا أَثْرى أَنْفَق ؛ وكان أَقْسَم بـالله لا يَقْتُل واحَدَ أُمِّه ، وهو القائل :

أمـــاويَّ إنـــى ربُّ واحـــدِ أُمِّـــه أَخَــذْتُ فــلا قَتْــلٌ عليــه ولا أَسْـــرُ

وخَرَج إلى أرض عَنْزَة ، فناداه أسير : يا أبا سَفَّانة ! أَكَلَنى الإسار والقمل ؛ فساوم به وخَلاّه وأقام فى قِدِّه حتـى أتى بفدائه ؛ وعن امرأته أنهـا قالت : أصابت الناس سَنَــةٌ أَكَلَت الخفّ والظِلف (٩٥) ، فَبيَنْا نحن ليلـةً بأَشَدّ الجوع أَخَذ هـو عَدِيًا وأنا سفّـانةُ نُعَلِّلهما (٩٦) إذا بامرأة تقول : يا أبا سّفانة ! أَتَيْتك من عند صِبيَة جِياع ، فذبح فَرَسه ثم قال : إن ذلك للؤم أنْ تَشْبعوا وأهل الصِّرْم (٩٧) جياع ، فقـام يأتى الصِّـرم بيتًا بيتًا ، فقـال : حى هلا النـار ، فلم يتركـوا من الفرس شيئًا وهو مُتَقَنِّع بكسائه ، وقد قعد حَجْرَةً (٩٨) ما ذاق شيئًا ، قال :

علـى حــالـةٍ لــو أنَّ فـى القــوْمِ حــاتمًـا علــى جُـوده مــا جادَ بــالمـاء حــاتـمُ

١٢ - أجود مِنْ كَعْبٍ : هو ابن مَامة الإيادى ، ومـامة اسم أُمِّه ، واسم أبيه عمرو ، وقيل : مامة اسم أبيه ، واسم جَدِّه عمرو ،خرج فى شهر ناجِر ،فضلَّ الركْب الطريق ، فتصافَنُوا الماء ، فانتهى القَعْـب إلى كعب (٩٩) ، ورأى رَجُـلا مـن النَّمِر بن قاسـط ينظر إليه ، فقال للسـاقى : اسْقِ أَخـاك النَّمرى ! وفعل اليوم الثـانى كذلك ، حتّـى وردوا الماء ، فقال له : رِدْ كَعْـبُ إِنكَ وَرَّاد ! فعجز عن الجواب ، وتركوه ففاظ(١٠٠) ، فقال أبوه يرثيه :

---

(٩٥) الإسار : القيد - القِدّ : السير الذى يُقدّ من الجلد ويؤسر به القتب - سَنَة : جدب وقحط - الخفّ والظلف يعنى الأنعام كلها ، والخفّ للبعير كالحافر للفرس ، والظلف المشقوق للبقرة والشاة ونحوهما .

(٩٦) نعلّلهما : نشغلهما ونلهّيهما .

(٩٧) الصرم : الأبيات المجتمعة المنقطعة عن الناس أو الفرقة القليلة .

(٩٨) حجرة : ناحية .

(٩٩) ناجر : كلّ شهر فى صميم الحرّ - تصافنوا الماء : تقاسموه بالحصص - القعب : قدح ضخم .

(١٠٠) فاظ : مات .

أَوْفـى على المـاء كَعْـبٌ ثـمَّ قيل لـه ... رِدْ كعـب إنـك وَرَّاد فمـا وَرَدا
مـا كـان مـن سُـوَقـةٍ أَسْقـى علـى ظمـأ ... خَمْـرًا بمـاءٍ إذا نـاجُـودُهـا بَـرَدا
مِـنِ ابـن مـامـةَ كعـبٍ ثـمَّ عَـيَّ بـه ... زَوُّ المنيَّـةِ إلاّحِـرّة وَقَـدى (١٠١)

وكان إذا جاوره أحد فمات وَدَاه (١٠٢) ، وإن هلك له مال أخْلف عليه ، وفعل ذلك بأبى دُؤاد حين جـاوره ، حتى صارت العـرب إذا حَمِدت جارًا أى مجيـرًا قالوا : كجـار أبى دؤاد ؛ وقال قيس بن زهير العَبَسى :

أُطَـوِّف مـا أُطَـوِّف ثـم آوى ... إلـى جـارٍ كجـارِ أبـى دُؤادِ

وقال جرير :

فمـا كَعْـبُ بـن مـامـةَ وابـنُ سُعْـدَى ... بـأَجْـوَدَ مِنْـك يـا عُمَـرُ الجَـوادا

١٣ - أجود مِنْ هَرِم : هو ابنُ سِنان بن أبى حارِثة المرِّىّ كان لا يُليق (١٠٣) شيئًا من ماله لفرْط جُوده ، فحرقه قومُه باللّوم وَهَمُّوا بالأخْذ على يديْه خوفًا عليه من الفقر ، فقال : ما ظننتُ أنّى أَعيش إلى زمـان أُلام فيه علـى الجـود ، فـركِب ناقـة لـه تسمى الجهـول ، وأخذ فـى الفَيْفاء (١٠٤) أنَفًا وحَمِيَّة فلم يعايـن هو ولا ناقته بعد فسُمِّى ضالة غَطَفـان ، وفيه يقول زُهيَر بن أبى سُلْمى المزنى :

إن الـرَّزِيَّـة لا رزِيَّـةَ مِثْلُهـا ... مـا تَبْتَغـى غَطَفـانُ يَـوْمَ أَضَلَّـتِ
إنَّ الـركـابَ لتبتغـى ذا مِـرَّة ... بَجنُـوبِ نَخْـلٍ إذا الشُّهُـوُر أُحِلَّـتِ (١٠٥)
يَنْعَيْـن خَيْـرَ النـاس عنـد شـديـدةٍ ... عَظُمَـتْ مُصِيبتُـه هنـاك وجَلَّـتِ

---

(١٠١) الناجود : إناء يجعل فيه الشراب - زوّ المنيّة أى قدرها - الحِرّة : حرارة الجوف من العطش ، وفي المثل : " حِرّة تحت قِرّة " أى عطش فى اليوم البارد - وَقَدى أى تتوقّد - عَيّ به أى عَيِت به الأحداث إلا أن تقتله عطشًا .

(١٠٢) وداه : بمعنى أعطى وليّه .

(١٠٣) لايليق أى لا يمسك ، ويقال فلان لايُليق كفُّه درهما أى لا يستقرّ بها .

(١٠٤) الفيفاء : الصحراء الواسعة المستوية .

(١٠٥) الرزيّة : المصيبة - الركاب : الإبل - ذا مِرّة : ذا عقل ورأى مُبْرم - نخل : موضع بعينه - جنوبها : نواحيها إذا الشهور أحِلّت أى إذا دخلت الأشهر التى يحلّ الغزو فيها .

رُوى عنه أنه آلى على نفسه ألاّ يُسَلِّم عليه زهير إلاّ أعطاه غُرَّة عبدًا أو وليدة، فكان زهير إذا أتى ناديًا فيهم هَرِم قال : انْعِمُوا صباحًا غيرَ هَرِمٍ ، وخيرُكم استثنيت ، قال زهير :

إنّ البخيلَ مَلُومٌ حيث كان ولٰكنَّ الجوادَ عَلَى عِلاَّته هَرِمُ (١٠٦)

* * *

(١٠٦) على علاّته : على ما ينوبه من عوز وقلّة ذات يد .

ابن أبى الخصال الغافقى

(٤٦٥ - ٥٤٠ هـ / ١٠٧٣ - ١١٤٦م)

أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلصة ، ولد فى قرية فَرْغليط فى جهة شَقُورة التابعة لكورة جيان غربّى مَرْسية ، وانتقل إلى قُرْطُبة فتلقى العلم بها على شيوخها المبرزين من أمثال أبى الحسين بن سراج وأبى محمد بن عتاب وغيرهما ، وقرأ الحديث بمدينة المرية على أبى على الصدفى ، وكان مما قرأه صحيحا مسلم والبخارى وجامع الترمذى ومصنف أبى داوود ، وتبحّر فى الآداب واللغات .

اتصل بمحمد بن الحاج والى قرطبة ، وبابنه أبى يحيى ، وتولى لهما الكتابة والوزارة ، وانتقل مع ابن الحاج إلى فارس حينما ولاّه عليه سلطان المرابطين على بن يوسف ابن تاشفين ، ثم إلى بلنسبة عند ولاية ابن الحاج عليها سنة ٥٠٢ ، ثم إلى سرقسطة ، فلما استشهد محمد بن الحاج وابنه أبو يحيى سنة ٥٠٩ وهما يدافعان عن سرقسطة ملك أرغون ألفنش (ألفونسو الأول الملقب بالمحارب) انصرف عن الحياة السياسية ، واعتزل المناصب مدّة ، إلى أن استدعاه على بن يوسف إلى حاضرته مراكش ، لكى يلى ديوان رسائله ، ولكنه وقع بعد ذلك فى محنة السلطان حينما كتب عن على بن يوسف رسالة فى توبيخ جند المرابطين الذين نكلوا عن العدو فى بلنسية وحلت بهم الهزيمة ، فقد أغلظ ابن أبى الخصال لأولئك الجند ، ووصمهم بكل نقيصة ، مما هاج غضب على بن يوسف ، فأعفاه من الخدمة ، على أنه عاد إليها بعد ذلك فى عهد تاشفين بن على بن يوسف ابن تاشفين منذ ولايته العهد سنة٥٣٣ ، وحينما اضطربت أحوال الأندلس فى آخر عصر المرابطين واندلعت الفتنة ، كان يقيم فى قرطبة ، وفى سنة ٥٣٩ نشبت الحرب بين ابن حمدين الثائر فى قرطبة وابن غانية قائد المرابطين ؛ وحدث أن كان خارجا من داره فلقيته طائفة من جند المرابطين فقتلوه على باب الدار .

وكان كاتبا وشاعرا ، ذكر بعض من ترجموا له أن نظمه الرائق وترسّله الفائق يقع فى خمس مجلدات ، وأن ترسّله كان يدور بأيدى أدباء الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ، ونصبوه إماما يقتفونه .

ومن مؤلفاتـه كتاب " سراج الأدب " ، وكتاب " ظل الغمامة وطـوق الحمامة " ، وهو عن مناقـب صحابة رسول الله عليـه الصلاة والسلام ، وله قصيـدة طويلة فى نسـب الرسول ، سماها " معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب " .

وقد وصف بأنـه " كان مفخرة وقته وجمال جماعته ، حسن العشـرة ، واسع المبرّة ، من أهل الخصـال الباهرة والأذهـان الثاقبة ، فصيـح اللسان ، حسـن البيان ، حلو الكـلام ، أحد رجال الكمال " .

* * *

رسالة ابن أبي الحضال عن علي بن يوسف إلى جند المرابطين ببلنسية يؤنبهم على تواكلهم وتخازلهم حتى حاقت بهم الهزيمة :

" من أمير المسلمين وناصر الدين " .

أما بعد ،

يا فِرْق خَبُثَت سرائرُها ، وانتكثتْ مَرائرها (١) ، وطائفة انتفخ سِحْرها ، وغاضَ على حين مرّة بحرها ، فقد آن للنَّعم أنْ تُفارقكم ، وللأقدام أن تَطَأَ مفارِقكم ، حين ركبتموها جَلْواءَ عارية ، وأصبحتم في ادِّراع عارها أَمْثالاً سَواسية ، واختلط المرْعِيُّ عِندِكم بالَهمَل (٢) ، فما يُتَبيَّن الأَنْقصُ من الأكمل ، فَطَأْطأتم لها رؤوسَ عشائركم ، وقَضَيْتم بالفُسُوله (٣) على سائركم لاَجَرم أن قد صرتُم سَمَرَ النديّ ، والأحاديث الملعنة (٤) بالغداة والعَشِيّ ، بما ضامركم من الجُبن والخَوَر ، واستهواكم من لقاء العدوّ بالجانب الأَزْور (٥) ، لا تواجهونهم طَرْفة عين ، ولا تعاطونهم حمة حين ، بل تعطونهم الظهر هَنِيًا مِرَيًا ، وتتّخذونهم وراءكم ظِهْرِيا (٦) ، والرماح نحوكم لم تُشْرع ، والخَيْلُ لم تُسرع ، والنفوس في حِياض المنيّة لم تكرع ، فإنكم ثِلّة ذُبابهم (٧) ، وفريسة أنيابهم ، قد نعموا في بُوسكم ، وناهضوكم بلبوسكم ، وحاربوكم عامًا على أثر عام حتى ألزقوكم ، وتركوكم أَسْلح من حُبارى (٨) ، وأشْرد من نعام .

فالآن حين ملأتم أيديهم متاعا ، وواديهم سلاحًا وكُراعًا ، قد غَزوكم في عُقْركم (٩) ، وأذاقوكم وَبال أمركم ، فلذتم بالجدران ، وبُؤْتم بالندامة والخسران . يا بغايا بني الأصفر ،

---

(١) انتكثت مرائرها بمعنى ضعفت ، والمرائر هي الحبال المفتولة ، وانتكثت أي انتقضت .

(٢) في المثل : " اختلط المرعيُّ بالهمل " ، المرعيّ : ماله راع ، والهمل : الضوال المسيّبة التي لا راعي لها من النَّعَم .

(٣) الفُسُولة : ضعف الرأي وقلة المرؤة .

(٤) النديّ : مجلس القوم ومجتمعهم - الملعّنة : التي كثر لعنها .

(٥) الأزور : المعوجّ .

(٦) جعله ظِهريًّا أي نَسْيًا منسيًا .

(٧) ثِلّة : هَلَكَة - الذباب : حدّ السيف .

(٨) الحبارى : طائر طويل العنق ، وفي المثل : " أسلح من حبارى " لأنها ترمى الصقر بسلحها إذا أراد صيدها ، فتلوّث ريشه لتمنعه من الطيران .

(٩) الكراع : الخيل والسلاح - العُقر : محلّة القوم ، وعقر الدار : وسطها .

وسجايا ذوات الدَّل والخَفَر. أكرهتم زِحافَهم (١٠)، وكنتم - عَلِمَ اللهُ - أضعافَهم ؟ أنَّى لكم بالمعذرة وأيـن ؟ وقد فرض اللهُ الواحـد منكم بالاثنين ؟ فقـال : ﴿إن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ (١١) . هذا وكلمتُكـم العليا ، وحَلُوبتكـم الحياة الدنيـا ، ما شئتم مـن صارم وطِرْف وركائب وسوام ، ونضائد وخيام (١٢) .

فيا أسفًا للحـقِّ يدمغُـه الباطـل ، والحالـي ينهـرُه العاطـل (١٣) ! لا بالحنيفيّة تحـرّزتم ، ولا إلى الحفيظـة والإنابة تحيّـزتم (١٤) ، ليت شعـرى بماذا تقلّدتموهـا هِنْدية ، واعتقلتمـوها سَمْهَرية خطيّة ، وركبتموها جُرْدًا سـوابق ، وملكتموها مغارب ومشارق ؟ (١٥) ثاوين في غير عدادكم ، منتزيـن على أضدادكم (١٦) ، يؤدون الإتاوة إليكم حيـن أشرقتموهم (١٧) بالهوان ، وأنتم فيهـا غُرباء الـوجه واليد واللسـان ، وصيّروكـم عبيدَ العصا ، ولستـم بالأكثريـن منهم حَصى ، بل شِرْذِمة قليـلٌ نفعهَا ، كثيرٌ نَجْعها (١٨)، فيا عجباً لذهولكـم ، شبانكم ولهولكم ، تأكلون تَمْرها ، ولا تَصْلَوْن جَمْرها ، وتذهبون بحلوائها ، ولا تصبرون على لأْوائها (١٩) ! .

إلام يـــزيفكـــمُ النـــاقـــدُ ... ويـــرديكـــم الفـــارس الـــواحـــد (٢٠)
ألاهـــل أتـــاهـــا علـــى نـــأيهـــا ... بمـــا فضحـــت قـــومهـــا غـــامـــد
تمنيتـــم مـــائتـــى فـــارس ... فـــردكـــم فـــارس واحـــد
فليـــت لكـــم بـــارتبـــاط الخيـــول ... ضـــأنـــا لهـــا حـــالـــب قـــاعـــد

---

(١٠) الزِّحاف : المداناة والقرب .
(١١) سورة الأنفال (٦٦) .
(١٢) صارم : سيف - طِرْف : خيل كريم - ركائب : دواب مخصصة للركوب - السوام : المال الراعى - نضائد : وسائد وماحُشِى من المتاع .
(١٣) الحالى : من يلبس الحَلْى ، والعطِل مَن خلا منه .
(١٤) الحنيفيّة : مِلّة الإسلام - تحرّز: توقّى - الحفيظة : الحميّة والغضب .
(١٥) الهندية : السيوف المطبوعة من حديد الهند - السمهريّة : الرماح الصلبة العود - الخطيّة : الرماح المنسوبة إلى الخطّ وهو موضع بالبحرين - الجرْد : الخيول .
(١٦) المنتزى : الواثب .
(١٧) أشرقتموهم : أصبتموهم بالغُصَّة .
(١٨) نجعها : نفعها وظهور أثرها .
(١٩) اللأواء : ضيق المعيشة .
(٢٠) الناقد : الصيرفىّ الذى يميّز النقد الحقّ من الزائف .

ومـن لرعـاة الإبل بالجـد المقبل ؟ لقدمًـا ما أذهبتم التـالد والطـارف ، وعجـبًا عجيبًا من جذابى المطارف ! وأنتم قد قَدَحْتُم (٢١) فى ملكنا ، وأذِنْتُم بانتثار سِلْكنـا ، فلولا من لدينا من ذَويكـم ، وضَراعتهـم إلينا فيكـم ، لألحقناكـم عجلاً بصـرائكم ، وطَهَّـرنا الجـزيرة مـن رحضائكم (٢٢)، بعـد أن توسعكـم عقابـا ، وأن لا تلوثـوا (٣) على وجـه نقابـا . فاللـؤم تحت عمائكم ، والوهـن والفشل طى عزائمكم ، لكن مـا جُبلنا عليه من الأناة ، وتَوَخَّينـاه قِدْمًا من إيقاظ ذوى الملكات يلَفُّنا عن استِئصالكم ، ويَحْملنا على شَحْذ يضالكم .

فاستنسروا يـا بغاثَ الهيجاء (٢٤) ، واستيئسوا بعـد الرجـاء ، واحذروا حلمًـا أغضبتموه ، وواديًا من الصبر أنْضَبْتموه . وتوقوا صدرًا أحرجتموه ، وليثًامن أجمته(٢٥) أخرجتموه . وأيْم الله نُقْسِم إنذارًا بكم ، وإعذارًا لكم ، لنوردن الفارَّ منكم مـن الزحف ، ما عافه من موارد الحتف ، ولنتجـاوزن السوط إلـى السيف ، ولنبـدلن المعَـدِلة فيكـم بالحيـف(٢٦) ، فليعلـم المقـدم المحجـم منكم عـن الإقـدام ، أن سَلِـم من الحِمـام إلـى الحِمَام ، وتخطـىَّ مصرع الأسـد الباسـل ، إلى جذع مـائل ، وشهادة الأبـرار ، إلى مشهد الـذل والصَّغار ، كما أن مـن أصيب منكم فى حرب ، أو أبلى بطعن أو ضرب ، خلفناه فى الأهل والولد ، وبعناه الأثر ةوالكرامة يدًا بيد . فاختاروا لأنفسكم وأعقابكم ، وانضوا (٢٧) ثوبَ الخِزى عن رقابكـم . والسلامَ على من حَمى الإسلام .

* * *

(٢١) قدح فيه : عاب وأثر .

(٢٢) رحضاء : عرق الحمى ، والكناية واضحة .

(٢٣) تلوثوا : تضعوا اللثام ، شعار المرابطين على وجوهكم .

(٢٤) أى صيروا كـالنَّسر قوة ، ويقـال فى المثل " استنسر البغـاث " إذا زعم الضعيف أنـه صار قويّـا ، والبغاث : طائر صغير بطىء الطيران .

(٢٥) الأجمة : الشجر الكثير الملتف .

(٢٦) الحتف : الهلاك - المعِدلة : العدل - الحيف : الجور والظلم .

(٢٧) انضوا : انزعوا .

ابن الصيرفى

(٤٦٣ - ٥٤٢ هـ / ١٠٧١ - ١١٤٧م)

هو علي بن منجب بن سليمان ، المعروف بابن الصيرفى ، والملقب بتاج الرئاسة أمين الدين . ولد بالقاهرة فى عصر المستنصر بالله الفاطمى ، وكان أبوه صيرفيا ، أما جدّه فكان كاتبا .

التحق فى بدايات أعماله بديوان الجيش ثم ديوان الخراج ، ولما ظهر تفوقه وإتقانه نقله الوزير الأفضل بن بدر الجمالى إلى ديوان الإنشاء ، كما أسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، وظل يعمل فى هذا الديوان فى عهدى الآمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) والحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) .

ومن رسائله التى احتفظت بها بعض المصادر رسالة كتبها حين تولى الآمر - وهو فى الخامسة عشرة من عمره - الخلافة ، وتهنئة بهذه الولاية ، وتفويض إلى الوزير الأفضل من الخليفة الآمر ، ليقوم بما تحتاجه الرعية والدولة من السياسة والتدبير ، وفى الجزء الثامن من كتاب " صبح الأعشى " نماذج أخرى من رسائله فى البشارات بسلامة الخليفة وغيرها .

ومن مؤلفاته المطبوعة " قانون ديوان الرسائل " تحدث فيه عن نظام هذا الديوان ، والصفات التى ينبغى أن تتوافر فى القائمين عليه كما أثبت فيه بعض رسائله ، وعن ذلك يقول : " وبيّنت الأمر فيه على ما يقتضيه حكم البلاد المصريّة المتعارف فيها الآن دون غيره من الأوقات " .

ومنها : " الإشارة إلى من نال الوزارة " ، ويعدّ أول كتاب أُلّف عن الوزراء المصريين .

ومنها : " الأفضليات " ويشتمل على سبع رسائل ، فيها اعتذارات إلى الوزير الأفضل ، مما يرجح أن ثمة ما عكّر صفو المودّة بينهما ، وفيها أيضا بعض الأخبار عن المجالس الأدبيّة

التى كانت تعقد فى قصر الوزير ويحضرها أعلام مثل ظافر الحداد وأمية بن أبى الصلت وابن مكنسة .

وقد طبع لـه أيضا كتاب " المختار من شعـر شعراء الأندلس " ، وذكـرت المصادر التى ترجمـت له أن " له تصانيـف مشهورة صغار ظـراف " واختيارات كثيرة من دواويـن الشعراء المشهورين ، وقـد وصفه الحموى بأنه " أحد فضـلاء المصريين وبلغائهم ، مسلّـمٌ ذلك له غير منازع فيه ، وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات " ، ومما يدل على تأثيره الكبير فيمن تـلاه من الكُتّاب ما لحظه ابن سعيد المغربى ، قـال : " وقعتُ على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت القاضى الفاضل البيسانى ينسج على منواله وينزع منزعه " .

* * *

مما جاء فى العفو :

قال الله عَزَّ من قائل : ﴿ فاعفُ عنهم واصفحْ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المحسنينَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَلْيَعْفُوا وليَصْفحُوا ألا تُحبونَ أنْ يغفرَ اللهُ لكمْ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فَمَنْ عفا وأصلحَ فأجْرُهُ على اللهِ ﴾ (٣) .

وجاء فى الحديثِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كان يومُ القيامة يُنَادى مُنادٍ ألا فليقُمْ مَنْ كان أجرُه على الله ، فلا يقومُ إلا منْ عفا » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو لم تُذْنِبُوا لجاء اللهُ بقوم يُذْنِبُون ثم يستغفرونَ فيغفر لهم وما أحسنَ قولَ بعض الزهَّاد : إن الله - عزَّ وجلَّ - أمر بالعفو ، وهو لا يكون عن البرىء ، وإنما يكون عن المذنب المُسىء . ألم تسمعْ إلى قول الله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ (٤) ، فواللهِ ما قال : على إحسانهم ، ولا على عدلهم .

الحسن بن هانىءٍ وهو آخر شعر قاله :

يــارَبِّ إنْ عَظُمَــتْ ذنــوبــى كثــرةً

فَلَقَــدْ علمــتُ بــأنَّ عفــوَكَ أعْظَــمُ

إنْ كـــانَ لا يـــرجـــوكَ إلا مُحْسِـــنٌ

فمــنِ الــذى يــرجُــو ويــدعُــو المجــرمُ ؟

أدعــوكَ ربِّ كمــا أمــرتَ تَضَــرُّعَــا

فــإذا رددْتَ يــدى فَمَــنْ ذا يَــرْحَــمُ ؟

مــالــى إليــكَ وسيلــةٌ إلا الــرَّجــا

وعظيــمُ عفــوِكَ ثــم إنِّــى مُسْلِــمُ

(١) سورة المائدة : ١٣
(٢) سورة النور : ٢٢
(٣) سورة الشورى : ٤٠
(٤) سورة الرعد : ٦

حُكيَ عن بعض ملوك العجم أنه أُتِيَ بأسير عظيم الجُرم ، فقال له : " لو كان هواى فى العفو عنك لخالفتُه إلى قتلك ولكن لما كان هواى فى قتلك خالفته إلى العفو عنك " ، وعفا عنه ، فمن بركة العفو أنه صرف هذا الملكَ عن موافقة هواه ، وعَدَلَ به إلى متابعة هداه وتقواه .

ذُكر أن أحد خدم الملوك قال له يومًا : " إنى لأتعهَّدُ الخطأ فى خدمتك ، وليس ذاك جهلاً بشرف طاعتك " ، فقال : " وما يَحْمَلُك على ذاك ؟ " فقال : " رأيتُك شديدَ السرور إذا عفوتَ ، فقصدتْ ما يؤدى إلى مسرتك " . ومن ها هنا أخذ ابنُ القُمى قوله :

وعبدُك إنْ يأتِ الذنوبَ فإنما
تَعَمَّدَ أنْ يهفُو لأنْ تَتَغَمَّدَا

وكان أبو محمدٍ الخازن قد بَعُدَ عنِ الصاحب وفارق خدمته ، ثم عاد إليه ، فتلقَّاه بالترحيب ، وجعل إقالته العشرة سالمة من اللوم والتثريب ، فكتب إلى أبى بكرِ الخَوَارِزْمِيّ كتابًا منه : " ولقد كنتُ أحسب العفو عنى حُلْمًا ولا أُقَدِّر ما جنيتُ يُعقِبُ حِلْمًا ، فكأنى ما خطوت إلا فى التماس قُرْبَة ، ولا أخطأتُ إلا لتأثيل إيثارٍ ومحبَّة " .

ولما وصل الفتكينَ الشرابيَّ غلامُ مُعِزِّ الدولة أبى الحسينِ أحمدَ بنِ بويه إلى الشام فى خلافة العزيزِ بالله ، وسُيِّرَتْ العساكرُ إليه تقرَّر الصلحُ بينه وبين القائد جوهرٍ على أن ينادىَ بشعار الدولة ثم نقض ذلك ، ولم يزل يقرِّرُه ثم ينقضُه ، حتى خرج العزيزُ بالله إليه ، وتولى قتاله بنفسه بعد أن أبى ما أعطاه من الأمان ، وبذل له من الإحسان . فلما ظفر به ضرب له فازةً(٥) ، وأمر بأن تُحْمَلَ إليه أَنْفَسُ الفُرُشِ والآلات ، وردَّ إليه كلَّ ما عرفه من المنهوب له ، وكان جماعة قد أشاروا بأن يُشْهَرَ على الفيل ، وبأن يُجْعَلَ فى قفص ، فأبتْ خلائقُه إلا عفوًا ، ومواردُ كرمه إلا صفوًا . ويقال إنه أنفق فى توبته إلى أن حصل فى قبضته ألفىْ ألف دينارٍ .

وحكى بعض البغداديين قال : كنت ببغداد فى سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة حين ورد كتابُ أحد التجار بما فعله العزيز بالفتكين ، فوقعتْ ضجة ، واجتمع خَلْقٌ لا تُحصى ،

(٥) بناء على خرق تستعمله الجنود ، وهى كذلك مظلة تمدّ بعمود .

ورفعوا أصواتهم بالدعاء له ، وخرجوا إلى مسجد بَرَاثا (٦) يدعون ، وأظهر الشيعةُ ما في نفوسهم من الولاء ، فما أمكن الملكُ فَنَّاخُسْرو (٧) إنكارَ ذلك لكثرة الناس . قال أبو الفتح ابنُ المقدِّرِ المتكلم : استدعى الصاحبُ أبو القاسم في بعض الأيام شرابَ السُّكَّرِ، فأُحْضِرَ قدحٌ منه ، فلما أراد أن يشربه قال له أحد خواصِّه : لاتشربْه ، فإنه مسموم . وكان الغلام الذى ناوله إياه واقفًا ، فقال للرجل المحذِّرِ له منه ، وما الشاهدُ على صحة قولك ؟ قال : أن تجرِّبَه على منْ أعطاكه ، فقال : لاأستحسن ذاك ولاأسْتَحِلُّه . قال : فعلى دجاجة . قال : إن التمثيل بالحيوان لايجوز . وردَّ القدحَ ، وأمر بأن يُقْلَبَ ما فيه ، وقال للغلام : انصرف عنى ، ولاتدخلْ دارى . وأمر بإقرار جارِيْة وجِرَايتِه عليه ، وقال : لايُدفعُ اليقين بالشك . ولاتَحْسُنُ العقوبةُ بقطع الرزق .

ابن حَيُّوس :

لعمرىْ لقد بذَّ الملوكَ جميعَهُمْ
بأربعةٍ في غيرِهِ لن تَأَلَّفَا

بأمنٍ لمنْ يخشى ، وقهرٍ لمنْ طغَى
وسبقٍ لمنْ جارَى ، وعفوٍ لمنْ هفا

مَلِيٌّ بأن يأتى الجميلَ خليقَةً
إذا ما أَتَاهُ المحسنون تكَلُّفَاً

* * *

(٦) محلة كانت فى طرف بغداد فى قبلة الكرخ ، وكان لها جامع مفرد تصلى فيه الشيعة .

(٧) هو عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة ، تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، وكان عالمًا بالعربية وينظم الشعر.

من " المحاسن العصرية فى المملكة المصرية " :

قد خُدِم مجلسُ مولانا الملك بغرائبَ من المدح كان البيان بها ضنينًا[٨] ، وأَنْتَجَ الدهر له من بدائع القول ما لم يزل فى حشاه جنبنا ، مما استقرَّت الخِدَم به عند حَفَظَتِها ، وحصلت مَصُونَة تحت أيدى خَزَنَتِها ، من منثور يُتَنَاقَلُ فى الآفاق ويُتَهَادَى ، ويُحْدِثِ لسامعه طربًا لم يكن لمثله مُعْتَادًا :

وقَـــوَافٍ لَيْسَـــتْ تُفَـــارِقُ مَغْنَـــا
علـــى أنَّهـــا تَجُـــوبُ البِـــلادَا

ولولا ذلك لقَصَر المملوكُ هذا الفصل منها على الجوهر الشفاف ، وأورد من الصفات الشريفة ما يُنْسَبُ المُفْرِقُ فيه إلى التقصير إذا نُسِبَ غيرُه إلى الإسراف ، فهو يذكر غُررًا لا يتحيَّزُ إلى فن مُفْرد ، ويُوردُ مُتَخَيَّرًا يُعْرِب عن حسن المطلب وجودة المقصد ، ويفتتح ذلك بأحقّ الأشياء بالتقديم ، وأولاها بالتشريف والتعظيم .

قال محمودُ بنُ القاضى الموفَّق فى مولانا الملك ثَبَّتَ اللهُ دولته :

مَلِيـــكٌ تَـــذِلُّ الحـــادِثَـــاتُ لِعِـــزِّهِ
يُعِيـــدُ ويُبْـــدِى والليـــالـــى رواغِـــمُ[٩]

فكَـــمْ كُـــرْبَـــةٍ يـــومَ النِّـــزالِ تكشَّفَـــتْ
بَحَمْـلاتِـه وهْـىَ الغَـواشِـى الغَـوَاشِـمُ[١٠]

تَـــدَارَكَنَـــا والمَكْـــرُمَـــاتُ دَوَاثِـــرٌ[١١]
يصـــمُّ صَـــدَاهـــا والمَعَـــالـــى مَعَـــالِـــمُ

(٨) ضنين : شديد البخل .
(٩) رواغم بمعنى مقهورة مُكرهَة .
(١٠) كربة : حزن وغمّ - النزال : المقابلة وجها لوجه للقتال - الغواشى : النوازل - الغواشم بمعنى الشديدة ، ويقال للحرب غشوم لأنها تنال غير الجانى .
(١١) دوائر : دارسة قد ذهب أثرها .

تَشِيدُ بناءَ الحَمْدِ والمجدِ بِيضُه

وهُنَّ لأُسَّاس الهوادِى هَوادِمُ (١٢)

إذا صَدَرَتْ عَنْ مَوْرِدِ الموتِ خِلْتَها

بأغمادِها وَهْىَ العَوَارِى العَوارِمُ (١٣)

رِقَاقُ الظُّبَى تَجْرِى بأرزاقِ ذَا الوَرَى

وآجَالِهِمْ فَهْىَ القَوَاسِى القَوَاسِمُ (١٤)

وكان أبو طاهرٍ الأطفيجيُّ العابد اقترح عليه أن يَقِفَه على شىء من منظومه ، فعمل هذه القصيدة فى مدح مولانا - خلَّد اللهُ ملكه - وقال فيها مخاطبًا للعابد :

صحائِفُ أعداها الشبابُ بِصِبْغِه

فهلْ أنتَ ماحٍ ما تَخُطُّ المَآثِمُ

إذَا قائمُ السيفِ انْثَنَى فى مُلِمَّةٍ

ولم يُغْنِ أَغْنَى وحْدَه وَهْوَ قائِمُ

ولا يعلم المملوكُ شابًا مدح شيخًا متعبِّدًا ، وحَدَثًا اجتدى (١٥) ناسكًا متزهِّدًا بأحسنَ من هذا . وإذا كان الناس قد أجْلبُوا يقولِ حبيبٍ :

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ

تَصُولُ بأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ (١٦)

---

(١٢) البيض : السيف - الهوادى : جمع الهادية وهى الأوائل المتقدمات من الخيل ومن كل شىء .

(١٣) العوارم بمعنى الشديدة .

(١٤) الظبا : جمع الظبة وهى حدّ السيف أو السنان أو غيرهما - الورى : الخلق - القواسى : الصلبة الشديدة - القواسم أى التى تقسم الأشياء وبحزنها .

(١٥) اجتدى : طلب العطاء .

(١٦) العواصى : جمع العاصية أى التى تضرب بالسيف ، أو التى لاتطيع أمر الملوك ولا الأعداء إذ ليس فوقها يد - العواصم : جمع عاصمة أى يعتصم من استجارها - القواضى التى تقضى على الأعداء بما تريد - القواضب : القاطعة .

وهو بيت واحد ؛ فما الظنَ بعِدَّةِ أبياتٍ سالمة من الضعف ، بريئةٍ من التَسَمُّجِ فى الوصف ؛ ألا إنَّ ذلك بسعادة من خُدِم بها مقامُه الأشرف ، و إقبال من اتسعت مناقبة فغدا الخاطر يجرى فى ذكرها ولا يتوقَّفُ . وهذا النوع يُسَمَّى : التجنيسَ المُرَكَّبَ ، وقَوْمٌ يُسَمُّونَه : الناقِصَ ؛ لأن الحروف الأصلية فى إحدى لفظتيْ التجنيس تَنْقُصُ عن الأخرى ، وقد أراد قوم جمعَ أقسامه فلم يُحيطوا علمًا بها ، وَوَدُّوا حَصْرَ أنواعِه لو أَمِنُوا مِنْ تَفَرُّعِها وتَشَعبُّها :

ولكنَّهــا صَــوْبُ العُقُــولِ إذا انجَلَــتْ

سَحَــائِبُ منهــا أَعْقَبَــتْ بِسَحَــائِبِ

لأن أدباء كل وقت يُحْدِثِون من ذلك ما يقترحون له ألقابًا ، وعلماءَ كل عصر يُوَلِّدون فيه ما يقصِدُون به تعاطِيًا و إغْرابا ، فَمِنْ مُسْتَحْسَنِ ما أَتَوْا به تجنيسُ التنوين ، كقوله :

أَنَــا الَّــذى لاذُو هَــوى ولاشَجٍــى ولاشَجِــنْ (١٧)

لاقَــى الَّــذى لاقَيْــتُ مِــنْ مِحَبَّتِــى فَتَــىً فَتَــنْ

وفى هذا مناسبةٌ لقولِ المِيكَالى :

لَيْــتَ أجْفَــانــى بــهِ سَعِــدَتْ

فَتَــرَى الطَــرْفَ الَّــذى فَتَــرَا (١٨)

وقول الصقلِّىَ :

نَهَــاكَ أَهْلُــك عنِّــى مِــنْ أجــلِ أَهْلِــكِ أَهْلِــكُ

وقول يحيى أحد شعراء المجلس العالى المالكى ثبت اللهُ سلطانه :

غــارُوا فَغَــارَلِحَيْنِــى فيهِــمُ قَمَــرٌ

هــويتُــهُ أَفَــلا أبْكِــىْ وقَــدْ أَفَــلا

(١٧) الشجى والشجن : كلاهما بمعنى الحزن والاهتياج للذكرى .
(١٨) الطرْف : العين - فتر : انكسر نظره .

والمتقدِّمون يُسَمُّونَ هـذا : تجنيسَ المماثلة ، وقومٌ يعبِّرون عنه بتجنيس اللفظ والخَطِّ ، ويجعلون قولَ أبى نُوَاسٍ فى آل الربيعِ من أحسنه وهو:

عَبَّــاسٌ عبــاسٌ إذا حَضَــرَ الــوَغَــى
والفَضْــل فَضْــلٌ والــرَّبيــعُ رَبيــعُ

ويروى : إذا احتَدم الوغَى ، أى اشتدَّ حرُّه .

والمملوك يقول : إن الأمدَحَ أن يكونَ إذا اشتد الوغى بَسَّـامًا لا عبَّاسًا ، فإن قصد بعبَّاسٍ رجلاً مشهورًا بالشجاعة فهو وجه جيد ، ويكون من باب قولِ الآخرِ :

حتى كأنَّك يا عليُّ عليُّ

ومن الشجعـان المشهورين : عبـاسُ بنُ مِرْدَاسٍ السُّلَمِـيُّ ، ورآه عَمْرو بنُ مَعْـدِى كَرِب فقال : أهـذا عبـاس بنُ مـرداس ؟ لقد كنا نُفَرِّقُ بـه صبيانَنا فى الجاهليـة . اللهم إلا أن يكون أبو نُواسٍ أراد ما جاء فـى الحديث من قوله عليه السلام : " القَـوْا الكُفَّارَ بوجوه مُكْفَهِرَّةٍ " أى غِلاظٍ ، فهو وجه ، فأما قولُ الأعشى :

إن تَسُـدِ الحُـوصَ فلـم تَعْـدُهُـمْ
وعــامــرٌ ســادَ بنــي عــامــرِ(١٩)

فمنْ علماء الشعـر من يجعلُه مُجَانَةً ؛ لأن أحدهـا رجلٌ واللآخر قبيلة ، ومنهـم من يقول بل معناهمـا واحد ؛ لأنه قال : بنى عـامرٍ ، فأضاف البنيـن إليه ، ولو قال : ساد عـامرًا ، يعنى القبيلة ؛ لكان تجانُساً غيرَ مَدْفُوعٍ . وقد سَلِمَ ابنُ سعيدٍ الحلبيُّ من هذا التأوّل فى قوله :

آلَ غَنِــيٍّ مَــا لِنَــادِيكُــمُ
قَــدْ فَقَــدَ الطــارِقَ والسَّــامِــرا(٢٠)
ومَــا لهــذا البيــت مــن عَــامِــرٍ
لــم يُبْــقِ بيتًــا للنَّــدى عــامِــرَا

---

(١٩) الحوص والأحاوص قومٌ من الأقوام ، ومنهم أولاد الأحوص بن جعفر - لم تَعْدُهم : لم تجاوزهم .
(٢٠) غنِيّ : حيّ من غطفان .

مقدمة " قانون ديوان الرسائل " :

أما بعد فإني وجدت الله سبحانه قد جعل الخليقة أطوارًا يفتقر بعضها إلى بعض ، ويكون تباين مراتبها ومنازلها سببًا لعمارة الأرض ، فجعل الأنبياء أعلى الآدميين محلًا وشأنا ، والأئمة من بعدهم أفخرهم رتبة وأرفعهم مكانًا ، والملوك الإسلاميين بعد ذلك أشرفهم منزلةً وأعلاهم سلطانًا ، ووزراءهم وكُتَّابهم الناهضين بأعبائهم والموازين لهم فى رخائهم وولائهم أسْمَحَهم ذكرًا وأرجحهم (ميزانًا ورتبَّهم بعد ذلك مراتب تتفاوت فيها أقدارُهم ، وتتباين منازلهم وأخطارُهم) ، إتقانًا للحكمة الإلهية وإظهارًا لها فى ترتيب هذه البَرِيَّة .

ولما رأيت أُولِي الفِطَر الصحيحة والعقول الرجيحة قد سبقوا إلى النَّظَر فى سائر العلوم ووضعوا فيها المُصنَّفات ، ونَظَموا ذكرها فى الكتب المؤلفات ، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فقرَّروا فى كل منها ما كان أصلاً يُعْتَمَد عليه ، ونَهَوا عما كان فسادًا لنظامها أو أدَّى إليه ، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات ، فوجدتهم قد صنَّفوا فى كتابه الخَرَاج كتبًا كثيرة ، وعنوا بكتابة الجيش عنية كبيرة فألَّف كل من العراقيين والمصريين فى ذلك ما وَصعلَت إليه طاقته ، واقتضاه ما أوجبه وقته والبلدُ الذى يحتلّه .

فأما صِناعة الشعر وذكر بَدِيعه وسائر أنواعه وتقاسيمه فقد أكثر كل منهم فيه المقال ، وتوسَّع فى تَصنيفه وأطال ، ورأيتهم أهملوا الكلام فى الكتابة الجليلة قدرًا ، النبيهة ذكرًا ، الرفيعة شأنًا ، العَلِيَّة مكانًا ، التى هى كتابة حضرة المَلِك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدُّوَل والمكاتبة عنه إلى من قَلَّ من الأمم وجَلّ ، وكيف يجب أن يكون متولّيها وما يخصه من الأخلاق والأدوات وما يجب أن يكون فيه من الفضائل وأن يجتنبه من القبائح والرذائل ، وكيف ينبغى أن تكون أمور أتبَاعه ومعينيه ، وأى الحالات ينبغى أن يكون عليها « ديوان الرَّسائل » الذى يتولَّاه وينظر فيه . فلم يذكروا من ذلك دقيقًا ولا جليلًا ، ولا شَرَحوا منه كثيرًا ولا قليلًا ، ومَنْ أَلَمَّ منهم بصِناعَة الكِتَابة فإنما تكلَّم على قوانين بعض أمورها ولم يُلِمّ بشىء مما ذكرته ، وأكثرهم حَشَا كتبه الموضوعة لذلك باللغة والنحو والتصريف ، فخَرَجَت عن الغَرَض المقصود لأن لكل نوع من هذه الأنواع كتبًا مُفْرَدَة تستغرق ما يؤتى به فى هذه المؤلَّفات وتشمل على أضعافه فالتماسها من هناك أولى وطلبها من معدنها أجدر وأحرى .

ولمَّا وَجَدت المتقدِّمين قد تركوا ذلك وأهملوه ، وأضاعوه على ممرّ السنين وأغفلوه ، علمت أن الله تعالى قد ذَخر فضيلة تصنيفه و إظهاره ، ومنقبة بروزه إلى الوجود واشتهاره لهذه الأيام الزاهرة العادلة المضيئة السيدية الأجلِيَّة الأفضَلِيَّة التى رَفَعَت الجَوْر عن الأمم ، ومَلَكَت فضيلتى السَّيْف والقَلَم ، واستولت على غايات المَفَاخِر ، واستبدت بغُرَر المناقب والمآثر ، ووجب أن تنتج فيها الأفكار العقيمة وتظهر لها أسرار الفضل المكتومة . فاسْتَخَرْت الله تعالى وتوكَّلت عليه ، وعوَّلت على تصنيف هذا الكتاب و إيداعه ما تصل القدرة إليه من أنواع الترتيبات وفنون الفضائل ، وسمَّيته « قَانُون الرَّسَائِل » وجعلته أبوابًا وفصولًا وبيَّنت الأمر فيه على ما يقتضيه حُكْم البلاد المصرية والأمر المتعارف فيها الآن دون غيره من الأوقات . والله المستعان وهو حسبى ونِعْم الوكيل .

* * *

فى الأحْوال التى يجب أن يكون عليها رئيسُ هذا الدِّيوان . وما ينبغى أن يكون حاصلاً عنده من العلوم والمَعَارف والأخلاق . وما يُرْجَى من الانتفاع بالمَصَالِح ويُخْشى من ضَرَر ضدّه .

أَوَّل ما يجب أن يكون رئيس ديوان الرَّسائل ومتولِّى الكتابة عن حضرة الملك ، ذا دِين وَوَرَع وأمانة . فإنه بمنزلة كبيرة ورُتْبَةٍ خطيرة ، يتحكَّم بها فى أرواح الناس وأموالهم ، لأنه لو زاد أدنى كلمة أو حَذَف أيْسَر حَرْفٍ أو كَتَم شيئًا قد عَلِمَه ، أو تأَوَّلَ لفظًا بغير معناه أو حَرَّفَه عن جهته أدَّى ذلك إلى ضَرَر من لا يستوجب الضَّرَر ، ونَفْع من لا يستوجب النَّفْع ، بل ربما ضَرَّ مَنْ يجب نَفْعَه ونَفَع من يجب الإضرار به ، ومَوَّه على الملك حتى يَشْكُر المذموم ويذم المشكور . فمتى لم يكن له دِين يحجزه عن ارتكاب المآثم ، ووَرَع يَرْدَعه عن احتقاب

المحارم(٢١) ، وأمانة لاتمتد يده معها إلى رشوى تُحَسِّن له الدخول فى المسالك المذمومة ، ونَزَاهَـة نفس تصده عن الشهـوات الموردة له إلـى الموارد المكروهـة ، وَقَعَت الدولة منـه فى وَرْطَة شنعـاء وداهية دَهْيـاء ، وكان الضَّررُ بمكـانه أكثـر من الانتفاع ، ولـم يكن إلَّا وبـالًا على الملك ، لأنه يُحسِّن له غيـر الحَسن ، ويُقَبِّح له غير القَبِيح ، ويُزَكِّى مـن لاخير فيه ، ويَذِمّ من لاتُذَم مساعيـه ، ويضع الأشياء فى غيـر مواضعها فَيهِدُّ بقلمـه مالاتبنيه السُّيوف والـرِّماح فى السنين المتطاولة .

ويجب أن يكون دينه الإسلام لأنه من الملك بمنزلة الوزير ، والوزير مشتق من المؤازرة ، والمؤازرة هى المُسَـاعَدة والمُعَاوَنة والمُظَاهَـرة . ولا يجب أن يُتَّخَذَ لهذا الأمر مـن يخرج عن دين الإسلام لقـول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَـن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَـإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَايَهْدِى ٱلْقَـوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الآية ٥١ سـورة المائدة] .

فأوّل ما يتجَنَّب الملك مَـنْ نَهَى الله جلَّ جلاله وتقدَّسَت أسماؤه عـن اتخاذه وَلِيًّا ، بل الواجـب على الإطلاق وخاصـة بحكم الوقـت الحاضر أن لا يطَّلـع على أسراره من يخـالف شريعـة الإسلام لقرب دار العدو خَـذَلَهَ الله وأباده . وإن من الفِطْـرة التى جُبِلَ كل أحـدٍ عليها حنينَ كـل شخص من الناس إلـى من يرى رأيه ويـدين بدينه ، وهـذا أمْرٌ يجده كل أحـدٍ فى نفسه ، ومع ذلـك فإنَّ كاتب الرَّسائلِ أحْـوَجُ الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالـى فى أثناء محاوراتـه وفصول مكاتباتـه ، والتمثُّل بنواهيـه وأوامره ، والذكـر لقوارعه وزواجره ؛ وهـو حلية الرسائل وزينـة الإنشاءات ، وهو الذى يَشُدّ قُـوَى الكلام ، ويُثَبِّت صحته فـى الأفهام ، فمتى خَلَت منه كـانت عاطلةً مـن المَحَاسِن عاريةً مـن الفضائل ، لأنه الحُجَّة التـى لاتُدْحَض ، والحقيقة التى لاتُرْفَض . فإذا كان الكاتب من الذِّمَّة (٢٢) لم يكن لديه من ذلك شىء ، وأتت كتبه مغسولةً من أفضل الكلام ، وخاليةً مما يَتَبَرَّك به أهلُ الإيمان والإسلام ، ومُقَصرة عن رتبة الكمال ، ومنسوبة إلى العَجْز والإخْلَال .

(٢١) الاجتقاب : الارتكاب - المحارم : ما يحرم انتهاكه من عهد أو ميثاق أو نحوهما .
(٢٢) أهل الذِّمَّة : المعاهَدون من أهل الكتاب ومن جرى مجراهم .

فإن تعاطى الكاتب الذِّمِّى حِفْظَ شىء منه وكَتَبَه فقد أبيحت حُرْمه كتاب الله تعالى وانْتُهِكَت ، وأُمْكن منه مَنْ يَتَّخده هُزْوًا ولعبًا والله سبحانه يقول ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الآيتان ٧٨ ، ٧٩ سورة الواقعة] . فقد وضح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلَّا مسلم .

ومع ذلك فيجب أن يكون مُتَمَذْهِبًا بالمذهب الذى عليه الملك ، ليكون أنقى جيبًا وأَنْصَح غَيْبًا ، فإن المسلمين - وإن جَمَعَتْهم كلمة الإسلام - فقد اختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضًا ، حتى حَدَث بذلك بينهم من التباعد والتنافر قريبٌ مما بين المسلمين والمشركين ، فكما وَجَب أن يكون المُؤَهَّل لهذه المرتبة مُسْلِمًا ، كذلك يجب أن يكون على مذهب الملك الذى اختصّ به من بين مذاهب المسلمين ، ليكون مجتهدًا فى خدمته مبالغًا فى نصيحته يمحضه الرأى عن صَفْونِيَّة لا يخالطه كَدَر ، وخلوص محبّة لا يشوبه مَذق (٢٣) ، ويكون الملك قد أحسن لنفسه الاختيار ، وأجاد لدولته النظر ، وأراح نفسه من كُلْفَة التحفُّظ منه والحَذَر له .

ويجب أن يكون مَنْ يُخْتار لهذه المرتبة مُمَكْنا من عَقْلِه ، فإن العقل أُسُّ الفضائل وأَصْلُ المناقب ومن لا عَقْل له فلا انتفاع به ، وكيف لا يكون كذلك وهو المستشار فى كبار الأمور والمشارك فى النَّظَر فى سَدَاد الثغور ؟ وإنما كلام المرء ورأيه على قدر عقله ؛ فإذا كان تام العقل كامل الرأى وَضَع الأشياء فى مكاتباته ومخاطباته مواضعها ، وأتى بالكلام من وَجْهِه ، وخَاطَب كلّ أحدٍ عن السلطان بما تقتضيه الحال التى يكون عليها ، فيشُدّ ما كانت الشِّدَّة نافعة ، ويلين حين يكون إلى اللّين محتاجًا ، ويوَبِّخ من لا يقتضى فِعْله أكثر من التوبيخ ، ويَذِمّ من تعدَّى إلى ما يستوجب الذَّم ، ويأتى بأصناف المكاتبات التى يقتضيها اختلاف الحالات واقعةً مواقعها صائبةً مراميها .

ويجب أن يكون من البَلَاغَة والفَصَاحَة إلى أعلى رُتْبَة وأسنى منزلة ، وبحيث لا يوجد أحد فى عصره يفوقه فى هذا الفن ، فإنه لسانُ السلطان الذى يَنْطِق به ويده التى بها يكتب .

---

(٢٣) مذاق : مزج وخلط .

ورُبّ كاتب بليغ أصاب الغَرَض فى كتابته فأغنى صاحبه عن الكتائب ، وأَعْمَل القَلَم فكافاه إعمال البيض القواضب . فإذا كان جَيِّد الفِطْرة صائب الرأى حَسَنَ الألفاظ ، تتأتى له المعانى الجَزْلة ، فيجلوها فى الألفاظ السهلة . ويختصر بحيث يكون الاختصار كافيًا ، ويُطِيل حين لا يجد من الإطالة بُدًّا ، ويُهَدِّد فيملأ القلوب روعة ، ويَشْكُر فيُلْقى على النفوس جَذلًا ومَسَرَّة . ثم إن كَتَب إلى ملك كبير وذى رُتْبَة خطير عَظَّم مملكة صاحبه وفَخَّمها فى معاريض كلامه من غير أن يوجد أن ذلك قَصْدُه ، واستصفى نِيَّة المكاتب واستجلب مودَّته فى أثناء الخطاب ، وإن لم يُظْهِر أن ذلك مَطْلبه ، بل يريه أن الحظ والنصيب الأوفى إذا تمّ ذلك معه .

وينبغى أن يكون مضطلعًا بفنون الكتابة عالمًا بأصولها وفصولها مستقلاً بأعبائها ، يفوق فى النهضة جميع المستخدمين معه والمُعِينين له ، لأنه الأصل الذى هُمْ فروعة ، والمُقَدَّم الذى عليه تُعْرَض كتبهم وتأليفاتهم ، وإلى تَصفَحُّه ونَقْده ترجع إنشاءاتهم وتصنيفاتهم . فمن الواجب أن يكون أَتَمّ منهم دراية ، وأَصَحَّ علمًا ورواية ، وأخبر بصائب المعانى ومُسْتَحْسَن الألفاظ لينتقد ما يعملونه نَقْد الخبير ويُنْفِذ منه ما تريه مرآة فهمه استحسانه ، ويَرُدّ منه ما تُوَضّح عنده المعرفة استقباحه واستهجانه ، ومتى لم يكن كذلك وكان فى الجماعة الذين معه من هو بهذه المنزلة من الخِبْرة والمعرفة كان أولى بمكانه .

ويجب أن يكون حافظًا لكتاب الله تعالى أو قَيِّمًا بقراءته إذا قرأه ، فإنه شديد الحاجة إليه كما تقدَّم بيانه . ويكون حافظًا لأخبار الرسول والأئمة من ذريته صلَّى الله عليهم أجمعين قَيِّمًا بها أو بأكثرها ، روايًا لأخبار الملوك وأيام العرب ووقائعهم ، وأخبار العَجَم وسائر الأمم وما جرى فى أيام الملوك الماضين ، وما حدث من وزرائهم وكُتَّابهم وقُوَّادهم وأخبارهم ، فإنه أَحْوَج الناس إلى ذلك ، وبما دفعته مضايق الكتابة إلى الاستشهاد بشىء منه ، فمتى لم يكن لديه مَلَكة له ومحفوظًا عنده وقف وقوف المُحْجِم ، ولَجْلَج لجلجة المجمجم (٢٤) .

(٢٤) لَجْلَج : تردّد فى كلامه ولم يُبن – المجمجم : الذى لا يبيّن كلامه .

ويجب أن يكون لديه شيء من معرفة الحَلاَل والحَرَام ليكون واجدًا له متى دُفِع إلى أن يسأل عنه .

ويجب أن يكون حافظًا للأشعار راويًا للكثير منها يستشهد بما عساه يَحْسُن الاستشهاد به فى بعض المواضع ، فإنه للمنظوم من البَهْجَة فى النفس والوَقْع فى القلب ما ليس للمنثور ، وربما حَلَّ منه ما يحتاج إليه فأتى به منثورًا فى أثناء رسائله وطى إنشاءاته ، فكم معنىً بديع رائع قد حظى به المنظوم دون المنثور ! وإن كمل لأن يكون مُحْسِنًا لنَظْم الشعر مجيدًا فيه كان أجمل لصفاته وأكمل لأدواته .

ويجب أن يكون قد قرأ من العربية والتصريف واللُّغَة أكثرها ، فإنه أحْوَج الناس إلى هذه العلوم ، فإن كان مبرزًا فيها قَيِّمًا بها على الكمال فزيادة فى فضله . وإن حصل منها أن يكون متكلمًا بألفاظ الفُصَحَاء لاحقًا برتبه البُلَغَاء لا يَخْفى عنه شيء مما يجرى فى المكاتبات ويكثر فى المحاورات من غير أن يتبع حُوشِيِّ الكلام (٢٥) .

* * *

من كتاب " الإشارة إلى من نال الوزارة "

الوزير أبو الفَرَج يَعْقُوب بن كِلّس

كان يهوديًا كاتبًا صائنًا لنفسهِ محافظًا على دينه ، جميل المعاملة مع التجَّار فيما يتولَّاه ، واتصَّل بخدمة كَافُور الإِخْشِيدى فَحَمَد خدمته ، وردّ إليه زمام ديوانه بالشَّام ومصر فضبطه له على حسب إرادتِه . وكان سبب حَظْوتهَ عنده أن يهوديًا قال له : « إن فى دار ابن البَلَدى عشرين ألف دينار وقد توفى » ، فكتب يعقوب إلى كافور رُقْعة يقول فيها : « إن بالرَّمْلَة عشرين ألف دينار مدفونة فى موضع أعرفه وأنا أخرج أحملها » ، فأجابه إلى ذلك وأنفذ معه البغال لحملها . وورد الخبر بموت بُكير بن هرواز التاجر فجعل إليه النَّظَر فى تركته ، واتَّفق موت يهودىّ بالفَرَما ومعه أحمال كِتَّان فأخذها وفتَحها ، فوجد فيها عشرين ألف دينار فباع الكِتَّان

(٢٥) الحوشىّ : الغامض الغريب الوحشىّ .

وحَمَل الجميع وسار إلـى الرَّمْلَة ، فحفر الدار وأخرج المال ، وهو عشـرون ألف دينار ، ووجدد ثلاثيـن ألف دينار فازداد محلـه فى قلبه وتصوره بـالثقة . ونظر فـى تركة ابن هـرواز واستقصى وحَمَل منها مالًا كثيـرًا ثم وافى ، وقد زاد حاله عنـده ، فأرسل إليه صِلَةً كبيرة فـأخذ منها ألف درهم وردّ الباقى ، وقال : " هذه كفايتى " ، فزاد أمره عنده حتى إنه كان يشاوِرُه فى أكثر أموره وكلّما رُفع إليهِ حسابٌ أمر بدفعه إليه يتأمله .

وقال عبد الله أخو مُسْلِم العلـوى : رأيت يعقوب يسار كافورًا قائمًا ، فلمـا مضى قال لى كافور : أى وزير بين جَنْبَيْه .

وكان ابـن كِلِّس متكلمًا علـى مذهبه ، فَشَـرح الله صدره للإسـلام فنزل الجامـع وصَلَّى الغداة جماعة يوم الاثنيـن لثمانى عشرة ليلة خلت من شعبان سنـة خمسين وثلاثمائة وأظهر إسلامُه ، وبلغ خبره إلى كـافور فسرَّه ذلك ، وعاد من الجامع إلى دار كافـور فَخَلع عليه غلالةً ومُبَطَّنَه ودُرَّاعةً وزادت مرتبته عنده .

وسار إلى المغـرب وخَدَم الإمام المعز لـدين الله أمير المؤمنيـن ، وخصّ بخدمته وتـولّى أموره .

وفى شهر رمضان سنة ثمـان وستين وثلاثمائة لقّبه « بالوزير الأجـلّ » ، وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكاتله إلّا له ، وخَلَع عليه وحُمل ، ورَسَم له فى محرّم سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاثمائة أن يبدأ فى مكـاتبته باسمه على عُنْـوانات الكتب النافذة منـه ، وخرج توقيع العزيـز عليه السلام بذلك ، وفى هذه السنة اعتقله فى القصر ، وردّ الأمر إلـى جَبْر بن القاسم فأقام معتقلًا شهورًا ، ثم أطلقه فى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وحملـه على الخيل بالسروج واللجم الثقال ، وقَرِئ له سِجِلٌ بردّهُ إلى ما كـان له من تدبير الدولة . ثم قُرِىء له سجـل يهبُه خمسمائة من الناشئيّة وألف غلام من المغاربة لا رجعة فيهم ولا مثنويّـة « وإنا ملّكناه أعناقهم وحكّمناه فيهم ، فمن أراد أن يبيعه باعه ، ومن أراد أن يُعْتقه عتقه » .

وكان الوزير أبو الفرج فى سنة سبعين وثلاثمائة أحضر جماعة الفقهاء وأهل الفُتْيا وأخرج لهم كتاب فِقْه عمله وقال : هذا عن مولانا الإمام العزيز بالله ، عليه السلام ، عن آبائه الكرام ،

وقرأ عليهم رسالته وبعض كتاب الطَّهارة . وهذا الكتاب يُعرف « بالرِّسَالة الوزيريّة » . وحدَّثنى أبو الحسن بن عُرْسٍ أن هذه الرِّسَالة جَمَع على عملها أربعين فقيهًا .

حكى أبو حيَّان التَوْحيدى : أنه سأل التميمى الشاعر المصرى عن الصَّاحب ابن عَبَّاد وعن أبى الفرج بن كِلِّس ، فقال فى ابن كِلِّس : « ذاك رَجلٌ له دار ضيافة ، وله زوّار كالقَطْر ، لا يعرف محكًا ولا لجاجًا ولا مُجادلة ، ولا كيادًا ولا مُخَاتَلة (٢٦) ، يعطى على القَصْد والتأميل ، والرجاء والتوجة ، والطَّمَع والطَّلَب ، وسائر الوسائل عنده ، بعد هذه الأوائل ، فضْلٌ يستحق به الزيادة ، وليس هناك امتحانٌ ولا محاسبة ولا احتجاجٌ ولا تعيير ، المال مصبوب ، والخازن قائم ، والمُفَرِّق مُجَزِّف (٢٧) ، والنداء عالٍ ، والواصل موصول ، والمؤمَّل مشكور ، والراحل شاكر ؛ وزارة ذاك نيابةٌ عن خلافة ، ووزارة هذا خلافة عن عماله . وما ترتفع صِلاَت ابن عبَّاد عن مائة درهم إلى ألف درهم ، وأنبل مَنْ وَرَد عليه البَدِيهىّ ، وهو شيخه فى العَروض ، وعنه أخذ القوافى ، وبفتحه وهدايته قال الشعر ، لم يزده فى طول مُقامه إلى رحيله على خمسة آلاف درهم تفاريق ؛ وإن أَقَلّ ضَيْفٍ بمصر يصير إليه مثل هذا فى أول يوم .

ووُجدت رُقْعَة فى دار أبى الفرج فى سنة ثمانين وثلاثمائة - وهى السنة التى توفى فيها - نسختها :

احْذَرُوا مِنْ حَوَادث الأزمان ... وتوَقَّوا طوارق الحَدَثان

قد أمِنْتم من الزمان ونِمْتُم ... رُبَّ خوف مُكَمَّن فى أمان

فلمّا قرأها قال : لا حَوْل ولا قوة إلا بالله العظيم ، واجتهد أن يعرف كاتبها فلم يقدر على ذلك .

---

(٢٦) المَحْك واللجاج : كلاهما بمعنى التمادى فى المنازعة والخصومة - الكِياد والمخاتلة : كلاهما بمعنى الاحتيال والمكر والمخادعة والمراوغة .

(٢٧) قوله " مجزّف " من : جَزَف فى الكيل أى أكثر ، والجزاف بضم الجيم وكسرها ، هو بيع الشىء أو اشتراؤه بلا وزن ولا كيل وذلك يرجع إلى المساهلة .

ولمّا اعتلّ عِلّة الوفاة آخر السنة المذكورة ركب العزيز إليه عائدًا فقال له : " وَدَدْتُ لو أنك تُبتاع فابتاعك بمُلكى ، أو تُفدى فأفديك بولدى ، فهل من حاجةٍ توصى بها يا يعقوب ؟ " فبكى وقبّل يده وقال : " أمّا فيما يخصّنى فأنت أرعى لحقّى من أن أسترعيك إياه ، وأرأفُ على من أُخلّفه من أن أُوصّيكَ به ؛ لكنّى أنصحُ لك فيما يتعلق بدولتك . سَالِمْ الرُّومَ ما سالمَوك ، واقْنَعْ من الحمدانيّة بالدَّعوة والسكَّة .

ولا تُبْقِ على مُفَرّج بن دغفَل متى عرضَتْ لك فيه فُرصة " .

وماتَ فأمرَ العزيزُ بأن يُدفَنَ فى دارِه فى قُبّةٍ كان بناها ، وصلى عليه ، وألْحَدهُ بيدِه فى قبره ، وانصرفَ حَزِينًا لفقده ، وأَمَر أنْ تُغْلَقَ الدَّواوينُ أيامًا بعده .

وكان فى إقطاعِه من العزيز بالله مائة ألف دينار .

ووُجْدَ له من العبيد المماليك أربعة آلاف غِلام ، والطائفة المنعوتة بالوزيريّة منسوبةٌ إليه ، ووُجدَ له جوهرٌ بأربعمائة ألف دينار ، وبَزٌّ(٢٨) من كل صنفٍ خمسَمائة ألف دينار . وكان عليه للتجار ستة عشر ألف دينار ، فقضاها العزيز عنه من بيت المال ، وفرّقَتْ على قبره .

* * *

(٢٨) البزّ : نوع من الثياب .

ابن بسام الشَّنْتَريني

(ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م)

أبو الحسن على بن بسام التَّغْلبى من شَنْتَرين فى أقصى الغرب عند أُشبونة بالأندلس ، ولد بها نحو سنة ٤٦٠ لأسرة ذات حسب ، وقد صدّه يسارها عن الكسب المتدنّى ، وأغناه ما ورثه عن التقلب فى مناكب الأرض سعيًا وراء الرزق .

اتّصل بأدباء بلدته وبغيرهم ممن كانوا فى بلاط المتوكل أمير بطليوس أو وفدوا عليه ، ثمّ فارق موطنه لظروف قاهرة ، فهاجر إلى قرطبة ، ولازمه سوء الحال ، فانقلب إلى إشبيلية واستوطنها ، وكانت تغصّ بالأدباء ، وخدم المعتمد بن عبّاد ثم حكام المرابطين من بعده ، فحظى بشهرة واسعة وطار صيته فى كل مكان .

وقد عنى عناية فائقة بالتعرف على شعراء بلاده وكتابها ، وتدوين ما أبدعوه والترجمة لهم ، فأثمر ذلك كتابه العظيم « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، وآثر أن يقسمه أربعة أقسام ، أولها عن قرطبة وما هو قريب منها من بلاد الأندلس ، وثانيها عن إشبيلية والجانب الغربى ، وثالثها عن دانيه وبلنسية وغيرهما من بلاد الجانب الشرقى ، وآخرها عن الوافدين على الأندلس من المشرق وبلاد المغرب ، وقد بلغ من ترجم لهم وذكر أخبارهم واختار من بدائعهم أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب .

وهذا التقسيم الجغرافى إلى جانب الاعتماد على الأساليب المسجّعة يماثل النهج الذى اتبعه الثعالبى من قبل فى « يتمة الدهر » ، ولكن ابن بسام يتميز بأنه لم يلتزم السجع دائما وبأنه لم يبالغ أو يغال فى إطراء من يترجم لهم والثناء عليهم ، وإنما جعل وكده أن يظهر شخصياتهم ويكشف عن ملامحهم .

ويرى دارسو هذا الأثر النفيس وعارفو فضله أنه « اقتضى من ابن بسام جهودا مضنية فى سنين متطاولة ، وهى جهود تنوء بها العصبة أولو القوة » ، و « لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسى بروائعه الباهرة شعرا ونثرا محجوبا عن الباحثين ، ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه » .

* * *

أوجز ابنُ بسام الشَّنْتَرينى الأندلسىّ حالته النفسية فى مقدمة كتابه « الذخيرة » ، فقال :

أمّا بعد حمد الله ولىِّ الحمدِ وأهلِه ، والصلاةِ على سيّدنا محمدٍ خاتم رُسلِه ، فإنَّ ثمرةَ هذا الأدب ، العالى الرُّتَب ، رسالةٌ تُنْثر وتُرسَل ، وأبياتٌ تُنْظَم وتُفَصَّل ؛ تَنْثالُ تلك انثيالَ القِطار(١) ، على صفحات الأزهار ، وتتّصِل هذه اتّصالَ القلائد ، على نحور الخرائد ؛ وما زال فى أُفقنا هذا الأنْدَلُسى القَصِى إلى وقتنا هذا من فُرسان الفنّين ، وأئمّةِ النوعَيْن ، قومٌ هم ما هم طِيبَ مَكاسِر(٢) ، وصفاءَ جواهر ، وعُذُوبةَ مواردَ ومصادِر ؛ لَعِبوا بأطراف الكلام المشقّق ، لَعِبَ الدُّجَى بجفون المؤرَّق ، وَحَدَوْا بفنون السّحر المنَمّق ، حُداء الأعْشَى ببِناتِ المحلّق(٣) ؛ فصبّوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ؛ وباهَوْا غُرَرَ الضُّحى والأصائل ، بعجائب الأشعار والرسائل : نَثْرٌ لو رآه البديعُ لنسى اسْمَه ، أو اجتلاه ابنُ هلالٍ(٤) لولاَّه حكْمَه ؛ ونظمٌ لو سمعه كُثَيِّرٌ ما نسبَ ولا مدح ، أو تَتَبّعه جَرْوَلٌ(٥) ما عوى ولا نبح ؛ إلّا أنَّ أهل هذا الأفقِ ، أبَوْا إلّا متابعةَ أهل الشرقِ ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوعَ الحديث إلى قَتادة(٦) ؛ حتى لو نعَق بتلك الآفاق غراب .

أوطَنَّ بأقْصى الشام والعراق ذُباب ، لَجَثَوْا على هذا صنما ، وتَلَوْا ذلك كتابًا مُحْكَما ؛ وأخبارُهم الباهرة ، وأشعارُهم السائرة ، مَرْمى القَصِيّة ، ومُناخ الرذِيّة(٧) ، لا يعمر بها جنانٌ ولا خَلَد ، ولا يُصرَّف فيها لِسانٌ ولا يد . فغاظنى منهم ذلك ، وأنفْتُ ممّا هنالك ، وأخذتُ نفسى بجمع ما وجدتُ من حسنات دهرى ، وتَتَبُّع محاسن أهل بَلَدى وعَصْرى ، غَيْرةً لهذا

---

(١) تنثال : تنصبّ وتنهمر - القِطار : الأمطار .

(٢) يقال : فلان طيّب المكسر إذا كان محمودًا عند الخبرة ، والمكاسر : مواضع الكسر .

(٣) الأعشى ميمون بن قيس شاعر جاهلىّ ، وقصّة مدحه للمحلّق الكلابى مشهورة رواها الأصفهانى وغيره .

(٤) البديع هو بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨) أول من كتب المقامات فى الأدب العربى ، وابن هلال هو أبو إسحاق إبراهيم (ت ٣٨٤) أشهر كاتب رسائل للخلفاء العباسيين والأمراء البويهيين فى بغداد .

(٥) كثيّر بن عبد الرحمن المعروف بكثير عزّة (ت ١٠٥) شاعر أمويّ - وجرول بن أوس هو الحطيئة (ت ٣٠ هـ) شاعر مخضرم .

(٦) أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى (ت ١١٧ أو ١١٨) ، كان من حفاظ أهل زمانه ، وقد تفاوتت فيه الآراء ، فقيل فيه : كان حاطب ليل ، كما قيل فيه : فلما نجد من يتقدمه ، وأنه كان من علماء الناس بالقرآن والفقه .

(٧) الرذيّة : الناقة الهزيلة المتروكة التى لا تقدر أن تلحق بالركاب ، يعنى أن أخبارهم وأشعارهم مطرحة منبوذة .

الأفق الغريب أن تعود بُدُوره أهِلّة ، وتُصْبحَ بحارُه ثِمادًا(٨) مُضمحُلّة ؛ مع كثرة أدبائه ، ووُفُور علمائه ؛ وقديمًا ضيّعُوا العلمَ وأهلَه ، ويارُبَّ مُحسنٍ مات إحْسَانُهُ قبله ؛ وليت شعرى مَنَ قصَر العلمَ على بعض الزمان ، وخَصَّ أهلَ المشرق بالإحسان ؟

وقد كتبتُ لأرباب هذا الشأن ، من أهل الوقت والزمان ، محاسنَ تَبْهرُ الألباب ، وتَسْحَر الشعراء والكُتّاب . ولم أعْرِضْ لشيء من أشعار الدولة المروانيّة ، ولا المدائح العامِريّة ؛ إذ كان ابنُ فَرَج الجَيّانيّ(٩) قد رأى رأيى فى النّصَفَة ، وذهب مذهبى من الأنَفَة ؛ فأمْلىَ فى محاسنِ أهلِ زمانه « كتاب الحدائق » مُعارِضًا لـ « كتاب الزّهرة » للإصْبَهانِى(١٠) ، فأضْرَبتُ أنا عما ألّف ، ولم أعرِض لشيءٍ مما صَنّف . ولا تعدَّيتُ أهلَ عصرى ، ممّن شاهدتُه بعُمرى ، أو لَحُقَه بعضُ أهل دهرى ؛ إذ كلُّ مُرَدَّدٍ ثقيل ، وكلُّ متكررٍ مملول ، وقد مَجّت الأسماعُ : « يا دارَمَيّة بالعلياءِ فالسّنَد(١١) » ، ومَلّتِ الطبّاع : « لِخَوْلَةَ أطْلالٌ بِبُرْقَةِ تهمد » ؛(١٢) ومحّتْ : قِفَا نَبْكِ » فى يد المُتَعَلّمين ، ورجَعتْ على ابن حُجْر بلائمة المُتَكلّفين(١٣) ؛ فأمّا « أمِنْ أُمِّ أوْفَى »(١٤) ، فعلى آثارٍ من ذهب العفا . أما آنَ أنْ يَصَمَّ صداها ، ويُسْأمَ مداها ؟ وكم من نُكْتة أغفلَتْها الخُطباء ، ورُبَّ مُتَرَدَّمٍ غَادَرَتْهُ الشُّعَراء(١٥) ؛ والإحسانُ غير محصور ، وليس الفضل على زمنٍ بمقصور؛ وعزيزٌ على الفضل أن يُنكر ، تقدّم به الزمانَ أو تأخّر ، ولحى اللهُ قولهم(١٦) : الفَضْلُ للْمُتَقَدم ، فكم دفنَ من إحسان ، وأخمْلَ من فلان . ولو اقتصر المتأخّرون على كُتُبِ المُتَقَدمِين ، لضاعَ عِلْمٌ كَثِير ، وذهب أدبٌ غزير .

---

(٨) ثماد : جمع ثمْد وهو الماء القليل .

(٩) أبوعمر أحمد بن فرج الجيانى (ت حوالى ٣٦٦) عرف بكتابة « الحدائق » الذى ألفه للحكم المستنصر ، وكان من مقدمى الشعراء فى العهد الأموىّ ، وقد سجنه الحكم وصدرت عنه وهو فى السجن أشعار كثيرة .

(١٠) الأصبهانى مؤلف كتاب الزهرة هو محمد بن داود الظاهرى ، وقد صنّف كتابه فى عنفوان شبابه .

(١١) هذا مطلع معلقة النابغة الذبيانى .

(١٢) مطلع معلقة طرفة بن العبد .

(١٣) يعنى امرأ القيس بن حجر ، ومعلقته التى أولها : « قفانبك » .

(١٤) مطلع معلقة زهيربن أبى سلمى .

(١٥) افتتح عنترة بن شداد معلقته بقوله : « هل غادر الشعراء من متردّم » .

(١٦) لحاه الله : لعنه وقبّحه .

وقد أودعتُ هذا الديوانَ الذى سمّيتُه بـ « كتاب الذخيرة ، فى محاسن أهل هذه الجزيرة » من عجائب علمهم ، وغرائب نثرِهم ونظمهم ، ما هو أحلى من مناجاة الأحبّةِ ، بين التّمنع والرقْبَة ، وأشْهَى من مُعاطاة العُقار ، على نَغَمَاتَ المثالثِ والأزيار ؛ لأن أهلَ هذه الجزيرة - مذ كانوا - رؤساءُ خطابة ، ورؤوسُ شعرٍ وكتابة ، تَدَفقوا فأنْسَو البحور ، وأشْرَقوا فبَارَوا الشموسَ والبدور ؛ وذهب كلامُهم بين رقّة الهواء ، وجزالةِ الصخرة الصمّاء ، كما قال صاحبهُم عبد الجليل بن وَهْبُون يصف شعرَه :

رقيقٌ كما غَنّتْ حمامةُ أيْكَةٍ وَجَزْلٌ كما شَقَّ الهَوَاء عقابُ [17]

على كَوْنهم بهذا الاقليم ، ومُصاقَبَتِم [18] لطوائف الرُّوم ؛ وعلى أنَّ بلادَهم آخرُ الفتوح الإسلاميّة ، وأقصى خُطَى المآثر العربيّة ؛ ليس وراءَهم وأمامَهم إلَّاالبحرُ المحيط ، والرومُ والقُوط ؛ فحصاةُ مَنْ هذه حالُه ثَبِير ، وثَمَدهُ بحرٌ مسجور [19] ؛ وقد حكى أبو على البَغْدادى الوافدُ على الأندلس فى زمان بنى مروان قال : لما وصلتُ القَيْرَوَان وأنا أعتبر من أمُرَّ به من أهل الأمصار ، فأجدُهم درجاتٍ فى الغباوة وقلّة الفهم بحسب تَفَاوُتِهم فى مَوَاضِعِهم منها بالقُرب والبُعْد ، حتى كأنَّ منازلهم من الطريق هى منازلهم من العلم مُحَاصَّةً [20] ومُقَايسة . قال أبو على : فقلت : إنْ نقَص أهلُ الأندَلس عن مقادير مَن رأيتُ فى أفهامهم ، بقدر نُقصانِ هؤلاء عمّن قبلهم ، فسأحتاجُ إلى تُرْجُمان ، بهذه الأوطان .

قال بن بسّام : فبلغنى أنه كان يَصل كلامَه هذا بالتعجّب من أهل هذا الأفق فى ذكائهم ويتغطّى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقول لهم : إنّ علمى علمُ رواية ، وليس بعلمِ دِراية ، فخذوا عنى ما نقلت ، فلم آلُ لكم أن صحّحت . هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بِسَعة العلم وكثرةِ الروايات ، والأخذ عن الثقات ؛ ولولا أن كلَّ معنى معترَض ، يزيحُ سهمى عن

---

(١٧) العقاب : طائر كاسر .
(١٨) المصاقبة : المقاربة والمجاورة .
(١٩) ثبير : جبل بمكة - الثمد : الماء القليل - بحر مسجور : ممتلىء .
(٢٠) المحاصّة : المقاسمة ، وأن يأخذ كلّ واحدٍ حصّته .

ثُغرة الغَـرَض ، المقصودِ فـي هذا الكتـاب ، لأوردتّ فى هـذا الباب ، بعـضَ ما وقـع لأهل الأندلس من عجب ، وسُمع لهم من نادر مستغـرَب . وسَيَمُرُّ منه فى تضاعيف هذا التصنيف ما فيه كفاية ، ويُرْبى إن شاء الله على الغـاية . ولَعَلّ بعضَ من يتصفّحه سيقول : إنّى أغفلتُ كثيرًا ، وذكرتُ خاملًا وتَـركتُ مشهورًا . وعلى رِسْله [٢١] ، فإنّما جمعتُهُ بيـن صعبٍ قد ذَلّ ، وغَرْبٍ قد فلّ[٢٢] ، ونشاطٍ قـد قل ، وشبابٍ ودَّعَ فـاستقل ؛ من تفاريـقَ كالقرون الخـالية ، وتعاليقَ كالأطـلال البالية [٢٣] ، بخـط جُهّال كخطـوط الرَّاح ، أو مـدارج النمـل بين مَهـاب الرياح ؛ ضَبْطُهم تصحيف ، ووَضْعُهم تبديلٌ وتحريـف ؛ أيْأسُ الناسِ منها طالبُها ، وأشدُّهم استرابةً بها كاتبُها ؛ ففتحتُ أنا أقفالهَا ، وفضضـتُ قيودَها وأغلالهَا ؛ فأصحتْ غاياتِ تبيين وبيان ، ووضَحَتْ آياتِ حُسنٍ واحسان .

على أنَّ عـامّةَ مـن ذكرتُـه فى هـذا الديوان ، لـم أجدْ لـه أخبارًا مـوضوعـة ، ولا أشعارًا مجموعة ، تَفْسَحُ لى فى طريق الاختيار منهـا ، انّما انتقدتُ ما وجدتُ ، وخالسـتُ فى ذلك الخمول ، ومارسْـتُ هنالك البحثَ الطويل ، والـزمانَ المستحيل ، حتى ضمنتُ كتـابى هذا من أخبار أهل هذا الأفق ، ما لعلى سأربى [٢٤] به على أهل المشرق . ومـا قصدتُ به - عَلِمَ الله - الطّعْنِ علـى فاضل ، ولا التعصـبَ لقائلٍ على قائل ؛ لأنَّ مـن طلبَ عيبًا وجـده ، وكلًّ يعمل باقـتداره ، وبجَهـدِ اختيـاره ؛ وما أُغفِـلَ أكثرُ ممـا كُتِبَ وحُصـلَ ؛ والأفكارُ مُـزْنٌ[٢٥] لاتنضبُ ، ونُجـومٌ لا تَـغرُبْ ؛ ومَـنّ يحصِّلُ ما تثيرُه القرائح ، وتتقاذف به الجوانح ؟ وقد قال أبو تمام :

ولـو كـان يفنـى الشعرُ أفنـاهُ مـا قَـرَتْ ... حِيَـاضُــكَ منه فـى العصـور الـذواهـبِ
وَلكِنّــهُ صَـوْبُ العُقُــولِ إذا انجلــتْ ... سحَــائِبُ منــه أُعْقِبَــتْ بسحــائب [٢٦]

(٢١) الرِّسْل : الرفق والتؤدة ، ويقال على رسلك أى اتئد وتمهّل .
(٢٢) الغرب : حدّ السيف - فلّ : تثلّم والكسر .
(٢٣) التفاريق : الأجزاء المتفرّقة - التعاليق : مـا يذكر فى حاشية الكتـاب من شرح لبعض نصه ومـا يجرى هذا المجرى .
(٢٤) أربى : أزيد .
(٢٥) المزن : السحاب يحمل الماء ، الواحدة : مزنة .
(٢٦) قرتْ : جمعتْ الماء - الصوب : المطر بقدر ما ينفع ولايؤذى .

وهذا الديوان إنما هو لسانٌ منظـومٍ ومنثور، لا ميدانُ بيانٍ وتفسير. أُوردُ الأخبارَ والأشعارَ لا أفُكُّ مُعَمّاها ، في شـيء من لفظها ولا معناها ؛ لكن ربما ألممتُ ببعـض القولِ ، بين ذِكر أُجريه ، ووجه عُذْرٍ أُريه ؛ لاسيمّا أنواع البديع ذى المحاسنِ ، الذى هو قَيِّمُ الأشعار وقوامُها ، وبه يُعرَفُ تَفـاضُلُها وتَبايُنُها ؛ فـلا بد أن نشيرَ إليه ، ونُنَبِّهَ عليـه ؛ وَنَكِلُ الأمرَ فى كـلّ ما نُثْبِتُه ، ونُرِدُّ الحكمَ فى كلّ ما نُورِدُه ، إلى نقدِ النَّقَدَةِ المهَرَةِ ، وتمييز الكَتَبَةِ الشَّعَرَة ، الذين هم رؤساءُ الكلام ، وصيـارفةُ النّثـارِ والنّظام ؛ فأمّـا من رِيـنَ على قلبـه ، وطُبع بالجَهـل على لُبّـه ، فقد وُضِعَتْ عنّـا وعنه ، كُلْفَةُ الاعتذارِ منـه . وقد كان فـى وقتى من فـرسان هذا الشان ، مـن كان أجْدَرَ أن يجـرى بهذا المَيْدان ، ويُعـرِبَ عمّا أعـرَبْتُ فيه عـن القوم بأفْصَحِ لسان ، يُثيـرُ فيه المعانـى من مَرابضهـا ، وأشدّ عارِضَةٍ يُظْهِـرُ بها الأغراضَ المَقْصـودةَ فى أجملِ معـارِضِها ؛ لكنّى بما أقدمتُ عليه ، وتصدَّيْتُ إليه ، كالنسيم دلَّ على الصُّبح ، والسّهْمِ ناب عن الرُّمح ؛ ولا أقول إنّى أغْـرَبْتُ ، لكنْ ربما بيّنْتُ وأعْرَبْتُ ؛ ولا أدَّعى أنّـى اخترعتُ ، ولكنى لَعِلّـيَ قد أحْسنْتُ حيثُ اتبّعْتُ ، وأتْقَنْتُ ما جمعـتُ ، وتألّفْتُ عَنَنَ الشاردِ (٢٧)، وأغْنَيْتُ عن الغائب بالشـاهد ؛ وتَغَلْغَلْتُ بقـارئه بين النّظْمِ والنثر ، تَغَلْغُـلَ الماءِ أثناء النّـوْرِ والزَّهْر ؛ وانتقلـتُ من الـجِـدّ إلى الـهزل ، انتـقالَ الضَّحيانِ (٢٨) من الشمـس إلى الظّل ، واستـراحة البَهِيـر من الحَزْن (٢٩) إلى السّهل ؛ وتَخَلّلْتُ ما ضَمَمْتُه من الـرسائل والأشعار ، بما اتّصَلَتْ به أو قيلَتْ فيه مـن الوقـائع والأخبار ؛ واعتمدتُ المـائةَ الخامسـةَ من الهجرة فشـرحتُ بعـضَ مِحَنِها ، وجَلَوْتُ وجوهَ فِتَنِهَا ، ولَخّصْتُ القولَ بين قبيحهـا وحَسَنِها ؛ وأحْصَيْتُ عِلَلَ استيلاءِ طوائفِ الرُّوم ، علـى هذا الإقليـم ، وألمعتُ بـالأسبابِ التى دعـتْ ملوكهـا إلى خلعهـم ، واجتثاثِ أصْلِهم وفَـرْعِهم ؛ وعَـبّرْتُ عـن أكثرِ ذلك ، بلَفْـظٍ يَتَتَبّعُ الهمَّ بيـنَ الجَوَانِح ، ويُحِـل العُصْمَ سَهلَ الأباطِح (٣٠) ؛ وعَوّلْـتُ فى معظـم ذلك علـى تاريـخِ أبى مَـرْوانَ بن حَيّـان ، فأوردْتُ

---

(٢٧) العَنَن : الناحية .

(٢٨) الضَّحْيان : مَن أصابه حرّ الشمس .

(٢٩) البهير : من انقطع نفَسه من الإعياء – الحَزْن : ما غلظ من الأرض .

(٣٠) العصم : جمع الأعصم وهو الظبـى فى ذراعيـه أو إحداهما بيـاض وفى سائره أسـود أو أحمر – الأبـاطح : الأماكن المتسعة يمرّ بها السيل .

فصولَهُ ونقلتُ جُمَلَه وتفاصيلَه ؛ فإذا أعْوَزَني كلامُه ، وعزَّني سَردُهُ ونظامُه ، عكفتُ على طللي البائد ، وضربتُ في حديدي البارِدِ؛ على حِفْظٍ قد تَشَعب ، وحظٍّ من الدنيا قد ذهب .

ومع أن الشّعْر لم أرْضَه مَرْكبًا ، ولا اتّخَذْتُه مكسبًا ، ولا ألِفْتُه مَثْوًى ولا مُنْقَلبًا ؛ إنّما زُرْته لِمامًا ، ولمحتُه تَهَمُّمًا لا اهتِمامًا ؛ رغبةً بِعِزّ نفسي عن ذُلّه ، وترفيعًا لِمَوْطِيءِ أخْمَصي عن محلّه ؛ فإذا شَعْشَعَتْ راحُه ، ودأبت أقداحه ، لم أذُقْهُ إلّا شميمًا ، ولا كنتُ إلّا على الحديث نديمًا ، وما لي وله ، وإنما أكثرُه خُدْعةُ مُحْتَال ، وخلعةُ مُختال ، جدُّهُ تمويهٌ وتخييل ، وهزلُه تدليهٌ وتضليل ، وحقائقُ العلوم ، أولى بنا من أباطيلِ المنثورِ والمنظوم ؛ وعلى ذلك فقد وعَدتُ أنْ ألمعَ في هذا المجْمُوع ، بلُمَعٍ من ذكرِ البديع ؛ وأن أُمهّدَ جانبًا من أسبابه ، وأشرحَ جُمَلًا من أسْمائه وألقابه ؛ وإذا ظفرتُ بمعنىً حَسَن ، أو وقفتُ على لفظٍ مُسْتَحْسَن ؛ ذكرتُ من سبق إليه ، وأشَرْتُ إلى من نقصَ عنه ، أو زاد عليه ؛ ولستُ أقولُ : أخذ هذا من هذا قولًا مُطْلَقًا ، فقد تَتَوارَدُ الخواطِر ، ويَقعُ الحافرُ حيثُ الحافر (٣١) ؛ إذ الشّعرُ مَيْدان ، والشعراء فرسان .

وعلمَ الله تعالى أنّ هذا الكتابَ لم يصدُرْ إلّا عن صَدْرٍ مَكْلوم الأحناء (٣٢) ، وفِكْرٍ خامِدِ الذَّكاء ، بين دَهْرٍ مُتَلَوّن تَلَوُّنَ الحِرْباء (٣٣) ؛ لانْتِباذِي كانَ من شَنْتَرِين (٣٤) قاصيةَ الغَرْب ، مَفلولَ الغَرْب ، مُرَوَّعَ السّرْب ، بعد أن استُنْفِد الطريفُ والتّلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النّفاد ، بِتَوَاتُر طوائفِ الرُّوم ، علينا في عُقْرِ ذلك الإقْليم ؛ وقد كُنّا غَنِينا هنالك بكرم الانتساب ، عن سُوء الاكتساب ، واجتزأنا بمذخورِ العَتاد ، عن التّقَلبِ في البلاد ؛ إلى أن نثر علينا الرومُ ذلك النظام ، ولو تُرِكَ القطا (٣٥) ليلًا لنام وحين اشتدَّ الهَوْلُ هنالك ، اقْتَحَمْتُ بمن معي المسالك ؛ على مَهَامِهَ (٣٦) تكذّب فيها العين الأذن ، وتُسْتَشعَرُ فيها المِحَن :

مهامِهَ لم تَصْحَبْ بها الذئب نَفسُهُ ... ولا حَمَلَتْ فيها الغُرابَ قوادمُهْ

---

(٣١) وقوع الحافر على الحافر : تعتبر عن توافق أمرين .

(٣٢) مكلوم : مجروح - الأحناء : الجوانب ، مفرده : الحِنْو .

(٣٣) الحرباء : دويبة يضرب بها المثل في التلوّن .

(٣٤) شنترين (Santarem) تقع في البرتغال على بعد ٦٧ كيلومترًا إلى الشمال الشرقي من لشبونه ؛ استولى عليها الفونسو الخامس القشتالي سنة ٤٨٥ فاضطر ابن بسام إلى الفرار عنها .

(٣٥) القطا : نوع من اليمام .

(٣٦) المهامه : جمع مهمه وهي المفازة البعيدة أو البلد المقفر .

حتى خلصتُ خُلوصَ الزّبْـرِقانِ من سِراره (٣٧) ، وفُزْتُ فوزَ القِدْح عنـد قِمَاره ؛ فوصلتُ حِمْص (٣٨) بنفسٍ قد تَقَطّعَـتْ شَعَاعًا ، وذهب أكثرُهـا التياعًا ؛ « وليتنى عِشْتُ منهـا بالّذى فَضَلا ! » فتغـريتُ بها سنواتٍ أتَبَـوّأُ منها ظِلَّ الغَمامة ، وأعيـا بالتحوُّلِ عنهـا عِيَّ الحمامة ؛ ولا أُنسَ إلّا الانفراد ، ولا تَبَلُّـغَ إلّا بفَضْلة الزاد (٣٩) ؛ والأدبُ بها أقلُّ من الوفـاء ، حاملُه أضْيَعُ من قمَرِ الشّتـاء ؛ وقيمةُ كلّ أحد مـالُه ، وأُسْوة كلّ بلـدٍ جُهّالُه ؛ حَسْبُ المَـرْءِ أن يَسْلَمَ وفْرُه ، وإنْ ثُلِمَ قَدْرُه ، وأنْ تَكْثُرَ فِضّتُهُ وَذَهبُه ، وإن قَلَّ دينُه وَحَسَبُه . وهذا الدّيوان نيةٌ لم يُفصِحْ عنها قولٌ ولا عمل ، وأُمْنِيَـةٌ لم يكن منها حَوْلٌ ولا حِوَلَ : كـامِنٌ بين العِيَانِ والخبَر ، كمـون النارِ فى الحجَر ، وجارٍ بين اللّسانِ والقلب ، جَرْىَ الماء فى الغصنِ الرَّطب ؛ إلى أن طلع على أرْضِها شـهابُ سَعْـدِها وتَمْكِينِها ، وهبّتْ لهـا ريح دنياهـا ودينها ونفخ فيهـا روح تأميلها وتـأمينها مَلِكُ أملاكها ، وجُـذَيْلُ حُكّاكها (٤٠) ، وأسعدُ نُجـومِ أفْلاكِها ؛ « فُلان » ثِمالُ (٤١) المظلوم ، ومالُ السائلِ والمحروم ؛ ومُحْيِى العِلْمِ ، ومَرْبَعُ ذَويهِ وحـامليه ، ومستَدْعِى التأليفاتِ الرائقَةِ فيه ؛ جعـل اللهُ الدهرَ أقصى أيـامه ، والنجومَ مـراكزَ أعلامِـه ، والأرضَ نُهْبَةَ سيوفِهِ وأقـلامِه ؛ فحامتْ عليه أطيـارُها ، وأهَلَّ إليه حُجّاجُها وزُوّارهـا ، وانتثرت فى يديه شموسُهـا وأقمارُها ؛ من كُلّ أشْعَـثَ ذى طِمْرَيْن ، مَشْنوءِ الأثَرِ والعَيْـن ، محرومٍ محسود ، محَلّأً عن طـريق الماء مطرود (٤٢) ؛ قد جعلوا بُيوتَهم قبورًا ، واتّخـذوا بناتِ أفكارِهم ولدانًا وحُورًا ، ورَكِبُوا الجِدّ ثَانَ صَعْبًا وَذَلُولا ، وعـاهدوا الحرمانَ ليبلُنّـهُ صبرًا جميلًا ﴿ فَمِنْهُمْ مَـنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُـمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بدَّلُوا تَبْدِيلا ﴾ (الأحزاب : ٢٣) . فمـا هـو إلّا أن سطع لهم هذا الشّهَـاب ، وفُتِح بينهم وبيـن رَوْح الله ذلك الباب ، حتـى نفروا خفِافًا وثِقـالًا ، وابتدروا بِطاءً وعجـالًا ؛ ينظرون

(٣٧) الزبرقان : القمر ليلة أربع عشرة من الشهر - سررا الشهر : آخر ليلة فيه .
(٣٨) حمص : اسم يطلقه الأندلسيون على إشبيلية .
(٣٩) التبلّغ بفَضْلة الزاد : الاكتفاء بما بقى منه .
(٤٠) هـذا مـن قولهم « جـذيلها المحكـك » يعنى أنه يستشفـى برأيه كمـا تستشفى الإبـل الجربى بـالاحتكاك بالجذل ، وهو عود ينصب لذلك الغرض .
(٤١) قوله « فلان » : لعله سير بن أبى بكر الذى تولى اشبيلية فى فترة تأليف الذخيرة - ثمال : ملجأ وغياث .
(٤٢) أشعث : متّسخ ، وشَعَث الشعر : تغيّره وتلبّده - الطمر : الثوب البالى - مشنوء : مبغّض - محلأً : ممنوع .

بعيون لم تَرْوَ من ماء وجه كـريم ، ويُصغون بآذان لـم تأنس بِنَغمَة صـديق حَمِيم ؛ قد كـانوا يئسوا من هذا النُشور ﴿ كما يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أصْحَابِ القُبُورِ ﴾ (الممتحنة : ١٣) فاسـألهم أيَّ جانـب يَمّمُوا ، وبأى جنـابٍ خيَمّوا ، وإلى أىّ ملكِ لُبَـابٍ أنجدُوا وأتْهَمُوا ؛ ويـا رحمتا لبحور أدب ، وصدور رُتَب ، كان نظمنـى وإيّاهم وُدٌّ قديم ، ولفَّ هـوايَ بهواهُـم عهدٌ كريم ، لامَنْسِيٌّ ولا مذموم ؛ قد طال ما عاطيْتُهم (٤٣) أكؤسَ الخمول ، على البكاءِ والعويل ؛ فى أيامٍ أوحشَ مـن توديع الشبـاب ، وليالٍ أنكـدَ من مناقشـة الحساب ؛ ألّا يكونـوا قد أخـذوا علىَّ القَضَاءِ عهـدًا مسؤولًا ، ومُتّعوا بـالبقاءِ ولو قليـلًا ؛ حتى يـروا حـظَّ الأدبِ كيف نَفَـق ، وعِـزَّ الإسـلام كيـف اتّفق ، وشَمْلَ الجـوْرِ كيـف تَصَـدّع وتَفَرّق ؛ ويا حسـرتا ألّا ينشقَّ عن حـاتم ضـريحُـه (٤٤) ويُعادَ فـى جسْمِهِ روحُـه ؛ فيرى أنَّ الكـرمَ بعده عُلـمِ ، وأنَّ عُلُوّ الهِمَـمِ بغيرهِ بُدِىءَ وخُتمِ .

ولما سمعت صوتَ المُهيـب ، وتَنَسّمتُ ريح الفَرَجِ القريب ، ووجـدْتُ لسبيلِ التأميلِ مَدْرَجًا ، وجعل الله لى من رِبْقَةِ (٤٥) الخَمُول مَخْرَجًا ؛ طَالَعْتُ حضرَتَهُ المقدَّسةَ بهذا الكتاب على حُكْمِه ، مُطَـرَّزًا بِسمَتِهِ واسْمِهِ ؛ مُستَدِلًا بمَجْـدِه ، متوسّلًا إليه بكـرمِ عَهْدِه ؛ ولِعِلْمِى أنَّ الأدبَ ضالّـةُ اهتبالِه ، ونتيجـةُ خِلالِه ، وأنَّ أهله علـى ذُكْرٍ من أجمـاله ، وبِمَكَانٍ مكيـنٍ من كَماله ؛ ولمّـا سُئِلْتُ أيضًا انتساخَ هذا الدّيـوان ، ورأيتُ شرَهَ أهلِ الزّمان ، إلـى الاقتباس من نُوره ، بما يلتقطونه مـن شذُورِهِ ، أحببتُ أن يجوبَ الآفاق ، وتسيرَ به الرفـاق ، وعليه مِن اسمِ مَنْ له جُمع ، وإلى جوانِبه العَليّة رُفع ، طرازٌ به تَنْفُقُ سُوقُـه ، ولا تضيعُ إن شاء الله حُقُوقُه .

* * *

(٤٣) عاطيتهم : ناولتهم .

(٤٤) حاتم الطائىّ يضرب به المثل فى الكرم .

(٤٥) الربقة : الحبل أو الحلقة تربط بها الدواب .

أبو عبد الله محمد بن عياض اللبلى

(ت ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م)

صنّعه ابن سعيد فى كتابه « المُغرِب » بين علماء لَبْلَة ، ووضعه فى « رايات المبرّزين » فى القسم المخصّص لقرطبة ، ودوّن ابن الأبَّار النِّسبتين ، ونعته صفوان بن إدريس بالقرطبىّ كان - كما وصفوه - نحويا « متقدّما فى الآداب ، لاحقا بأفذاذ الشعراء والكتاب » .

ويعدّ من كتاب المقامات ، وقد نهج فيها نهج غيره ممن وصلوا بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره ، وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف لبعض المشاهد والبلدان ، وله مقامة « ميزان الأشواق ومعيار المحبين والعشاق » أو المقامة « الدوحيّة » ، وموضوعها الغزل وقد أبان فيها عن لطافته ومعرفته وانطباعه ، وذكر ابن سعيد فاتحة هذه المقامة وأبياتا بعدها ربما كانت جزءا منها .

ومن شعره :

تقاذفت الأيامُ بى وَسْطَ لُجَّة ... من الهجر لايُبدى لها الوصلُ ساحِلا

لعلّ الرضا يُدنى من القمر السُّها ... ويجمُعنا غُصْنين : غَضًّا وذابِلا

ومن مفرداته :

ومَاءِ وَجْهٍ لاتَرى ... للشَّمْس فيه طُحْلُبا

* * *

فقرة من مقامته :

نَبَتْ بى معاهدُ الأحباب ، فى رَيْعان الشباب ، لقَيْنَة أَذْكَت نارَها ، وأَلْقَت بمَسْقط الرأس جِرانَها ، فـامْتَطيتُ اللّيل طِرْفًا ، ومزّقت السِّنان طَرْفا ، وجعلتُ أمسح الأرض نَجْدًا ووَهْدًا ، وأستطعم الآمال صابًا[1] وشَهْدًا كالعنز لا يستقرّ بمنزِل ، ولا وُجد عن رحلة بمعزِل ، أصعد من

(١) نبتْ بى : لم أجد بها قرارا - ريعان الشباب : أوّله - قينة : أمة ، مغنية كانت أو غير مغنّية - ألقت جرانها أى استقرت وأقامت ، والجران هو باطن العنق من البعير وغيره - طِرْف : جواد - الصاب : عصارة شجر مرّ.

خُصور القِيعـان إلى رَوادِف الـرِّعان ، وأَنحـدرُ من مُتُـون الهِضَاب إلـى بُطُون اليَبـاب ، حتى عَجَمَتْنى أنيابُ النوائب ، وتقاذفت بى صُدُور المشارق إلى أَعْجاز المغارب ، وقد حَلَلْتُ من الاغتراب بين الذِّرْوة والغارب (٢) .

وكنت أَكْلَف بالبلْدة الحمـراء كَلَفَ الكَمِىّ بـالصَّعْدة السَّمـراء ، وأَحِنّ إلى جِـوارها ، حَنين النـاقة إلى حُـوارها ، لِلَّـذى اشتُهر من حُسْنهـا وطِيبها وخِصبها ، واختيـالها فـى حُلَل شَرْبها وعُصْبها (٣) ، فهدانى إليها حادِى الاغتراب ، وتطـاوحتْ بى إليها طوائحُ الاضطراب ، ولا أملَ إلّا اعتلاقُ خِلٍّ ظَرِيف ، والإصغاء إلى نبأ طريف . وأنشد فيها :

عَـزْبَـدَ بـالهَجْـرِ والعِتَـاب	نَشْـوانُ مـن خَمْـرة الشبـابِ
طفـا علـى ريقـه حَبَـاب	فـاحتجـبَ الخمـرُ بـالحبـاب
أنكـرْت إلّا سَقـامَ طَـرْفٍ	وأىُّ سيـفٍ بـلا ذُبـاب
إنْ أنـا لاحظتُـه تَـوارى	مـن دَمْعـة العيـن فـى حِجـاب
أبصـرتُـه جَـذْولًا ووُرْقًـا	مـن دَمْـع عينـىَّ وانتخـابـى
لـم تَسْبِنـى سَلْـوَةٌ وحُـبّ	إلّا وطِـرْف السُّلُـوّ كـابـى (٤)

* * *

(٢) القيعان : جمع القاع ، وهو الأرض المستوية المطمئنة عما يحيـط بها من الجبال - الرعان : جمع رَعْن وهو أنف يتقدّم الجبل - اليباب : الأرض الخراب - الذروة من السنام وغيـره : أعلاه وأشرفه - الغارب : ما بين سنام البعير وعنقه .

(٣) إكلَف : أحِبّ وأولع - الكمىّ : الشجاع لابس السلاح -الصعدة : القنـاة المستوية - الحوار : ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يُفطم ويُفصل - العَصْب : ضرب من برود اليمن .

(٤) الحباب : فقاقيع على وجـه الماء والشارب - ذباب السيف : حدّ طرفيه - الـورْق : جمع الأورق وهو ما كان لونه لون الرماد ، ويقال للحمامة : ورقاء - كابى : عاثر .

أبو حامد الغرناطي

(٤٧٤ - ٥٦٤ هـ / ١٠٨٠ - ١١٦٩ م)

محمد بن عبد الرحيم بن سليمان ، أبو حامد أو أبو عبد الله ، ويعرف بالقيسي والأندلسي والغرناطي والأُقليشي .

ولد في غرناطة ، ويحتمل أنه عاش في أُقليش زمنًا ، وفارقها حين سقطت في يد المسيحيين ، طاف بالأندلس كلّه ، ثم فارقه إلى غير رجعة عام ٥٠٠ ، ومنذ تلك اللحظة فإن المصدر الوحيد لحياته هو كتاباته نفسها ، حين يشير إلى البلاد التي زارها ، والناس الذين عرفهم ، والآثار التي استرعت انتباهه ، والحيوانات غير المألوفة التي اعترضت طريقه ، أو سمع الآخرين يتحدّثون عنها ، أو عن الحكايات الخارقة التي يقصونها عليه ، والأحداث العجيبة التي شاهدها .

في بداية رحلته خارج بلاده شاهد جانبا من بلاد المغرب في معناه الشامل ، وفي عام ٥١١ أبحر من تونس المدينة متجهًا إلى الإسكندرية ، وفي رحلته هذه مرّ على جزيرة سردينية وصقليّة ، وفي الإسكندرية زار « فنارها » وكان لما يزل قائمًا ، وبعدها اتّجه إلى القاهرة فوصل إليها عام ٥١٢ ، وأمضى فيها ثلاث سنوات ، تنقل بين آثارها ، وتلقى العلم على كبار شيوخها ، واتجه بعدها إلى دمشق حيث درس الحديث فيها ، وبعد شهور رحل إلى بغداد ، فوصل إليها عام ٥١٦ ، وبقي فيها طوال أربعة أعوام . وفي نهايتها اتجه إلى إيران ، حيث نلتقي به في أبهر عام ٥٢٤ ، وفي العام التالي عبر بحر قزوين ، وبلغ مدينة سجسين ، وهي على مصب نهر الفُولْى ، وفيها أقام واستقرت أسرته ، ولكن هذا لم يمنعه من القيام بثلاث رحلات إلى خوارزم ، وسمحت له بأن يعرف بلغاريا والمجر ، وكان موجودا بهذه عام ٥٤٥ ، وهناك كان يمتلك منزلا ، وتزوّج ابنه الأكبر حامد بسيدتين من أهل تلك البلاد عام ٥٥٥ وأقام بها نهائيا . وبعد ذلك بأعوام ثلاثة واصل رحلته إلى المناطق الباردة في شمال أوربا ، عاد بعدها إلى خوارزم حيث رحل إلى مكة حاجا عام ٥٤٧ ، وبعد الحج عاد إلى بغداد ، وفي عام ٥٥٧ فلتقي به في الموصل . وفيها ، وهو في الثمانين من عمره ، بدأ في تأليف كتابه « تحفة الألباب » ، وأكمله في ثلاث سنوات ، ثم انتقل بعدها إلى حلب ، ثم إلى دمشق حيث توفي .

لم يدون أبو حامد انطباعاته عن رحلاته فى شكل ملاحظات ، وإنما أحيا النمط الأدبى القديم لكتب العجائب ، ووضع لبته جديدة فى الأدب الجغرافى العربى ، ورغم ميله إلى الضرائب يتميز عرضه بالحيوية والتفنن ، وبعد تمحيصه يمكن استخراج نتائج طيبة منه فى مختلف النواحى ، تتصل بالبلاد التى زارها أو أقام فيها .

وله كتاب آخر هو « المُعْرِب عن بعض عجائب المغرب » ، ألفه خلال إقامته فى بغداد ، وصل إلينا فى مخطوطه وحيدة ، ويتضمن معارف علمية ، تتصل بالأحياء ، والجغرافيا ، والفلك ، والعلوم ، والدين ، ويتضمن شعرا جلّه نظم متصل بهذه المواد .

* * *

من عجائب القبور والموتى :

أنّ فى أرض مصر بيتًا تحت الأرض ، فيه رُهبان من النصارى ، وفى البيت سرير صغير من خشب ، تحته صبى ميت ملفوف فى نِطْع قديم مسروق مشدود بحبل ، وعلى السرير مثل الباطية [1] الكبيرة من خزف منزجج أخضر ، وفى الباطية أنبوب من نحاس فيه فتيل ، إذا اشتعل الفتيل بالنار وصار سراجا خرج من ذلك الأنبوب الزيت الصافى الحسن الرائق ، حتى تمتلىء تلك الباطية ، وينطفى السراج بكثرة الزيت ، فإذا انطفى لم يخرج من الزيت شىء ، وإذا خرج ذلك الصبى الميت من تحت السرير لم يخرج من الزيت شىءوالباطية يرفعها الإنسان فلا يرى تحتها شيئًا ، ولا موضعًا فيه ثقب . وأولئك الرهبان يعيشون من ذلك الزيت ويبيعونه ، ويشترونه (هكذا) الناس منهم ، فينتفعون به فيما يقال ، وهذا من عجائب الدنيا .

وفى طريق قونيا غار تحت الأرض ، يسكنه جماعة من النصارى ، وفيه بيت كبير فيه رجال موتى ، بعضهم قيام وبعضهم ركوع وبعضهم سجود ، فلا يُدرى من أى أمّة هم ، وعليهم ثياب لاتبلى ، والنصارى والمسلمون يتبرّكون بهم ، وأمرهم شائع يراهم الناس . ولقد أخبرنى رجل من أهل با شغرد اسمه داود ابن على ، قال : دخلت ذلك الغار فرأيت هؤلاء الرجال فيه ، فجئت إلى رجل منهم راكع ، فأخذت بأسفل عنقه ورفعته حتى استوى قائما ،

(١) النطع : بساط من جلد - الباطية : إناء كبير.

ثم تـركته فعاد راكعـا كما كـان . وعندهم بيـت كبير فى داخـل الغار ، فيـه موتى كثيـرة ، من جملتهم امرأة عنـدها مهد فيه طفل قـد انحنت عليه كأنهـا ترضعه ، وهى ميتة لـم يسقط من جسدها شىء .

وفى زمان عمـر بن الخطاب - رضى الله عنه - حفـر باليمن فى صنعاء حفيـرة ، فوجدوا رجلًا جالسًا عليه ثياب لم تَبْلَ ، ويده على رأسه كهيئة الأحياء ، فأشالوا يده عن رأسه ، فسال الدم من جرح كان فى رأسه ، فتركوا يده فعادت على الجرح وانقطع الدم ، وفى يده خاتم من فضّة مكتـوب عليه : عبد الله بـن التام (أو الشامـر) ، فسأل عمـر بن الخطاب رضـى الله عنه كعب الأحبار عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا من جملـة القوم الذين آمنوا بالحواريين الذين كانوا علـى دين عيسى عليه السـلام ، وكان له أصحاب فـأحرقهم ملك اليمـن فى الأخدود ، الذيـن ذكرهـم الله عز وجل فـى القرآن ، فقـال تعالى : « قُتِـلَ أَصْحابُ الأُخْـدُود . النارِ ذاتِ الوقُود . إذْ هُـمْ عَلَيْها قُعُود . وهُمْ علـى ما يَفْعلون بالمـؤمِنين شُهود »[2] . وقُتل عبـد الله ابن التام ودفن علـى هيئته ، فأمر عمر أن يردّ كمـا كان ، وأن يُخفى مكانه حتـى لا ينبشه الأعداء ، ففعلوا ذلك .

* * *

وفى وسـط مصر مسجد فيـه قبر لرجـل يقال له عفّـان ، وهو بين طـريقين فى ركـن ، وله شبابيك من حديد ، كل من مرّ به مـن الناس يقول : « رحمك الله يا عفّان » ، فأعجبنى ذلك ، وسألت علماء مصر عنه فقالوا : هذا عفّان ، كان رجلًا خيّاطا فاشترى يومًا غلامًا زنجيًّا شابًّا ، فجعله يخدمه ، فلما كان يومًا أمره عفان أن يسجر التَّنُّور[3] ليخبز فيه ، فسجر التَّنّور ، وشهقت النار فى التنـور ففرح الأسود ، فطرب لشهيق النـار ، ومضى إلى ثياب عفان التـى كان يتجمّل بها ، فألقاها فى التنـور ، وعمامتَه ، وكلّ ما كان له ، فرأى عفان ما صنـع العبد فرزقه الله صبرًا وحلمًا ، فأخـرج العبد وزوّده وأعتقه ، وأشهد على عتقـه ورجع إلى البيت ، وقـد سمع الناس بما فعل الزنجىّ بعفان ، وما فعل عفان فى حقّه ، فوقع لعفان فى قلوب الناس محبّة لما يريد

(٢) سورة البروج ٤ - ٧
(٣) التنور : الفرن يخبز فيه - يسجره : يملؤه وقودًا ويُحميه .

الله تعالى من الخير ، فجاء إليه رجل من كبار التّجار ، وقال : إن لى بضاعة تصلح للهند ، وقد اخترت أن تذهب بها ، فما ربحت فلك كذا وكذا ، واتفقا وجّهزه ذلك التاجر .

وخرج عفان ومعه أموال كثيرة لذلك الرجل ، ووصل إلى عدن ، وأقام بها ما شاء الله تعالى ، ثم ركب فى البحر ، وذهب إلى بلاد الهند ، وباع ماله الذى كان معه وربح ثم انصرف ، ونزل السفينة فعصفت الريح عليهم ، فألقت السفينة إلى بلاد الزنج ، فخاف التجار على أنفسهم ، واضطروا إلى الدخول خوفًا من الغرق ، فلما وصلوا إلى البرّ استقبلهم الزنوج ، وجعلوا يأخذون رجلًا رجلا يحملونه إلى الملك ويردّونه إلى السفينة ، ولا يكلّمهم الملك بشيء ، حتى أخذوا عفان ، فأُدخل على الملك ، فلما رآه الملك قام إليه ، وقبّل يديه ورجليه ووقف بين يديه ، ففزع عفان ، فقال الملك للترجمان قل له : ألست عفّان الخياط بمصر ، الذى اشتريت غلامًا زنجيًّا وأحرق ثيابك وأعتقته وزوّدته ولم تضربه ولم تؤذه ، وقد أساء إليك ؟ فقال عفان : نعم أيّها الملك ، فقال الملك : أنا عبدك الذى أعتقتنى ، وأعطانى الله تعالى هذه النعمة ببركة إحسانك إلى ، وجميع هذه المملكة لك ، فاجلس عندى ، وأنا ملك هؤلاء وأنت ملك علىّ .

فحمد اللهَ تعالى عفانُ ، وقال : أيها الملك أنت لى كالولد ، وبلادكم لا تصلح لى لكثرة الحرّ وعدم الجنس ، فأمر له الملك بسفينة ، وحمّل معه من الأموال مالا نهاية له ، ووهب الجميع له ، وبعث معه من عبيده من يوصله إلى بلاده ، وخرج بمال لا يدرى نهايته .

وكان عفّان رحمه الله لا يردّ سائلًا ، وعمل من الدور والخانات والدكاكين والحمّامات كثيرًا ، وأوقف الكلّ على فقراء المسلمين ، وهذه داره جعل فيها هذا المسجد ، وحفر فيه قبره ، وكان يصلّى فى قبره كلّ ليلة ، وجميع أمواله الآن وقف على قبره ، فى كل يوم اثنين وخميس وجمعه يحضرون (هكذا) الوكلاء ، ومعهم الثياب للرجال والصبيان والبنات ، والدارهم ، ويدخلون المسجد ، ويأتون الفقراء من خارج شبابيك الحديد التى جعلت فى حيطان المسجد فيقسّمون على الفقراء أموالًا كثيرة ، وكل من عبر عليه يقول : « رحمك الله يا عفان » ، كلّ يوم ليلة آلاف النساء والرجال والصبيان ، وكنت أقف عند قبره ، وأرى كثرة من يدعو له بالرحمة كلّ ساعة ، حتى الصبيان الصغار أبناء سنتين وخمس سنين ، فكنت أتعجب ممّا سهّل الله له من الخير حيًّا وميّتًا .

ولقد حدّثت عنه بمصر رجلًا من أهل المغرب وصل إلى مصر وأراد الحج وأن يجاور بمكة ، وكان عنده آلاف من الأموال فجاء إلى إمام جامع عمرو بن العاص ، وكان رجلًا صالحًا من العلماء ، فقال له ذلك التاجر : يا سيدى جئت إليك فى حاجة لك فيها ثواب ، ولى فيها معونة ، فأسألك أن تقضى حاجتى ولا تردّنى ، فقال : أفعل إن شاء الله تعالى . قال : إنى أريد الذهاب إلى الحج ومجاورة بيت الله تعالى ، وعندى شىء من المال أودعه عندك حتى أرجع من الحج فإنى أخاف عليه إن كان معى .

فأخذه الفقيه ، ووضعه فى مخزنه ، وذهب صاحب المال إلى الحج ، وكان للفقيه الإمام بنات كبار ، ولم يكن له مال يجّهزهم به للأكْفاء ، فقالت له زوجته : إن هذا المال هو وديعة عندك ، نشترى به عقودًا وحليًا لبناتك ونجّهزهم ويدخلون عند إكفائهم ، ونستريح من همّهم ، فإذا حصلوا عند أزواجهم وجاء صاحب المال جمعنا ذلك الحلى والجواهر وجعلناه ذهبا ، وبقيت بناتك عند أزواجهم .

فمازالت به حتى فعل ، وزوّج جميع بناته ، وأخرج مع كلّ واحدة جملة الحلى والجواهر .

فلما كان بعد ثلاث سنين جاء صاحب المال فدخل على الإمام فى الجامع ، وسلّم عليه ، ورحّب به ، وقال له : وديعتك غدًا تأخذها . فقال : متى شئت . فرجع الإمام إلى داره مهموما ، وقال لأهله : أما أنا فإنى غدا فى السَّحَر أخرج من مصر وأذهب إلى البادية ، بحيث لا يسمع لى خبر ، فإن صاحب المال قد جاء ، وأنا أستحى من الفضيحة .

فلما كان بالليل خرج الفقيه وأراد الذهاب على وجهه هاربًا ، فجاء إلى درب عفان وهو مغلق ، ورأى مسجد عفان مفتوحا ، فدخل فى المسجد ، فخرج عفان من داره متنكرا ، فدخل المسجد فرأى الإمام فى المسجد فجلس إليه ، وسلّم عليه ، وكلّ واحد منهما لا يعرف صاحبه ، فسأله عفان من هو وما حاله . فقال له الإمام : من أنت ؟ فقال عفان : رجل غريب ، فاطمأن الإمام وقال له : أنا إمام جامع عمرو ، وقد أصابتنى مصيبة ، ووصف له حاله ، وقد عزمت أن أفرّ من هذه البلدة ولا أعود إليها خوفًا من العار . فقال عفان : أن يسّل الله تعالى لى ولك خير من هذه . ثم قام فخرج وأغلق باب المسجد من خارج حتى لا يخرج

الإمام ، ودخل داره ، وأخرج على رءوس العبيد أكياسًا فيها من الذهب مثل ما كان عند الإمام وديعة ، وقال للإمام : خذ هذا قرضًا عندك ، تـؤديه إلى صاحب المال إلى أن تبيع أنت حلى بناتـك بحيث لا يشعر أحـد . ففرح الإمام ، ورجع إلـى بيته ، والمال يحمـل بين يديـه ، وهو بحمد الله تعالى ، ويدعو لعفان .

فلما كان بالغداة جـاء المودع صاحب المال ، فأعطاه إيّاه فقـال : أيّها الإمام هذا ليس عين وديعتى وإن كـان الوزن والعدد واحدًا ، ولكنى لا آخـذه حتى تخبرنى بم غيـرّت مالى ؟ وماذا ألجأك إلى ذلك ؟ فأخبره بالقصّة على وجهها ، فقال المودع : أيها الشيخ ، أمّا الوديعة فحقّ الله تعالى كنت أطلب له مستحقًّا وقد وجـدتك ، فالمال حقّك ، ولا شكر إلّا لله تعالى . ففرح الـرجل وأهل بيتـه ، وحمدوا الله تعالـى . فخرج الإمام وحمـل المال إلى عفّـان وأخبره بالخبر ، فقال لـه عفان : الحمد لله الذى أراح سرّك ، ووسّع عليك . إن هذا المـال لم أخرجه إليك ليرجـع إلىّ ، إنما أخـرجته هبة لك لأجل الله تعـالى ، فصار الإمـام من الأغنياء ببـركة عفان ، وكم لعفان مثل هذا وأكثر منه سرًّا وعلانية .

وأَمْر عفان مشهور بمصر وفى جميع المغرب ، على ألسن المسافرين ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، فهو ميّت خير مـن كثير من الملوك الأحياء الذين يبخلون بـالدنيا على أنفسهم ، ختم الله لنا ولجميع المسلمين بالخير فى الدنيا والآخرة .

* * *

رشيد الدين الوطواط

(ت ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م)

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العمرى ، الكاتب المعروف بالوطواط لضآلة جسمه وسرعة حركته وحدّة لسانه ، وينسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وُلد ببلخ فى خراسان بين سنتى ٤٨٠ ، ٤٨٧ ، وتلقى ثقافته العربية والدينية بالمدرسة النظامية ، وأتقن التحدث والتأليف باللغتين العربية والفارسية ، ورحل إلى خوارزم ، وتولى فيها رئاسة ديوان الإنشاء فى عهد الملك أبى المظفر علاء الدولة أَتْسِزْ بن قطب الدين محمد خوارزم شاه منذ توليه الحكم (٥٢٢ - ٥٥١) ، وقد أبعده أَتْسِزْ مدة ، وظل فى عمله عندما تولى ابنه إبل أرسلان (٥٥١ - ٥٦٨) وفى عهده أتمّ كتابه « حدائق السحر » وأهداه إليه ، وفى أوائل عهد السلطان تكش بن إبل أرسلان أعفى من منصبه ، وتفرغ للعبادة حتى توفى سنة ٥٧٣ ، فى خوارزم ، وقيل سنة ٥٧٨

اتصل الوطواط بالكثير من الفضلاء والأدباء ، وجرت بينه وبينهم المراسلات ، منهم : الإمام ضياء الدين صدر الأئمة ، وجار الله الزمخشرى ، وعلى بن أحمد الكاتب الملقب بمنتجب الدين .

ومن أشهر مؤلفاته كتاب « غُرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائض الفاضحة » نحا فيه منحى تأديبيا تهذيبيا ، وكتاب « حدائق السحر فى دقائق الشعر » ويحوى مباحث بلاغية مختلفة من البيان والمعانى ، ومن أصناف البديع مثل الجناس والسجع والطباق والتورية ، بالإضافة إلى الفنون الشعرية التى عرفها الفرس كالمربّع والمسمّط والموشّح ، وقد ألفه باللغة الفارسية ، ووزّع فيه الشواهد بين هذه اللغة واللغة العربية .

ومن مؤلفاته التى أشارت إليها المصادر : تحفة الصِّدِيق من كلام أبى بكر الصِّدِّيق - فصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب - أنس اللهفان من كلام عثمان بن عفان - مطلوب كلّ طالب من كلام على بن أبى طالب ، وله أيضا ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية ، ولكن شعره دون نثره جودة .

وقد أشاد به من ترجموا له ، فقالوا : « كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشىء فى حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ، ويمليهما معًا » .

والوطواط ممن تعمدوا السجع فى كتاباتهم ، منوّعا أشكاله ، متكلِّفا غيره من ضروب المحسِّنات اللفظية المختلفة .

* * *

قال الوطواط يصف أبا سعد الهروىّ :

الإمام أبو سعد ، وما أدراك ما الإمام أبو سعد ؟ سعدٌ كلّه ، خيرٌ قولُه وفعله ، صاحب جيوش الفصاحة ، وما لك رقاب البلاغة ، وناظم عِقد المحامد ، وجامع شمل المكارم ، وناشر أرديه الفضل والكرم ، وعامر أبنية الأدب والحِكم .

للهِ درُّ إمام كلّه أدب ... بفضله تتحلّى العجم والعرب .

الله يعلم أنى و إن شَطَّ المزار ، وشَطَحت الديار[1] ، لا أقطع أكثر أوقاتى ولا أُزجى أغلب ساعاتى ، إلّا فى مدح معاليه ، وشرح أياديه ، ولو أنفقتُ جميع عمرى فى ذلك ، وسلكتُ طولَ دهرى تلك المسالك ، وكيف لا أبالغ فى ثنائه ، ولا أواظب على دعائه ؟ وهو الذى رَفَع قَدْرى ، وشرح للآداب صدرى ، وسقانى كؤوس العلم وأحشائى صادية ، وكسانى حُلل الفضل وعَوراتى بادية ، واغترفت ما اغترفت من بحاره واقتطفت من ثماره .

وأنت الذى عرّفتنى طُرقَ العُلا

وأنت الذى أهْدَيْتنى كلّ مقصد

(١) شطّ وشطح : كلاهما بمعنى بَعُد .

وقال فى الإمام ضياء الدين صدر الأئمة :

هذا ولو عطفتُ أَعِنّه الكلام وصرفت ألسنة الأقلام إلى شرح ما تضاعف علىّ وترادف إلىّ، من ألطاف صنائع نبله، وأصناف بدائع فضله، لعجزت عن ذكر أيسرها، فضلًا عن شكر أكبرها، ولَعَيِيت عن حَصْر أقلّها، فضلًا عن نشر أجلّها . كيف وهو الذى مدَّ بضبْعى [٢]، وجدّ فى رفعى، وَأُركَبَنى صهوة العُلا وأشربنى قَهْوة المنى، وعَرّفنى فى محافل الوُلاة الصِّيد، ومنازل السَّراة الصناديد [٣]، حتى ملْكتُ بيُمْن تَرْبيته ما ملكت، وأدركت بحسن تَقْويته ما أدركت، من الذكر الجميل أثره، والقدر الجليل خطره، والعمر العميق بحره، والفهم الدقيق سحره، والنثر الرائق رُواؤه، والشعر الفائق بَهاؤه، والشهرة التى عرفها سُكّانُ الأَخْبيةَ، وقُطّان الأبنية، وَعِلمها أربابُ الوبر، وأصحاب المَدَر[٤]، وتحدّث بها الرُّكبان فى الفَلَوات والنُّسوان فى الخَلَوات، والرُّعاة فى أَكْناف الرياض، والسُّقاه على أطراف الحياض .

ما هذا كلّه إلّا بميامن تَعْريفه، ومحاسن تشريفه، جزاه الله عن مساعيه المشكورة وأياديه المذكورة خيرًا، وزان حَضْرته بالآلاء والنعماء .

* * *

وقال فيه أيضًا :

للهِ درّه من صَدْر مَلَكَ نواصيِ البلاغة، وأدركَ قَواصى الفصاحة، ونَشَر أرديةَ الآداب، وعَمَر أَبْنية الأَحْساب، وَجَمع أَقْسام الفضائل، ورَفَع أَعْلام الفواضل، ومن قُدوة تَقْتدى بآثار القروم [٥]، وتَهْتدى بأنوار النجوم .

---

(٢) الضَّبْع : وسط العَضُد .
(٣) الصِّيد : جمع الأصيد وهو كلّ ذى حَوْل وطوْل من ذوى السلطان - السراة الصناديد : الشرفاء الشجعان .
(٤) الأخبية : البيوت من الوبر أو الشعر أو الصوف - أرباب الوبر : سكان الخيام أهل البادية - أصحاب المدر : سكان البيوت المبنيّة، والمدر هو الطين .
(٥) القروم : السادة المعظمون .

وَتَقرّ بلقائه الأعين ، وتُقِرّ بآلائه الألْسُن ، وتَعْتَزّ بأقلامه المحابر ، وتَهْتَزّ بأقدامه المنابر ، ومِن إمامٍ لا يَزِلّ قَدَمُ فتواه ، ولا يَضِلّ قِدَمُ تقواه ، ولا تَنْدِرس آيةُ رُشْده ، ولا تَنْتكس رايةُ زُهْده .

وها أنا أحدُ المنخرطين فى زُمرَ خدمه ، الملتقطين لدُرر نعمه ، كنت فى إِسار القِلّة ، وأَطْمار الذِّلّة (٦) . صِناعتى فاسدة ، وبضاعتى كاسدة ، ودُموعى هامية ، وضُلوعى دامية ، لا أجدُ نُجْعة ، ولا أَرِد شِرعة ، (٧) ولا أرى إلى الأمانى سبيلًا ، ولا على المباغى دليلًا ، فقوىّ عَضُدى ، وروّى كَبِدى ، وأَصْلح أَحْوالى ، وأَنجح آمالى ، وأَفادنى بعد خُمول الذِّكر نباهةً واضحةَ الشِّيات (٨) ، وزادنى بعد نُزول القَدْر وجاهةً لائحة السِّمات ، وأَنجْدنى على كلّ مُنْية حتى مَلَكْتُ رايتها ، وأَرْشدنى إلى كلّ بُغْية حتى أدركتُ غايتها ، وحصّل لى ذِكرًا دائرًا على الألسنة ، سائرًا فى الأمكنة غنّت به الرِّفاق ، وطَنّت به الآفاق . اللّهُمّ احرسْ مُهْجته ، مُهجة العلم والوفاء ، والحُكم والحياء ، ووفّقنى لشُكر حسناته ، ونَشْر مَكْرُماته بحقّ محمّد وآله الأخيار.

* * *

وكتب إلى جار الله الزمخشرى :

لقد حازَ جارُ اللهِ أدام اللهُ جمالَه
فضائل فيها لا يُشَقّ غُبارُه
تَجَدَّد رَسْمُ الفَضْل بعد اندراسِه
بأيّامِ جارِ اللهِ فاللهُ جارُه

أنا منذَ لِفَظَتْنى الأقدار من أوطانى ، ومعاهد أهلى وجيرانى ، إلى هذه الخطّة التى هى اليوم بمكان جار الله – أدام الله دولته – جَنّة الكرام وجُنّة من نكبات الأيام . كانت قُصوى

(٦) زمر : جمع زُمرة وهى الفوج أو الجماعة – الإسار : الأسْر والتقييد أو ما يُقيّد به الأسير – الأطمار : الثياب الخلِقة البالية .

(٧) النجعة : طلب الكلأ ومساقط الغيث – الشِّرْع هو تناوُل الوارد الماء بفمه ، والشريعة : مورد الماء .

(٨) الشيات : العلامات ، واحدتها : شِيَة .

مُنْيتي ، وقُصاري بُغْيتي أن أكون أحد المـلازمين لسُدَّته الشريفة [٩] التي هي مُخَيّم السيادة ، وُمَقبَّل أَفْواه السادةَ . مَنْ أَلْقـى بها عصاه ، حاز في الدارين مُناه ، ونـال من المَحَلَّيْن مبتغاه ، ولكن سوء التقصير ، ومانع التقدير ، حرمني من تلك الخدمة ، وحَرَّم عليّ تلك النعمة ، والآن أظن- وظن المؤمن لا يُخطيء - أنّ آفل جَدِّي هَمَّ بالإشراق ، وذابل إقبالي إلى الإبراق .

ومع هـذا أرجو إشارة تصدر مـن مجلسه المحروس ، إما بخطـه الشريف فإن فـي ذلك شرفًا لي يدوم مدى الدهور والأيام ، وفخرا يبقى على مَرّ الشهور والأعوام ، و إما على لسان من يـوثق بصـدق مقالتـه ، ويعتمد علـى تبليغ رسـالته ، مـن المنخرطيـن في سلـك خدمتـه ، والراتعين في رياض نعمته ، ورأيه في ذلك أعلى وأصواب .

* * *

وكتب عن اتصاله بالزمخشري وحضوره مجالسه :

قد جـرى بيني وبينه في حيـاته ، وأوقات راحاتـه مما يتعلّق بفنون الأدب وأقسـام علوم العرب ، مسائل أكثر من أن يُحْصـى عددها أو يستقصي أمرها ، رجع فيها إلـى كلامي ، ونزل على قضيّتـي وأحكامي ، فـالسعيد من إذا سمـع الحقّ سكتت شقـاشق لجاجـه ، وسكنت صواعق حِجاجه ، فمنها مسألة « الظبى » [١٠] التي هي جمع « ظُبَة » ، فإنه كتب بخطّه أنها من ذوات اليـاء وأصلها « ظبيـة » . فقلت أنا : إنهـا من ذوات الـواو وأصلها « ظبـوة » ، فلما امتدّت المناظرة ، واشتـدت المذاكرة ، بعثت إليه كتاب « الصِّحَاح » بصـدق قولي ، فهجّن الكتاب وقال : « إنه محشوّ بالتحريفات ، مشحـون بالتصحيفات » ، فبعثت إليه « سرّ صناعة الأعراب » ، لابن جِنِّي ، فقـال : « هو رجل وأنا رجل » ، فبعثت إليه كتـاب « العين » ، فوضع للحقّ عنقه ، وسلك مناهـج الإنصاف وطرقه ، واسترد خطه ، ومزّقه تمزيقًـا ، وخرّقه تخريقًا ، بمرأى ومسمع من صدر الأئمة ضياء الدين أدام الله إجلاله وزاد إقباله .

* * *

---

(٩) السدّة بمعنى باب الدار أو الساحة بين يديه أو الظلّة على الباب أو الفناء .

(١٠) الظبة : حدّ السيف والسنان والخنجر وما أشبهها .

من كتاب « حدائق السحر » :

فى حكاية عن أبى عليّ بن سينا أنه جلس يومًا فى السوق ، فاجتاز به قرويّ يحمل على كتفه حَمَلًا لبيعه ، فسأله أبو على : بكم هذا الحَمَل ؟ فقال القروى بدينار ، فقال أبو على : اترك الحمل هنا واحضر بعض قليل لأعطيك ثمنه . وكاد القرويُّ يُنْزِل الحمل عن كتفه ، ولكنه علم أنه يحادث أبا عليّ ابن سينا ، فالتفت إليه وقال : « إنك حكيم عالم ، فلم جهلتَ أنّ الحمل دائما فى مقابل الميزان ، ومادمت لم تزن الحمل فلن تأخذه إلى بيتك » .

وتعجّب أبو على من هذا الكلام ، وضاعف للقرويّ ثمن حَمَله . وذلك أنه إذا نظرنا إلى لُطف هذا الكلام وجدنا أن خاطر السامع ينصرف إلى الحمل الذى هو من صغار الضَّأن ، والميزان الذى يزنون به الذهب والفضة ، بينما قصد القرويّ بكلامه « برج الحمل » و« برج الميزان » اللذين يتقابلان دائما ، فقال فى ذلك نادرة مناسبة لعلم الحكماء تليق بأبى عليّ .

* * *

ابن طفيل
(ت ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م)

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل . ولد فى مدينة قريبة من قرطبة بالأندلس ويرجع الدارسون أنه ولد بين عامى ٤٩٥ هـ و ٥٠٥ هـ .

وتشير القرائن إلى أنه درس الفقه والعلوم الدينية ، ومن ثم فقد ذكر أنه عمل بالقضاء ، فضلا عن ممارسته مهنة الطب . وعلى الرغم من إشارة بعض المؤرخين إلى أنه تتلمذ على ابن ماجة الفيلسوف ، فهناك من ينفى ذلك اعتمادًا على إشارة ابن طفيل نفسه فى « حى ابن يقظان » .

وإذا كان هناك شىء من الغموض يشوب البداية الأولى فى حياة ابن طفيل ، فإن أهم فترات حياته وأكثرها وضوحًا هى تلك الفترة التى عاشها بالقرب من أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين ، وجدير بالذكر أنَّ السلطان أبا يعقوب كان مثقفًا معنيًا بالثقافة العربية التقليدية وبالعلوم العقلية والطبية ، ويُذكر أنه عين ابن طفيل طبيبا له إلى أن تقدّمت به السن ، فعين ابن رشد الفيلسوف خلفًا له فى عام ٥٧٨ هـ .

ارتبط اسمه بقصته الفلسفية حى بن يقظان ؛ ذلك أن المؤرخين أشاروا إلى وجود مؤلف ضخم له فى الطب ، كما أشار ابن رشد أيضا إلى وجود مؤلف له فى النفس ، غير أنَّ هذين المؤلفين فقدا ، ولم يعد موجودًا من نصوص ابن طفيل سوى نص « حى بن يقظان » . ومن هنا اعتبر هذا النص مصدرًا وحيدًا لفلسفته .

وتحكى قصة حى بن يقظان عن طفل وليد وجد فى جزيرة معزولة عن المجتمع الإنسانى ولا يقطنها بشر . وقد تعهدت غزالة تحيا فى هذه الجزيرة الطفل الوليد بالرعاية ، فأرضعته واعتنت به عناية الأم بابنها ، ثم استطاع الطفل أن يتآلف مع سكان الجزيرة من الحيوانات ، ويتوصل إلى لغة للتفاهم معها ، وأتيح له بعد ذلك أن يتدرج معرفيًا – فى مراحل نموه المتعاقبة – من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية التى أوصلته إلى درجة الفيلسوف الكامل ؛ فتمكن من إدراك الجوهر الإنسانى الذى يفصل بينه وبين حيوانات هذه الجزيرة . وكانت المواقف المختلفة التى مرت بحياة هذا الوليد الذى أصبح رجلا – هى الحافز إلى التفكير والتأمل ثم التوصل إلى الحقيقة .

ولا ينتهى نص « حى بـن يقظان » عند هذا الحد ؛ ذلك أنه يكتمل بلقـاء حى بن يقظان برجل آخر يدعى أبسال ، هجر مجتمعه الإنسانـى ليعيش فى هذه الجزيرة المعزولة ؛ إذْ تعذر عليه مـواصلة الحياة مع جمـاعته البشرية بسبـب عجزها عـن الوصول إلى الكمـال العقلى والروحـى ، وبعبارة أخرى يلتقـى حى بن يقظـان - الذى استطاع عـن طريق إعمـال العقل والتأمل الصوفى أن يتوصل إلى المعرفة الإلهية - بـأبسال الذى حقق كماله الدينى والصوفى من خلال مـا تعلمه من أصول الدين والعقيـدة . ويذهـب حى بن يقظان - الـذى تمكن من اكتساب لغـة البشر مـن رفيقه أبسال - إلـى المكان الـذى يعيش فيه هـذا الرفيـق ، ويحاول التواصل مع جماعته البشرية . لكن محاولاتـه تقضى إلى الفشل ؛ ذلك أن هذه الجماعة لم تستطع مجـاوزة المرحلة الحسية إلـى مرحلة النضج العقلـى أو الاكتمال الروحى . ومـن هنا يعود حى بن يقظان مع أبسال إلى الجزيرة ليستكملا حياتهما هناك .

إن فحـوى الفكرة المحـوريـة التى يتضمنهـا هذا النـص ذو الطبيعـة القصصية هـو أن الإنسان يمكـن أنْ يرتقى من المحسـوس إلى المعقول ، ومن المعـرفة الحسية إلى المعـرفة العقلية الالهية بـواسطة العقل والتأمل دون حاجـة إلى وسيط من البشر . غيـر أن من يستطيع التوصل إلى هذه المعـرفة العقلية الاستدلالية أو المعرفة الكشفية شخـص ذو طبيعة خاصة ؛ إنه الإنسان الكامل الذى يتمتع بصفاء العقل والقلب والقدرة على الارتقاء من أدنى درجات الحس إلى أعلى درجات العقل والروح .

ولنص حى بن يقظان قيمـة كبرى بالنسبة للكتابة النثرية فى تـراثنا الأدبى ، ذلك أن هذا النص كشف عن مرونـة النثر العربى نظرًا لاستيعابه موضوعـات ذات طبيعة فكرية وفلسفية ، هذا من نـاحية ؛ ومن ناحية أخـرى فإنه يبين طواعيـة القالب القصصى على نحـو خاص فى احتواء تصور فلسفى كامل قام على أساسه هذا العمل .

ويعد هـذا النص إضافة متميـزة لتراثنا السـردى ، كما يؤكـد فكرة مهمة تتأسـس عليها بعض الأعمال القصصية فى تـراثنا وهى أن لجوء بعض شعرائنا وكتابنا القـدماء إلى القالب القصصى كـان رهين فكـرة عقلية أو فلسفية ، حيـث يتسع البنـاء السردى لاستيعـاب ذلك ، ويمكن أن نقـف على الكيفية التـى قام بها هذا النـص الفريد علـى السرد من خـلال النص المختار .

* * *

من رسالة « حيّ بن يقظان » :

١ - إن الظبية التى تكفّلـت به وافقت خِصْبًا ومَـرْعى أثيثًا [١] ، فكثر لحمهـا ودرَّ لبنها ، حى قام بغـذاء ذلك الطفل أحسن قيـام . وكانت معه لا تَبْعُـد عنه إلا لضرورة الرعـى . وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث إذا هى أبطأت عنه اشتد بكاؤه فطارت إليه .

ولم يكن بتلك الجزيرة شىء من السباع العـاديَة ، فتربّى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تمَّ له حَـوْلان ، وتدرّج فى المشى وأثغر [٢] فكان يتبع تلك الظبيـة ، وكانت هى ترفق به وتـرحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجـر مثمر ، فكانت تطعمه ما تساقـط من ثمراتها الحلوة النضيجة ؛ وما كان منها صُلب القشر كسرتْه له بطواحنها ؛ ومتى عاد إلى اللبن أَرْوَته ، ومتى ظمـىء إلى الماء أوردتـه ومتى ضحا ظلّلتـه ، ومتى خَصِرَ أدفـأته [٣] . وإذا جَنَّ الليـل صرفته إلى مكانه الأول ، وجلّلته [٤] بنفسها وبريش كان هناك ، ممـا ملىء به التابوت أولا فى وَقت وَضْع الطفل فيه . وكان فى غُدُوّهِما ورواحهما قد ألفهما رَبْرَبٌ [٥] يَسرح ويبيت معهما حيث مبيتهما .

٢ - فما زال الطفـل مع الظباء علـى تلك الحال : يحكى نغمتهـا بصوته حتـى لا يكاد يُفرّق بينهما ؛ وكذلـك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطيـر وأنواع سائر الحيوان ، محاكـاة شديـدة لقوة انفعـاله لمـا يريـده ؛ وأكثر مـا كانـت محاكـاته لأصـوات الظباء فـى الاستصراخ والاستئلاف والاستـدعاء والاستدفاع : إذ للحيـوانات فى هذه الأحـوال المختلفة أصوات مختلفة ، فـألفته الوحوش وألفهـا ، ولم تنكرِه ولا أنكرهـا ، فلما ثبت فى نفســه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته ، حدث له نزوع إلى بعضها ، وكراهيةٌ لبعض .

---

(١) أثيث : غزير متكاثف .
(٢) أثغر : نبتت أسنانه .
(٣) ضحا : أصابه حرّ الشمس - خصِر : آلمه البرد .
(٤) جنّ الليل : أظلم - جلّلته بمعنى غطّته ، والجلّ هو ما تغطّى به الدابّة لتصان .
(٥) الربرب : القطيع من الظباء .

٣ - وكان فى ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار وأنواع الريش ، وكان يـرى ما لها من العَدْو وقوة البطـش ، وما لها من الأسلحة المعدَّة لمـدافعة من ينازعها ، مثل القرون والأنياب والحوافر والصَّياصى (٦) والمخالب ثم يرجع إلى نفسه ، فيرى ما به من العُرْى ، وعدم السلاح ، وضعف العَدْو ، وقلة البطش ، عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات ، وتستبـدّ بها دونه ، وتغلبه عليها ؛ فـلا يستطيع المدافعة عـن نفسه ، ولا الفرار عن شىء منها .

وكان يرى أترابه من أولاد الظباء ، قد نبتت لها قرون ، بعد أن لم تكن ، وصارت قوية بعد ضعفها فى العَدْو ، ولم يَـرَ لنفسه شيئًا من ذلك كله ، فكان يفكر فـى ذلك ولا يدرى ما سببه ، وكان ينظر إلى ذوى العاهات والخَلْقِ الناقص ، فلا يجد لنفسه شبيهًا فيهم ، وكان أيضًا ينظر إلـى مخـارج الفضـول مـن سائر الحيـوان ، فيـراهـا مستورة : أمـا مخـرج أغلظ الفضلتيـن فبالأذناب ؛ وأما مخرج أرقّهمـا فبالأوبار وما أشبهها ، ولأنها كانت أيضًـا أخفى قضبانًا منه ، فكان ذلك يكرُبه ويسوءه فلما طال همّه فى ذلك كلّه ، وهو قد قارب سبعة أعوام ، ويئس من أن يكمل له مـا قد أضرَّ به نقصـه ، اتخذ من أوراق الشجر العـريضة شيئًا جعل بعضـه خلفه وبعضه قدَّامه ، وعمـل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطـه ، علق به تلك الأوراق ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى ذوى ذلك الورق وجفّ وتساقط .

فما زال يتخذ غيره ويخصف (٧) بعضه ببعض طاقات مضاعفة ، وربما كان ذلك أطول لبقائه ؛ إلا أنه على كـل حال ، قصير المدة ، واتخذ من أغصان الشجر عِصيًّـا وسوَّى أطرافها وعدّل مَتْنها . وكان يَهَشّ بها على الوحوش المنازعة له ، فيحمل على الضعيف منها ، ويقاوم القوىّ منها ، فنُبل بذلك قدره عند نفسه بعـض نَبالة ، ورأى أنّ ليدِه فضلًا كثيرًا على أيديها : إذ أمكن له بها مـن سَتْر عورته واتخاذ العصىّ التى يـدافع بها عن حوزته ، مـا استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعى .

---

(٦) الصياصى قرون البقر ونحوها ومخالب الديكة التى فى سيقانها .
(٧) يخصف : يلزق .

وفى خلال ذلك ترعرع وأربى على السبع سنين ، وطال به العناء فى تجديد الأوراق التى كان يستتر بها . فكانت نفسه عند ذلك تنازعه إلى اتخاذ ذَنَب من أذناب الوحوش الميتة ليعلّقه على نفسه ؛ إلاّ أنه كان يرى أحياء الوحوش تتحامى مَيّتها وتفرّ عنه فلا يتأتى له الإقدام على ذلك الفعل ، إلى أن صادف فى بعض الأيام نَسْرًا مَيّتا فُهدى إلى نيل أمله منه ، واغتنم الفرصة فيه ، إذ لم ير للوحوش عنه نَفْرة[8] فأقدم عليه ، وقطع جناحيْه وذنبه صِحاحًا كما هى ، وفتح ريشها وسواها ، وسلخ عنه سائر جلده ، وفصله على قطعتين : ربط إحداهما على ظهره ، والأخرى على سرّته وما تحتها ، وعلّق الذنب من خلفه ، وعلّق الجناحين على عَضُديه ، فأكسبه ذلك سِترًا ودفئًا ومهابة فى نفوس جميع الوحوش ، حتى كانت لاتُنازعه ولاتعارضه .

فصار لايدنو إليه شىء منها سوى الظبية التى كانت أرضعته وربّته : فإنها لم تفارقه ولافارقها ، إلى أن أسنّت وضَعُفت ؛ فكان يرتاد بها المراعى الخصبة ، ويجتنى لها الثمرات الحلوة ، ويطعمها .

٤ – وما زال الهزال والضعف يستولى عليها ويتوالى ، إلى أن أدركها الموت ، فسكنت حركاتها بالجملة ، وتعطلت جميع أفعالها . فلما رآها الصبى على تلك الحالة ، جزع جزعًا شديدًا ، وكادت نفسه تفيض أسفًا عليها . فكان يناديها بالصوت الذى كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه ، ويصيح بأشدّ ما يقدر عليه : فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغييرًا فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة ، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى بشىء منها آفة ، فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها ، فترجع إلى ما كانت عليه ، فلم يتأت له شىء من ذلك ولا استطاعه ، وكان الذى أرشده لهذا الرأى ما كان قد اعتبره فى نفسه قبل ذلك : لأنه كان يرى أنه إذا غمض عينيه أو حجبهما بشىء لايبصر شيئًا حتى يزول ذلك العائق ، وكذلك كان يرى أنه إذا أدخل إصبعيه فى أذنيه وسدهما لا يسمع شيئًا حتى يزول ذلك العارض ، وإذا أمسك أنفه بيده لايشمّ شيئًا من الروائح حتى يفتح

---

(٨) نفرة : إعراض وصدّ .

أنفه . فاعتقد من أجل ذلك أن جميع ما له من الإدراكات والأفعال قد تكون لها عوائق تعوقها ، فإذا أزيلت تلك العوائق ، عادت الأفعال .

فلما نظر إلى جميع أعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة - وكان يرى مع ذلك العطلة قد شملتها ولم يختص بها عضو دون عضو - وقع فى خاطره أن الآفة التى نزلت بها ، إنما هى فى عضو غائب عن العيان ، مستكن فى باطن الجسد ، و إن ذلك العضو لا يغنى عنه فى فعله شىء من هذه الأعضاء الظاهرة . فلما نزلت به الآفة عمّت المضرة ، وشملت العُطلة ، وطمع لو أنه عثر على ذلك العضو وأزال عنه ما نزل به ، لاستقامت أحواله وفاض على سائر البدن نفعه ، وعادت الأفعال إلى ما كانت عليه .

وكان قد شاهد قبل ذلك فى الأشباح الميتة من الوحوش وسواها أن جميع أعضائها مُصْمتة لا تجويف فيها إلا القِحْف (٩) ، والصدر ، والبطن . فوقع فى نفسه أن العضو الذى بتلك الصفة لن يعدو أحد هذه المواضع الثلاثة ، وكان يغلب على ظنّه غلبة قوية أنه إنما هو فى الموضع المتوسط من هذه المواضع الثلاثة ؛ إذ كان قد استقر فى نفسه أن جميع الأعضاء محتاجة إليه ، وأن الواجب بحسب ذلك أن يكون مسكنه فى الوسط ، وكان أيضًا إذا رجع إلى ذاته ، شعر بمثل هذا العضو فى صدره ، لأنه كان يعترض سائر أعضائه كاليد ، والرجل ، والأذن ، والأنف ، والعين ، و يقدر مفارقتها ، فيتأتى له أنه كان يستغنى عنها ، وكان يقدر فى رَأسه مثل ذلك و يظن أنه يستغنى عنه ، فإذا فكر فى الشىء الذى يجده فى صدره ، لم يتأت له الاستغناء عنه طرفة عين . وكذلك كان عند محاربته الوحوش أكثر ما كان يتقى من صياصيهم على صدره ، لشعوره بالشىء الذى فيه .

فلما جزم الحكم بأن العضو الذى نزلت به الآفة إنما هو فى صدرها ، أجمع على البحث عليه والتنقير عنه ، لعله يظفر به ، ويرى آفته فيزيلها ثم إنه خاف أن يكون نفس فعله هذا أعظم من الآفة التى نزلت بها أولا فيكون سعيه عليها .

---

(٩) القحِف : الجمجمة التى فيها الدّماغ .

ثم إنه تفكر : هل رأى من الوحوش وسواها ، من صار فى مثل تلك الحال ، ثم عاد إلى مثل حاله الأول ؟ فلم يجد شيئًا ! فحصل له من ذلك ، اليأس من رجوعها إلى حالها الأولى إن هو تركها ؛ وبقى له بعض رجاء فى رجوعها إلى تلك الحال إن هو وجد ذلك العضو وأزال الآفة عنه .

٥ - فعزم على شقّ صدرها وتفتيش ما فيه ، فاتخذ من كسور الأحجار الصلدة ، وشقوق القصب اليابسة ، أشباه السكاكين ، وشق بها بين أضلاعها حتى قطع اللحم الذى بين الأضلاع ، وأفضى إلى الحجاب المستبطن للأضلاع فرآه قويًا ؛ فقوى ظنه بأن مثل ذلك الحجاب لا يكون إلا لمثل ذلك العضو وطمع بأنه إذا تجاوزه أَلْفَى مطلوبه فحاول شقّه ، فصعب عليه ، لعدم الآلات ، ولأنها لم تكن إلا من الحجارة والقصب ، فاستجدّها ثانية ، واستحدّها وتلطَّف فى خرق الحجاب حتى انخرق له ؛ فأفضى إلى الرئة فظن أولا أنها مطلوبة ؛ فما زال يقلبها ويطلب موضع الآفة بها .

وكان أولا إنما وجد منها نصفها الذى هو فى الجانب الواحد . فلما رآها مائلة إلى جهة واحدة ، وكان قد اعتقد أن ذلك العضو لا يكون إلا فى الوسط فى عرض البدن كما هو فى الوسط فى طوله . فما زال يفتش فى وسط الصدر حتى ألفى « القلب » وهو مجلّل بغشاء فى غاية القوة مربوط بعلائق فى غاية الوثاقة ، والرئة مطيفة به من الجهة التى بدأ بالشقّ منها ؛ فقال فى نفسه : « إن كان لهذا العضو من الجهة الأخرى مثل ماله من هذه الجهة ، فهو فى حقيقة الوسط ، ولا محالة أنه مطلوبى ؛ لاسيما مع ما أرى له من حسن الوضع ، وجمال الشكل ، وقلة التشتّت ، وقوّة اللحم ، وأنه محجوب بمثل هذا الحجاب الذى لم أر مثله لشىء من الأعضاء .

فبحث عن الجانب الآخر من الصدر ، فوجد فيه الحجاب المستبطن للأضلاع ، ووجد الرئة كمثل ما وجده من هذه الجهة . فحكم بأن ذلك العضو هو مطلوبه ، فحاول هتك حجابه ، وشقّ شَغافه ؛ فبكدّ واستكراه ما قدر على ذلك ، بعد استفراغ مجهوده .

وجّرد القلب فرآه مُصمتا من كل جهة ، فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة ؟ فلم ير فيه شيئًا ! فشد عليه يده ، فتبين له أن فيه تجويفًا ؛ فقال : « لعل مطلوبى الأقصى إنما هو فى داخل

هذا العضو، وأنا حتى الآن لم أصل إليه، فشق عليه، فألفى فيه تجويفين اثنين: أحدهما من الجهة اليمنى، والآخر من الجهة اليسرى، والذى من الجهة اليمنى مملوء بعَلَق مُنعقد، والذى من الجهة اليسرى خالٍ لا شىء فيه. فقال: « لن يعدو مطلبى أن يكون مسكنه أحد هذين البيتين » ثم قال: « أما هذا البيت الأيمن، فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد. ولا شك أنه لم ينعقد حتى صار الجسد كله إلى هذا الحال » إذ كان قد شاهد أن الدماء متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت ولم يكن هذا إلا دمًا كسائر الدماء، وأنا أرى أن هذا الدم موجود فى سائر الأعضاء لا يختصّ به عضو دون آخر، وأنا ليس مطلوبى شيئًا بهذه الصفة إنما مطلوبى الشىء الذى يختصّ به هذا الموضع الذى أجدنى لا أستغنى عنه طرفة عين، وإليه كان انبعاثى من أول. وأما هذا الدم فكم مرةً جرحتنى الوحوش فى المحاربة فسال منى كثير منه فما ضرنى ذلك ولا أفقدنى شيئا من أفعالى فهذا بيت ليس فيه مطلوبى. وأما هذا البيت الأيسر فأراه خاليًا لا شىء فيه، وما أرى ذلك لباطل، فإنى رأيت كل عضو من الأعضاء إنما هو لفعل يختصّ به، فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرفه باطلا؟ ما أرى إلا أن مطلوبى كان فيه! فارتحل عنه وأخلاه. » وعند ذلك، طرأ على هذا الجسد من العطلة ما طرأ: ففقد الإدراك وعدم الحراك.

فلما رأى أن الساكن فى ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله، تحقق أنه أحرى أن لا يعود إليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث. فصار عنده الجسد كله خسيسًا لا قدر له بالإضافة إلى ذلك الشىء الذى أعتقد فى نفسه أنه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك. فاقتصر على الفكرة فى ذلك الشىء ما هو؟ وكيف هو؟ وما الذى ربطه بهذا الجسد؟ وإلى أين صار؟ ومن أى الأبواب خرج عند خروجه من الجسد؟ وما السبب الذى أزعجه إن كان خرج كارهًا؟ وما السبب الذى كره إليه الجسد، حتى فارقه إن كان خرج مختارًا؟

وتشتّت فكره فى ذلك كله، وسلا عن ذلك الجسد وطرحه، وعلم أن أمّه التى عطفت عليه وأرضعته، إنما كانت ذلك الشىء المرتحل، عنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها، لا هذا الجسد العاطل؛ وأن هذا الجسد بجملته، إنما هو كالآلة وبمنزلة العصىّ التى اتخذها هو لقتال الوحوش. فانتقلت علاقته عن الجسد إلى صاحب الجسد ومحركه، ولم يبق له شوق إلا إليه.

وفى خلال ذلك أصل ذلك الجسد ؛ وقامت منه روائح كريهة ، فزادت نَفْرته عنه ، وود أن لا يراه . ثم إنه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتًا . ثم جعل الحى يبحث فى الأرض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب . فقال فى نفسه : « ما أحسن ما صنع هذا الغراب فى مواراة جيفة صاحبه وإن كان قد أساء فى قتله إياه ! وأنا كنت أحق بالاهتداء إلى هذا الفعل بأمى ! » فحفر حفرة وألقى فيها جسد أمه ، وحثا عليها التراب ، وبقى يتفكّر فى ذلك الشىء المصرف للجسد ولا يدرى ما هو ! غير أنه كان ينظر إلى أشخاص الظباء كلها ، فيراها على شكل أمه ، وعلى صورتها ؛ فكان يغلب على ظنّه ، أن كلّ واحد منها إنما يحركه ويصرفه شىء هو مثل الشىء الذى كان يحرك أمه ويصرفها فكان يألف الظباء ويحن إليها لمكان ذلك الشبه .

وبقى على ذلك برهة من الزمان ، يتصفح أنواع الحيوان والنبات ، ويطوف بساحل تلك الجزيرة ، ويتطلب هل يرى أو يجد لنفسه شبيهًا حسبما يرى لكل واحد من أشخاص الحيوان والنبات أشباهًا كثيرة ، فلا يجد شيئًا من ذلك ، وكان يرى البحر قد أحدق بالجزيرة من كل جهة ، فيعتقد أنه ليس فى الوجود أرض سوى جزيرته تلك .

ابن رشد

(٥٢٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م)

أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد ، من أشهر فلاسفة الإسلام ، وأبرز من شرحوا كتب حكيم اليونان « أرسطو » ، وحاولوا التوفيق بين الحكمة والشريعة .

وهو من أسرة ذات نفوذ علمي كبير ، وسلطان قضائي ملحوظ ، فقد كان جدّه لأبيه قاضيًا ، وكبيرًا من كبار فقهاء المذهب المالكي ، - وهو المذهب السائد في بلاد المغرب والأندلس - مشتغلا كذلك بالسياسة والشئون العامة، وعندما ولد ابن رشد في مدينة قرطبة ، كانت دولة « المرابطين» على وشك الإنهيار ، إذ إن ميلاده سبق وفاة إمام دولة « الموحدين » محمد بن تومرت بأربعة أعوام .

تتلمذ في الطبّ لأبي جعفر هارون وأبي مروان بن جربول البلنسي ، وفي الفلسفة والإلهيات لابن طفيل ، وبرع في علم الكلام والأدب واللغة ، وبرز فيها جميعها ، حتى لم يكن له في معظمها من معاصريه نظير ولا قرين .

تولى منصب القضاء في إشبيلية سنة ٥٦٥، ثم أصبح قاضي القضاه بقرطبة سنة ٥٦٧ ، وقدّمه ابن طفيل إلى السلطان المستنير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذى كلّفه بوضع الشروح والتفاسير على مؤلفات أرسطو حتى تستقيم عبارتها ، وتبرأ مما لحقها من عيوب الترجمة وأخطاء الشراح والمفسّرين ، فشرع في هذا العمل الكبير منذ ذلك التاريخ ، وعندما تقدمت السنّ بابن طفيل ، تولّى ابن رشد منصبه كطبيب خاصّ للسلطان في بلاط مراكش .

وبعد أن توفي أبو يعقوب يوسف سنة ٥٨٠ ، استمرّت خطوته لدى خلفه السلطان المنصور أبي يوسف يعقوب (ت ٥٩٥) لفترة وجيزة ، أعقبتها المحنة التى امتحن لها في فكره وعقيدته سنة ٥٩١ ، ففيها نفي إلى مدينة اليسانة على مقربة من قرطبة مع عدد من المشتغلين بالحكمة والعلوم ، وأحرقت كتبه ، وسائر كنت الفلسفة ، وحظر على الناس يومئذ تجاوز الاشتغال بالعلوم العملية والنظر فيما سوى الطب والنجوم والحساب . وعندما انقشعت سحابة هذه المحنة ، عادت له منزلته في البلاط المغربيّ ، واستردّت الفلسفة والعلوم العقلية مكانتها في البلاد ، ولكن المنيّة لم تمهله بعد ذلك كثيرا .

وشهد « ابن عربـي » جثمان أبي الوليد بن رشـد محمولاً على بعير، وهو فى طـريقه من مدينة « مراكـش » ، حيث توفى ، ليدفن فـى بلاد الأندلس ، وقد وضع الجثمـان فى ناحية ، وفى الناحية الأخرى من حمل البعير كتبه ومؤلفاته .

وقد وصفه ابـن الأبّار، فقال عنه : « كانت الـدراية أغلب عليه من الـرواية ، درس الفقه والأصول وعلم والكلام وغير ذلك ، ولم ينشأ بالأنـدلس مثله كمالاً وعلمًا وفضلًا ، وكان على شرفه أشدّ النـاس تواضعًا وأخفضهم جناحًا ، عنـى بالعلم من صغره إلى كبـره ، حتى حكى عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله ، وأنه سوّد فيما صنّف وقيّـد وألّف وهـذّب واختصر نحـوًا من عشـرة آلاف ورقة ، ومـال إلى علـوم الأوائل ، فكانت له فيها الإمـامة دون أهل عصره ، وكان يفزع إلى فتواه فى الطـب ، كما يفزع إلى فتواه فى الفقه ، مع الحظّ الـوافر من الإعراب والآداب ، حتى حكى عنه أبو القـاسم بن الطيلسان أنه كـان يحفظ شعـرى أبى تمـام والمتنبى ، ويكثر التمثيـل بهما فـى مجلسه ، ويـورد ذلك أحسن إيراد » .

ومـن مـؤلفاتــه فى الفـقه كتـاب « بدايـة المجتهد ونهاية المقتصد » ، لا يـزال مرجعا فى الفقــه ومسـائله ، ورســالـة فى الفلـك وحـركته ، وأخـرى عن النجوم الثـابتة ، ولـه فى الطب « كتاب الكليات » و « شـرح على أرجوزة لابن سينا ، وتلخيصات لكتـب جالينوس ، وله فـى الفلسفة شـروح مطوّلة ومتـوسطة ومـوجزة لكثيـر من مؤلفـات أرسطو ... ، ويـذهب العارفون بفضل ابن رشـد وعلمه إلى أن تأثيره فى تاريخ الفكر الأوربـى كان حاسمًا ، يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال .

* * *

من كتاب : « فصْل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » .

[حُكْمُ دِرَاسَةِ الْفَلْسَفَةِ] :

فَإِنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنْ نَفْحَصَ ، عَلَى جِهَةِ النَّظَرِ الشَّرْعِيِّ ، هَلِ النَّظَرُ فِى الْفَلْسَفَةِ وَعُلُومِ الْمَنْطِقِ مُبَاحٌ بِالشَّرْعِ ؟ .. أَمْ مَحْظُورٌ ؟؟ .. أَمْ مَأْمُورٌ بِهِ ، إِمَّا عَلَى جِهَةِ النَّدْبِ ، وَإِمَّا عَلَى جِهَةِ الْوُجُوبِ ؟؟

فَنَقُولُ : إِنْ كَانَ فِعْلُ الْفَلْسَفَةِ لَيْسَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنَ النَّظَرِ فِى الْمَوْجُودَاتِ ، وَاعْتِبَارِهَا ، مِنْ جِهَةِ دِلَالَتِها عَلَى الصَّانِعِ أَعْنِى من جِهَةِ ما هِى مَصْنُوعَاتٌ فإِنَّ الْمَوْجُوداتِ إِنَّمَا تَدُلُّ على الصَّانِعِ بمَعْرفَةِ صَنْعَتِهَا[1] ، وَأَنَّهُ كُلَّما كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ [بِصَنْعَتِها] أَتَمَّ كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ بِالصَّانِعِ أَتَمَّ .

وَكَانَ الشَّرْعُ قَدْ نَدَبَ إِلَى اعْتِبَارِ الْمَوْجُودَاتِ ، وَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ ، فَبَيِّنٌ أَنَّ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا الاسْمُ إِمَّا وَاجِبٌ بِالشَّرْعِ ، وَإِمَّا مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ .

فَأَمَّا أَنَّ الشَّرْعَ دَعَا إِلَى اعْتِبَارِ الْمَوْجُودَاتِ بِالْعَقْلِ ، وَتَطَلَّبَ مَعْرِفَتَهَا بِهِ ، فَذَلِكَ بَيِّنٌ فِى غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾[2] ، وَهذَا نَصٌّ عَلَى وَجُوبِ اسْتِعْمَالِ الْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ أَوْ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ مَعًا .

وَمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ** ﴾[3] ، وَهَذَا نَصٌّ بِالْحَثِّ عَلَى النَّظَرِ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ .

وَأَعْلَمَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ مِمَّنْ خَصَّهُ بِهَذَا الْعِلْمِ وَشَرَّفَهُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَال تَعَالَى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾[4] الْآيَةَ ... وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ** ﴾[5] وَقَالَ : ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾[6] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي لَا تُحْصَى كَثْرَةً .

* * *

(١) صنعتها : صفتها .
(٢) سورة الحشر (٢) .
(٣) سورة الأعراف (١٨٥) .
(٤) سورة الأنعام (٧٥) .
(٥) سورة الغاشية (١٧ - ١٨)
(٦) سورة آل عمران (١٩١) .

[مَرَاتِبُ النَّاسِ] :

وَإِذَا تَقَرَّرَ هَـذَا كُلُّهُ ، وَكُنَّا نَعْتَقِـدُ ، مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، أَنَّ شَـرِيعَتَنَا ، هَذِهِ الإِلَهِيَّـةَ ، حَقٌّ ، وَأَنَّهَـا الَّتِي نَبَّهَـتْ عَلَى هَذِهِ السَّعَـادَةِ ، وَدَعَـتْ إِلَيْهَا ، الَّتِـي هِـىَ الْمَعْرِفَـةُ بِـاللهِ عزوَجَـلَّ ، وَبِمَخْلُوقَـاتِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُتَقَـرِّرٌ عِنْدَ كُلِّ مُسْلِـمٍ مِنَ الطَّرِيـقِ الَّذِى اقْتَضَتْهُ جِبِلَّتُهُ وَطَبِيعَتُـهُ مِنَ التَّصْدِيـقِ ، وَذَلِكَ أَنَّ طِبَاعَ النَّـاسِ مُتَفَاضِلَـةٌ فِي التَّصْدِيـقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُصَـدِّقُ بِالْبُـرْهَانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَدِّقُ بِـالأَقَاوِيلِ الْجَدَلِيَّةِ تَصْدِيقَ صَـاحِبِ الْبُرْهَانِ بِالْبُرْهَانِ إِذْ لَيْـسَ فِى طِبَاعِهِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَـدِّقُ بِالأَقَاوِيلِ الْخَطَابِيَّةِ كَتَصْدِيقِ صَاحِبِ الْبُـرْهَانِ بِالأَقَاوِيلِ الْبُرْهَانِيَّةِ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَـتْ شَرِيعَتُنَا ، هَذِهِ الإِلَهِيَّةُ ، قَدْ دَعَتِ النَّاسَ مِـنْ هَذِهِ الطُّرُقِ الثَّلَاثِ ، عَمَّ التَّصْدِيقُ بِهَا كُلَّ إِنْسَانٍ ، إِلَّا مَنْ جَحَدَهَا عِنَادًا بِلِسَانِهِ ، أَوْلَمْ تَتَقَرَّرْ عِنْدَهُ طُرُقُ الدُّعَاءِ فِيهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى ، لإِغْفَالِهِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ .

وَلِذَلِكَ خُصَّ عَلَيْـهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْبَعْثِ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ أَعْنِـى لِتَضَمُّنِ شَرِيعَتِهِ طُرُقَ الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ صَـرِيحٌ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى : (**أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**) (٧) .

* * *

[عَلَاقَةُ الْحِكْمَةِ بِالشَّرِيعَةِ] :

وَإِذَا كَانَتْ هَـذِهِ الشَّرِيعَةُ حَقًّا ، وَدَاعِيَـةً إِلَى النَّظَرِ الْمُؤَدِّى إِلَـى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ فَـإِنَّا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، نَعْلَمُ ، عَلَى الْقَطْعِ ، أَنَّ لَا يُؤَدِّى النَّظَرُ الْبُرْهَانِىُّ إِلَى مُخَالَفَةِ مَا وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ ، فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُضَادُّ الْحَقَّ ، بَلْ يُوَافِقُهُ وَيَشْهَدُ لَهُ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا ، فَإِنْ أَدَّى النَّظَـرُ الْبُرْهَانِىُّ إِلَى نَحْوٍ مَّا مِنَ الْمَعْرِفَـةِ بِمَوْجُودٍ مَّا ، فَلَا يَخْلُو ذَلِكَ الْمَوْجُودُ أَنْ يَكُونَ : قَدْ سَكَتَ عَنْهُ الشَّرْعُ أَوْ عَرَّفَ بِهِ .

فَإِنْ كَانَ قَـدْ سَكَتَ عَنْهُ ، فَلَا تَعَارُضَ هُنَالِـكَ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَا سَكَتَ عَنْـهُ مِنَ الأَحْكَامِ ، فَاسْتَنْبَطَهَا الْفَقِيهُ بِالْقِيَاسِ الشَّرْعِىِّ .

---

(٧) سورة النحل (١٢٥) .

وَإِنْ كَانَتِ الشَّرِيعَةُ نَطَقَتْ بِهِ ، فَلَا يَخْلُو ظَاهِرُ النُّطْقِ أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِمَا أَدَّى إِلَيْهِ الْبُرْهَانُ فِيهِ ، أَوْ مُخَالِفًا ، فَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا فَلَا قَوْلَ هُنَالِكَ ، وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا طُلِبَ هُنَالِكَ تَأْوِيلُهُ .

* * *

[الْغَزَالِيُّ وَالْفَلَاسِفَةُ] :

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِذَا لَمْ يَجِبِ التَّكْفِيرُ بِخَرْقِ الْإِجْمَاعِ فِي التَّأْوِيلِ ، إِذْ لَا يُتَصَوَّرُ فِي ذَلِكَ إِجْمَاعٌ ، فَمَا تَقُولُ فِي الْفَلَاسِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، كَأَبِي نَصْرٍ [٨] ، وَابْنِ سِينَا [٩] ، فَإِنَّ أَبَا حَامِدٍ قَدْ قَطَعَ بِتَكْفِيرِهِمَا فِي كِتَابِهِ الْمَعْرُوفِ بِالتَّهَافُتِ ، فِي ثَلَاثِ مَسَائِلَ :

فِي الْقَوْلِ بِقِدَمِ الْعَالَمِ .

وَفِي تَأْوِيلِ مَا جَاءَ فِي حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَأَحْوَالِ الْمَعَادِ .

قُلْنَا : الظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ فِي ذَلِكَ ، أَنَّهُ لَيْسَ تَكْفِيرُهُ إِيَّاهُمَا فِي ذَلِكَ قَطْعًا ، إِذْ قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِ التَّفْرِقَةِ أَنَّ التَّكْفِيرَ بِخَرْقِ الْإِجْمَاعِ فِيهِ احْتِمَالٌ .

وَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ قَوْلِنَا أَنَّهُ لَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَقَرَّرَ إِجْمَاعٌ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، لِمَا رُوِيَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ الْأَوَّلِ ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ ، أَنَّ هَا هُنَا تَأْوِيلَاتٍ لَا يَجِبُ أَنْ يُفْصَحَ بِهَا إِلَّا لِمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ وَهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ، لِأَنَّ الِاخْتِيَارَ عِنْدَنَا هُوَ الْوُقُوفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) [١٠] ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مَزِيَّةُ تَصْدِيقٍ تُوجِبُ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ مَا لَا يُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَقَدْ وَصَفَهُم اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يُحْمَلُ عَلَى الْإِيمَانِ الَّذِي يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الْبُرْهَانِ ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ ، فَإِنَّ غَيْرَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِهِ لَا مِنْ قِبَلِ الْبُرْهَانِ .

---

(٨) محمد بن طرخان ، الملقب بالمعلم الثاني ، والمنسوب إلى فاراب ، من بلاد تركستان (ت ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م).

(٩) أبو علي الحسين بن عبد الله ، الشهير بالشيخ الرئيس (٣٧٠ - ٤٢٩ هـ/ ٩٨٠ - ١٠٣٧ م) .

(١٠) سورة آل عمران - ٧

فَإِنْ كَانَ هَذَا الإِيمَانُ الَّذِى وَصَفَ اللهُ بِهِ الْعُلَمَاءَ خَاصًا بِهِمْ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِالْبُرْهَانِ ، وَإِنْ كَانَ بِالْبُرْهَانِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيل ، لأَنَّ اللهَ ، عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ لَهَا تَأْوِيلًا هُوَ الحَقِيقَةُ ، وَالْبُرْهَانُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الْحَقِيقَةِ .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَقَرَّرَ فِي التَّأْوِيلَاتِ ، الَّتِى خَصَّ اللهُ الْعُلَمَاءَ بِهَا ، إِجْمَاعٌ مُسْتَفِيضٌ ، وَهَذَا بَيِّنٌ بِنَفْسِهِ عِنْدَ مَنْ أَنْصَفَ .

* * *

[خَاتِمَةٌ] :

وَيوُدُّنَا لَوْ تَفَرَّغْنَا لِهَذَا الْمَقْصِدِ ، وَقَدَرْنَا عَلَيْهِ ، وَإِنْ أَنْسَأَ الله فِي الْعُمْرِ ، فَسَنُثْبِتُ فِيهِ قَدْرَ مَا تَيَسَّرَ لَنَا مِنْهُ ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَبْدَأً لِمَنْ يَأْتِى بَعْدُ ، فَإِنَّ النَّفْسَ مِمَّا تَخَلَّلَ هَذِهِ الشَّرِيعَة ، مِنَ الْأَهْواءِ الْفَاسِدَةِ ، وَالاعْتِقَادَاتِ الْمُحَرَّفَةِ ، فِى غَايَةِ الْحُزْنِ وَالتَّأَلُّم ، وَبخَاصَّةٍ مَا عَرَضَ لَهَا مِنْ ذِلِكَ مِنْ قِبل مَنْ يَنْسُبُ نَفْسَهُ إِلَى الْحِكْمَةِ ، فَإِنَّ الْأَذِيَّةَ مِنَ الصَّدِيق هِىَ أَشَدُّ مِنَ الْأَذِيَّةِ مِنَ الْعَدُوِّ .

أَعْنِى أَنَّ الْحِكْمَةَ هِىَ صَاحِبَةُ الشَّرِيعَةِ ، وَالْأُخْتُ الرَّضِيعَةُ ، فَالْأَذِيَّةُ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَيْهَا هِىَ أَشَدُّ الْأَذِيَّةِ ، مَعَ مَا يَقَعُ بَيْنَهُمَا مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْمُشَاجَرَةِ ، وَهُمَا الْمُصْطَحِبَتَانِ بالطَّبْعِ ، الْمُتَحَابَّتَانِ بِالْجَوْهَرِ وَالْغَرِيزَةِ .

وَقَدْ آذَاهَا أَيْضًا كَثِيرٌ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ الْجُهَّالِ ، مِمَّنْ يَنْسُبُونَ أَنْفُسَهُمْ إِلَيْهَا ، وَهِىَ الْفِرَقُ الْمَوْجُودَةُ فِيهَا .

وَاللهُ يُسَدِّدُ الْكُلَّ ، وَيُوَفِّقُ الْجَمِيعَ لِمَحَبَّتِهِ ، وَيَجْمَعُ قُلُوبَهُمْ عَلَى تَقْوَاهُ ، وَيَرْفَعُ عَنْهُم الْبُغْضَ وَالشَّنَآنَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَقَدْ رَفَعَ اللهُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الشُّرُورِ وَالْجَهَالَاتِ ، وَالْمَسَالِكِ الْمُضِلَّاتِ ، بِهَذَا الْأَمْرِ الْغَالِبِ ، وطَرَّقَ بِهِ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ ، وَبخَاصَّةٍ عَلَى الصِّنْفِ الَّذِينَ سَلَكُوا مَسْلَكَ النَّظَرِ ، وَرَغِبُوا فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ دَعَا الْجُمْهُورَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ مِنْ طَرِيقٍ وَسَطٍ ،

ارْتَفَعَ عَنْ حَضِيضِ الْمُقَلِّدِينَ ، وَانْحَطَّ عَنْ تَشْغِيبِ الْمُتَكَلِّمِينَ ، ونَبَّهَ الْخَوَاصَّ عَلَى وُجُوبِ النَّظَرِ التَّامِّ فِي أَصْلِ الشَّرِيعَةِ . وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

* * *

[تَقْرِيرُ الشَّكِّ] :

وَالشَّكُّ يَلْزَمُ هَكَذَا :

إِنْ كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا فِي عِلْمِ اللهِ ، سُبْحَانَهُ ، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ ، فَهَلْ هِيَ فِي حَالِ كَوْنِهَا فِي عِلْمِهِ ، كَمَا كَانَت فِيهِ قَبْلَ كَوْنِهَا ؟؟ .. أَمْ هِيَ فى عِلْمِهِ ، فِي حَالِ وُجُودِهَا ، عَلَى غَيْرِ مَا كَانَت عَلَيْهِ فِي عِلْمِهِ قَبْل أَنْ تُوجَدَ ؟؟

فَإِنْ قُلْنَا : إِنَّهَا فِي عِلْمِ اللهِ فِي حَالِ وُجُودهَا عَلَى غَيْرِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي عِلْمِهِ قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ الْقَدِيمُ مُتَغَيِّرًا ، وَأَنْ يَكُونَ إِذَا خَرَجَتْ مِن الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُود قَدْ حَدَثَ هُنَالِكَ عِلْمٌ زَائِدٌ ، وَذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ عَلَى الْعِلْمَ الْقَدِيمِ .

وَإِنْ قُلْنَا : إِنَّ الْعِلْمَ بِهَا وَاحِدٌ فِي الْحَالَتَيْنِ ، قِيلَ ؛ فَهَلْ هِيَ فِي نَفْسِهَا ، أَعْنِى الْمَوْجُودَاتِ الْحَادِثَةَ قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ ، كَمَا هِيَ حِينَ وُجِدَتْ ؟ فَسَيَجِبُ أَنْ يُقَالَ : لَيْسَتْ فى نَفْسِهَا قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ كَمَا هِيَ حِينَ وُجِدَتْ ، وَإِلَّاكَانَ الْمَوْجُودُ وَالْمَعْدُومُ وَاحِدًا .

فَإِذَا سَلَّمَ الْخَصْمُ هَذَا ، قِيلَ لَهُ : أَفَلَيْسَ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ مَعْرِفَةُ الْوُجُود عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ؟؟

فَإِذَا قَالَ : نَعَمْ .. قِيلَ : فَيَجِبُ عَلَى هَذَا إِذَا اخْتَلَفَ الشيْءُ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ بِهِ يَخْتَلِفُ ، وَإِلَّا فَقَدْ عُلِمَ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ .

فَإِذًا ، يَجِبُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَخْتَلِفَ الْعِلْمُ فِي نَفْسِهِ ، أَوْ تَكُونَ الْحَادِثَاتُ غَيْرَ مَعْلُومَةٍ لَهُ . وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ ، سُبْحَانَهُ .

وَيُؤَكِّدُ هَذَا الشَّكَّ مَا يَظْهَرُ مِنْ حَالِ الْإِنْسَانِ ، أَعْنِى مِنْ تَعَلُّقِ عِلْمِهِ بِالْأَشْيَاءِ الْمَعْدُومَةِ عَلَى تَقْدِيرِ الْوُجُودِ ، وَتَعَلُّقِ عِلْمِهِ بِهَا إِذَا وُجِدَتْ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ بنَفْسِهِ أَنَّ الْعِلْمَيْنِ مُتَغَايِرَانِ ، وَإِلَّاكَانَ جَاهِلًا بِوُجُودِهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِى وُجِدَتْ فِيهِ .

وَلَيْسَ يُنْجِي مِنْ هَذَا مَـا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْجَوَابِ عَنْ هَـذَا ، بِأَنَّهُ ، تَعَالَى ، يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَـوْنِهَا عَلَى مَا تَكُونُ عَلَيْهِ فِـي حِينِ كَوْنِهَا ، مِنْ زَمَانٍ وَمَكَـانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَوْجُودٍ مَوْجُودٍ .

فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ : فَإِذَا وُجِدَتْ ، فَهَلْ حَـدَثَ هُنَاكَ تَغَيُّرٌ ؟ أَوْ لَمْ يَحْدُثْ ؟؟ ... وَهُوَ خُرُوجُ الشَّيْءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ؟؟

فَإِنْ قَـالُوا : لَمْ يَحْدُثْ ، فَقَـدْ كَابَرُوا ، وَإِنْ قَـالُوا : حَدَثَ هُنَـالِكَ تَغَيُّرٌ ، قِيلَ لَهُـمْ : فَهَلْ حُدُوثُ هَذَا التَّغَيُّرِ مَعْلُومٌ لِلْعِلْمِ الْقَدِيمِ ؟ أَمْ لَا ؟؟ .. فَيَلْزَمُ الشَّكُّ الْمُتَقَدِّمُ .

وبالْجُمْلَةِ .. فَيَعْسُرُ أَنْ يُتَصَوَّرَ أَنَّ الْعِلْمَ بِالشَّيْءِ ، قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ ، وَالْعِلْمَ بِهِ بَعْدَ أَنْ وُجِدَ ، عِلْمٌ وَاحِدٌ بِعَيْنِهِ .

ابن الجَوْزى
(٥٠٨ - ٥٩٧ هـ / ١١١٤ - ١٢٠١ م)

هو عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ، يرتفع نسبه إلى أبى بكر الصديق ، فهو قرشىّ تيمىّ ، ويقال إن « الجوزى » نسبة إلى فُرْضَة من فُرَض البصرة يقال لها الجوزة ، وكنيته أبو الفرج أو أبو الفضائل ، ولقبه جمال الدين الحافظ ، ولد فى بغداد حوالى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، توفى أبوه وهو فى الثالثة من عمره ، فتولّت عمّته رعايته ، وتولّى خاله الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر تعليمه ، فحفظ القرآن الكريم ، وقرأ الحديث الشريف ، وأبدى منذ صباه حرصًا شديدًا على التفرّغ لتحصيل العلم فعزف عن اللهو واستحبّ العزلة ، ورأى « أن الزمان أشرف شىء ، والواجب انتهازه بفعل الخير » ، ولم يقتصر فى تحصيله على علوم بعينها دون غيرها ، بل حرص على أن يتعلّم أيضا القراءات والفقه والنحو والتاريخ والطب ... ، وعن ذلك يقول : « إنى رجلٌ حُبّب إلىّ العلم من زمن الطفولة ، فتشاغلت به ، ثم لم يُحبّب إلىّ فن واحد منه ، بل فنونه كلّها ، ثم لا تقتصر همّتى فى فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه » .

وعلى الرغم من تعدّد اهتماماته وكثرة تآليفه ، فقد عمل مدرسًا وكلف بإدارة بعض المدارس فى بغداد ، وتفوّق فى الوعظ تفوّقًا بالغًا ، حتى أن مستمعيه كانوا يعدّون بالآلاف ، منهم الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء والفقراء والنساء والصغار ... إلخ ، وأشار ابن الجوزى نفسه إلى أن الخليفة أمر بتقوية يده وإطلاقها فى الوعظ لإرشاد الناس والقضاء على البدع .

وكان مُولعًا بالتأليف ، يرى أن الكتابة أكثر تأثيرًا وأوسع انتشارا من المشافهة المحدودة بالمعاصرة ، وقد بالغ بعض من ترجموا له فى إحصاء مؤلفاته ، فذكروا أنها تصل إلى الألف ، واتهمه آخرون بالتساهل والسطحيّة والوقوع فى التناقض ووصفوا معارفه بأنها «كتبيّة» مستمدة من الكتب والصحف .

وقد لحظ أن الطابع الإخبارى القصصىّ يغلب على معظم مؤلفاته ، مثل : أخبار الحمقى والمغفلين - تلبيس إبليس - المدهش - ذم الهوى - كتاب القصاص

والمـذكـرين ... ، ولا شك فى أن التباس اتجاهه الـوعظى بالأسلوب القصصىّ قد أدّى إلى هذا الطـابع الغالـب ، كما أدّى أيضا إلـى تحرّر أسـاليبه - إلى حـدّ ما - من الاعتمـاد على السجع وغيره من وسائل الزخرف والتنميق .

واشتهر فى علم التفسير بكتابة المسمّى : « زاد المسير فى علم التفسير » ، وفى الحديث بعدّة كتب ، من أهمها « المـوضوعات » فى أربعة أجزاء ذكر فيه الأحاديـث الموضوعة ، وفى التاريخ : المنتظم فى تاريخ الأمم » يبتدىء بأول الخليقة ، وينتهى بخلافة المستضىء بالله ، وفيه عنايـة بأخبار بغداد ، وقد رتبـه على السنوات مثل الطبـرى ، فذكر فى كل سنـة أحداثها ومن توفى فيها من الأعيان مرتبين علـى حروف الهجاء ، ولابن الجوزى خمسون مقامة ، لكنه لم يجعل لها بطلا مـن الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية ، واتّجه بهـا - مثل الزمخشرى - اتجاها وعظيا .

أما كتابه « صَيْد الخاطر » فذو طبيعة إنسانية أدبية متميزة ، فيه اعترافات وتأمّلات وسيرة ذاتيّة ورصد لتجارب البشر وما يمكن - عن طريـق الاستيعاب لها والوعى بها - إفادته منها ، وفيه أيضا ميل واضح إلى الاستعانة بالقصص كقصص الحيوان وغيرها وتعويل على الحوار أحيانا ، بين المرء وذاته أو بينه وبين المخاطبين .

وفى بيان مـكانته العـالية قـال عنـه ابن جبير ، وقـد حضـر مجـلس وعظه مرّتيْن ، هو : « رئيس الحنبليّة ، والمخصوص فى العلوم بالرُّتبـة العليّة ، إمام الجماعة ، وفارس حَلبْة هذه الصناعة ، والمشهـود له بالسبق الكريـم فى البلاغة والبـراعة ، مالك أزِمّة الكـلام فى النظم والنثر... » ، ووصـف إحدى مواعظـه ، فقال فى بيان أثـرها فى النفـوس : « أتى برقـائق من الوعظ ، وآيـات بيّنات من الذكر ، طارت لهـا القلوب اشتياقًا ، وذابت بها الأنفس احتراقًا ، إلى أن عـلا الضجيج ، وتردّد بشهقـاته النشيج ، وأعلـن التائبون بـالصياح ، وتساقطـوا عليه تساقط الفراش على المصباح ... فشاهدنا هَوْلًا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكّرها هول يوم القيامة ... » .

* * *

١ - من كتاب « صيد الخاطر » لابن الجوزى :

(أ) [تلهية النفس والتلطّف بها] :

مرَّبى حمالان تحت جِذْع ثقيل ، وهما يتجاوبان بإنشاد النَّغَم ، وكلمات الاستراحة .

فأحدُهما يُصغى إلى ما يقوله الآخر ثم يعيده أو يجيبه بمثله ، والآخر هِمّتُه مثل ذلك .

فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا زادت المشقّة عليهما ، وثَقُل الأمر ، وكلما فعلا هذا هان الأمر .

فتأمّلت السبب فى ذلك ، فإذا به تعليقُ فكرِ كلّ واحد منهما بما يقوله الآخر ، وطربه به ، وإحالة فكره فى الجواب بمثل ذلك ، فينقطع الطريق ، وينسى ثِقل المحمول .

فأخذتُ من هذا إشارة عجيبة ، ورأيتُ الإنسان قد حمل من التكليف أمورًا صعبة ، ومن أَثْقل ما حمل مُداراةُ نفسه ، وتكليفُها الصبرَ عما تحب ،وعلى ما تكره .

فرأيت الصواب قطع طريق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس ، كما قال الشاعر :

فإن تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهَا المجرّةَ من
ضَوْء الصباح وعِدْها بالرواح ضُحى

ومن هذا ما يحكى عن بِشْر الحافى رحمة الله عليه(١) : سار ومعه رجل فى طريق فعطش صاحبه ، فقال له : نشرب من هذه البئر ؟ فقال بشر : اصبر إلى البئر الأخرى ، فلما وصلا إليها قال له : البئر الأخرى .

فما زال يعلّله ، ثم التفت إليه فقال له : هكذا تنقطع الدنيا .

ومن فَهِم هذا الأصل علّل النفس وتلطّف بها ووعدها الجميل لتصبر على ما قد حملت كما كان بعض السلف يقول لنفسه : والله ما أُريدُ بمنعك من هذا الذى تُحبّين إلا الإشفاق عليك .

---

(١) بشر بن الحارث الحافى المروزوى : من أشهر علماء الصوفية فى العراق ، توفى ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م .

وقال أبو يزيد رحمة الله عليه : مازلت أَسوقُ نفسى إلى الله تعالى وهى تبكى حتى سقتها وهى تضحك .

وأعلم أن مداراةَ النفس والتلطّف بها لازم ، وبذلك ينقطع الطريق ؛ فهذا رَمْزٌ إلى الإشارة ، وشرحه يطول .

* * *

(ب) [نداء العقل وحريق الهوى] :

من نازعته نفسُه إلى لذّة محرّمة فشغله نظره إليها عن تأمُّل عواقبها وعقابها ، وسمع هُتاف العقل يناديه : « ويحك لاتفعل ؟ فإنك تقف عن الصعود ، وتأخذ فى الهبوط ويقال لك ابق بما اخترت » ، فإن شغله هواه فلم يلتفت إلى ما قيل له ، لم يزل فى نزول .

وكان مثله فى سوء اختياره كالمثل المضروب : أن الكلب قال للأسد : يا سيدَ السباع ، غَيِّر اسمى فإنه قبيح ، فقال له : أنت خائن لايَصْلُح لك غيرُ هذا الاسم ، قال : فجرّبنى ، فأعطاه شُقّة لحم وقال : احفظ لى هذه إلى غد وأنا أغيّر اسمك .

فجاع وجعل ينظر إلى اللحم ويصبر .

فلما غلبته نفسه قال : وأى شىء باسمى ؟ وما كلب إلّا اسم حسن . فأكل ، وهكذا الخسيس الهمة ، القنوع بأقلّ المنازل ، المختار عاجلَ الهوى على آجل الفضائل .

فالله الله فى حريق الهوى إذا ثار وانظر كيف تطفئه .

فَرُبَّ أوقعت زلّةٌ فى بئر بَوار ، ورب أثر لم ينقلع ، والفائت لايُستدرك على الحقيقة .

فابْعُدْ عن أسباب الفتنة ، فإن المقاربة محنةٌ لايكاد صاحبها يسلم والسلام .

* * *

(ج) - [تأملات فى الدنيا وآفات نعيمها] :

رأيتُ النفس تنظر إلى لذّات أرباب الدنيا العاجلة وتنسى كيف حَصَلَت وما يتضمّنها من الآفات .

وبيانُ هذا أنك إنْ رأيت صاحب إمارة وَسلْطنة فتأمّلت نعمته وجدتها مَشُوبة ، فإنْ لم يقصد هو الشرّ حصَل من عُمّاله .

ثم هو خائفٌ منزعجٌ فى كلّ أموره حَذرٌ من عدوّ يُسيئه ، قَلِقٌ ممن هو فوقه أن يَعْزله ، ومن نَظِيره أن يَكيده .

ثم أكثرُ زمنه يَمْضى فى خدمة من يخافه من السلاطين ، وفى حِساب أموالهم ، وتنفيذ أوامرهم التى لا تخلو من أشياء مُنْكَرة .

وإنْ عُزِل أَرْبى ذلك على جميع ما نال من لَذّة .

ثم تلك اللذّة تكون مغمورة بالحذر فيها ومنها وعليها .

وإنْ رأيتَ صاحب تجارة رأيته تَقَطّع فى البلاد فلم ينلْ ما نال إلا بعد عُلُوّ السنّ وذهاب زمان اللذة .

كما حُكى أنّ رجلًا من الرؤساء كان حالَ شَبِيبته فقيرًا ، فلما كَبِر استغنى وملك أموالًا واشترى عبيدًا من الترك وغيرهم وجواريَ من الروم فقال هذه الأبيات فى شرح حاله :

ما كنت أرجوه إذ كُنْت ابنَ عِشرينا ... مَلَكْته بعدَ أنْ جاوزتُ سَبْعينا
تَطُوف حولى من الأتراك أَغْزِلَةٌ ... مثل الغُصون على كُثبان يَبْرينا
وخُرَّدٌ من بناتِ الرومِ رائعة ... يَحْكِين بالحسنِ حُورَ الجنّة العِينا
يَغْمِزْنَنى بأساريعٍ مُنَعَّمَة ... تكادُ تعْقدُ من أطْرافها لينا (٢)
يُرِدْن إحياءَ مَيْتٍ لاحراكَ به ... وكيف يُحْيينَ مَيْتًا صار مَدْفونا
قالوا أنينُك طولَ الليل يُسْهِرنا ... فما الذى تشتكى قلتُ الثمانينا

(٢) يبرين : موضع يقال له رَمْل يبرين – الخرّد : جمع الخريدة وهى البكر أو الحيية المتسترة – العين : جمع عيناء وهى الواسعة العين – الأساريع يريد بها الأصابع .

وهذه الحالةُ هى الغالبة فإنّ الإنسان لا يكاد يجتمعُ له كل ما يحبّه إلا عندَ قُرْب رحيله ، فإنْ بَدَرَما يحبّ فى بداية شبابه فالصَّبْوة مانعة من فهم التدابير أوحسن الالتذاذ .

والإنسانُ فى حالة الصَّبْوة لا يدرى أين هو إلّا أنْ يَبْلُغ ، فإذَا بَلَغ كانت هِمّته فى المنكوح كيف ما اتفق .

و إنْ تزوّج جاء الأولاد فمنعوه اللّذّة وانكسر فى نفسه وافتقر إلى الكسب عليهم ، فبينما هو قد دعك فى تلك المديدة القريبة من الثلاثين وخَطّةَ الشيب فانفرق من نفسه لعلمه أن النساء يَنْفَرِقن منه كما قال ابن المعتز بالله :

لقد أتعبتُ نفسى فى مَشِيبى فكيف تُحِبّنى الغِيدُ الكَعابُ

وهكذا لا ترى المتمتّع بالمستحسنات ، إنْ وجدهنّ ، لم يجدْ مالا يبلغ به المراد .

و إن اشتغل بجمع المال ضاع زمنُ تمتّعه ، و إذا تمّ المطلوب فالشَّيبْ أقبحُ قَذَى وأعظمُ مُبْغض .

ثم إن صاحب المال خائف على ماله ، محاسب لمعامليه ، مذموم إنْ أسرف و إن قتّر .

ولده يَرْصُد موتَه ، وجاريته قد لا ترضى بشَخْصه ، وهو مشغول بحفظ حَواشيه .(٣)

فقد مضى زمانُه فى مَحِن ، واللذات فيها خُلس معتادة لا لذّة فيها .(٤)

ثم فى القيامة يُحْشَر الأمير والتاجر خَزايا ، إلّا مَن عَصَم الله .

فإياك إياك أن تَنْظُر إلى صورة نعيمهم فإنك تستطيبُه لبعُدْه عنك ، ولو قد بَلَغْته كَرِهْته ثم فى ضِمْنه من محن الدنيا والآخرة مالا يُوصف .

فعليك بالقناعة مَهمْا أمْكن ، ففيها سلامةُ الدنيا والدين .

---

(٣) يرصد : يرقب - حواشيه : أهله وخاصّته .
(٤) الخُلْسة : الفرصة .

وقد قيل لبعض الزهاد وعنده خُبْز يابس : « كيف تَشْتهى هذا » ؟ فقال : « أتركهُ حتّى أشتهيه » .

* * *

(د) - [تأملت حالى ... ونفسى] :

تأمّلتُ أحوال الناس فى حالة علوّ شأنهم ، فرأيتُ أكثر الخلق تَبين خسارتهم حينئذ ، فمنهم من بالغ فى المعاصى من الشباب ، ومنهم من فرطّ فى اكتساب العلم ، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات .

فكلّهم نادم فى حالة الكِبَر حين فوات الاستدراك لذنوبٍ سَلَفَت ، أو قُوًى ضَعُفت ، أو فضيلة فاتتْ ، فيمضى زمان الكِبر فى حَسرات .

فإنْ كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت قال : « وا أسفا على ما جَنَيْت » .

وإن لم يكن له إفاقة صار متأسّفا على فوات ما كان يلتذّ به .

فأما من أنفق عصر الشباب فى العلم فإنه فى زمن الشيخوخة يَحْمَد جَنَى ما غرس ويلتذّ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم .

هذا مع وجود لذّاته فى الطلب الذى كان تَأَمَّل به إدراك المطلوب .

وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها كما قال الشاعر :

أهتزّ عند تَمَنِّى وَصْلِها طربًا ... ورُبّ أمنية أحلى من الظَّفَر

ولقد تأملّت نفسى بالإضافة إلى عشيرتى الذين أنفقوا أعمارهم فى اكتساب الدنيا ، وأنفقت زمن الصبوة والشباب فى طلب العلم ، فرأيتُنى لم يفتْنى مما نالوه إلّا ما لو حصل لى ندمت عليه .

ثم تأمّلت حالى فإذا عيشى فى الدنيا أَجْود من عيشهم ، وجاهى بين الناس أعلى من جاههم ، وما نلتُه من معرفة العلم لايقاوَم .

فقال لى إبليس : ونسيت تعبك وسهرك .

فقلت له : أيها الجاهل ، تقطيع الأيدى لاوقع له عند رؤية يوسف .

وما طالتْ طريقٌ أدّت إلى صديق :

جَــزَى اللهُ المسيــرَ إليــه خيــرًا   وإنْ تَــرَكَ المطــايــا كــالمــزاد

ولقد كنتُ فى حلاوة طلبى العلم ألقى من الشدائد ما هو عندى أَحْلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو .

كنت فى زمان الصبا آخذ معى أَرْغفةً يابسة فـأخرج فى طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أَكْلها إلا عند الماء .

فكلما أكلتُ لُقْمةً شربت عليها ، وعينُ هِمّتى لاترى إلَا لّذة تحصيل العلم .

فأثمـر ذلك عنـدى أنى عُرفـت بكثرة سمـاعى لحـديث الرسـول ﷺ وأحوالـه وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم ، فصرت فى معرفة طريقه كابن أجود .

وأثمرَ ذلك عنـدى من المعاملة ما لا يدرى بـالعلم ، حتى أننى أذكر فـى زمان الصَّبْوة ، ووقت الغُلْمة والعُـزْبة (٥) قدرتـى على أشياء كـانت النفس تتوق إليهـا تَوقَان العطشـان إلى الماء الزُّلال ، ولم يمنعْنى عنها إلا ما أثمر عندى العلمُ من خوف الله عزّ وجلّ .

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر ، لقد كنتُ أخافُ على نفسى من العجب .

غير أنـه عزّ وجـلّ صاننى ، وعلّمنـى ، وأَطْلَعنى مـن أسرارِ العلم علـى معرفتـه ، و إيثار الخلوة به ، حتى أنه لو حضر معى معروف وبشر (٦) لرأيتهما زحمة .

ثم عاد فغَمَسنى فى التقصير والتفريط حتى رأيتُ أقلّ الناس خيرًا منى .

وتارة يُوقظنى لقيام الليل ولذّة مناجاته ، وتارةً يحرمُنى ذلك مع سَلَامة بدنى .

---

(٥) الصبوة : الميل إلى اللهو - الغُلمة : شدة الشهوة - العُزْبة : من ليس له زوج .

(٦) معروف الكـرخى (ت ٢٠٠ هـ) وبشر الحـافى (ت ٢٢٧ هـ) مـن مشاهير المتصـوفة فى العصر العبـاسىّ الأول .

ولولا بشارةُ العلـم بأن هذا نوع تهذيب وتـأديب لخرجت إمّا إلى العُجب عند العمل ، وإما إلى اليأس عند البطالة .

لكن رجائى فى فضله قد عادل خوفى منه .

وقد يَغْلب الرجاء بقوة أسبابه ، لأنى رأيتُ أنـه قد ربانى منذ كنت طفلا ، فإن أبى مات وأنا لا أعقل ، والأمّ لم تلتفت إلىّ . فركَز فى طبعى حبُّ العلم .

وما زال يُوقعنى على المهمّ فالمهمّ ، ويَحْملنى إلى مَنْ يَحْملنى على الأصوب ، حتى قوَّم أمرى .

وكم قد قصدنى عدوّ فصدّه عنى ، وإذ رأيته قد نَصَرنى وبصرنى ودافع عنى ووهب لى ، قوّى رجائى فى المستقبل بما قد رأيت فى الماضى .

ولقد تاب على يدى فى مجالسِ الذكر أكثـرُ من مائتى ألف ، وأَسْلَم على يدى أكثر من مائتى نفس .

وكم سالت عينُ متجبّر بوعظى لم تكنْ تسيل .

ويحقّ لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام .

وربما لاحت أسبابُ الخوف بنظرى إلى تقصيرى وزللى .

ولقـد جـلـستُ يومًـا فـرأيت حـولى أكثر من عشرة آلاف ما فيهـم إلا من قَدْ رَقَّ قلبه ، أو دمعت عينـه ، فقلت لنفسى : « كيف بـك إن نَجَـوا وهلكت » ، فصحتُ بلسان وَجْـدى : « إلهى وسيدى إن قَضَيْتَ علىّ بـالعذاب غدا فلا تعلمهم بعذابى صيانـة لكرمك لا لأجلى ، لئلا يقولوا عذّب من دلّ عليه » .

إلهى قـد قيل لنبيـك ﷺ : « أقتل ابـن أبىّ المنـافق » ، فقـال : « لا يتحدّث النـاس أن محمدًا يقتل أصحابه » ، إلهى فاحفظ حسن عقائدهم فىَّ بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك .

حاشك والله يارِبَّ من تكدير الصافى .

لاتَبْــرِعــــــودًا أنــت ريَّشتــــه حـــاشــا لبـــانـــى الجــود أن يَنْقُضــا
لاتعطـــش الـــزرع الـــذى نَبْتُــه بِصَـــوْبِ إنعـــامـــك قـــد رُوِّضــا

* * *

هـ - [علوّ الهمّة] :

ما ابتُلى الإنسان قطّ بأعظم من علوّ همته . فإنّ مَن عَلَتْ همتّه يختار المعالى .

وربمّا لايساعدُ الزمان ، وقد تَضْعُف الآلة ، فيبقى فى عذاب .

وإنى أُعطيت مـن علوّ الهمة طرفًا فـأنابه فى عـذاب ، ولاأقول لَيته لم يكنْ ، فـإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل ، والعاقل لايختار زيادة اللذة بنقصان العقل .

ولقد رأيـتُ أقوامًـا يصفون علـوّ هممهم ، فتأمّلتهـا فإذا بهـا فى فـن واحد ، ولا يبـالون بالنقص فيما هو أهمّ ، قال الرضىّ :

ولكـــلِّ جســـمٍ فـــى النُّحـــول بليّـــة وبـــلاءُ جسمـــى مـــن تفـــاوُت همّتـــى

فنظرتُ فإذا غاية أمله الإمارة . وكان أبو مسلـم الخراسانى فى حال شبيبته لايكاد ينام ، فقيل لـه فى ذلك ، فقـال : « ذهن صافٍ ، وهمّ بعيـد ، ونفس تَتُوق إلـى معالى الأمـور ، مع عَيْش كعيش الهَمَج الرَّعاع » . (٧)

قيل : فما الذى يُبرِّد غليلك . قال الظفر بالملك .

قيل : فاطلُبه ، قال : لايُطلب إلّا بالأهوال .

قيل : فاركب الأهوال ، قال . العقلُ مانع .

قيل : فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلى جهلا ، وأحاول به خطرًا لايُنال إلا بالجهل ، وأدبّر بالعقل ما لايحفظ إلا به ، فإن الخمولَ أخو العَدَم .

---

(٧) الهَمَج : الرعاع من الناس لانظام لهم - الرعاع - بفتح الراء وضمها الغَوْغاء ، الواحد : رعاعة .

فنظرتُ إلى حال هذا لمسكين فإذا هو قد ضيّع أهمّ المهمات وهو جانب الآخرة ، وانتصب فى طَلَب الوِلايات . فكم فَتك وقَتل ؟ حتى نال بعضَ مراده من لذّات الدنيا .

ثم لم يتنعّم فى ذلك غير ثمان سنين .

ثم اغتيِل ، ونَسِى تدبير العقل ، فقُتل ومضى إلى الآخرة على أقْبح حال . وكان المتنبى يقول :

وفى الناس منَ يَرضى بميسور عيشه ومركوبُه رجلاه والثوبُ جِلْدُه

ولكنّ قلبًا - بين جنبىَّ - ماله مَدّى ينتهى بى فى مُرادٍ أحُدُّه

يَرى جِسْمه يُكْسَى شُفُوفا تَربُّه فيَخْتار أنْ يُكْسَى دُروعا تَهُدُّه (٨)

فتأمّلت هذا الآخر فإذا نُهمَته فيما يتعلق بالدنيا فحسب (٩) .

ونظرت إلى علوّ همّتى فرأيتها عجبًا ، وذلك أننى أرومُ من العلم ما أتيقّن أنى لا أصلُ إليه ، لأننى أحبّ نيَل كلّ العلوم على اختلاف فنونها .

وأريدُ استقصاءَ كلّ فنّ ، هذا أمرٌ يعجز العُمْرُ عن بعضه .

فإنْ عَرَض لى ذو هِمّة فى فنّ قد بلغ منتهاه رأيته ناقصًا فى غيره . فلا أعدّ همته تامة .

مثل المحدّث فاته الفقه ، والفقيه فاته علم الحديث ، فلا أرى الرِّضى بنقصان من العلوم إلّا حادثا عن نقص الهمّة .

ثم إنى أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوقُ إلى وَرَع بِشْر ، وزَهادة معروف ، وهذا مع مطالعة التصانيف و إفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد .

---

(٨) الميْسور : ما تيسّر - أَحُدُّه : أجعل له حدًّا - الشُّفُوف : جمع شفّ ، وهو الثوب الرقيق - تربّه : تنمّيه وتنعّمه .
(٩) النُّهمة : الحاجة أو الشَّهْوة فى الشىء .

ثم إنى أَرُوم الغنى عن الخلق ، وأَستشرف الإفضالَ عليهم . والاشتغالُ - بالعلم مانعٌ من الكسب ، وقَبولُ المِنن مما تأباه الهمةُ العالية .

ثم إنى أتوقُ إلى طلبِ الأولاد ، كما أتوقُ إلى تحقيق التصانيف ، ليبقى الخلفان نائبين عنى بعد التلف ، وفى طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحبّ للتفرّد .

ثم إنى أروم الاستمتاعَ بالمستحسنات ، وفى ذلك امتناعٌ من جهة قلّة المال ثم لو حصل فرق جمع الهمة .

وكذلك أطلب لبدنى ما يصلحُه من المطاعم والمشارب ، فإنه متعوّد للترفّه واللّطف ، وفى قلّة المال مانع ، وكل ذلك جمع بين أضداد .

فأين أنا وما وصفته من حال من كانت غايةُ همته الدنيا .

وأنا لا أحبّ أن يخدش حصولُ شيء من الدنيا وَجْهَ دينى بسبب .

ولا أن يؤثر فى علمى ولا فى عملى .

فيا قلقى من طلبِ قِيام الليل ، وتحقيقِ الورع مع إعادة العلم ، وشغل القلب بالتصانيف . وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم .

ووا أسفى على ما يفوتُنى من المناجاة فى الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم .

ويا كدرَ الورع مع طلب ما لابدّ منه للعائلة .

غير أنى قد استسلمت لتعذيبى ، ولعلّ تهذيبى فى تعذيبى ، لأن علوّ الهمّة تطلب المعالى المقرّبة إلى الحقّ عزّ وجلّ .

وربما كانت الحيرة فى الطلب دليلًا إلى المقصود ، وها أنا أحفظ أنفاسى من أن يضيع منها نَفَس فى غير فائدة .

وإن بلغ همىّ مراده ... وإلا فنيّةُ المؤمن أبلغ من عمله .

* * *

٢ - من « مقامات ابن الجوزى » .

فى حسن الصحبة والمدارة :

بِتُّ ليلةً أسيرَ الغُموم فى البَيْت ، وقلبى حَسِيرٌ بالهُموم كالمَيْت ، فَطَرَق البابَ كفُّ طارق ، وقال : « ضَيْف » . فقلتُ : « مَن لى بِوَكْف بارقٍ وكيف ؟ » . فدخل ذو هِدْمَل قد شَسَف [١٠] ، فقلتُ : « بَدْرُ ليلتى قد خَسَف » . فتلَمَّح ضِيق مَعاطِنى ، وتَمَلَّح رِيق باطنى . فقال : « يا زَوْل أنا زَوْر [١١] ، والقولُ على البواطن جَوْر » ، فأفْرَدْتُه فى صُفَّة ، وأبْرَدْتُه فى أَهْل الصُّفَّة ، فاجتمع للبَرد كأنَّه قُفَّة [١٢] ، وأنْشَد :

إيَّاك أنْ تَزْدَرِى الرِّجالَ فما ... يُدْرِيك ماذا يُجِنُّه الصَّدَف

نفسُ الكريمِ الجوادِ باقيةٌ ... فيه وإنْ مَسَّ جلْدَه عَجَف

والحُرُّ حُرٌّ وإنْ ألَمَّ به الد ... هرُ ففيه الحَياءُ والأَنَف [١٣]

فصِحْتُ بخَادِمى : « يا كافُور » . فقدَّم لنا قِدْرًا تَفُور . فقلتُ : « وَيْحَك [١٤] اغرفْ » . فأَعْرَض عنَّا وأَبى ، ولم يَغْرِف لنا . فقلت للشيخ : « أَسْمِعْنى ذَمَّة فالكلامُ يَشْفى صدرى ، فقد حَيَّرنى هذا الغلامُ فى أَمْرى » . فزَفَر الشيخ - لِما مَيَّز - زَفْرة القيظ ، وكان يَتَميَّز [١٥] من الغيظ . وقال : « تَعَلَّمْ على غلامك كَظْمَ الغَيْظ » ، ثم بادأه فناداه .

أكافورُ قُبِّحْت من خادم ... ولاقَتْك مُسْرِعَةً جائحة

حَكَيْتَ سَمِيَّك فى بَرْده ... وأخْطأك اللونُ والرائحة [١٦]

---

(١٠) الوكف : سيلان الماء وقطره قليلا قليلا - الهِدْمل : الثوب البالى - شسف : يبس .

(١١) ضيق معاطنى أى قلّة صبرى وحيلتى ، والمعاطن : مبارك الإبل ومرابض الغنم عند الماء - زول : ظريف خفيف جواد - زور : زائر .

(١٢) صفّة : بهو واسع - أهل الصفّة : فقراء المهاجرين الذى كانوا يأوون إلى الصفة وهو مكان مظلل فى مسجد المدينة ويرعاهم الرسول ﷺ القفّة : الزبيل أو المقطف الكبير .

(١٣) يجنّه : يستره - عجف : هُزال - الأنف : العزّة والحميّة .

(١٤) ويحك : كلمة ترحمّ وتوجّع . (١٥) يتميز : يتقطّع .

(١٦) جائحة : مصيبة تجتاح - سَمِيّك : من يوافقك فى الاسم ، ويعنى به كافور الإخشيدى (ت ٣٤٩ هـ) حاكم مصر ، وكان معروفا بطيب الرائحة .

فاستسعدتُ أنا بخدمة ضَيْفي ، وأعددتُ للخادم سَوْطِي وسَيْفي . ثم دَعَوْت جماعة كانوا يُفْطِرون عندى ، فأَسْنَيْت طعامَهم ونَسِيت عدى . ثم حَنَّ قَلْبى إليه فصافحته ، وعَفَوْتُ عن جِناية يديْه وسامحتُه . فقال : منذ ساعة لدىّ تَناصَيْتُما (١٧) ، ولكن عَلام ما تَواصَيْتما .

من بعدِما دَبْدَبْدتُ فى دَسْتِكم وصرتُ من أجلكم شنعه (١٨)
أخرجتمانى وتفرزنتما صَدَقْتما قد ماتت الصنعة

ثمّ قال : « العَجَلة والنَّدامة فَرَسا رِهان » . ثم قال « : كلام فرسا رِهان (١٩) . ثم جعل يقول : « لا بأسَ بمداراة من تُقاسيه . فإن العفو يُلَيِّن من قاسيه » . فلما أكلوا تناولوا بالأصابع ثم بالراح . وشغلُوا جميعَ المسامع بحديث الأفراح . فناول الشيخُ ناقةَ الجوع لُقمات ثم شق . وقال : « أَعوذ بالله من الشَّرَه والسَّنَق (٢٠) . « فقلتُ له : « فما الذى تُؤْثِر من الحَلْوى ؟ » قال : « السَّلْوى (٢١) . فازداد منها ، وقال : « لا بأس ، فإنّ فيها شفاءً للناس » . فلما فَرَغَ فَغَرَ فاه بالشكر . فقلت : « لعلك ممَّن هواه فى السكر » . فقال : « أعوذُ بالإله من كلمة النُّكْر . إن الشَّمُول (٢٢) تُبَدِّد شَمْل الدين ، وليست من شأن الفُطَناء ولا المُهتَدين . كم بين معروفٍ وأبى نُوَاس (٢٣) ! هذا كاسٍ بالزهد ، وذاك شانَتْه الكاس ، ثم ما لُسُنٌ تقرقف والقَرْقَف ؟ » ، فلما رَأى الآكلين قد لَعِبوا وأَشِروا (٢٤) ، قال : « فإذا طَعِمْتُم فانْتَشِروا (٢٥) » ، ثم آبَ ليذهبَ ،

(١٧) تناصوا أى أخذ بعضهم بنواصى بعض فى الخصومة .
(١٨) دبدب : صخب وأجلب – الدست : صدر المجلس – شنْعة : قبح .
(١٩) يقال فى المثل : « هما كفرسى رهان » يضرب للمتساويين فى الفضل وغيره ، والراهان هو السباق – والرهان الثانية بمعنى الشىء المرهون ، من الرهن .
(٢٠) السَّنَق : البَشَم والتُّخَمَة .
(٢١) السلوى : العسل .
(٢٢) الشمول : الخمر .
(٢٣) يعنى « معروفًا الكرخى » المشهور بزهده (ت ٢٠٠ هـ) وأبا نواس الحسن بن هانىء المعروف بالخلاعة والمجون (ت ١٩٨ هـ) .
(٢٤) تقرقف أى تصطك ثناياها بعضها ببعض من البرد – القرقف : الخمر – أشروا : مرحوا ونشطوا .
(٢٥) سورة الأحزاب (٥٣) .

فقُلْت : « مـا فيها مَذْهَـب ، قد عَرَض لـى أنْ تَبِيت » ، فقـال : « لا غَرَضَ لى فـى المبيت » . فشمَّر للرَّحِيل ذَيْله . فقلت : « إنَّما هى لَيْلـة » . فقال : « إنّ شُكْر المنِعم مُسْتَحق ، ولك بما فعلت حـقّ » . فلمـا أمسيتُ أسميت لسمرى خلقا . فزهزق [٢٦] منى حتى استلقى . وقال : « أتْفْنى زَمـانَك فـى حـديث الكَذَّابين . لقـد قمت فى مقام غَبِىٍّ غَبِين [٢٧] . أحذر مَـنْ إذا قلت : هات . جـاء بترّهات » . [٢٨] فقلت : « إن المُحَدِّث يُحِـبُّ الحَدِيث » . قال : « فـأنا أَسْرُد عليك القـديمَ والحديث » . فقلـت . « أَنِسْنى أَنْسَ الأَفَّـاك . وحَـدِّثْنى لا رَضَّ [٢٩] اللهُ فَاك » . ثم قلتُ له : « عندى مسائل » . فقال : « ولك عندى وَسائل » . فقلت : « وكيف أُزَوِّد عِلْمَك » . قـال : « سَـلْ وأَحْضِـر فَهْمَك . وقُلْ ما بَدا لك . وقد بدا لـك » . قلت « : يَعْتَرِينى غَمّ ، لا أَجِد منه مَخْلَصًا ويَأْخُذُنى هَمّ » .

فقال : مَن عَصى قُرِع بعَصا ، ومن هَمَّ عُوقب بهَمّ .

قلت : ما تقول فى صُحبتِه الإِخْوان ؟

فقال : وهـل بَقِى إلّا الخَـوَّان . فعاشِـر الناسَ بـالظَّاهـر والإعلان ، ولا تُطـالِبْهم بخُلُـوص السَّرائر والجُثْمان ، فقد دَخَل المُخلِصون فى خَبَر كان .

همـومُ زمـانـى فـى أمـورٍ كثيـرةٍ وهَمِّـى مـن الـدنيـا صَـدِيـقٌ مُسـاعِـدُ
نِصِيـرُ كـروحٍ بيـن جسْميـن فُـرِّقـا فجِسْمـاهمـا جِسْمـان والـروحُ واحـد

قلت : أوْ أُعاشِر مَنْ ذا وَقْتُه .

قال : نَعَمْ باشِرْ فماذا وَقْتُه . إنَّك إنْ طَلَبْتَ الصحيحَ لم تَجِدْ ، وإن طالبتَ الشحِيحَ لم يَجُد [٣٠] .

---

(٢٦) زهزق : ضحك ضحكا شديدا .
(٢٧) غبين : ضعيف الرأى .
(٢٨) ترّهات : أباطيل وأقوال خالية من كل نفع .
(٢٩) رضّ : دقّ وكسر .
(٣٠) لم يَجُد : لم يَسْخُ ولم يبذل .

دَعِ المـرءَ مطـويًّـا علـى مـا ذَمَمْتَـه ولا تنشُـرِ الـداءَ العُضـالَ فتَنْـدَمـا
إذا العُضْـوُ لـم يُـؤْلِمْـك إلّاقَطَعتَـه علـى مضـضٍ لـم تُبْـقِ لحمًـا ولادَمـا

وَيْحَـك إنّ العاقـل يُداري كـلَّ شَخْص بمـا يصلـحُ له ، فـإنّ صُحْبة العـاقل للبهـائم أحوجت الفصح أنْ يقول للذُّباب : كِشْ (٣١) .

ثم قال : كلّ صاحبٍ يُخالط ، فالواجبُ عليه أن يُنْزِلَ الأصحابَ بمنزلة الشَّعْر ، فإنّ منه مـا يُكْرَم ويُخْـدَم ولايُنَحَّى كشعْـر الرأس ، ومنـه مـا يُقَصّ إذا طـال كالشـارب ، والباقـى يُسْتَأْصَـل ، الصديقُ الصَّـدوقُ لايحتاجُ إلى مُـداراة ، كحَلوى السّكر تحـرّكُها فى فِيـك وقد عبرت ، ومن المعاشِـرين كلحْم البَقَرِيُتْعِب الإنسانَ فى مَضْغِه والمَعِـدَة فى هَضْمه ، ومنهم كالفُجْل لايَنْهَضِم أَصْلًا ، وأنشدَ :

لاتـركَنَـنَّ إلـى هـذا الـزمـان ولا أبنـائِه سـاعـةً واستعمـل الحـذَار
فـإنْ أبيْـتَ فجـرِّبْ مَـن تعـاشِـرُه حتّـى يقولَ لـك التجريـبُ : كيف تـرى ؟

الصاحبُ كالرُّقْعة فى الثَّوْب إذا لم تُشكِلْه شانته (٣٢) ، وأنشد :

أَرَى خُلَـلًا تُصـانُ ولاتُهـان وأَغْـراضًـا تُهـانُ ولاتُصـانُ
يقـولـون الـزمـانُ بـه فَسـادٌ وهُـمْ فسـدُوا ومـا فَسَـدَ الـزمـان

قلت : إن أصدقائى يُطْرُونى حتى يطغُونى .

قال : مَن وَصَفَك بما ليس فيك فقد هَجاك .

قلت : ويَبْلُغنى عنهم ما لايَصْلُح .

فقال : عَوْرَةُ الجاهل بيْن فَكَّيْه .

---

(٣١) قوله « كش » لعله صوت للزّجر .
(٣٢) تشاكله : تشابهه وتماثله – شانته : عابته .

قلت : فإن وَجَدْتَ صديقًا مُخْلصًا .

قال : ومن لك بعَنْقاء مُغْرِب [٣٣] .

يـا مَـن يَـرُوم صـديـقَ صِـدقٍ بعـدمـا فَسَـدَ الأنـامُ
ذهـبَ الصـديـقُ وصـار حُلْـمًا مثـل مـا ذهـب الكـرام
فتَعَـزَّ عمّـا فـات منـه فليـس يُـوجـد والسـلام

ثم قال : وَيْحَك كانَ الناسُ أَصْدَقاء فدخلُوا فى خَبرِ كان .

قلت : فما سببُ ذلك الصَّفا ؟

قال : تساوِى الصَّبابة .

قلت : ومتى تَتَساوى ؟

قال : إذا تشاكلتْ جواهرُ الأُصول . ويحَك الصديقُ الصدوقُ ثانى النفس وثالثُ العين ، لقاؤُه روحُ الحياة ، وفراقُه سُمُّ الحَيَّات ، كم كان لى أنا من أخٍ جرّبته فلم يصلُح لى حُبّه ، ففتحت البُزال [٣٤] .

طلبتُ صديقًا فى البَرِيَّة كُلِّها فأَعْيا طِلَابى أنْ أُصِيب صَديقا
بلى مَن تَسَمَّى بالصديق عِبارةً ولم يك فى معنى الوِداد صَدُوقا
فطلّقْتُ وُدَّ العالمين صَرِيمةً فأصْبَحْتُ مِن أسْرِ الوِدادِ طَلِيقا [٣٥]

ثم قال : رُبَّ صُوَرٍ للرائى تَرُوق ، وإنَّما فى المعانى الفُروق .

---

(٣٣) عنقاء مغرب : طائر وهمى لم يره أحد يَبْعُد فى طيرانه ، يضرب به المثل فى طلب المحال الذى لا يُنال .
(٣٤) البُزال : الموضع الذى يخرج منه الشراب المبزول – ومن معانى « الحُبّ » : وعاء الماء كالزير والجرّة .
(٣٥) الصريمة : العزيمة أو القطيعة .

فـــلا تَغُـشّ ولا تَخْـدَعْـك بـارقــةٌ مــن ذى خِـداعٍ يُـرِى بِشْـرًا وأَلْطـافـا
فلـو فَلَيْـت جميـعَ النـاسِ قـاطِبـةً وسِـرْتَ فى الأرضِ أوْسـاطًـا وأَطْرافـا [36]
لـم تلـقَ فيهـا صـديقًـا صادقًا أبـدًا ولا أخًـا يَبْـذُلُ الإنصــافَ إنْ صـافـى

قلت : فإنْ رأيتَ مِن إخوانى مُنْكَرًا .

فصاح : أَنْصَح إنْ صَحّ .

قلت : فما بالُ هذه النفِس كرهتْ دخولَ البَدَن ثم كرهت الخرُوج .

فقال :

نـــزلنـا كــارهيــــنَ لهــا فلمــا أَلِفْنــاهـــا خَــرَجْنــا مُكْـرهينــا
ومــا حُـبُّ الــديــارِبِنــا ولكـــن أَمَــرُّ العَيْـشِ فُـرْقَـةُ مَــن هَـوِينــا

ثم جعل يترنَّم :

ولـــولا هـــوى الأوطـــانِ مـــا حَـــنَّ نـــازح
ولـــولا لقـــاءُ الإلـــفِ مـــا أَنَّ مُفْـــرَد

فقلت : ما بالُ الكبير يَعْلَم قُرْبَ الرَّحيل ، وأملُه طوِيل ؟ !

فقال : لو كُشِف الغِطاء عن العواقب مات الحرْصُ والأَمَل ، ولهما أَجَل .

قلت : إنى لأقنعُ بالبُلْغَة وعندى شَرَه [37] .

فقال : لو قنعتَ ما رَهَنْتَ دارَ القلب على شَهْوة ، وسَلَّمْت كتب الأصل .

فقلت : ما بالُ الأعْرابِ يَعْشَقون ولا يَفْسُقون .

قال : كان الحبُّ فى القلْبِ فانتقَلَ إلى المَعِدَة .

---

(36) فليْت : نظرْتَ متأمّلا .

(37) البلغة : ما يكفى لسدّ الحاجة ولا يفضل عنها .

قلت : كلُّ الزُّهَّاد غَرَسوا أشجارَ المُعاملة فى بَساتين المعْرِفة فلماذا عَلا ذِكْرُ مَعْرُوف ؟

فقال : معروف ركّب (٣٨) .

قلت : بلغنى أنه كان لا يلزم للزُّهد نامُوسا (٣٩) .

قال : فهـذه طريق محمّـد وعيسى وموسى ، أمـا علمت أنه مَـن رَمَى عن رأسـه قَلَنْسُوة التعظيم تواضُعًا رَدَّها القَدَرُ بحبل ، مَن نزل فى بئر الدَّالية صَعَد له الماء (٤٠) .

قلت : فما سِرُّ المُرائى ؟

قال : دعا باسمِ لَيْلى غَيْرَها (٤١) .

قلت : قد أطلتُ عليك فقُمْ ونَمْ .

فقال : ما نحن فيه أَلْزَم وأَهَمّ .

قلت : ما رأيتُ أكثرَ ممَّا عِندنا مِن البرَاغيث .

فقال : ذلك لأن البرَى غَيْث (٤٢) ، وأنشد :

يـا ليلـةً بـاتـت بـراغيثُهـا ... تـرقُـصُ إذ غَنَّـى لهـا البَـقُّ

فكِـدتُ مـن حـزنـى بـأفـراحِهـم ... أنشـقُّ لـولا الصُّبْـحُ يَنْشَـق

فسكت لئلا أَمْنَعه النوم ، وودِدتُ أن ليلتى كانت ألفَ يوم ، فلمـا أصبحَ خرجَ يَسْحَبُ الذُّلَاذِل (٤٣) ، فأزعَجنى فِراقُه إزعاجَ الزَّلازِل ، فحلَفْتُ له أُلُوفا ، لقد خُلِقْتُ أَلُوفا ، أفيمكنُ أن أَصْحَبَك أو أنْ تُقِيم ، وتأمّلتُه فإذا هُو أبو التَّقْويـم ، فقال : لابُدَّ من الرَّحِيل ، وإنْ لم أَخْتَرْ بُعْدَك .

فقلت : لا كانت الدُّنْيا بَعْدَك .

---

(٣٨) ركّب أى نحت مثل القلم من شجرة ، وغرس فى أخرى ، ليجيىء الثمر جيّدا .

(٣٩) من معانى « الناموس » : القانون والشريعة أو بيت الراهب .

(٤٠) الدّالية : الأرض تُسقى بالدلو أو الناعورة يديرها الماء .

(٤١) مما ينسب إلى مجنون بنى عامر قوله :

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائرًا كان فى صدرى

(٤٢) البرَى : التراب .

(٤٣) الذّلاذل : أسافل القميص الطويل .

ابن مَمَّاتى

(٥٤٤ - ٦٠٦ هـ / ١١٤٩ - ١٢٠٩ م)

أبو المكارم القاضى الأسعد أسعد بن القاضى الخطير أبى سعيد مهذّب بن مينا ، وُلد نحو سنة ٥٤٤ ، وهو سليل أسرة قبطيّة من أسيوط فى صعيد مصر ، هاجرت إلى القاهرة فى القرن الخامس ، وكان جدها الأعلى جوهريا ، استطاع أن يبثّ فى الأبناء والأحفاد القدرة على رعاية الأموال ، فتوالوا على نظارة دواوينها فى الدولتين الفاطمية والأيوبية ، واعتنقت الأسرة الإسلام فى عهد آخر الخلفاء الفاطميين العاضد عندما أسند الوزارة إلى أسد الدين شيركوه .

تولّى نظارة دواوين المال والجيش للسلطان صلاح الدين وزيره القاضى الفاضل ، وكان مقرّبا منهما ، مما جعله على خصومة مع الصفىّ بن شكر ، فلما تولّى الوزارة فى عهد الملك العادل انتقم من ابن مَمّاتى ، وخافه هذا ، فهرب إلى حلب سنة ٦٠٤ ، والتحق بخدمة أميرها الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، وبقى فى خدمته إلى أن توفّى .

وكان شاعرا ، ولكن ديوانه لم يصل إلينا ، ويبدو أن معظمه مقطعات قصيرة ، مع ما عرف به من مطوّلات فى نظم سيرة صلاح الدين ونظم كليلة ودمنة شعرا ، والظنّ أنه كان ناثرًا أفضل منه شاعرًا .

صنّف عددا من الكتب اعتمدت على اختصار المؤلفات المشهورة ، كما اعتمد بعضها الآخر على المختارات الأدبية سار فيها على نهج الثعالبى فى كتبه ، ومن مصنفاته « الشيء بالشيء يذكر » ، ويقال إن القاضى الفاضل أعجب به ، وسماه سلاسل الذهب . وتقوم شهرة ابن ممّاتى فى العصر الحديث على كتابين له ، أولهما : « قوانين الدواوين » وفيه معلومات غاية فى الأهمية عن الأحول الاقتصادية والإدارية فى مصر آنذاك ، وثانيهما : « الفاشوش فى حكم قراقوش » الذى سخر فيه من الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدى ، الذى أنابه صلاح الدين على مصر عندما غادرها إلى الشام لمواصلة حروبه ضد الصليبيين ، وكان فى الرجل قسوة جعلت المصريين يكرهونه ، وقد أفلح الكتاب فى تشويه صورة قراقوش ، حتى صار مثلا للحاكم الظالم الجاهل إلى يومنا هذا ، وجعلت الناس يضيفون من تأليفهم قصصا أخرى إلى ما فى الكتاب .

* * *

أورد العماد الأصبهانيّ جزءا من رسالة إخوانية لابن ممّاتى صوّر فيها فراقه لأحد أصدقائه ، وأثنى عليها العماد ، فقال إنها « من نَوْر نثره البديع ، ونُور فجره الصديع ، وغُرر دُرره النصيعة ، ودَرارى غُرره الصنيعة » [1] ، ومما ورد فى هذه الرسالة :

« فَصَلْتُ عنه فى أُخريات النهار ، وقد ظَهر فى أطراف الجُدران لفَرَق [2] فِراق الشمس اصفرارٌ ، فلما ذَهَبَ ذَهَبُ الأصيلِ بنارِ الشَّفَق ، ولبِستْ المشارقُ السَّوادَ لِما تَمَّ فى المغارب على الشمس من الفرق ، وأقبلتْ مواكبُ الكواكبِ فى طَلَب الثَّار ، كدراهم النِّثار [3] ، وتشابهتْ زواهرُها ، وإنْ اختلفتْ فى الأشجانِ بالأزهارِ فى الأَشْجار ، وتَكَلَّف القمرُ الموافقةَ فظهر على وجهه الكَلَف [4] ، ومَرَّت به طوالعُ النجوم فلم يستخبرها حسدًا فأَعْرب عن غَدْر الخَلَف بالسَّلَف ، وظَهَر الوُجوم فى وُجُوه النُّجوم ، وعِيل صَبْر النسرين [5] ، فواحد طائرٌ يَحُوم ، وآخرُ واقعٌ لايقُوم ، ولم تَزَلْ مُتلاحِقة مُتَسابقة لتَقْفُو الأَثَر وتَسْمَعَ الخبرِ ، إلى أن بَدا سَوْسَنُ الفَجْر ولاح ، وابتَسم ثَغْر الصَّباح عن الأَقاح [6] ، وكادَ ثعلبُه يأكلُ عُنقُود الثُّريَّا ، وَبرزَتْ الغَزالُة من أُسّ الكِناس طَلَقَةَ المُحَيَّا [7] ، وتراءتْ الوُجوه ، وزالَ ما زالَ بغَيْبَتها من المَكْروه ، وأخذَت النجومُ بالحظّ من الطَّرَب ، بمقدارِ ما قَدَّمته من الحضِّ فى الطلب ، وانخرطتْ فى سُلوك شَعاعها نِظامًا ، وزاد خوفُها منها على رَجائها فيها ، فذابت إكبارًا لها وإعظاما » .

* * *

---

(١) النَّوْر : الزهر - الصديع : المنسق نورا - النصيعة : الناصعة - الصنيعة : البديعة .

(٢) فرق : جزع وخوف .

(٣) النثار : ما ينثر على العروس فى الزفّة من الدراهم ، أو ما ينثره الأمراء على من يقصدونهم .

(٤) الكلف : ما يعلو وجه القمر أحيانا من كدره .

(٥) النسران : نجمان أحدهما يسمى النسر الطائر ، والثانى يسمى النسر الواقع .

(٦) أقاح : جمع أقحوان ، وهو نبت زهره أبيض وورقه كأسنان المنشار ، وهو الأراولة ، ويشبه به الأسنان .

(٧) الغزالة : الشمس - الكناس : بيت الغزال فى الشجر يستتر به - طلقة المحيّا : بشّة الوجه .

واستهلّ ابن مَمّاتى كتابه « الفاشوش » بقوله :

« إنّنى لمّا رأيتُ عقلَ بهاء الدين قراقـوش حُزْمة فاشوش ، قد أَتْلَف الأُمّة ، والله يكشفُ عنهم كـلّ غُمَّـة ، لا يَقْتدى بعـالِم ، ولا يَعْرِف المظلـومَ من الظَّالـم ، والشَّكيّة (٨) عنده لمنْ سَبَق ، ولا يَهْتَـدى لمن صَدَق ، ولا يَقْدر أحـدٌ من عظم مَنْـزلته أن يَرُدّ كَلِمَه ويَشْتَـطّ اشتطاطَ الشيْطان ، ويحكم حكمًا ما أنزلَ اللهُ به من سُلطـان ، صَنَّفْتُ هذا الكتاب لصـلاح الدين ، عسى أن يُريح منه المسلمين » .

* * *

(٨) الشكية : ما يُشتكى منه .

علـى ابـن ظـافـر الأزدى الـمـصـرى

(٥٦٧ - ٦١٣ هـ / ١١٧١ - ١٢١٦ م)

هو أبو الحسين على بن ظافر بن الحسين المالكى ، قرأ على والده الأصول ، وتفقّه على يديه ، وبرع فى الأدب ، واهتم بالتاريخ وأخبار الملوك ، وحفظ من ذلك جملة وافرة ، وتعرّف فى أثناء الطلب علـى القاضى الفاضل ، وصحبه زمنًـا ، كما تعرّف على ابن مَمّاتـى الكاتب صاحب المصنفات الكثيرة .

تولى التـدريس بمدرسة المـالكية بمصر بعد أبيه ، وعمـل بالكتابة فـى دواوين الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الذى تولّـى مصر بعد وفاة أبيه ، واتصل بالملك العادل وكتب لابنه الأشرف مـوسى ، وتولى وزارتـه زمنا ، وذهب معه إلـى بعض البلاد الشرقيـة ، ثم اعتزل خدمة الأشـرف موسى ، وعاد إلـى القاهرة وتفرّغ للعمـل والأدب مدّة بمصر فى عهـد الملك الكامل بن العادل .

ومن مؤلفات ابن ظافر : ذيل المناقب النورية (قدمه لصلاح الدين) ، أساس السياسة ، أخبار الشجعان ، مكرمـات الكتاب ، كتاب من أصيب ممن اسمه علـىّ (وابتدأ بعلىّ رضى الله عنه) ، أخبار الملوك السلجوقية ، نفائس الذخيرة لابن بسّام (قيل عنه إنه لم يكمل ، ولو كمل ما كان فى الأدب مثله) .

وله أيضا كتـاب « الدول المنقطعة » ، يتألّف مـن أربعـة مجلّدات ، وهو مفيـد جدّا فى بابـه ، ففيه يذكـر تاريخ الطولونيين والإخشيـديين والفاطميين والساجيين والعبـاسيين حتى سنة ٦٢٢ ، ومما قاله فى مقـدمة حديثه عن أخبار الدولة الحمدانية : « هـذه الدولة من أرفع الدول عمادًا ، وأثبتها أوتادًا ، وبيت أربابها من أنبه بيوت العرب ذكرًا وأعلاها قدرًا ... » .

ومن أشهر مؤلفـاته « بدائع البدائه » ، ألفه للقاضـى الفاضل ، وجمع فيه ما قـاله بعض الشعراء من معاصريه على البديهة ، واشتمـل على أخبار نادرة عن هؤلاء الشعراء ، مثل : ابن مَمَّاتـى وابن قـلاقس وابـن شيث ، قـال فى مقـدمته : « ... اجتمـع لى مـن أخبار الشعـراء وبدائههم جـزء أحكمت ترتيبه ، وهُديت تبـويبه ، وسَمّيته بدائع البدائه ، ورتّبـت الأخبار فى كلّ بـاب منه على تـرتيب الأعصار... فلما رأى [الفـاضل] ما اجتمـع منه سُرّبـه واغتبط ،

وأكرم نُزْلته فاعتبط ، وشرّفنى على صغر سنّى ، ونضارة غصنى ، بأن أنتسخه لخزانته ، وحباه بحفظه وصيانته » .

ويعد كتابه « غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات » من أوائل الكتب البلاغية التى أُلّفت فى مصر - إن لم يكن أوّلها - وهو فى ستة أبواب: أولها فى تشبيه الأجرام العلوية ، والثانى فى تشبيه المياه والأنهار ، والثالث فى تشبيه الأنوار والأثمار والنبات ، والرابع فى التشبيه الواقع فى الخمريات ، والخامس فى التشبيه الواقع فى الغزل ، والسادس فى تشبيهات مختلفة ، وقدم ابن ظافر الكتاب إلى الملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٤ تقريبا بعد أن فرغ من حصار عكا صحبة السلطان ، وكان الأفضل شابًا محبًا للأدب والأدباء ، شاعرًا جمع إليه لفيفًا من الشعراء والكتاب ممن وفدوا إلى السطان الناصر (ومن أشهر هؤلاء الوافدين ضياء الدين بن الأثير الذى أتى من الشام ، وجعله الأفضل كاتبه ووزيره) ، ويقول ابن ظافر فى مقدمة كتابه فى حماسة الشاب المعجب بنفسه : « لم أزل فى كلّ أوان وزمان أسمع من أوصاف المآثر الملكية الأفضلية والمناقب النورية السلطانية ما تتأرّج بذكره المحاضر ، ويفتتن به البادى والحاضر ، وأشاهد من مآثره ماتثنى عليه الخناصر .. وخدمت مقامه بهذا الكتاب ، الذى ما أظنّ قريحة أتت بمثاله فيما سلف من الزمن ، ولا أظنّ أن أحدًا يجمع مثله فيما بعد ... » .

وكان ممن ينظمون الشعر بديهة وارتجالا ، ذكر بعضا منه فى كتابه « بدائع البدائه » ، ولكن أكثره - فيما بدا - لم يبلغ درجة الإتقان ، ولم ينج من التسهّل والتكلّف .

وقد وصفه بعض من ترجموا له ، فقالوا : « كان متوقّد الخاطر ، طلْق العبارة ، ومع تعلّقه بالدنيا له ميل كثير إلى أهل الآخرة ، محبًا لأهل الدين والصلاح ، أقبل فى آخر عمره على مطالعة الأحاديث النبويّة ، وأدمن النظر فيها » .

* * *

من كتاب : « بدائع البدائه » :

قال عليّ بن ظافر : كنتُ فى بعض الْعَشايا بالْقَرافة (١) ، أنا والأعزّ بن المؤيّد - رحمه الله - فى منزلٍ قد انعطفت قُدُود أشْجَارِه ، وابتسمت ثغور أزهاره ، وذابَ كافور مائِه على عَنْبر طِينِه ، ومدّت بكاسات الجلّنَار (٢) بنَان غصونه ، والنسيم قد خفتَ فاعتلّ ، وسقط رداؤه فى الماء فابتلّ ، ووَهَتْ قواه فضَعُفَ عن السيّر ، واشتدّ مرضهُ حتى ناحت عليه نَوائح الطير ، فاقترح علينا أصحابٌ لنا- كانوا معَنا أن نَصنع فى صفة تلك العشية على هذه القافية ، فقال الأعزّ :

جاء النسيم إلى الغُصون رسولَا ... ومشى يَجُرّ على الرِّياض ذيولا

فقلت :

نشوان يَعْثُر فى الخمائل عابثًا ... بالزّهرِ مبلولَ الرّداء عليلا

فقال :

فتمايلت قاماتُها فكأنَّما ... شَرِبَتْ بكاسات الشمال شَمُولا

فقلت :

فكأنه قد هَزَّ رايات له ... خُضْرًا وسلَّ من المياه نُصُولَا

فقال :

قدْ أطلعت من زهرها غررًا ومِنْ ... جارى المياه يسُوقها تَحْجِيلا

فقلت :

تَحكى العرائس فى القلائد للثرى ... لبست خلاخلَ فِضّةٍ وحجولا

فقال :

ضحكتْ مباسمُ زَهْرها ولَطالما ... بُكِيَتْ بدمع الهاطلاتِ طويلا

---

(١) القرافة : مقبرة مصر ، وبها قبر الشافعى رحمه الله (انظر : القاموس المحيط ، مادة « قرف ») .
(٢) الجلّنار : زهر الرُّمّان .

فقلت :

وبـدَا عليهـا الجلّنـار كـأنّـهُ   وجنـاتُ خَـوْدٍ سُمْتُهـا التقْبيـلا[٣]

فقـال :

سلّـتْ عليهـنَّ البُـروق صـوارمًـا   فكسـوْنهـا منـه دمًـا مَطْلـولا[٤]

فقلت :

وتنـاظـرتْ أطيـارهـا فيـه وقَـدْ   إكثـرنَ قـالًا فـى الهـديـل وقِيـلا

* * *

قال عليّ بن ظافر : ومررت أنا وهو رحمه الله يوما بُدولاب يئنّ أنينَ ثَكالى فقدت أطفالها ، والنواعج أضلّتْ آفالها[٥] ، ويبكى بكاء صَبٍّ آلمه هَوَاه ، وصارمَهُ من يهواه ، وفرّق البَيْنُ بينه وبين محبوبه فراقًا لا يرجى انقطاعه ، ولا يمكن استرداد ما سلبه منه ولا استرجاعُه ، فقلْبه قد ملأتة أوجاعُه ، وجفنُه قد ضاق مجْراه عن دمعه فتفتّحت به أضلاعَه ، فقلت :

وسـاقيـةٍ تَئِـنُّ أنيـنَ ثَكْلَـى   شكـت بـأنينهـا حـرّ الأُوَارِ[٦]

فقـال :

تحـنُّ ولا تـزالُ تطـوفُ عْجَلـى   كَـرازِمـةٍ تحِـنّ إلـى حُـوَارِ[٧]

فقلت :

غـدَتْ تحكـى محبًّـا ذا انتحـابٍ   يطـوِّف بـاكيًـا فـى رَسْـمِ دارِ

فقـال :

حَكَـتْ فلكًـا لجلْـب اللَّهْـودارتْ   عليـه مـن قَـوادِسـه دَرَارِى

* * *

(٣) الخَوْد : الفتاة الشابّة الحسنة الخلْق ، وقيل الجارية الناعمة .   (٤) مطلول : مُهْدَر .

(٥) الدولاب : آله كالناعق تديرها الدابّة ليستقى بها – النواعج : الإبل البيض الكريمة – آفال : جمع أفيل وهو الصغير من الإبل .

(٦) الثكلى : من فقدت ولدها .

(٧) الرازمة : الناقة حين تحنّ على ولدها – الحوار : ولد الناقة الصغير .

وبَصُرنـا بساقية تتلوّىَ تلـوّىَ الأفعوان ، وتخفق خفقات قلـب الجبان ، والزّهر قـد نظم بلبَّتها عقودا فوق أثوابها الممسّكة ، والنسيم يكسوها ويلبسها غلائل مفرّكة ، فقلت :(٨)

* أســاقيــةٌ أم أقــمٌ فــرّهــاربَــا *(٩)

فقــال :

* أم الريـح قد هَـزّتْ من المـاء قاضبَـا *

فقلـت :

حصَــى مثـــل درّ الثّغــر أجْــرَى زلالَــهُ رُضَـابًـا وأبْـدَى نبتـه النَّضْـر شـاربـا(١٠)

فقــال :

يــوشّحهـــا زَهْــر الـــرّيــاض قـــلائدًا ويُلبسهـــا مـــرّ الـــرّيـــاح جَـــلابِيَـــا

* * *

قال عليّ بن ظافر : أخبرنى أيضا هو وشهاب الدين يعقوب المقدّم ذكره بما هذا معناه : قالا : جلسنـا فى بعض الأيام لاجتنـاء زهر المحادثـة ، واقتناء دور المنافقة ، فسمعنـا صوت شبّابـة تذكّر الأشيبَ الهـرم زمان الشبيبة ، وتحـرّك من الخَرِفِ الهِـمِّ غَزَلَهُ وتَشبيبه ، وصـوتها أشجى مـن أنين المشتـاق لفـرط الأشـــواق ، وأرقّ من نوح العشـاق عند عـزم الفريـق على الفـراق ؛ فقال شهاب الدين :

* وشبَّـابةٍ شبّـتْ لَظَى الشـوق فى قلبـى *

فقـال الأعــزّ :

* تـذكّــرُنــى عَهْـدَ الصَّبـابــةِ والحَـبِّ *

---

(٨) اللّبّة : موضع القلادة من العنق - ممسّك : مطيّب بالمسك - غلائل : ثياب رقيقة - مفرّكة بمعنى مصبوغة .
(٩) الأرقم : ذكر الحيّات .
(١٠) الزلال : الماء العذب البارد - الرضاب : رَغْوة العسل أو قطع السُّكّر ، ويقال : ماء رضاب أى عذب .

فقال شهاب الـدين :

* حبتْنى علـى بُعدِ بتـرجيعهِـا الهـوى *

فقـال الأعـزّ :

* فَأَحْيَـت فُؤادِى المستهـامَ على قُـرْبِ *

* * *

ومما وقع من بدائع البدائه من غير اقتراح ما :

روى من أن مرّة بـن محكان السعدىّ سعد تميم ، قـدم بين يدى مصعب بن الـزبير أيام ولايته العـراق لأخيه عبـد الله بن الـزبير - وأظـنّ ذلك بعـد وقعة الحَـرَّة ، ودخـول مصعـب البصرة - فأمر رجلا من بنى أسد بقتله ، فقال مُرّة بنُ محْكانَ بديهًا :

بنـى أسـدٍ إن تقتلـونـى تُحـارِبُـوا ... تميمًـا إذا الحـربُ العَـوَانُ اشْمعلَّـتِ (١١)

ولسـتُ وإن كـانـت إلـىّ حبيبـةً ... ببـاكٍ علـى الـدُّنيـا إذا مـا تـولَّـت

* * *

أنبـأنى العماد أبـو حامـد ، أخبرنى أبـو علـىّ الحسـن بـن سعـد الشـاتـانىّ ، قال لى نجم الـدين بن الشهرزورىّ قاضـى الموْصل ؛ دخل إلـىّ شابٌّ من أهل بغداد فـأنشدنى هذه الأبيات :

فـى نهـرِ عيسـى والهـواءُ مُعَنْبَـرٌ ... والمـاء فضـىٌّ القميـصِ صقيـلُ (١١)

والطيـرُ إمّـا هـاتـفٌ بقـرينـهِ ... أو نـادبٌ يشكـو الفـراقَ ثكَـول

والـدّهـر كـالليـلِ البهيـمِ وأنتـمُ ... غُـررٌ تضـىء ظـلامَـهُ وحُجُـول

واستجازنى فقلت :

والغصـنُ مهـزوز القـوام كـأنّمـا ... هبّـت عليـه مـن الشَّمـالِ شَمـولُ

وَكـأنمـا السَّـرْوُ الْتَحَفْـنَ بسُنـدسٍ ... ورقصـنَ فـارتفعـت لهـنّ ذيـولُ

* * *

---

(١١) العوان : التى قوتل فيها مرة بعد أخرى - أشمعلت : أسرعت .

(١٢) نهـر عيسى بـن على بن عبد الله بن العبـاس : كورة وقرى كثيرة وعمـل واسع فى غربى بغـداد ، يعرف بهذا الاسم - صقيل : مجلوّ.

قال عليّ بن ظافر : واتفقتْ لى وللقاضى الأجلّ شهاب الدين يعقوب سفرة إلى البيت المقدّس للتبرّك بما هناك من البقاع المقدّسة ، والمشاهد المعظمة ، وأحداث الأنبياء المباركة الطيّبة ؛ فلما جدّ بنا المسير ، وسَهُل من فراق الأهل والأوطان العسير ، وقطَعت المطايا بنا الرُّبَا والوِهاد ، ولم يسمع إلّا هَيْدَ وهاد (١٣) ، صنع الشهاب :

يـارُبَّ سيرٍ كـالشهاب المخـرِقِ
قـدَخْتُـهُ مـن زَنْـدِ عـودٍ أورق
يسيـرُ فـى الخَـرْقِ مسيـرَ الأخْـرقِ (١٤)
فهـل رأت عينـاك عـدْو النَّقْنَـقِ (١٥)
حتَّـى إذا مـا افتـرَّ ثَغْـرُ المشْـرِقِ

ثم استجازنى فقلتُ :

ولاح فـى الجـوِّ احمـرارُ الشَّفَـقِ
كـالخَمْـرِ صُبَّـتْ فـى زُجـاج أزْرَقِ
بَـدا علـى الآل قِطـارُ الأَيْنُـقِ (١٦)
كمثْـلِ سِطْـرٍ فـى بيـاضِ مُهْـرَقِ (١٧)
أو كـالمـدارِى فـى مَشِيـبِ المَفـرِقِ (١٨)
أو بـازِلٍ فـى بحـرِهِ كـالـزورقِ
أو كهـلالٍ مشـرقٍ مـن زِبْـرِقِ

* * *

(١٣) هيد وهاد أى حركة .
(١٤) الخرْق : الصحراء الواسعة - الأخرق : البعير النجيب . (١٥) النَّقْنَق : ذكر النعام .
(١٦) الأَيْنُق : جمع الناقة - وقطارها أى سيرها على نسق واحد ، بعضها خلف بعض .
(١٧) مهرق : صحيفة بيضاء . (١٨) المدارى : جمع مِدْرى وهو ما يسرّح به الشعر المتلبّد .

وهذه أيضًا حكاية بديعة ، تشتمل على نوعَي الإجازة : القديم والعصريّ ، قصدت بإيرادها فى هذا الموضع أن تكون دِهليزًا للخروج من القسم الأول ، والدّخول فى القسم الثانى لما بينهما من الاشتراك فيها :

رُوِىَ من طرق مختلفة كتبتُ أكملَها وأتمَّها ، أن الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر ارتاح إلى منادمة مَنْ بَعُدَ عهده بمنادمته ، أو من لم يره ، وحضره صاحبُه الحسن بن محمد ابن طالوت - وكان أخصّ الناس به - فقال له : لابدّ لنا فى يومنا هذا من ثالث ، نطيب بمعاشرته ، ونلتذّ بصحبته ومؤانسته ، فمن ترى أن يكون طاهر الأعراق غير دنس الأخلاق ؟ فأعمل فكره ، وأمعن نظره ، وقال : أيها الأمير ؛ قد خطر ببالى رجل ليست علينا فى مجالسته كُلْفة ، قد خلا من إبرام المجالسة ، وبرىء من ثقل المؤانسة ، خفيف الواقفة إذا أحببت ، سريع الوثبة إذا أمرت ، قال : ومن ذاك ؟ قال : مانى الموسوس ، قال : أحسنتَ والله . فتقدّم إلى أصحاب الأرباع بطلبه ، فما كان بأسرعَ من أن اقتنصه صاحب ربْع الكرخ ، فصار به إلى باب الأمير . فأُدْخِل الحمام ، وأخِذ من شعره، وألبِس ثيابًا نظيفا ، ثم أدخل عليه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ؛ فقال : وعليك السلام يا مانى ، ألم يَأْنِ أن تَزورنا على حين تَوَقَان منّا إليك ، ومنازعة قلوبنا نحوك ! فقال مانى : الشوق شديد والمزار بعيد ، والحجاب عتيد والبواب فظّ ، ولو سهل الإذن لسهلت علينا الزيارة ، قال : لقد ألطفت فى الاستئذان ، فلا تُمْنع فى أىّ وقت جئت من ليل أو نهار ! ثم أذن له فجلس ، ثم دعا بالطعام فأكل ، ثم غسل يده وأخذ مجلسه ، وكان محمد قد تشوق إلى السماع من « تنوسة » جارية ابنة المهدى ، فأحضرت ، فكان أول ما غنت :

ولستُ بناس إذ غَدَوْا فتحمّلوا   دُموعى على الأحباب من شدة الوجدِ
وقَوْلِي وقد زالتْ بليلٍ حُمُولهم   بواكر تَخدِى : لايَكن آخر العهدِ [١٩]

فقال مانى : أحسنتِ والله ، بحقّ رأس الأمير إلّا ما زدتِ فيه :

أقمت أناجى الفكْر والدّمْعُ حائرٌ   بمقلةِ موقوفٍ على الجَهْد والصَّدّ
ولم يُعْدِنى هذا الأمير بعزّه   على ظالم قد لّج فى الهجر والصدّ

---

(١٩) الحُمُول : جمع الحِمْل وهو البعير عليه الهودج - تَخدى : تسرع .

قال : ومن أعجب مادُهيت به ورُميت ، إلّا أن الله يفضله نصرَ، وأعطى الظَّفَر، وأعان خاطرى الكليل ، حتى مضى مَضَاء السيّف الصقيل ، أنى كنت فى خدمة مولانا الملك العادل خلّدَ الله ملكه بالإسكندرية ، سنة إحدى وستمائة ، مع من ضمته حاشية العسكر المنصور من الكتّاب ، ودخلت سنة اثنتين ونحن مقيمون بالخدمة ، مرتضعون لأفاويق النّعمة ،(٢٠) فحضرت مع مَنْ حضر للهناء ، من الفقهاء والعلماءِ والمشايخ والكبراء ، وجماعة الديوان والأمراء ، فى يوم من أيام الجلوس للأحكام ، والعرض لطوائف الأجناد بالتّمام ، فلم يبق أحد من أهل البلد ولا من العسكر، إلّا حضر مهنئًا ، ومَثَل شاكرًا وداعيًا . فلما غَصّ المجلس بأهله ، وشَرِق بجمع الناس وحفله ، وخرجَ مولانا السلطان - خلّد الله ملكه - إلى محله ، واستقرّ فى دَسْتِه ، أخرج كتابًا ناوله إلى الصاحب الأجلّ صفِيّ الدين أبى محمد عبد الله بن علىّ وزير دولته وكبير حملته ، وهو مفضوض الختام ، مفكوك الفِدام ، ففتحه فإذا فيه قطعة وردت من المولى الملك المعظم - أبقاه الله - كَتَبَها إليه يتشوّقه ويستعطفه لزيارته ويرقّقه ، ويستحث عَوْد ركابه إلى الشام للمثاغرة بها وقمْع عدوّها ، ويعرّض بذكر مصر وشدّة حرّها ووقْد جمرها ، وذلك بعد أن كان وصل إلى خدمته بالثّغور ثم رَجَع :

أرْوِى رِمَاحَكَ من دماءِ عِدَاكا ... وانهبْ بخيلك مَنْ أطاع سِوَاكا
واركبْ خيولًا كالسّعالىَ شُزَّبًا ... واضربْ بسيفك من يشقّ عَصَاكا (٢١)
واجلبْ من الأبطال كلَّ سَمَيْدعٍ ... يَفرْى بعزمك كلَّ من يَشْنَاكا (٢٢)
واسترعف السُّمرَ اللّدانَ وروِّها ... واسقِ المنيّة سيفَك السَّفَّاكا (٢٣)
وسِرَ الغداةَ إلى العُدَاة مبادرًا ... بالضرب فى هام العدوّ دِرَاكا (٢٤)
وانكحْ رماحك للثغور فإنّها ... مشتاقةٌ أن تُبْتَنَى بعُلَاكا
فالعزُّ فى نصْبِ الخيامِ على العدا ... تُرْدِى الطغاةَ وتدفعُ المُلَاكا

---

(٢٠) الأفاويق بمعنى اللبن .
(٢١) السعالى : الغيلان - شزّب : ضامرة .
(٢٢) سميدع : شجاع - يشناك : يكرهك .
(٢٣) استرعف السمر اللدان : استنزل الدم من الرماح المنقضة ليّنة الحركة والمهزّة .
(٢٤) هام : رءوس - دراك : متتابعة .

والنصـــرُ مقـــرونٌ بهمتـــك التـــى ... قـد أصبحـتْ فوق السّمَـاكِ سِمَـاكـا (٢٥)
فـإذا عـزمـتَ وجـدتَ مـن هـو طـائعٌ ... وإذا نهضـت وجـدتَ مـن يخشـاكـا
والنصـر فـى الأعـداء يـوم كـريهـة ... أحلـى مـن الكـأس الـذى روَّاكـا
والعجـزُ أن تُمسِـى بمصـرَ مُخيّمًـا ... وتحُـلَّ مـن تلـك العِرَاصِ عُـرَاكـا (٢٦)
فـأرِحْ حُشَـاشتـك الكـريمـةَ مـن لظَـى ... مصـرٍ لكـى نحظَـى الغـداة بـذَاكـا
فلقـد غَـدَا قلبـى عليـكَ بحُـرْقـةٍ ... شَغَفًـا ، ولا حَـرّ البـلاد هُنَـاكـا
وانهـضْ إلـى راجـى لِقِـاكَ مُسَـارعًـا ... فمنـاىَ مـن كـلِّ الأمـورِ لِقَـاكـا
وابـرد فـؤادَ المستهـام بنظـرةٍ ... وأعـدْ عليـه العيـشَ مـن رؤيَـاكـا
واشـفِ الغَـدَاة غَليـلَ صـبٍّ هـائمٍ ... أضْحَـى مُنَـاه مـن الحيـاة مُنَـاكـا
فسعـادتـى بـالعـادِل الملِـك الـذى ... ملـك الملـوك وقـارن الأفـلاكـا
فبقيـتَ لـى يـا مـالكـى فـى غبطـةٍ ... وجُعلـتُ فـى كـلِّ الأمـورِ فِـدَاكـا

فلما تلا الصـاحبُ على الحاضرين حكـم آياتها ، وجَلَا منها العروس التـى حازت من المحاسن أبْعَدَ غـاياتها ، أخذوا فى استحسان نظـامها ، وتناسق غريب التئـامها والثناء على الخاطر الذى نظم محكـم أبياتها ، وأطلعَ من مشرق فكره آياتهـا . فقال السلطان - خَلّد الله ملكه : نريد مـن يجيـب عنهـا بأبيات عـلـى قـافيتها . فالتفَتَ مسـرعًا إلىّ وأنـا على يمينه وقال : يا مـولانا ، مملوكك فلان وهو فارس هـذا الميدان ، والمعتاد للتخلّص فـى مضايق هذا الشأن . ثم قطع وصـلا من دُرْج كان بين يديه ، وألقاه إلىّ ، وعمد إلـى دواته فأدارها بين يدىّ ، فقـال السلطان - خلد الله ملكـه - : على مثل هـذه الحال ؟ قـال : نَعم ، أنا جـرّبته فوجدته متّقدَ الخاطر حاضر الذهن ، سريع إجابةالفكر . فقال السلطان : وعلى كلّ حال ، قم إلى هاهنا لتنكـفّ عنك أبصارُ الناظرين ، وتنقطـع غاغاء (٢٧) الحاضرين . وأشـار إلى مكان

(٢٥) السماك : نجم نيرّ.
(٢٦) العراص : الساحات - عرا : جمع عروة وهى مدخل الزرّمن الثوب .
(٢٧) كذا والغوغاء : الصوت والجلبة .

عن يمين البيت الخشب الذى هو منفرد به فقمتُ وقد فقدتُ رجليّ انخزالا[٢٨] ، وذهنى اختلالا ، لهيْبة المجلس فى صدرى ، وكثرة من حضره من المترقبين لى ، المنتظرين حلول فاقرة [٢٩] الشماتة بى . فما هو إلّا أن جلستُ حتى ثاب إلىّ خاطرى ، وانثال الشعر على ضمائرى ، فكنت أرى فكرى كالبازى الصَّيُود ، لايرى كلمة إلّا أنشب فيها مِنْسَرِه [٣٠] ، ولا معنًى إلا شكّ فيه ظُفرَه ، فقلت فى أسرع وقت :

وصلتْ من المَلِكِ المُعَظّم تحفةٌ ... ملأتْ بفاخر دُرّها الأسْلَاكا
أبياتُ شعرٍ كالنجوم جلالةً ... فلذا حكت أوراقُها الأفلاكا
عجبًا وقد جاءتْ كمثل الرَّوْضِ إذْ ... لم تُذْوِها بالحرِّ نار ذكَاكا
جلت الهُمومَ عن الفؤاد كمثْل ما ... تجلُو بِغُرّة وجهك الأحْلَاكا [٣١]
كقميص يوسفَ إذ ضَفَتْ يعقوبَ ... ريّاه ، شفَتْنِى مثله ريَّاكا
قد أعجزتْ شعراءَ أهل زماننا ... حُسْنًا فلمْ لاتعجز الأمْلَاكا !
ما كان هذا الفضلُ بمكنُ مثله ... أن يحتويه من الأنام سِوَاكا
لم لاأغيبُ عن الشّآم وهل لَهُ ... من حاجةٍ عندى وأنتَ هُناكا !
أم كيفَ أخشىَ والبلادُ جميعُها ... محميّةٌ فى جاه طعن قَنَاكا
يكفى الأعادِى حَرَّ بأسِك فيهمُ ... أضعافَ ما يكفى الولىَّ نَدَاكا
مازُرتُ مصرَ لغير ضبطِ ثُغُورِها ... فلذا صبرتُ فُدِيتَ عن رُؤْيَاكا
أمُّ البلادِ عَلَا عليها قَدْرُها ... لاسيما مُذْ شُرِّفتْ بخُطَاكا

(٢٨) انخزال : تثاقل وتفكّك .
(٢٩) فاقرة بمعنى داهية .
(٣٠) المِنْسر للبازى وغيره من الجوارح كالمنقار لغير الجوارح .
(٣١) لم تذوها : لم تجعلها تذيل وتضعف - الذكا والذكاء : اللهب أو الجمرة الملتهبة - الحلكة والحلك : شدّة السواد .

طــابــتْ وحُــقَّ لهــا ولْــم لاوهـــى قـــد   حَـــوَتِ المُعَلّــى فــى الفخــار أخَــاكــا
أنــا كــالسّحــابِ أزور أرضًــا ســاقيًــا   حينًــا وأمنــح غيــرَهــا سُقْيَــاكــا
مكثِــى جهـــادٌ للعـــدوّ لأنّنـــى   أغْـــذُوه بـــالـــرَّأى السـديــد دِرَاكــا
لــولا الـرِّبــاطُ وفضُلــه لقَصــدتُ بــالـــ   ـــسيرِ الحثيــثِ إليـك نَيْـلَ رِضَــاكـا(٣٢)
ولئـــن أتيـــتُ إلـــى الشـــآم فـــإنّمـــا   يحثُّنِـــى شـــوقـــى إلـــى لقْيَـــاكـــا
إنـــى لأمنحُـــكَ المحّبــةَ جــاهــدًا   وهـــوايَ فيمـــا تشتَهيـــه هَـــواكـــا
فــافخــرْ فقــد أصبحتَ بــى وبيــأسـك الْـــ   ـــحَامِى وكـــلُّ مملَّـــكٍ يخشــاكــا
لازلـــتَ تَقْهَـــرُ مـــن يُعَـــادِى ملكنـــا   أبـــدًا ، ومـــن عَـــادَاك كـــان فِـــدَاكــا
وأعيــش أنظــر إبنَــك البــاقــى أبًــا   وتعيــش تخــدم فــى السُّعــودِ أبَــاكــا

ثم عدت إلى مكانــى ، وقد بيّضتُها وحلّيت بزهرها ساحــة القرطاس الأبيض وروّضتُها ، فلما رآنى السلطان – خلّــد الله ملكه – قد عدتُ قال : أَعَمِلْتَ شيئًا ؟ ظنًّا منه أن العمل فى تلك اللمحة متعذّر ، وبلوغ الغرض فيها غير متصَــوَّر ، فقلت : نعم ، فقال : أنشدنا . فصمتَ الناس وحدّقت الأبصار ، وأصاخت الأسماع ، وظنّ الناس بى الظنون ، وترقّبوا منى ما يكون . فما هو إلّا أن توالى إنشادى حتى صفّقت الأيدى إعجــابًا ، وتغامزت الأعين استغرابًا ، وحين انتهيتُ إلى ذكر مولانــا الملك الكامل بأنّه الملّعى إذ ضُرِبت قِــداحهم ، وسُردت أمداحهمْ ، اغرورقت عيناه لذكره ، وبان منه مخفىّ المحّبة فــأعلن بسرِّه ، وحين انتهيت إلى آخرها فاض دمعــه ولم يمكنه دفعــه ، فمــدّ يــده مستــدعيًا للــورقــة ، فناولتها إلى يــد الصاحب ، فناولها له ثم نهض .

وإنما حُمل الصاحب على هذا الفعل الذى غرّربى فى التعريض له ، أمور كان يقترحها علىّ فأنفــذ فيها بين يديه ، ويخــفّ الأمر منها علىّ ، لــدالتّى عليه ؛ منها أننى كنــت معه فى

(٣٢) حثيث : مسرع .

سنة تسع وتسعين وخمسمائة بدمشق ، فورد كتاب من الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقيّ الدين صاحب حماة ، وقد بعث صحبته نسخة من ديوان شعره ، فتشاغل بتسويد كتابة جوابه ، فلما كتب بعضه التفت إليّ وقال : اصنع أبياتًا أكتبها إليه فى صدر الجواب ، وأذكر فيها شعره ، فقلت له : على مثل هذا الحال ؟ قال : نعم . فقلت : بقدرما أنجز بقية النسخة :

أيا مَلِكًا قد أوسع الناس نائلَا | وأغْرَقهُم بذلًا وعَمَّهُمُ عَدْلَا
فدَ يْنَاك هَبْ للناسِ فضلًا يَزِينهُمُ | فقد حُزْتَ دون الناس كُلِّهِمُ الفضْلَا
ودُونَكَ فامنحهم من العلم والحِجا | كما منحتهمْ كفُّكَ الجودَ والبدلاَ
إذا حُزْتَ أوفى الفضل عفوًا فما الذى | تركتَ لمن كان القريضُ له شُغْلَا !
وماذا عسى من ظلَّ بالشعر قاصدًا | لبابكَ أن يأتى به قلَّ أو جَلَّا
فلا زلتَ فى عِزٍّ يدومُ ورفعةٍ | تحوزُ ثناءً يملأُ الوَعْرَ والسَّهْلَا

وقال ابن ظافر فى كتاب « أخبار الدولة الحمدانية » يتحدث عن الأمير سيف الدولة :

أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان هو أصغر من أخيه ناصر الدولة ، وكان فى أول أمره مسعودًا بسعادته متصرفًا على إرادته إلى أن دخلت سنة خمس وعشرين [وثلاثمائة] ، فمن تلك السنة انفرد بديار بكر ، والسبب فى ذلك أن على بن باجعفر الديلمى لما استأمن إلى ناصر الدولة كما ذكرناه ، ونافق على علىّ بن خلف بن طياب سأله أن يوليه الجزيرة عن إخراج ما كرد منها ، فقال : « إن الجزيرة معدن أملاكنا ومحطّ ضياعنا ومسقط رؤوس أهلنا ولا حاجة لك بها ، ولكن هذه ديار بكر فيها أحمد بن نصر القشورى فى عدة قليلة فخذ جيشا وامض إليها وأخرجه عنها ، فإنى أقلّدك إياها » ، وبعث معه جيشًا ، فانصرف ابن نصر ودخلها على بن باجعفر وسكن آرزن وأقام الدعوة لناصر الدولة ، وهو مع ذلك يحصّن البلد ويستكثر الرجال والأجناد ، فنمى الخبر إلى ناصر الدولة فلم يأمن شره وكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ، فأبى وأظهر العصيان ، فندب ناصر الدولة عند ذلك أخاه سيف الدولة إلى حربه ، وقال له : « متى فتحتها يعنى ديار بكر ، وقبضت على هذا الديلمى مَلَّكتك بلادها

وقلاعها مـن غير أن تحمل عنها الخليفة ولا لغيره » ، فسـار سيف الدولة إليها فـى ألف فارس فتحصّن منه على بن با جعفر فى قلعة آرزن ، وهى المعروفة بحصن العيون ، فنزل تحتها على النهر المعروف بشريط ، وبنى فى معسكره بنـاء كثيرا ، وسارت إليه العساكر والحشود وصدق القتال ، فأخـرج الديلمىّ أكثر مـن معه فى الحصن لنقل المـؤونة عنه ، وبعث بحـاجبه بدر الجستانـىّ إلى ابـن ترنيـق ملك أرمينيـا وسائر بطـارقتها يستنجـد بهم علـى سيف الـدولة ، ويخبرهـم أنه متى حصلت البـلاد له لم يطيقـوا مجاورته ، واستـأمن رجل من الحصـن إلى سيف الدولة فأخبره بخبر الحاجب ، فرصده عنـد عودة فقبض عليه وأحضر بين يديه ، فأمر به فشهّر فى العسكر ، وبلغ ابـن با جعفر الخبر فانكسر قلبه ، وفسدت نيـات أكثر أصحابه عليه ، فراسل سيف الدولـة يسأله أن يؤمنه على أن يمضى إلى مدينة السـلام ، أو يبقى فى خدمته ، فأجابه وحلـف له فنزل وسلم إليه القلعة ، فوفـى له ، وأقام فى خدمته إلى أن استـأمن له ابن رائـق ، ومـلك سيف الدولة بعد ذلك جميع بلاد أرمينة وما جاور بلاد بكر [٣٣] من الران ، ثم ملك حلبًا وانتزعها من يد الإخشيد ، ثم قلّده بعد ذلك الثغور الجزيرية ، وهى : طرسوس [٣٤] وعين ذربة [٣٥] والمصيصة [٣٦] وما جاورهم مـن الثغور من غير أداء مال عن شـىء مما بيده من الأعمال ، لأنـه رحمه الله كفى المسلمين أمر الروم ، واعتنـق حربهم ، فاقتنع منـه بذلك ، وكان لـه مع الروم نحـوًا من أربعين وقعـة وقعت لـه وعليه ، وكان بعيـد الهمة صادق العـزمة شجاعًـا يلقى الأمـور بنفسه ، وكـان شاعره أبو الطيـب المتنبى بمدحـه فى كل غَزاة ويـذكر وقائعه ، ويقال إن الدمستـق كان يقول : « بلينا بشاعر كذاب ، وأمير خفيـف الركاب » ، وكان لسيف الدولة خمسمائة غـلام أقران لهم بأس وشدّة إذا حمل بهم فى أى جيش كان خَرَقَهُ ، وكانت سِنُّه خمس وعشرة عند ولايته لأخيه ناصر الدولة ديار بكر فى أيام المقتدر ، فنهض مع أخيه وظهرت شجاعته وشهامـته ، وكان أديبًا فاضـلًا ولـه مقاطـع أشعار حسنـة فى أغـراض لائقة بمثلـه ، منها ما أنشـده لـه الثعـالبى فى وصف قـوس قُزَح ، وهو أحسن ما سمع فيه :

---

(٣٣) بلاد بكر : هى بلاد كبيرة تنسب إلى بكر بن وائل وحدها ما غرب من دجله إلى نصيبين .

(٣٤) طرسوس مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب ، هى فى تركية الآن .

(٣٥) عين ذربة : بلد بالثغر من نواحى المصيصة .

(٣٦) المصيصة : هى مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس .

وساقٍ صبيحٍ للصَّبُوح دعوتُه فقامَ وفى أَجْفانه سِنَةُ الغَمْض
يطوفُ بكاساتِ العقارِ كأنْجُم فمِن بين مُنْقَضٍ علينا ومُنْقَض
وقد نَشَرَتْ أيدى الجنُوبِ مطارفًا على الجُودِ كنًا والحواشِى على الأرْض
وطرَّزها قوسُ الغَمام بأصْفرٍ على أحمرٍ فى أخضرٍ فوق مُبْيَضّ
كأذيال خَوْد أقبَلَتْ فى غلائل مُصَبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعض

وقال أيضا :

أقبَلَه على جَزع كشُرب الطائر الفزع
رأى ماء فأطعمه وخاف عواقب الطمع
وصادف فرصة فدنا ولم يلتذ بالجَرَع

ويحكى أنه كان لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلا بها ، ويشفق من الريح الهابة عليها ، فحسدها سائر حظاياه على قرب محلّها منه ، وأزمعن إيقاع مكروه بها من سمّ أو غيره ، وبلغ سيف الدولة ذلك فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطًا على روحها ، وقال :

راقبتْنى العيون فيك فأشفقْـ ـتُ ولم أَخْلُ قط من إشفاقِ
ورأيتُ العذول يحسدنى فيـ ـك مجدًا يا أنفس الأعلاق
فتمنّيتُ أن تكونى بعيدًا والذى بيننا من الودّ باق
ربَّ هجرٍ يكون من خوف هَجْرٍ وفراقٍ يكون خَوْف الفِراق

وأنشد ابن خالوية (٣٧) لسيف الدولة :

تجنّى علىَّ الذنب والذنبُ ذنبُه وعاتَبَنى ظُلْمًا وفى نفسه العَتْبُ
وأعرض لما صار قلبى بكفِّه فهلّا جفانى حين كان لىَ القلبُ !
إذا بَرِمَ المولى بخدمة عبده تجنّى له ذَنْبًا وإنْ لم يكنْ ذَنْب

---

(٣٧) ابن خالوية : هو الحسين بن أحمد بن خالوية أبو عبد الله لغوى من كبار النحاة أصله من همذان استوطن حلب (ت ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م) .

قال بعض المـؤرخين : ومن عجيب النقد علـى الشعراء نقد سيف الدولـة أبى الحسن على بن حمدان ملك العواصم والديارين وهو أحد ملوك الإسلام جلالة ونبلا وشرفا وشجاعة وكرما وحلما وحزما وعزما على أبى الطيب لما أنشده قصيدته التى أولها :

على قدر أهل العزم تأتى العزام

وفرغ منها ، قال : يا أبا الطيب قد انتقدنا عليك قولك فيها :

وَقَفْتَ ومـا فـى المـوتِ شـكٌّ لـواقـف | كـأنّـك فـى جَفْـن الـرَّدَى وهْـو نـائمُ

تمـرُّ بـك الأبطـالُ كَلْمَـى هَـزِيمـةً | ووجهُـكَ وضَّـاح وثغـرُك بـاسـمُ

كمـا انتُقِدَ علـى امرىء القيـس قولـه :

كـأنّـىَ لـم أركـبْ جَـوادًا للـذّةٍ | ولـم أتبطَّـنْ كـاعبًـا ذاتَ خَلْخـال

ولـم أسبـأ الـزِّقَّ الـروِىَّ ولـم أقـلْ | لخيْلـى كُـرِّى كَـرَّة بعـد إجفـال (٣٨)

فما كـان ينبغى لامـرىء القيس أن يـركب القسم الأخيـر من بيتـه الأول وتركيـب القسم الآخر من بيته الأول على القسم الأول من بيته الثانى فيقول :

كـأنـى لـم أركـب جـوادًا ولـم أقـلْ | لخيْلـى كُـرِّى كـرّة بعـد أجفـال

ولـم أسبـأ الـزقّ الـروىّ للـذّة | ولـم أتبطَّـنْ كـاعبًـا ذات خلخـال

فيقرن لـذّة الشرب بلذّة النكاح وركـوبه الجواد بـأمره خيله بـالكرّ فذلك كـان ينبغى أن تركّب هذين البيتين فتقول :

وقفـت ومـا فـى المـوت شـكّ لـواقـف | ووجهـك وضـاح وثغـرك بـاسـم

تمـرّ بـك الأبطـال كلمـى هـزيمـة | كـأنـك فـى جفـن الـردى وهـو نـائم

حتى يتألّف المدح بتيقّن الموت ، مع توضّح الوجه وتبسّم الثغر ويتـألّف البيت الثانى حين تذكّرت انهزام الأبطال وكَلْمهم مع السلامة ، فتقول حينئذ : « **كأنك فى جفن الردى** » .

---

(٣٨) سبأ الخمر أى اشتراها ليشربها .

فقال أبـو الطيّب : أعزّ الله سيدنـا إن كان الذى انتقد علـى امرىء القيس أعلم منـه فقد لزمه تغيير بيته ولزمنى ، ومولانا يعلم أن القزاز يعرف الثوب أكثر من معرفة البزاز[٣٩] لأن القزاز يعرفه جملة وتفصيلا ، وكـذلك الشاعر يعرف الشعر أكثر من معرفة الـراوى ، فأما امرؤ القيس فإنه أراد أن يذكر أن يلتذّ بركوب الخيل فقرن بين لذّته بركوبها ، وبين لذّته بتبطين الكواعب ، إذ كان مركبى الحرب والسلم ، وأراد فى البيت الثـانى ، أن يجمع بين سروره بطرب الشرب ، وبين سروره بطرد العدو ، فقرن وكذلك عبدك لما ذكر الوقوف مع تيقّن الموت ذكر الحلول فى جفن الردى وهـو نائم ، فجمع بين إطافة الـردى وبين غفلته عنك ، ثم لما ذكـرت فى البيت الثانى ، مرور الأبطال كلمى هزيمة ، وكان من عادة كلّ من ضاق عطنه[٤٠] وقلّت شجاعته ، إذا رأى أصحابه منهزمين كلمى أن يعبس لخوفه من الهلاك فقلت :

ووجْهُك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ

فاستحسن سيف الدولة كلامه وأمر له بخمسمائة دينار .

ومن جملـة غزوات سيف الـدولة غزاة سنـة ست وعشريـن خرج فى ذى القعـدة منها ، حتى صار إلـى حصن دارم ووجّه الحسن بـن على القواس فى سـريّة إلى حصن التـلّ وسار سيف الدولة إلـى حسن زياد[٤١] ، فشارف فتحـه وأقام عليه تسعة أيـام ووافاه الدمستـق فى مائتى ألف فانكفـأ راجعًا يطلب شمشاط وخيول الروم تسايره فنزل ضيعـة تعرف بالمقدمية ، وهمَّ بمناجزة الروم ، ثم تطيَّر باسمها فسار ، فلمـا كان يوم النحر وصل إلى موضع بين حصنى سلام وزياد فتفاءل بأسمائها .

ووقف وأقبلت عساكر الروم ، وانقطع منها موكب قد أجازوه فى نحو عشرين ألف فارس ووقع القتال وحمـل سيف الدولة فى غلمانـه وغلامه يمال ، وعبد الأعلى بـن مسلم فهزم الله الروم ، وأسر سبعيـن بطريقًا ، ولم يـزل القتال والأسر فيهم إلـى الليل ، وأخذ سريـر الدمستق وكرسيه .

---

(٣٩) القزّاز : ناسج القزّ وبائعه ، والقزّ هو الحرير من الثياب - البزّاز : بائع البزّ وهو ضرب من الثياب .
(٤٠) ضاق عطنه بمعنى قلت حيلته ولم يصبر عند الشدة ، والعطن هو مبرك الإبل ومربض الغنم عند الماء .
(٤١) حصن زياد بأرض أرمينية بين آمد وملطية .

وفى سنة ثمان وعشرين ، خرج سيف الدولة من نصيبين غازيا فنزل منازل دربند مدينة تاليقا (٤٢) وكان الروم بنواحذاءها مدينة سموها : هفجيج فلما علم الروم بمسيرة أحرقوا المدينة التى بنوها وهربوا ففى ذلك يقول النامى :

ونادى الهُدى مُستصرخًا فأجبتَه   بقاليقلا إذ أتت بالخيل سُهَّما
ولم تبد هفجيج أيدى بناتها   أبدتهمُ تحت السنابك رُغّمَا
لئن حسنت عذراء والبحر خدرها   لقد وجدتْ فيه ثَكُولا وأيّما

ولما هدم الروم هذه المدينة وهربوا ، ورجع سيف الدولة فأقام بآرزن حتى انحسر الثلج وأمكن الغزو ، ثم خرج إلى خلاط (٤٣)، ودخل بلد الروم بعد أن جاءه ملك أرمينية وحرذان ، وما وطىء بساط ملك قطّ ، فأحسن إليه وخلع عليه وتسلّم منه حصونا ، كانت ضررًا على المسلمين ، وردّه إلى بلدة سالمًا بعد أن استحلفه على الطاعة وحماية السبل ، ووردت عليه كتب ملوك أرمينية وحرزان بالطاعة والانقياد ، ثم سار إلى بلد ، وأناخ على مدينة موش (٤٤) فخرّبها وهدم بيعة جليلة القدر عند النصرانية ، ودخل إلى بلاد الروم فهدم لهم حصونا كثيرة ، وفتح قلاعا منيعة ووطىء مواطىء لم يطأها أحد من المسلمين قبله ، وورد إليه كتاب ملك الروم بما أحفظه فأجابه عنه جوابا شديدًا وأنقذه إليه ، - فقال الملك لرسول سيف الدولة : يكاتبنى بهذه المكاتبة كأنه نزل على قلونية (٤٥) استعظاما لذلك فاتصل قوله بسيف الدولة ، فعزم على قصد قلونية أو يفتحها الله على يديه فكأنه رأى من بعض أصحابه استعظاما للأمر ، فقال : « لست أقلع عن قصد هذه المدينة فإما الظفر و إما الشهادة » .

فسار حتى نزل عليها ، وأحرق رساتيقها (٤٦) وسلب ضياعها ، وكتب إلى الدمستق ، وهو الملك كتابا من قلونية ، فاستعظم الروم هذا الفعل وخافوه خوفًا عظيما ، لأنه بلد ماوطئه

---

(٤٢) دربند هى باب الأبواب ، وتاليقا أو تاليقلا ، بأرمينية العظمى من نواحى خلاط .
(٤٣) هى قصبة أرمينية الوسطى ما تزال تحمل هذا الاسم فى تركية .
(٤٤) موش : بلدة من ناحية خلاط بأرمينية .
(٤٥) قلونية : لبد بالروم .
(٤٦) الرساتيق : جمع الرستاق وهو كلّ موضع فيه مزارع وقرى .

أحد من المسلمين ، ثم رجع سيف الدولة منها فسايره الدمستق ، فأوقع به سيف الدولة وقتل من الروم مقتله لا يحصيها إلا الله تعالى .

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة سار البريديّون من واسط إلى بغداد وبها المتّقى لله وابن رائق ، فكتب المتقى كتابا وأنفذ رسولا إلى ناصر الدولة يعرفه ما أظلّه من البريديين ويسأله الانحدار لنصرته ، فكتب ناصر الدولة إلى سيف الدولة وهو بنصيبين يحثّه على المسير فإلى أن- وافى بغددا وافى ابن البريدى وقد نشبت الحرب بينه وبين ابن رائق، وانهزم ابن رائق ، وتحصّن فى دار الخليفة ، ثم أخرج منها ومعه الخليفة وابنه على أقبح صورة على دابتين بغير غلام ، وخرج عامّة الكتاب والقوّاد على أقبح من هذه الصورة ، وملك البريدىّ بغداد فتحكّم فيها بما أراد من القتل والسلب واستخراج الأموال والتشفّى من الأعداء ، واحتوى على دار الخلافة وجميع ما فيها وسار الخليفة وجماعة من أرباب الدولة إلى تكريت [٤٧] عراة بأسوأ حال وأكثرهم رجّاله ، فلما صار سيف الدولة ببعض الطريق ، واتصل به ما حل بالسلطان أغذّ السير ، خرج ابن رائق إليه فتلقاه وسار معه حتى وصل إلى الخليفة ، فشكا إليه ما ناله واستخبره عن ناصر الدولة فعرفه أنه بالأثر ، ولما خرج سيف الدولة من عند الخليفة حمل إليه من أصناف الأموال والثياب والدوابّ والطيب ما يجلّ خطره ويعظم أمره ، وكذلك إلى سائر القواد والجند والكتاب حتى استقلّوا وحسنت أحوالهم ، وحمل إليهم من الدقيق والشعير والتبن وجميع آلات الدواب والسلاح ما كفاهم وفضل عنهم ، واجتمعت الألسن على شكره .

وأمر الخليفة له ولناصر الدولة مع التكنية والتلقيب أن تكتب أسماؤها على الدنانير والدراهم ، وهذه فضيلة لم يسبقها أحد إليها ، ثم سارا مع الخليفة متوجّهين إلى بغداد ، فلما سمع البريدىّ ذلك انحدر عن بغداد .

ثم كانت له مع سيف الدولة وقعة هزمه سيف الدولة فيها ، واستبشر الناس بما وهب الله تعالى لهم على يديه من الراحة من فتنة البريدى ، وأمنوا على أنفسهم وحرمهم وأموالهم وأكثروا الدعاء له فى المساجد والطرقات .

---

(٤٧) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل .

ابن جُبَير

(٥٤٠ - ٦١٤ هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧ م)

محمد بن أحمد بن جبير ، يرجع أصله إلى كنانة من بطون قريش . دخل جده الأعلى عبد السلام المغرب والأندلس فى جيش كلثوم بن عياض القسيرى ، فى عهد هشام ابن عبد الملك . وولد محمد فى بلنسية أو شاطبة فى ١٠ ربيع الأول سنة ٥٤٠ (١/ ٩/ ١١٤٥) ، لأب من كتاب شاطبة ورؤسائها .

وأخذ العلم من أبيه ثم من معلمى بلدته ، ثم من كبار علماء البلدان التى زارها فى رحلاته . واتخذ الكتابة حرفة له ، واتصل بالموحدين واشتغل بالتدريس أيضا بعد رحلته الثانية . ومات فى الإسكندرية ، فى أثناء رحلته الثالثة ، فى ٢٧ (أو ٢٩) من شعبان سنة ٦١٤ (٣٠ نوفمبر أو ٢ ديسمبر ١٢١٧) أو السنة التى بعدها . ويظن بعض الناس أنه هو سيدى جابر نفسه ، بعد أن حرف اسمه .

وأشاد المؤرخون بدين محمد وأخلاقه ، وتكشف رحلته أنهم كانوا صادقين . كما أشادوا بأدبه . والأمر الذى يؤسف له أن شيئا من رسائله التى كتبها للأمراء الذين اتصل بهم لم يصل إلينا . ولكن وصلت أقوال تثنى عليه . فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب أنه جرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته ، وقال أيضا : « نثره بديع ، وكلامه المرسل سهل حسن » ، وقال : « له ترسل بديع وحكم مستطابة » ، وروى بعض هذه الحكم .

كذلك كان ابن جبير شاعرا غزير الإنتاج . فقد عزا إليه القدماء ديوانين خاصين إلى جوار شعره العام . أما الديوان الخاص الأول فقد جمع فيه ما قاله فى ذم أهل عصره وسماه « نظم الجمان فى التشكّى من إخوان الزمان » . وجمع فى الديوان الثانى ما نظمه من شعر فى رثاء زوجته أم المجد عاتكة بنت الوزير أبى جعفر الوقشى ، وسماه « نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح » . وأما شعره الآخر فقد مدح فيه الموحدين وصلاح الدين الأيوبى ثم نظم فى الإخوانيات وغيرها من الموضوعات التقليدية .

ومهما يكن من شىء ، فإن شهرة ابن جبير تقوم أصلا على رحلته ، التى بدأها فى ٨ شوّال ٥٧٨ (٣/ ٢/ ١١٨٣) وأنهاها فى ٢٢ محرم ٥٨١ (٢٥/ ٤/ ١١٨٥) وزار فيها

مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية فى عصر الحروب الصليبية . وذكر القدماء أن سبب رحلته التكفير عن شربه الخمر الذى أرغمه عليه أميره . ولكن د . حسين نصار كشف عما جعله يشك فى هذا الخبر ، ويرى أن الرحلة كانت بغية الحج فقط .

وكان الرجل يدون مشاهداته على صورة مذكرات لاكتاب متصل مطرد ، ثم نسق هذه المذكرات أو بعض تلاميذه . فخلّف هذا آثارا واضحة فيها : من عبارة قريبة إلى العامية ، وضمائر مضطربة . وإلحاق لبعض الأخبار فى غير مواضعها التى خصصت لها . ومع ذلك افتتح الحديث عن المدن المهمة التى مر بها بفقرات مجودة ، غلب فيها التنغيم أعجب بها معاصروه ومن تلاهم ، فاقتبسوها فى كتبهم .

* * *

قال ابن جبير فى حكمه :

إنْ شَرُفَ الإنسانُ . فبشَرَفٍ وإحسان ؛ وإنْ فاقَ ، فبفَضْلٍ ورِفاق . ينبغى أن يَحْفظُ الانسانُ لسانَه كما يحفظ الجَفْنِ إنْسانه . فرُبَّ كلمةٍ تُقال ، تُحْدِثُ عَثْرةً لاتُقال . كم كَسَت فَلَتاتُ الألسنةِ الحِداد ، من ورائها ملابسَ حِداد . نحن فى زمان لايَحْصُل فيه نَفاق ، إلّا من عامل بالنِّفاق [١].

* * *

وقال فى رحلته عن بغداد :

هذه المدينةُ العتيقةُ ، وإنْ لم تَزَلْ حضرةَ الخلافةِ العباسية ، ومَثابةَ الدعوةِ الإماميّة القرشيّة الهاشمية ، قد ذهب أكثر رُسْمها ، ولم يبقَ منها إلّا شهيرُ اسِمها . فهى - بالإضافة لما كانت عليه ، قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات أعيُن النوائبِ إليها - كالطَّلل الدارس والأثَر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص . فلا حُسْن فيها يَسْتوقف البصر ، ويَسْتدعى من المستوفِز الغُفْلة والنظر [٢] ، إلّا دِجْلَتها ، التى هى بين الشرقية والغربية منها ، كالمرآة

(١) عثرة لاتقال أى زلّة لاتُتجاوز ولايُصفح عنها - الألسنة الحداد أى الحادّة المشحوذة ، وملابس الحداد هى ثياب المأتم - النفاق ، بفتح النون : الرواج ، وبكسرها : إظهار الإنسان خلاف ما يبطن .
(٢) المستوفز : الماضى المسرع - الغُفْلة : الوقوف .

المجلُوّة بين صفحتين ، أو العِقد المنتظم بين لَبّتين . فهى تردُها ولا تَظْمأ ، وتتطلّع منها فى مرآةٍ صَقِيلةٍ لا تصْدأ . والحسنُ الحَريمى بين هوائها ومائها ينشأ . هو من ذلك على شُهْرة فى البلاد معروفة موصوفة ، ففِتَن الهوى - إلّا أنْ يَعْصِمَ الله - فيها مَخُوفة .

* * *

وقال يصف عاصفة بحريّة :

فى ليلة الأَرْبعاء .. عَصَفَتْ علينا ريحٌ مالَ لها البَحْر ، وجاء معها مَطَرٌ تُرسله الرياحُ بقوة ، كأنه شَآبِيب (٣) سِهام . فعظُم الخَطْب ، واشتدّ الكَرْب ، وجاءنا الموجُ من كلّ مكان ، أَمثال الجبال السائرة . فبقينا على تلك الحالِ الليلَ كلَّه ، واليأسُ قد بلغَ منا مبَلغه . وارتجيْنا مع الصباح فُرْجةً تخفّف عنا بعضَ ما نزل بنا . فجاء النهار - وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة - بما هو أشدُّ هَوْلًا وأعظم كربًا . وزاد البحرُ اهتياجًا وارْبَدت الآفاق سوارًا ، واسْتَشْرت (٤) الريح والمطر عُصُوفا ، حتى لم يثبت معها شِراع . فَلُجِىء إلى استعمال الشُّرُع الصِّغار . فأخذت الريحُ أحدها ومزَّقَتْه ، وكَسَرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها ، وهى المعروفة عندهم بالقَرِيَّة . فحينئذ تمكنّ اليأس من النفُوس ، وارتفعت أيدى المسلمين بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ . وأقمْنا على تلك الحال النهار كلّه . فلما جَنَّ (٥) الليل فترت الحال بعض فتور ..

فلمّا أسفر الصبح ، نشرَ اللهُ رحمته ، وأَقْشعت (٦) السحاب ، وطاب الهواء وأَضاءت الشمس ، وأخذ فى السُّكُون البحر . فاسْتَبْشر الناس ، وعاد الأُنس ، وذهبَ اليأس . والحمدُ لله الذى أرانا عظيمَ قدرتهِ ، ثم تَلافىَ تحميل رحمِته ولطيف رأفته ، حمدًا يكون كِفاءَ لمنَّته ونعمته .

---

(٣) الشؤبوب : الدُّفعة من المطر.
(٤) استشرى : عظم وتفاقم شرّه .
(٥) جنّ : أظلم .
(٦) أقشعت : زالت .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٧٣٧ / ٢٠٠١

يتضمن هذا الجزء إبداع القرن السادس الهجرى الذى يمتد إلى عام ٦٢٥ هـ تقريبا ، بنفس النظام المتبع فى الأجزاء السالفة .وقد اشتمل هذا الجزء على طائفة من الكتاب والشعراء من بلدان شتى ، فمن أهل الأندلس ابن خفاجة وابن الزقاق وأمية بن أبى الصلت وابن بقى وأبو جعفر ابن سعيد وابن غالب الرصافى وابن أبى الخصال وابن بسام واللبلى وأبو حامد الغرناطى وابن طفيل وابن رشد وابن جبير ، ومن أهل مصر ظافر الحداد وطلائع بن رزّيك والمهذب بن الزبير وابن الكيزانى وابن قلاقس وتاج الدين بورى وابن سناء الملك وابن النبيه وابن الصيرفى وابن ممّاتى وعلى ابن ظافر ، ومن أهل الشام ابن مُنيّر الطرابلسى وعرقلة الكلبى ومن أهل فارس العماد الأصفهانى والزمخشرى والوطواط ومن أهل العراق سبط ابن التعاويذى وابن الجوزى ، ومن أهل الجزيرة العربية عمارة اليمنى وغيرهم .

ومن البدهىّ أن هؤلاء المبدعين إنما هم قليل من كثير غصّت بهم البيئات العربية الإسلامية المختلفة فى ذلك القرن السادس بعد أن تعددت مراكز الإبداع وتنوعت الأقاليم المنتجة له.